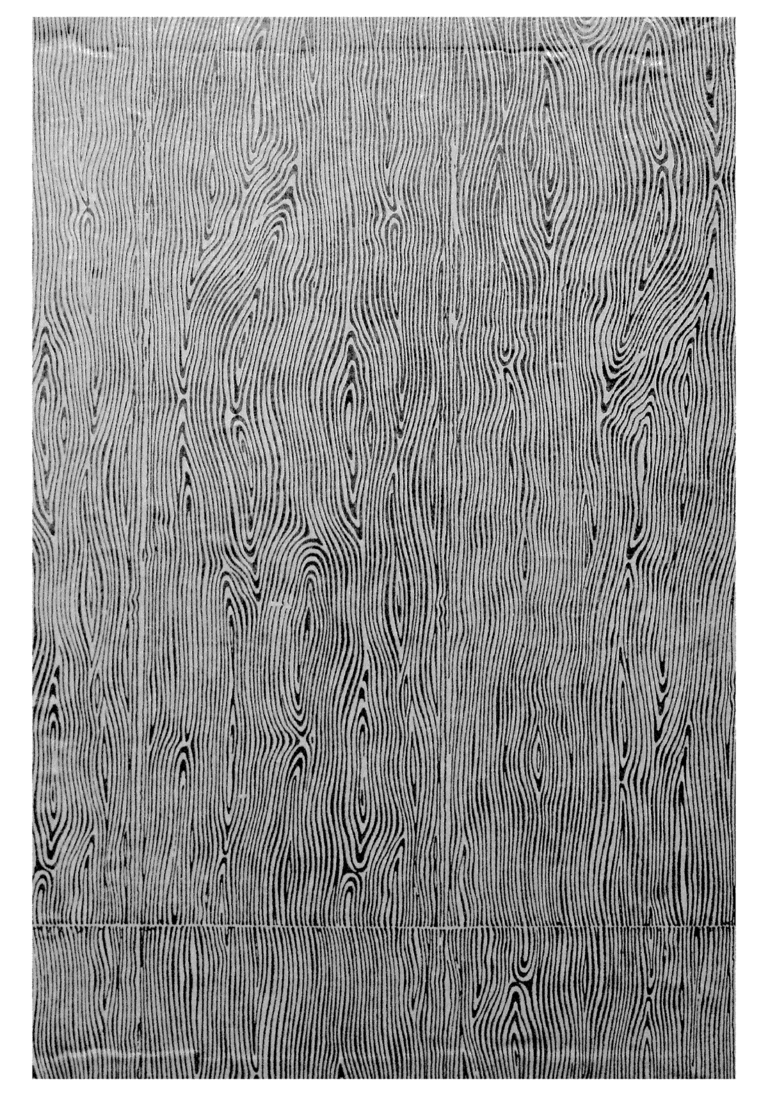
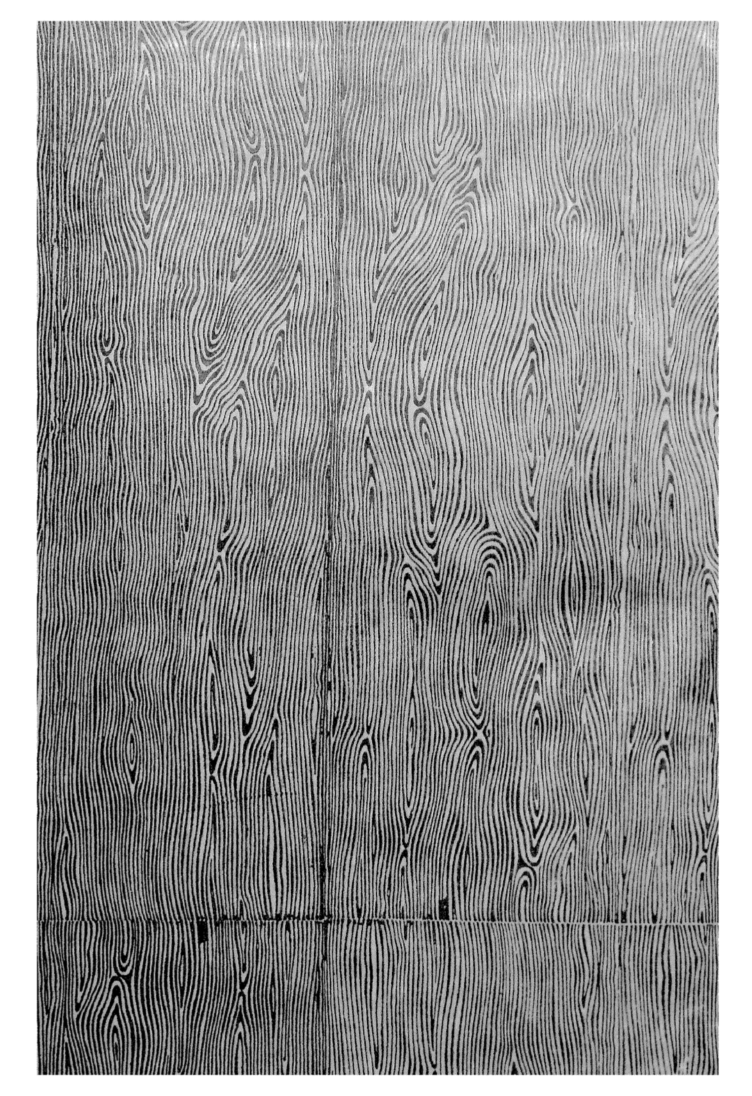








تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغني عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٦ هـ

وتماما للنفع ألحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي : رد به اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف : للعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الرابع

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ص . ب ٥٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب وباسمه يتسلى الأشقياء وان أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب ، وباطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب ، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لايرتاب ، إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب .

ونصلى على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب . وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

أما بعد ؛ فان التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين . ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاستفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجدر بالأولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمى واجترم ، فهى شنشنة نعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين ؛ فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج طينة الإنسان شائبتان ، واصطحب فيه سجيتان . وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ؛ ؛ فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ؛ فاما تصحيح النسب الى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن

حيز الإمكان ؛ فان الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين : نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : (الركن الأول) فى نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة . (الركن الثانى) : فيما عنه التوبة وهو عن الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر . (الركن الثالث) فى بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة .(الركن الرابع) : فى السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين .

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل .

الركن الأول : فى نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها

أعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأول والحال الثانى ، والفعل الثالث . والأول موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت . أما العلم ؛ فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما ، فاذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال والماضى وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضى فبتلافى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر ؛ فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين ؛ فان الإيمان عبارة عن التصديق فان الذنوب سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب فى قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك ؛ فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة الحصول ،فيطلب اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلب اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال ﷺ « الندم توبة »[1] .

---

(١) حديث « الندم توبة » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

اذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛ فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا ؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ؛ ولذلك قيل : هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال ، وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر ؛ وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ماقيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار(١) والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه ، وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام ؛ فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير ؛ فسار هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ، ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الإيمان ، وهو لشدة نور باطنه يجتزى بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار ، فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، وهـذا لا يحتاج الى نص منقول فى كل واقعة ، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهى، ثم إلى الوجوب ما معناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك فى ثبوتها لها ، وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد ، فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل : صار واجبا بالإيجاب ، حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به . أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه ؟ فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لا سعادة فى دار البقاء الا فى لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم ، وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفانى والإكباب على حب مالابد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره والمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله واتباع لمحاب الشيطان أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فانه لو لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد ، وما لم يتوجع فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول

---

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة: أخرج مسلم من حديث الأغر المزنى « يا أيها الناس توبوا إلى الله ... الحديث » ولابن ماجة من حديث جابر « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا ... الحديث » وسنده ضعيف .

إلى المحبوب ، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة ، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا... ﴾ الآية ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقال عليه السلام « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له (١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله قال أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت . فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته (٢) » وفى بعض الألفاظ « قال من شدة فرحه إذ أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبدى » ويروى عن الحسن قال : لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا : يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك ، فقال آدم عليه السلام : ياجبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى ؟ فأوحى الله إليه ياآدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة ، فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب . والأخبار والآثار فى ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى ، وهذا داخل فى وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ، ولا خلاف فى وجوبها . ومن معانيها : ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال ، وذلك لايشك فى وجوبه . وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافى ، فكيف لايكون واجبا ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع فى سخط الله .

فإن قلت : تألم القلب أمر ضرورى لايدخل تحت الاختيار ، فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه فإن ذلك محال ، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ هذا هو الحق عند ذوى الأبصار وماسوى هذا ضلال .

فإن قلت : أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الاختيار أيضا من خلق الله ، والعبد مضطر فى الاختيار الذى له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة

---

(١) حديث « التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثانى دون الأول ، وأما الشطر الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف « إن الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبى يعلى بسند ضعيف من حديث على « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » (٢) حديث « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس . زاد مسلم فى حديث أنس « ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصرا .

وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام فى المعدة وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول ، فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه ؛ فاذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى اياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمـــام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضا من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الارادة المجزمة مالم يخلق شهوة وميلا فى النفس ، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما فى الحال أو فى المآل ، ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم ، فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الارادة الجازمة ، والقدرة والارادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل ، والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما لا تخلق الارادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ؛ فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم ، ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا أن العلم يولد الارادة ، ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حى عالم ، ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، والإمكان ترتيب لا يقبل لأن تغييره محال ، فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب ، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير ، وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ، ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة ، وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة ؛ فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت ، وقالوا ياأيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ، ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . وما قتلت إذ قتلت . ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم . وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة ؛ فمن قائل إنه جبر محض . ومن قائل انه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه ، وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب ، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء ، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه .

فان قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع

صدق قاصر وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه ، فقالوا لا بدلنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه ، فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه ، فقالوا قد عرفناه ، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم ، فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ماهو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها ، وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لالين فيه وأملس لاخشونة فيه وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا بل هو مثل عمود ، وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة ، فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ما هو مثل عمود ولاهو مثل اسطوانة وإنما هومثل مثل جلد عريض غليظ ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ، ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر مااختلف الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا ، فلنرجع إلى ماكنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم والندم والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور والمتقصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه ، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التقصى عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه ، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن [1]» وما أراد به نفى الإيمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى ، وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت ، كما إذ قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك ، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا ، فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقى البشرة عن

---

(١) حديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسة الملونة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإنسان وفقدشهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لاأصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر فى الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لا مايسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أناشجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار   أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة ، وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لايثبت عليها إلا الأقلون : فالعاصى إذا كان لايخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لايخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالبا لايقع فجأة ، فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت ، وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم إذاختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار ، فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لايشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعه ثم يموت دفعه ، فكذلك المعاصى ، فإذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك ، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لايفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ؛ فتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فان المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تنصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة ، فالبدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعدذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ ولا يغرنك لفظ الإيمان ، فنقول : المراد بالآية الكافر ، إذبين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزانى لايزنى حين يزنى وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الايمان الذى هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هى حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هى أصل ، فلا بقاء للاصل دون الفرع ،

ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شىء واحد : وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثه على العمل فعدمها خير من وجودها ، فان هى لم تعمل عملها الذى تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ، ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ، كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم .

بيان أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد اليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ، ولا يتصور ذلك الا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان الى إغواء الانسان . إذ كمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين ، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، اذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتضارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، واذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس والف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ، ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج ، فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال ﴿ لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾ وان كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ، ولا معنى للتوبة الا هذا ، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان ، الى طريق الله تعالى ، وليس فى الوجود آدمى الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان نبيا كان أو غبيا ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، وقد قيل :

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها　　سجية نفس ، كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها ، فاذن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره ، فاذا بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فانه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئاً مالم يسلم بنفسه ، فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وألفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق والإنفكاك والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون اذ عجزوا عنه ، وكل هذا رجوع وتوبة ، فدل على أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم ، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا . وأما بيان وجوبها على الدوام وفى كل حال فهو

أن كل بشر فلا يخلو عن معصيته بجوارحه ، اذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد فى القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فان خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فان خلا فى بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلق فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل فلابد منه ، ولهذا قال عليه السلام « انه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة [١] » الحديث ، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره .

فان قلت : لايخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال فى الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازداد المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال الى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة فى كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، اذ ادراك الكمال غير واجب فى الشرع ، فما المراد بقولك : التوبة واجبة فى كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لايخلو فى مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك مامضى ، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة ، فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس فى وجه المرآة عند تراكمه خبثا ، كما قال تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص فى جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ، ولا يكفى فى تدارك اتباع الشهوات تركها فى المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التى انطبعت فى القلب ، كما لا يكفى فى ظهور الصور فى المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها فى المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان ، وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات ، فتنمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة ، واليه الإشارة بقوله عليه السلام « أتبع السيئة الحسنة تمحها [٢] » فاذن لايستغنى العبد فى حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ، هذا فى قلب حصل أولا صفوه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة ، فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، اذ ليس شغل الصقل فى ازالة الصدأ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة ، فهذه أشغال طويلة لاتنقطع أصلا ، وكل ذلك يرجع الى التوبة ، فأما قولك : ان هذا لايسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال ، فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل فى فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ، ثم يؤدى ذلك الى بطلان التقوى بالكلية ، فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى ، بل شغل الحياكة

---

(١) حديث « إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » أخرجه مسلم من حديث الأغر المزنى، إلا أنه قال « فى اليوم مائة مرة » وكذا عند أبى داود وللبخارى أبى هريرة « إنى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب «سبعين » لم يقل « أكثر » وتقدم فى الأذكار والدعوات (٢) حديث « أتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر بزيادة فى أوله وآخره وقال حسن صحيح ،وقد تقدم فى رياضة النفس .

والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ؛ فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثانى هو الذى لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين ، والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول إليه كما يقال : الطهارة واجبة فى صلاة التطوع أى لمن يريدها : فإنه لايتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها ، كما يقال : العين والأذن واليد والرجل شرط فى وجود الإنسان ، يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا .

فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون كلحم وعلى ضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل ، فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة ، وأصل النجاة كأصل الحياة ، وما وراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال : نعم ، وما الذى حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض ، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم ، أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجبا فى فى فتاوى العامة ؟ أفترى أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه(١) وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق(٢) لم يعلم أن ذلك واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجه أدخل أصبعه فى حلقه حتى كاد يخرج معه روحه ماعلم من الفقه هذا القدر ؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسن إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك لسر وقر فى صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور ، فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى فى كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة .

ولقد صدق أبو سليمان الدرانى حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره بمثل مامضى من منه غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل مامضى من جهله ؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفسية وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة ، وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد ، وكل ساعة من العمل بل كل نفس جوهرة نفسية لا خلف لها ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد ، وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا

(١) حديث نزعه ﷺ الثوب الذى كان عليه فى الصلاة: تقدم فى الصلاة أيضاً (٢) حديث نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق : تقدم فى الصلاة أيضاً .

مبينا ، وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا ،فان كنت لاتبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك ، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لايعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة ، فان نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ؛ فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك .

قال بعض العارفين : ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وانك لاتستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا ، وهو أول مايظهر من معانى قوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين مايشتهون ﴾ واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها ﴾ فقيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد ياملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه الى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى ، فيقول . فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول : فأخرنى ساعة فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضرب أصل ايمانه فى صدمات تلك الأحوال ، فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة ، وان سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ، ولمثل هذا يقال ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ﴾ وقوله ﴿ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة التى تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه : يابنى لاتؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمتين .

أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو .

الثانى : أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد فى الخبر «ان أكثر صياح أهل النار من التسويف[1]» فما هلك من هلك الا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ؛ فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة من عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر :

قال بعض العارفين : ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الإلهام :

أحدهما : اذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى قد أخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر الى كيف تلقانى .

والثانى : عند خروج روحه يقول : عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فألقاك على الوفاء ، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿أوفوا بعهدى أوف بعهدكم﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾.

---

(١) حديث « إن أكثر صياح أهل النار من التسويف » لم أجد له أصلا .

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لامحالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة ؛ فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون فى جواره ، وكما أن استعمال الثوب فى الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة ؛ فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب ، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول ؛ فإنمـــا عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلى الذى لامرد له ، وهو المسمى فلاحا فى قوله ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لايتصور الجمع بينهما ؛ فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه فى غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى به قلبه ، إذ بقلبه يعرف غير قلبه ، فكيف يعرف غيره وهو لايعرف قلبه ؟ فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لايزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه ؛ فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولايتوب ، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظف الثوب أصلا مالم يغير صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به ، فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية ، فهذا البيان كاف عند ذوى البصائر فى قبول التوبة ، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لايشهد له الكتاب والسنة لايوثق به ، وقد قال تعالى ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ وقال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

وقال ﷺ « لله أفرح بتوبة أحدكم ... الحديث » والفرح وراء القبول ، فهو دليل على القبول وزيادة . وقال ﷺ « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها [1] » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل . وقال ﷺ « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم [2] » وقال أيضا « إن العبد ليذنب

---

(١) حديث « إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبى موسى بلفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ... الحديث » وفى رواية للطبرانى « لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ... الحديث »

(٢) حديث « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة وإسناده حسن بلفظ « لو أخطأتم » وقال « ثم تبتم » .

الذنب فيدخل به الجنة ، فقيل كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة[١] » وقال ﷺ « كفارة الذنب الندامة[٢] » وقال ﷺ « التائب من الذنب كمن لاذنب له » .

ويروى أن حبشيا قال : يارسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة ؟ قال « نعم » فولى ثم رجع فقال : يارسول الله أكان يرانى وأنا أعملها ؟ قال « نعم » فصاح الحبشى صيحة خرجت فيها روحه[٣] .

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لاحجبت عنه التوبة مادام الروح فيه[٤] .

وقال ﷺ « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ[٥] » والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى ﴿ إنه كان للأوابين غفورا ﴾ فى الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم ، وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم .

وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب .

ويروى أن نبيا من أنبياء بنى إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى اليه : وعزتى لئن عدت لأعذبنك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن فعصمه الله تعالى .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس : ليتنى لم أوقعه فى الذنب .

وقال حبيب بن ثابت : تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشفقا منه ، قال : فيغفر له .

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان ، فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لايغلق فاعمل ولا تيأس .

---

(١) حديث « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ، ولأبى نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة « إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه ، فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له ... الحديث » وفيه صالح المرى ، وهو رجل صالح لكنه مضعف فى الحديث . ولابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عمر « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » والحديث غير محفوظ ، قاله العقيلى . (٢) حديث « كفارة الذنب الندامة » أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يحي بن عمرو بن مالك اليسكرى ضعيف . (٣) حديث : أن حبشيا قال يارسول الله إنى كنت أعمل الفواحش فهل لى من توبة قال « نعم » الحديث لم أجد له أصلا (٤) حديث « إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال : وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لاأزال أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال : وعزتى وجلالى لاأزال أغفر لهم ما استغفرونى أورده المصنف بصيغة : ويروى كذا ولم يعزه إلى النبى ﷺ ، فذكرته احتياطا (٥) حديث « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » لم أجده بهذا اللفظ ، وهو صحيح المعنى ، وهو بمعنى « أتبع السيئة الحسنة تمحها » رواه الترمذى وتقدم قريبا .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم : تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ﴿ إن ينتهوا يغفرلهم ماقد سلف ﴾ فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ، ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام .

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل ، ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين .

قال عمر رضى الله عنه : اجلسوا الى التوابين فانهم أرق أفئدة .

وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل : ومتى ؟ قال : اذا تاب على .

وقال تعـــالى : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة ، أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لامحالة .

ويروى أنه كان فى بنى اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فان رجعت اليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصاً : أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وان رجعت الينا قبلناك .

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : ان لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا ، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكم ، وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت ، واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضطجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة . وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة ، فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لامحالة .

فان قلت : أفتقول ماقالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله ؟ فأقول : لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا مايريده القائل بقوله : ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ ، وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش ، وأنه اذا منع الماء مدة وجب العطش ، وأنه اذا دام العطش وجب الموت ، وليس فى شىء من ذلك مايريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى ، بل أقول : خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لوسبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى ، ولكن سبقت به ارادته الأزلية فواجب كونه لامحالة .

فان قلت : فما من تائب الا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لايشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه ؟ فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة . فان للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه الإسهال فانه هل يسهل وذلك لشكه فى شروط حصول الإسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطحنه وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لامحالة على ماسيأتى فى شروطها ان شاء الله تعالى .

الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا ، فمعرفة الذنوب إذن واجبة ، والذنب عبارة عن كل ماهو مخالف لأمر الله تعـالى فى ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ، ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته .

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ، ولكن تنحصر مثاوات الذنوب فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثارا مختلفة . فأما مايقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول : أنا ربكم الأعلى ، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات (الثانية) هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال . (الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . (الرابعة) الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرع عنها جمل من الذنوب ، وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ؛ فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهى الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق ، فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح .

قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى مايتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب فى المعاصى وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب ، وقد جاء فى الخبر « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر وديوان لا يترك : فالديوان الذى يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى . وأما الديوان الذى لا يغفر : فالشرك

بالله تعالى . وأما الديوان الذى لا يترك : فمظالم العباد[١] » أى لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها .

قسمة ثالثة . اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد كثر اختلاف الناس فيها ، فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة ، بل كل مخالفة لله فهى كبيرة ، وهذا ضعيف ؛ إذ قال تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وقال ﷺ « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر[٢] » وفى لفظ آخر « كفارات لما بينهن من إلا الكبائر » وقد قال ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص « الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس[٣] » واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر من أربع الى سبع الى تسع الى إحدى عشر فما فوق ذلك ، فقال ابن مسعود : هن أربع . وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو : هن تسع . وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر : الكبائر سبع ، يقول : هن إلى سبعين أقرب منها الى سبع . وقال مرة : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة . وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف : كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة ، وقيل : إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة : وقال ابن مسعود لما سئل عنها : اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ فكل مانهى الله عنه فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار[٤] ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم : أربعة فى القلب

---

(١) حديث « الدواوين ثلاثة :ديوان يغفر ...الحديث »أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة ،وفيه صدقة ابن موسى الدقيق ضعفه ابن معين وغيره ،وله شاهد من حديث سلمان ،رواه الطبرانى. (٢) حديث« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر »رواه مسلم من حديث أبى هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو « الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » رواه البخارى .

(٤) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال : الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار ، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمرو وغيرهم :الشرك بالله ،والإصرار على معصيته ،والقنوط من رحمته ،والأمن من مكره ،وشهادة الزور ،وقذف المحصن واليمين الغموس ،والسحر ،وشرب الخمر والمسكر ،وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا ،والزنا ، واللواط ، والقتل ،والسرقة ،والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . انتهى . وسأذكر ماورد منها مرفوعا ،وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا يارسول الله وماهى؟ قال« الشرك بالله ،والسحر ،وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات »ولهما من حديث أبى بكرة «ألا انبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ،وعقوق الوالدين ،وشهادة الزور ـ أوقال قول الزور ـ » ولهما من حديث أنس : سئل عن الكبائر قال « الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين » وقال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال:قول الزور ، أو قال شهادة الزور » ولهما من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم: قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك »قلت ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك »قلت ثم أى ؟قال« أن تزانى حليلة جارك» . للطبرانى من حديث سلمة بن قيس : «إنما هى أربع : لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولاتسرقوا » وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت :« بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ،ولاتزنوا، ولاتسرقوا» وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر »وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو « أعظم الكبائر شرب الخمر»وكلاهما ضعيف .وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن : أن رجلا قال يارسول الله ما الكبائر ؟قال «الشرك بالله ، والإياس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله» وله من حديث بريدة «أكبر الكبائر الإشراك بالله،وعقوق الوالدين،منع فضل الماء ومنع الفحل»وفيه صالح ابن حبان وضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما ، وله من حديث أبى هريرة «الكبائر أولهن الاشراك بالله»وفيه« والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته » =

وهى : الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى : شهادة الزور ، وقذف المحصن ، واليمين الغموس ــ وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك . وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار . والسحر : وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث فى البطن : وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج وهما الزنا واللواط . واثنتان فى اليدين وهما : القتل والسرقة ، وواحدة فى الرجلين : وهى الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد وهى عقوق الوالدين ، قال : وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما ، وأن يسباه فيضربهما ، ويجوعان فلا يطعمهما . هذا ما قاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به الشفاء ؛ إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه ؛ فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له ، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفى الخبر «من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم[1]» وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر[2] . وقالت طائفة : كل عمد

ــ وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حثمه فى الكبائر « والتعرب بعد الهجرة » وفيه ابن لهيعه ، وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى «الكبائر سبع» وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة » فيه أبو بلال الأشعرى ضعفه الدارقطنى ، وللحاكم من حديث عبيد عمير عن أبيه «الكبائر تسع» فذكر منها « واستحلال البيت الحرام » وللطبرانى من حديث واثلة « إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل » وله أيضا من حديثه «إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده» ولمسلم من حديث جابر «بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ــ ترك الصلاة » ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو «من الكبائر شتم الرجل والديه» ولأبى داود من حديث سعيد بن زيد «من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق » وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أنه ﷺ مر على قبرين فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وإنه لكبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» الحديث ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» الحديث . ولأبى داود والترمذى من حديث أنس «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها» سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى . وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس «لا صغيرة مع إصرار» فيه أبو شيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله . وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال : الكبائر الإشراك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله ، وقذف المحصنات ، وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف ، وأكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين الغموس الفاجرة ، والغلول ، منع الزكاة ، وشهادة الزور ، كتمان الشهادة ، وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وروى ابن ابى الدنيا فى التوبة عن ابن عباض : كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة ، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله : لا صغيرة مع الإصرار ، وإسناده جيد ؛ فقد اجتمع من المرفوعات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم ، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد فى المرفوع وما ورد فى الموقوف . وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباض أنه قيل له : الكبائر سبع ، فقال : هى إلى السبعين أقرب . وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال : كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم .

(١) حديث « من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم » عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد ، والذى عندهما من حديثه «من أربى الربا استطالة الرجل فى عرض المسلم بغير حق» كما تقدم (٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابه : انكم تعملون أعمالا ــ

كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة ، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا : لا يصح، مالم يفهم معنى الكبيرة ، والمراد بها كقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ ولا مطمع فى تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة ؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع ، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مافوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا ، وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة إلى ضربه ، صغيرة بالاضافة إلى قتله . نعم للإنسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونعنى بوصفه بالكبيرة : أن العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه فى الدنيا واجبة عظيم ، وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه فيقول : تخصيصه بالذكر فى القرآن على عظمه ثم يكون عظما وكبيرة لا محالة بالاضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها ؛ فهذه الإطلاقات لاحرج فيها ، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ، ولا يبعد تنزيلها عن شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وقول رسول الله ﷺ « الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فان هذا إثبات حكم الكبائر . والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى مايشك فيه ، فلا يدرى حكمه ، فالطمع فى معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول : إنى أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها فان لم يرد هذا — بل ورد فى بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر(١) » وفى بعضها « سبع من الكبائر(٢) » ثم ورد « أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث : علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع ؟ وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها ، نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ، ونعرف أيضا أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته . وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة لقائه ، وأنه لا وصول لهم الى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله ، واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون ﴾ أى ليكونوا عبيدا لى ، ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه ، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء ، ولكن لا يتم هذا الا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله ﷺ « الدنيا مزرعة الآخرة(٣) » فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لأنه وسيلة اليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال ، فكل مايسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه مايسد باب المعايش التى بها حياة الناس ؛ فهذه ثلاثة مراتب ، فحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال

= هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر . أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال « من الموبقات » بدل الكبائر . ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد.

(١) « حديث من الكبائر » أخرجه الشيخان من حديث أبى بكرة « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر — ثلاثا — الحديث » وقد تقدم . (٢) حديث « سبع من الكبائر » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد « الكبائر سبع » وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبدالله بن عمر « من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر .. الحديث » ثم عدهن سبعا . وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات » . (٣) حديث « الدنيا مزرعة الآخرة » لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا . وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم « نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته » الحديث ، وإسناده ضعيف .

على الأشخاص ضرورى فى الشرائع كلها ، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل ؛ فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال ؛ فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب :

(الأولى) ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر ، فلا كبيرة فوق الكفر ، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل ، والوسيلة المقربة له اليه هو العلم والمعرفة ، وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله ، ويتلو الجهل الذى يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته ، فإن هذا أيضاً عين الجهل ؛ فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ، ويتلو هذه الرتبة : البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض ، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر ، وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن ،وإلى ما يعلم أنه لا يدخل،وإلى ما يشك فيه ، وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع .

(المرتبة الثانية) النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله ، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر ، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل اليها بمعرفة الله تعالى ، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى الى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ، ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ؛ لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش الا بها ، بل كيف يتم النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح ، وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ؛ لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى الى التقاتل،وينبغى أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته .

(المرتبة الثالثة) الأموال فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرها ، بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس ، الا أن الأموال اذا أخذت أمكن استردادها وان أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها ، نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر ، وذلك بأربع طرق :

أحدها : الخفية ، وهى السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك.

الثانى : أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولى والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تفويتها بشهادة الزور .

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا، وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس،وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها . وأما أكل الربا فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع

فى مثله ، وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع ، وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة ، والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر ، وذلك واقع فى مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين ، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا ؛ لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة ، بل لا خير فى النفس دون العقل ، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر ، فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر ، لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس ، والقطرة وحدها فى محل الشك ، وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فللتوقف فيه مجال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة ، ولتناولها مراتب ، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره ، وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن ، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته ، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته ، فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات ، فإن هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع ، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر .

وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره .

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغى أن يكون من حيث القياس فى محل التوقف ، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شىء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم ، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر — إذ لم ينقل ذلك فى السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه — فالتوقف فى هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسمية كبيرة فيلحق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلا أنا نعنى بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع ، وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغى أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه المتوقف فيه بعضه مظنون للنفى والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال .

فإن قلت : فهذه إقامة برهان على استحالة معرفة حدها ، فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده ؟

فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم فى الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هى دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها فى الدنيا من حيث إنها كبيرة ، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما ، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس ، وكذلك اجتناب الكبائر

يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس ، فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فان كان عنينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا . وكل من يشتهى الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته كسماع الملاهى والأوتار ، نعم من يشتهى الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها فى السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع ، فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفات ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث : اشراك بالله ، وترك السنة ، ونكث الصفقة[1] » قيل ما ترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة . ونكث الصفقة : أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله ، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما .

فان قلت : الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ! .

فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر ، فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب فى أوانى الذهب والفضة لا تقبل شهادته ، ولم يذهب أحد الى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه : اذا شرب الحنفى النبيذ حددته ولم أرض شهادته ، فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر ، بل كل الذنوب تقدح فى العدالة الا مالو يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات : كالغيبة ، والتجسس ، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، واكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها الا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ، ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات . وليس لبس الحرير وسماع الملاهى واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل ، فالى مثل المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها لا الى الكبيرة والصغيرة ، ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة ، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم ، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة . كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

---

(١) حديث « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة

على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت ، وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت ، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك ، يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة ، فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت ، ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ، ولذلك قال ﷺ « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا[1] » وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم إلا الأمثال المحوجة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال ، وأعنى بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير ، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة .

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال : إنك مؤذن تؤذن فى رمضان قبل طلوع الفجر، قال : صدقت .وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت فى صغرك ؛ لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير، فقال : إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال ، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال ، وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر الى معناه وجده صادقا ، وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا ؛ فالمؤذن إن نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فانه لم يختم قط ، وإن نظر الى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذى يراد الختم له ، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شىء إلا بمثل، فاذا ماتوا انتبهوا ، وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن[2] » وهو من المثال الذى لا يعقله إلا العالمون؛ فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيراً فيثبت لله تعالى يداً وأصبعا ـ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك فى قوله ﷺ « إن الله خلق آدم على صورته[3] » فانه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ـ تعالى الله عن قوله علوا كبيرا .

ومن هنا زل من زل فى صفات إلهية حتى فى الكلام وجعلوه صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول ،وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده ، كقوله ﷺ « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح[4] » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول : ياسبحان الله ،الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل

---

(١) حديث « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » لم أجده مرفوعا ، وإنما يعزى إلى على بن أبى طالب .

(٢) حديث « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» تقدم (٣) حديث«إن الله خلق آدم على صورته » تقدم.

(٤) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد .

هذا إلا محال ، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الخلق عن معرفة أسراره فقال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جىء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد وذبح فقال المعبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فاذن المعبر صادق فى تصديقه وهو صادق فى رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا وهو الذى يطلع الارواح عند النوم على مافى اللوح المحفوظ عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ، لأن النائم يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا .

فالرسل أيضا انما يكلمون الناس فى الدنيا وهى بالإضافة الى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى الى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل ، فقوله « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل الى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعانى فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله ﴿ كن فيكون ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر ﷺ بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة التقليب . وقد أشرنا الى حكمة ذلك فى « كتاب قواعد العقائد » من ربع العبادات . فلنرجع الآن الى الغرض ؛ فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب المثال . فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته . فنقول : الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الاخرة فى هذا المعنى أصلا ألبتة ؛ فان مدبر الملك والملكوت واحد لاشريك له . وسننه الصادرة عن ارادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، الا أنا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الأجناس . فنقول : الناس ينقسمون فى الاخرة بالضرورة الى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين وفائزين .

ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون ، فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق . فلا يقتل الا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له فى أصل الدولة . ولا يعذب الا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع الا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة . ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة . واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم فى المعاندة وتعذيب المعذبين فى الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم . فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تحصى ولا تنحصر .

فكذلك فافهم أن الناس فى الاخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك . ومن معذب مدة . ومن ناج يحل فى دار السلامة ومن فائز . والفائزون ينقسمون الى من يحلون فى جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة . وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر[١] » وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى . فلنذكر كيفيه توزعها عليها .

---

(١) حديث « إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة.

(الرتبة الأولى) وهى رتبة الهالكين ونعنى بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معانى المثال ، وهذه الدرجة لاتكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه ، فإن السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لاينال أصلا إلا بالمعرفة التى يعبر عنها والتصديق ، والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لامحالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين مايشتهيه لامحالة فهو لامحالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق ، ولذلك قال العارفون . ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطالبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبدالله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره ، بل العارف يعبده لذاته فلايطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العين والفواكه فقد لايشتهيها ، وأما النار فقد لايتقيها : إذنار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار الفراق نارالله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، ونار جهنم لاشغل لها إلامع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل :

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولاينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا ، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لايحس به لفرط غلبة مافى قلبه ، وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها فى الحال لأن الغضب نار فى القلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار [1] » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلامن حيث إنه يفرق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام ، فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لايدرك من لاقلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبى لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال : العدو فى الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا . ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا ، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لايناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب ، وكما لايكون الذوق إلا فى اللسان والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب ، فمن لاقلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان ، وليس لكل إنسان قلب ، ولو كان لما صح قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، واللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء

---

(١) حديث « الغضب قطعة من النار » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم .

عالمه وبملكته ، ولله الخلق والأمر جميعاً ، ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه « قل الروح من أمر ربى » هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق ، وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مبادىء روائح المعنى المنطوى تحت قوله ﷺ « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين فى طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر ، فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهى حكمته يختص بها من يشاء « ومن الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب ، فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليست إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ لاتدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها .

(الرتبة الثانية) رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه ، فإن رأس الإيمان هو التوحيد : وهو أن لا يعبد الا الله ، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك لا اله الا الله معنى قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم ، فلذلك يقتضى لامحالة نقصانا فى درجات القرب ، ومع كل نقصان . ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرآن ، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسبب أمرين ، أحدهما : قوة الإيمان وضعفه ، والثانى : كثرة اتباع الهوى وقلته ، وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا فى النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان (١) قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل . واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الاختلاف بالشدة لانهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الاعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط ، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة وهو اختلاف الانواع ، اذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد

---

(١) حديث « من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان » أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الاخرة دل عليها قواطع الشرع ، وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها . أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرته فبكثرتها ، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات ، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ وبقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لاظلم فيه ، وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ « سبقت رحمتى غضبى[1] » وقال تعالى ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ فإذن هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة . فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار ، فنقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض ـ أعنى الأركان الخمسة ـ ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط ، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته ، إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفراً للصغائر ، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب ، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور الرجحان فى الميزان وبعد الفراغ من الحساب فى عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله فى جنات عدن أو الفردوس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدى كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه ، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس فى الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله .

فهذا الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى ، وهم أيضاً على أصناف : فنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى .

ودرجات العارفين فى المعرفة بالله لاتنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس لهساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى فى الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله ، فالسالكون سبيل الله لانهاية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين ، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها ـ أعنى الأركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج .

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام ، فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لاذنب له ، والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ أصلا ، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف البصير أبعد أن يخاف

---

(١) حديث « سبقت رحمتى غضبى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب ، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات ، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين ، ففى الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف[١] » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار ، فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معانى الإجسام وأرواحها دون أشخاصها وهيا كلها ، فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته ، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثاله ، كان صادقا ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبى بل القروى والبدوى ويقول : ماهـذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب فى قوله : إنى أعطيته عشرة أمثاله ، والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد للقاصر صدق رسول الله ﷺ فى هذه الموازنة ، إذ يقول ﷺ « الجنة فى السموات[٢] » كما ورد فى الأخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة.

وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة ، ولذلك قال ﷺ «ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال ، وغنى قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل[٣] » .

والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى وهو المعنى بقوله ﷺ «البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل[٤] » فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل ، فان بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر[٥] » فإذن لا تخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين ،

---

(١) حديث «إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف» متفق عليه من حديث ابن مسعود .
(٢) حديث كون الجنة فى السموات : أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن» (٣) حديث «ارحموا ثلاثة : عالما بين الجهال ... الحديث» أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس ، وعيسى ضعيف ، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال « عالم تلاعب به الصبيان » وفيه أبو البحترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى فى الكبرى ، وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة «أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ... الحديث» . (٥) حديث « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه البخارى من حديث ابن مسعود.

ولا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الاولياء عن ضروب الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين .

فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام « إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حمارا برجلين ، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى عرض على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله . إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس ، وكل من نسى الله أنساه الله ـ لامحالة ـ نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الترقى الى الأفق الأعلى وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة ، فان البهيمة تتخلص بالموت .

وأما هذا فعنده أمانة سترجع لامحالة الى مودعها ، فإليه مرجع الامانة ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفانى وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود الى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين الى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾ فبين أنهم عند ربهم الا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم الى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق الى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال والنزول الى منازل الجهال ، فهذا حكم انقسام انقسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ، ولا يخرج من النار الا موحد .

ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا اله الا الله ، فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا فى عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدى الغانمين عن ماله ، ومدة الرقبة والمال مدة الحياة . فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لاينفع القول باللسان ، وانما ينفع الصدق فى التوحيد وكمال التوحيد أن لايرى مسبب الاسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال . ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من ايمان فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من ايمان[1] » وآخر من يخرج فى قلبه مثقال ذرة من ايمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة . وبالموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الاموال وبين النقود ، وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لايترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها . فى الاثر «ان العبد

---

(١) حديث أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان » الحديث تقدم .

ليوقف بين يدى الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير، فيقول الله تعالى: ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار» وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ ينقل اليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل اليه يستحله فقال : لا أفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى أريد أن أزين بها صحيفتى .

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة ، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين ، فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال ، ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم ، إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة لهما أسباب خفية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها، ويعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام ، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التى لا يطلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فان الاعتماد على التقوى والتقوى فى القلب ، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره .

ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا . ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ولا قوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى . وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم . تحقيقا لقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر . اذ البصر يمكن الغلط فيه. اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا. ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها . وانما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب. والا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب . واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾.

(الرتبة الثالثة) : رتبة الناجين. وأعنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد . وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم . فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار . بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف . وحلول طائفة من الخلق[1] فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف : أخرجه البزار من حديث أبى سعيد الخدرى: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال «هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة ، وهم على شور بين الجنة والنار... الحديث» وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبرانى من رواية =

أنوار الاعتبار ، فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم ، فهذا مظنون وليس بمستيقن ، والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ، ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء ، والأخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة . حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة ، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال « وما يدريك »(١) فاذن الإشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام .

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين ، وهم المقربون السابقون ، فان المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمكان فى الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلق هؤلاء يجاوز حد البيان ، والقدر ذكره ما فصله القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان ، والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى أجمله قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقوله عز وجل « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فانهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهى غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ، فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه حتى أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فانه فى حال الاستغراق غافل نفسه لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا لنفسه ولا غير نفسه ، وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصور ان

= أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا ، وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ، ويحيى بن شبل لا يعرف . وللحاكم عن حذيفة قال : « أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ... الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين . وروى الثعلبى عن ابن عباس قال : الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى جعفر ... الحديث ، هذا كذب موضع وفيه جماعة من الكذابين .

(١) حديث عائشة أنها قالت لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال « ما يدريك » ورواه مسلم ، قال المصنف : والأخبار فى حق الصبيان متعارضة . قلت : روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى ﷺ ، وفيه « وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة » فقيل : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال « وأولاد المشركين » وللطبرانى من حديثه : سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال « هم خدمة أهل الجنة » وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة ، وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب ، وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع : كنا فى غزاة لنا الحديث فى قتلى الذرية ، وفيه « ألا إن خياركم أبناء المشركين » ثم قال « لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ... الحديث » وإسناده صحيح ، وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « كل مولود يولد على الفطرة ... الحديث » وفى روايه أحمد « ليس مولود يولد إلا على هذه الملة » ولأبى داود فى آخر الحديث : فقالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وفى الصحيحين من حديث ابن عباس : سئل النبى ﷺ عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وللطبرانى من حديث ثابت بن الحرث الأنصارى : كانت اليهود إذا هلك لهم صبى صغير قالوا : هو صديق ، فقال النبى ﷺ « كذبت يهود ، ما من نسمه يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ... الحديث » وفيه عبد الله بن لهيعه ، ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائد والموءودة فى النار » وله من حديث عائشه : قلت يا رسول الله ذرارى المؤمنين ؟ فقال « مع آبائهم » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : يا رسول الله اين أطفالى منك ؛ قال « فى الجنة » قلت : بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قلت : فأين أطفالى قبلك ؟ قال « فى النار » قلت : بلا عمل ؟ قال « لقد علم الله ما كانوا عاملين » وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة . وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين « هم من آبائهم » وفى رواية « هم منهم » .

تخطر فى هذا العالم على قلب بشر ، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره ، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته؛ فالدنيا حجاب على التحقيق ، وبرفعه ينكشف الغطاء . فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ﴾ فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات ، والله الموفق بلطفه .

بيان ماتعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ؛ فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأعمال أدومها وان قل[1] » والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تأثيره فى اظلام القلب ، الا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لايؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة . وقد جاء فى الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره[2] » وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ، وانما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه : لاتنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ، ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها ؛ وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لاصغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : وانكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ؛ اذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة الى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم مالا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه ، حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه

---

(١) حديث « خير الأعمال أدومها وإن قل» متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحب » وقد تقدم .

(٢) حديث « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ... الحديث » أخرجه البخارى من روايه الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله ابن مسعود حديثين : أحدهما عن النبى ﷺ ، والآخر عن نفسه، فذكر هذا حديث « لله أفرح بتوبة العبد» ولم يبين المرفوع من الموقوف ، وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه ومرفوعا .

كما يقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته : أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه ، ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما ، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به ، فان انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ، وفى الخبر « كل الناس معافى إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه [1] » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النعمة .

وقال بعضهم : لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ، ولذلك قال تعالى ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه . ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة .

فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا [2] » قال تعالى « ونكتب ما قدموا وآثارهم » والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل . وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات : أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهرا ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ فهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى اخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا ، فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتسع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين

---

(١) حديث « كل الناس معافى إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « كل أمتى » وقد تقدم . (٢) حديث « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله ، وقد تقدم فى آداب الكسب

وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب فى جميع ذلك ، فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران . وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التى التوبة توبة عنها .

الركن الثالث : فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه و بين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شروط فلابد من بيانها : أما العلم فالنظر فيه نظر فى بسبب التوبة وسيأتى . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شىء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه ، لطال فى الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار . فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفى الخبر « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة [1] » ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة . وفى الإسرائيليات : أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه .

فإن قلت : فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فان قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة والضرورة ، بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه به ، فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون ، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون ، فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصراً عليها ، فهذا شرط تمام الندم وينبغى أن يدوم إلى الموت وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذا لم يكن ضرره من العسل بل بما فيه ، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار فى كل ذنب . وأما القصد الذى ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال . وله تعلق بالماضى ، وهو تدارك ما فرط ، وبالمستقبل ، وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من

---

(١) حديث « جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة » لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال « جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب » وقال أيضاً « فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب » وقال أيضا « التائب أسرع دمعة وأرق قلبا »

عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا ، وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها ؟

فان كان قد ترك صلاة أوصلاها فى ثوب نجس أوصلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فان شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ويقضى الباقى وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل التحرى والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ويشتغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه ـ لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة فى مال الصبى ـ فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته ، فان أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف الى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك ، فان ذلك لا يجزيه أصلا . وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج فان كان قد استطاع فى بعض السنين ولم يتفق له الخروج الآن قد أفلس فعليه الخروج ، فان لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف اليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فانه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصى فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر فى جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود فى مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فيكفر سماع الملاهى بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود فى المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب اليه ، وعد جميع المعاصى غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت الى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى المتناسبات فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها ، فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع

---

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا . . الحديث» تقدم فى الحج (٢) حديث «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أخرجه الترمذى من حديث أبى ذر وصححه وتقدم أوله فى آداب الكسب وبعضه فى أوائل التوبة وتقدم فى رياضة النفس .

واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا فى القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم[1] » وفى لفظ آخر « إلا الهم بطلب المعيشة » وفى حديث عائشة رضى الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه[2] » ويقال إن الهم الذى يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام فى السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب ؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فماله عند الله ؟ قال: أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا ، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله فى المستقبل والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار مايعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب - لأن تلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد . وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه مالم يخرج عن مظالم العباد إما فى النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو فى عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم ويحكمه فى روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فان رفع أمر هذه إلى الوالى حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ماروى أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ! فرده فلما كان من الغد أتاه فقال : يارسول الله إنى قد زنيت ! فرده الثانية فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به

---

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم » وفى لفظ آخر « إلا فى طلب المعيشة » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التلخيص من حديث أبى هريرة بسند ضعيف تقدم فى النكاح .

(٢) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم » وتقدم أيضا فى النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماتوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد تاب توبةلو قسمت بين أمة لوسعتهم[١]» وجاءت الغامدية فقالت: يارسول الله إنى قد زنيت فطهرنى ! فردها فلما كان من الغد قالت : يارسول الله لم تردنى لعلك تريد أن ترددنى كما رددت ماعزا ؟ فوالله إنى لحبلى : فقال صلى الله عليه وسلم «أما الآن فاذهبى حتى تضعى » فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال«اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز فقالت : يانبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال « مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[٢] .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده ، فإن مايجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ إن كان الولى قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالباً به ، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبى والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب فى القيامة، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه ، فان حصل مجموع ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحدا وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لايقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه مايقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب مدة الظلم فكيف وذلك مما لايعرف؟ وربما يكون الأجل قريبا ؟ فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات . هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته .

أما أمواله الحاضرة فليرد إليه المالك مايعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به ، فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام .

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو بعيبهم فى الغيبة فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولايتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة ، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرف قدر جنايته

---

(١) حديث :اعتراف ماعز بالزنا ورده ﷺ حتى اعترف أربعا وقوله «لقد تاب توبة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله ﷺ « لقد تاب توبة ... الحديث» أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذى قبله .

وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته ، فإن كان في جملة جنايته على الغير . مالو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب .

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه مايستميل به قلبه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال . فان أبى إلا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته ، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتطلبه كقدر سعيه في أذاه ، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا في القيامة بحكم الله به عليه ، كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى ، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين . وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال « ان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : انه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ قال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : انه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة[1] » وفي رواية « فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها » وفي رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا إلى ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فبهذه تعرف أن لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فان كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه ،

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض ... الحديث » هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

فإن رأس المعاصى أكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الإصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات ؟ وقد قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة ، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا ، وليست هذه توبة مطلقة .

وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح ، وقال قائلون تصح ، ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل ، بل نقول لمن قال لاتصح : إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك ! فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح إن أردت به التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة والفوز فهذا أيضا خطأ ! بل النجاة والفوز بترك الجميع. هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لاتصح إنى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم .

وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض ؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصى دون البعض ، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحدوإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة ، فإذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المتماثلات ، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول إن العقد لا يصح أى لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك ، وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ماتركه وثمرة الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لايكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى ، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء .

فنقول : التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته ،والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده فى الشرع فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لايظهر ضرر السكر أصلا ، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر .

الثانى : أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلب عند

الله، كالذى يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لايترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن كما فى تفاوت الكبائر والصغائر ، لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ،إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لايدرى فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذى يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجرى مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة ، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لايكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ماهو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية ، وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك ؟ بل يقول هذا الفاسق فى نفسه : إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية بل أجاهده فى بعض المعاصى ، فعسانى أغلبه فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى .

ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد ، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى مالم تتقرب بترك الفسق ؛ وهذا محال بأن يقول لله تعالى على أمران ولى على المخالفة فهما عقوبتان ، وأنا أملى فى أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه فى الآخر ، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لايتصور هذا وهو حال كل مسلم ؟ إذ لامسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا ، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبى ﷺ « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لاذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها .

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة فى حق الشهوة وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما فى اقتضاء السخط ، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى ، كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها ، فقد حصل من هذا أنه لايمكن أن يتوب عن شىء ولا يتوب عن مثله بل لابد وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما فى شدة المعصية وإما فى غلبة الشهوة ، وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم ، فيتصور اختلاف حاله فى الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهى .

فان قلت : هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم

يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله ، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه ، ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الدم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فانى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته ، إذ لا خلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فاذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه ، فإن كل من لا يشتهى شيئا يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف ، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه ، بل الظاهر أنه يقبله .

والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين ، أحدهما : حرقة الندم . والآخر : شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل . وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل مالم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا .

فان قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر يبقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى : إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد . وقال علماء البصرة : ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة . وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور وعن كمال الحقيقة .

والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان (إحداهما) أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ؛ وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين ، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا . وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل : العنين أفضل من الفحل لأنه فى أمن من خطر الشهوة ، والصبى أفضل من البالغ لأنه أسلم ، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات ، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز فى الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار . بل كقول القائل : الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه ، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد .

(الحالة الثانية) أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود

الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه ، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين ، فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت فى المجاهدة فأنت بعد طلب الظفر . ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة الى من هو مشغول بالجهاد فى وصف القتال ولايدرى كيف يسلم . ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة الى من هو مشغول بمقاسات التأديب بعد ، ولقد زل فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل فى اتباع الشهوات . وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من المهلكات .

فان قلت : فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه فأيهما أفضل ؟ فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك . وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين .

وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره ، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازلة أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد ، والله أعلم ممن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية ؟

فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدىء ، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلاتقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالاضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالاضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق . بل سالك الطريق ينبغى أن لايعرج على غير السلوك ، فان ظهر له مبادىء الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال . بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل ، ولو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره يبكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لايعود إلى مثله، فان حصل له من التنبيه ماوثق بنفسه أنه لايعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه ، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك — وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات — بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ، ولكن إن كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له فى الدنيا .

فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة ، فالمبتدئ أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك . ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق مايحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام ، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم ، فانهم مابعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم ، فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أما إنى لا أنسى ولكنى أنسى لأشرع [1]» وفى لفظ « إنما أسهو لأسن » . ولا نعجب من هذا فان الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء ، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ [2] » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذى يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات (الطبقة الأولى) أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ، فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التى ترجع الى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا [3] » فان فيه اشارة الى انهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملى بمجاهدتها وردها . ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر : فمن مختطف بموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن مهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء . انما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى ، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهييج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع فى الانكفاف ، فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن

---

(١) حديث « أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع » وذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد فى الموطأ إلا مرسلا لا إسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال ظاهر الأنماطى :وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسين « كخ كخ » لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه: أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام (٣) حديث « سبق المفردون المستهترون بذكر الله ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم .

اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ، ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته فى الابتداء .

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها . إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك فى غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب [1] » وفى خبر آخر « المؤمن كالسنبلة يفىء أحيانا ويميل أحيانا [2] » وفى الخبر « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة [3] » أى الحين بعد الحين . فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه ، بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال ﷺ « كل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون [4] » وقال أيضاً « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه [5] » أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم . وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فما وصفهم بعدم السيئة أصلا .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوات فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى ب

---

(١) حديث على « خياركم مفتن تواب » أخرجه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف (٢) حديث « المؤمن كالسنبلة تفىء أحيانا وتميل أحيانا » أخرجه أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا « تقوم » بدل « تفىء » وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس

(٣) حديث « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة .

(٤) حديث « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون » أخرجه الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال « التوابون » بدل « المستغفرون » قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى (٥) حديث « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه » أخرجه الطبرانى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقال « فسعيد » بدل « فخيرهم »

فى قهرها ، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوما . فهذه النفس هى التى تسمى : النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه ، ووقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول فى الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الأخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية ، وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس ، فكما لايصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب . ولذلك قال تعالى ﴿ ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ فمهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها [١] » فاذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة . وكل نفس فهو خاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأنفاس وإلا وقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لاينفع التحسر .

(الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين ، وهذا النفس هى : النفس الامارة بالسوء ، الفرارة من الخير ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله ، فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا تطلع عليه . كما لايستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده . وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار . وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطلب الكنوز فى المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم . وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الارض فى بيته الخرب يعده ذوى البصائر من الحمق والمغرورين ـ وإن كان ماينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ـ فكذلك من ينتظر

---

(١) حديث « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة ...الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنه ولمسلم من حديث أبى هريرة «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة...الحديث» ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة » وشهر مختلف فيه .

المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين . والعجب من عقل المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة اذ يقول : ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره ، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك ، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول ماهذا الهوس ؟ السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ، ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لاتبديل لها فيهما جميعا ، وأنه قد أخبر اذ قال ﴿وأن ليس للإنسان الا ماسعى﴾ فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا ؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد فى الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا ؟ وينسى قوله تعالى ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾ فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على أم الرأس وانغماس فى ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا﴾ أى ابصرنا أنك صدقت اذ قلت ﴿وان ليس للانسان الا ماسعى﴾ فارجعنا نسعى وعند ذلك لايمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب .

بيان ماينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبة ، أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه ،فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ، ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها .

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو،ويتذلل تذلل العبد الآبق،ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد ، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات .

وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول :رب ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفرلى ذنوبى ،وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـ كما أوردناه فى كتاب الدعوات والأذكار ـ

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات . وفى الآثار مايدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا ؛ أربعة من أعمال القلوب وهى : التوبة أوالعزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهى : أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده ، مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم

يوما ، وفى بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين[1] وفى بعض الأخبار: تصلى أربع ركعات[2] وفى الخبر « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية[3] » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفى الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال ﷺ «أو ماصليت معنا صلاة الغداة» قال : بلى ، فقال ﷺ « إن الحسنات يذهبن السيئات[4] » وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر ، فعلى كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد فى دفعها بالحسنات .

فان قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر « المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله[5] » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ؛ فاعلم أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر — ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات — حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقى الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا[6] . فنقول : الاستغفار الذى هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة ، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له ، فأما إذا انضاف اليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله فى سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة فى نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار حتى قال ﷺ « ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة[7] »

---

(١) أثر « إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين » أخرجه أصحاب السنن من من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه « مامن عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى يستغفر الله إلا غفر الله له » لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الموقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابى (٢) حديث : التكفير بصلاة أربع ركعات : أخرجه ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يهوى امرأة ...الحديث وفيه : فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبى ﷺ «صل أربع ركعات » فانزل الله عزوجل ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار﴾ الآية وإسناده جيد .

(٣) حديث « اذا عملت سيئة فأتبعها حسنه تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية» أخرجه البيهقى فى الشعب من معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ « وماعملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ...الحديث » (٤) حديث أن رجلا قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس ...الحديث فى نزول (إن الحسنات يذهبن السيئات) متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ماصليت معنا صلاة الغداة » قال: نعم ...الحديث (٥) حديث «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله» أخرجه ابن أبى الدنيا فى التوبة ومن طريق البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « كالمتهزىء بربه » وسنده ضعيف.

(٦) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية «كان لنا أمانان ذهب أحدهما» أخرجه أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه «أنزل الله على أمانين ...الحديث » وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس (٧) حديث « ما أصر من استغفر ... الحديث » تقدم فى الدعوات .

وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلوعن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لابد للعبد فى كل حال من مولاه ،فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء فان عصى قال يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب على ، فإذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة ،وإذا عمل قال يارب تقبل منى. وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال:أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة ،فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله اليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش . وسئل أيضا عن قوله ﷺ «التائب حبيب الله» فقال : إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية . وقال : الحبيب هو الذى لايدخل فيما يكرهه حبيبه .

والمقصود أن للتوبة ثمرتين :
(إحداهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له .
(والثانية) الدرجات حتى يصير حبيبا .

وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات ــ وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات ــ فليس يخلو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها أن قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ صدق وأنه لاتخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات ،فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لاتقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة .

فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول : الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرآن وقلبى غافل . فقال : اشكر الله اذ استعمل جارحة من جوارحك فى الخير وعوده الذكر ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصى . فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا ، سبق لسانه الى ما تعود فقال :استغفر الله .

ومن تعود الفضول سبق لسانه الى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان : نعوذ بالله ، واذا تعود الفضول قال : لعنه الله ، فيعصى فى احدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى ، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ومعانى قوله تعالى ﴿ وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه

أجرا عظيما ﴾ فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان ، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات ، وتضعيف الآخرة ﴿ أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فاياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات . فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر ، فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب ؟ فانقسم الخلق فى هذه المكيدة الى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هى حق أردت بها باطلا . فلاجرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف الى حركة اللسان حركة القلب ، فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه . وأما الظالم المغرور : فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل : وافق شن طبقة وافقة فاعتنقه . وأما المقتصد : فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة إلى القلب ، ولكن اهتدى الى كماله الإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب من اللسان فى اعتياد الخير . فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا ، والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا ، والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة إلى الكاتب لا بالاضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فان سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا الى استغفار واحد . فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فان هذه أمور تثبت بالاضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير اضافة ، بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى . ولذلك قال جعفر الصادق : ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث ، رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه ، وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى وزاد : وخبأ اجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

الركن الرابع

فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان : شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة [1] » وهذا عزيز نادر . والقسم الثانى : هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ، ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين ، وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل الا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله . ولا يبطل الشىء إلا بضده . ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع

---

(١) حديث « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى ﴿ أولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ فلادواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعها فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب بما به من مرض الإصرار . فإذن لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما .

فإن قلت : أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من علم مخصوص ؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

(الأول) أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الايمان بأصل الطب فإن من لايؤمن به لايشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك . وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان بأصل الشرائع ، وهذا لابد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان .

(الثانى) أنه لابد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لايلبس ولا يكذب ، فان إيمانه بأصل الطب لاينفعه بمجرده دون هذا الايمان . ووزانه مما نحن فيه : العلم بصدق الرسول ﷺ والايمان بأن كل مايقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف .

(الثالث) أنه لابد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فيكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء . ووزانه من الدين : الاصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع مايلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج .

(الرابع) أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه ، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص . ووزانه من الدين : أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة ، وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب . ثم الى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ، ثم الى العلم بكيفية تكفير ماسبق منها .

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، فالعاصى ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم ، وان كان لايدرى أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز مايضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ، ولا ينبغى أن يصبر الى أن يسئل عنه ، بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فان مرضى القلوب لايعرفون مرضهم ، كما أن الذى ظهر على وجهه برص

ولامرآة معه لايعرف برصه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافة . وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فإن الخلق لايولدون إلا جهالا فلا بدمن تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان : والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لايحتمى أو الذى غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس.

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل ؛إحداها : أن المريض به لايدرى أنه مريض، والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال .

والثالثة : وهو الداء العضال ؛ فقد الطبيب ، فإن الأطباءهم العلماء وقد مرضوا فى هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لايظهر نقصانهم ، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا ، لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم :فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون انفسكم ؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الاطباء ، بل اشتغل الاطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذ لم يصلحوا يفسدوا ! وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا مايرغب العوام ويستميل قلوبهم ، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألذ فى الاسماع وأخف على الطباع ، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقداستفادوا مزيد جراءةعلى المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله

ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه . فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادى العلة . أما الذىغلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه مالاتطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية : فتكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال . وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت : يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب . فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء . فاذن فساد الاطباء هى المعضلة الزباء التى لاتقبل الدواء أصلا .

فان قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير الى الانواع النافعة فى حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع :

الاول أن يذكر مافى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار الآثار

مثل قوله صلى الله عليه وسلم « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ! ويقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا! فيقول الآخر : ياليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا [١] » وفى بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ! ويقول الآخر : ياليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا» وقال بعض السلف إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف : مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ؛ فيقول الله تعالى الأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها [٢] » وفى حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع [٣] » وقال الحسن : ان بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير .

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لاتحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها وإن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ماخلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه [٤] .

(النوع الثانى) حكايات الانبياء والسلف الصالحين وماجرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق ، مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه . ونودى من فوق العرش : اهبطا من جوارى فإنه لايجاورنى من عصانى . وقال : فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب . وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوتب على خطيئته لاجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما ، وقيل : لان المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل ، وقيل : بل أحب بقلبه أن

---

(١) حديث « مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا . . الحديث » غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف « إن لله ملكا ينادى فى كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده ... الحديث » وفيه « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ...الحديث » .

(٢) حديث عمر « الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات ...الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٣) حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوحة » قلب هكذا قال المصنف : وفى حديث مجاهد، وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الإيمان للبيهقى من قوله حذيفة (٤) حديث : أنه ﷺ ماخلف دينارا ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة أخرجه البخارى من حديث عمرو بن الحرث قال : ماترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة . ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينار ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا . وفى حديث أبى الدرداء : إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم ..الحديث وقد تقدم فى العلم .

يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال أطعمونى فانى سليمان بن داود شج وطرد وضرب . وحكى أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت فى وجهه . وفى رواية : أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين ـ أيام العقوبة ـ قال : فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال : لاألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم فى عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولابد منه . وروى فى الإسرائليات : أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم ، قال : فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا فى بنى اسرائيل وفى قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام : بم اطلعك الله على علم الغيب ؟ قال : بترك المعاصى لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه! قال : فوضعته الريح ، فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطيعك اذا أطعت الله . وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام : أندرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال : لا ، قال لقولك لإخوته ﴿ أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال :لا، قال :لأنك رجوتنى وقلت ﴿ عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ﴾ وبما قلت ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا ﴾ وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ قال الله تعالى ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

وأمثال هذه الحكايات لاتنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بهـا الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار ؟ نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر . فهذا أيضا ما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة .

(النوع الثالث) أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهى بسبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله . فينبغى أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر ، كما حكى فى قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه ، قال ﷺ «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[1] » وقال ابن مسعود : إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ؛ وهو معنى قوله ﷺ « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا[2] » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا فى الوجه ونقصا فى المال إنما اللعنة أن لاتخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله أو شر منه ، وهو كما قال لأن اللعنة هى الطرد والابعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد ، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان ، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة

---

(١) حديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال «الرجل» بدل «العبد» من حديث ثوبان (٢) حديث « من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود إليه أبدا » تقدم

الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ، فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول : هـذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل : ما أنكرت من تغيير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إنى لأعرف عقوبة ذنبى فى سوء خلق حمارى . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتى. وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بى ابن الجلاء الدمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه فقلت : يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة المحكمة كيف خلقت للنار ! فغمز يدى وقال : لتجد عقوبتها بعد حـــين ، قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال سليمان الدرانى : الاحتلام عقوبة . وقال : لايفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفى الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم[(١)] » وفى الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى[(٢)] » وحكى عن أبى عمرو بن علوان — فى قصة يطول ذكرها — قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلى فخامر قلبى هوى طاولته بفكرتى حتى تولد منه شهوة الرجال ، فوقعت إلى الأرض واسود جسدى كله فاستترت فى البيت فلم أخرج ثلاثة أيام ، وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث ، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلى فأشخصنى من الرقة ، فلما أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى فلولا أنى دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون ، قال : فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة ؟ .

واعلم أنه لايذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر ، وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته ، فإن ابتلى بشىء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه ، وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته .

(النوع الرابع) ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد ، وكل ذلك مما لايمكن حصره ، وذكر مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه ، بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها ، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد : اوصنى يارسول ولا تكثر على قال « لاتغضب[(٣)] » وقال له آخر أوصنى يارسول الله فقال

---

(١) حديث «ما أنكرتم من زمانكم فبما أنكرتم من أعمالكم » أخرجه البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلى وهو عبدالله بن هانىء .قلت:هو متهم بالكذب قال ابن أبى حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل

(٢) حديث« يقول الله إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أن أحرمه لذة مناجاتى » غريب لم أجده

(٣) حديث : قال رجل أوصنى ولا تكثر على قال « تغضب » تقدم

عليه السلام « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإن ذلك هو الغنى ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه[1] » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى ، فقال : أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة قال: وكيف لى بذلك؟ قال : الزم الزهد فى الدنيا .فكأنه ﷺ توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه ، وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا .وقال رجل لمعاذ : أوصنى ،فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما.فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن أدهم : أوصنى ، فقال : إياك والناس وعليك بالناس ولابد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا فى ماء اليأس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل . وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنهما : أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت إليه : من عائشة إلى معاويه سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس[2] » والسلام عليك . فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ؟ وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فاتق الله فانك إذا اتقيت الله كفاك الناس وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام .

فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحدغير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان .

فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم فى جمع أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل ؟ فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر ، فان فى علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل .

ومثله ماروى أن رجلا قال لأبى سعيدالخدرى : أوصنى ، قال : عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الإسلام ، وعليك بالقرآن فانه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء ، وعليك بالصمت إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن : أوصنى ، فقال : أعز أمر الله يعزك الله .

وقال لقمان لابنه : يابنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك،وخذ من الدنيا بلاغك،وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا ، وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه : يابنى لاتضحك من غير عجب ولا تمش فى غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت ، يابنى إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر

---

(١) حديث قال له آخر : أوصنى قال « عليك باليأس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

(٢) حديث عائشة « من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ...الحديث »أخرجه الترمذى والحاكم الترمذى من لم يسم .

يأثم ومن لايملك لسانه يندم .وقال رجل لأبي حازم :أوصني ،فقال :كل مالو جاءك الموت علية فرأيته غنيمة فالزمه وكل مالو جاء الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه .وقال موسى للخضر عليهما السلام : أوصني ،فقال : كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش فى غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك ياابن عمران.وقال رجل لمحمد بن كرام :أوصني،فقال:اجتهد فى رضا خالقك بقدر ماتجتهد فى رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف:أوصني فقال: اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات ،قال. وما غلاف الدين ؟ قال ترك طلب الدنيا إلا مالا بد منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بد منه.وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى: أما بعد، فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب اليه : أما بعد ؛ فان الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم ، فاذا زللت فارجع وإذا ندمت فاقلع واذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك.

وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد، فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لاعقل له وبها يغتر من لاعلم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة .أما بعد ، فان الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله . أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتى إلى الناس شيئا الاكان زائلا عنهم باقيا عليك ،واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام .

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ووعظ من لايدرى خصوص واقعته. فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصى واستشرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ماليس فى علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب ، بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف . فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله .

(الأصل الثانى) الصبر : ووجه الحاجة اليه أن المريض انما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وانما يتناول ذلك : اما لغفلته عن مضرته ، وأما لشدة غلبة شهوته ، فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة — وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض اذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ، فلابد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لايقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه فى السعى وراء شهوته فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخلوقات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج : هو

حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل : تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم ، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى .

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الايمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب ، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان ، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان ، اذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب فى الآخرة . ولكن سبب وقوعه فى الذنب أمور :

(أحدها) أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها بالحاضر .

(الثانى) أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهى فى الحال آخذة بالمخنق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ وقال عزوجل ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات[1] » وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر اليها ، فنظر فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ! فحفها بالشهوات ثم قال : اذهب فانظر اليها ، فنظر فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها . وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام : اذهب فانظر إليها ، فنظر فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد الا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال : اذهب فانظر اليها ، فنظر اليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد[2] » فإذاً كون الشهوة مرهقة فى الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران فى الاسترسال مع حصول أصل الايمان فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر .

(الثالث) أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات ، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير ، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان .

(الرابع) أنه ما من مؤمن موقن الا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها ،

---

(١) حديث « حفت الجنة بالمكاره ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٢) حديث « إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى . فهذا أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان .

نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه وهو كونه شاكا فى صدق الرسل وهذا هو الكفر ، كالذى يحذر الطبيب عن تناول ما يضره فى المرض فان كان المحذر ممن لايعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فانه فلا يبالى به فهذا هو الكفر .

فان قلت فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر ، وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول وهو : تأخر العقاب ، أن كل ماهو آت آت وأن غداً للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب ، والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال ، إذا يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده ، ومفارقته للدنيا لابد منها ، فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه فيقول : كيف يليق بعقل أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندى دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولايشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذه الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى ايام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لاأطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوف يبنى الأمر على ماليس إليه وهو البقاء فلعله لايبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لايقدر عليه اليوم ، فليت شعرى هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد ؛ فليست الشهوة التى أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق . وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع إلا بمشقة شديدة فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها . وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته من مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف .

وأما المعنى الرابع : وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة ، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان ، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لايتفرغ إلى دارى أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار ؛ فان الموت ممكن والغفلة ممكنة ؛ وقد حكى فى الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل. إذ قد لا يمكن ولا يكون .

وأما الخامس وهو شك فهذا كفر ، وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله ، فيقال له : ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن قال : أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال : أنا شاك فيه ، فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول: أتركه لامحالة لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ـ ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ـ عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول ؟ فليس فى العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما   لاتبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا: إن صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا وإلا فقد تخلصت وهلكت ؛ أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال .

فإن قلت : هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ؟ وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله ؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران :

(أحدهما) أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة .

(الثانى) أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ، وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حياته ، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أوفى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك .

أما علاج هذين المانعين : فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته ، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟ وأما الثانى وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فانها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهى مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته

وطول الأنس به ؟ ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا مايجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا ، فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة ؟ نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا ، فالنفس قابلة ـ ماعودتها تتعود ـ والخير عادة والشر لجاجة .

فاذن هذه الأفكار هى المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ، ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لاتدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه . ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق ، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة الآخرة . وقد روى فى حديث طويل : أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بنى ؟ فقال على رضى الله عنه : بنى على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب . فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر فى التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلابد من بيان الصبر فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء : ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء .

أما بعد : فان الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر[1] كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمى نفسه صبورا وشكورا ، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطرى الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالايمان ، وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة مابه الايمان ومن به الايمان ؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن إدراك مابه الايمان ، فما أحوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله .

(الشطر الاول) فى الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الايمان . وبيان

كتاب الصبر والشكر

(١) حديث « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف .

اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء تعالى .

بيان فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر وقال الله تعالى « الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ « الصبر نصف الإيمان[(١)] » على ما سيأتى وجه كونه نصفا وقال ﷺ «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم ﴾[(٢)] الآية وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة[(٣)] » وقال أيضا «الصبر كنز من كنوز الجنة[(٤)] » وسئل مرة ما الايمان ؟ فقال: «الصبر[(٥)] » وهذا يشبه قوله ﷺ «الحج عرفة[(٦)] » معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا ﷺ «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس[(٧)] » وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، تخلق بأخلاقى وأن من أخلاقى أنى أنا الصبور. وفى حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل ﷺ على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم » فسكتوا ، فقال عمر : نعم يارسول الله قال ﷺ « وما علامة إيمانكم ؟ » قالوا : نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال ﷺ

---

(١) حديث «الصبر نصف الإيمان »أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم

(٢) حديث «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ...الحديث » بطوله تقدم فى العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله

(٣) حديث جابر : سئل عن الإيمان فقال «الصبر والسماحة »أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده

(٤) حديث « الصبر كنز من كنوز الجنة» غريب لم أجده (١) حديث : سئل مرة عن الإيمان فقال « الصبر » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعا«الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف (٦) حديث «الحج عرفة» تقدم فى الحج .

(٧) حديث «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس »لا أصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس .

« مؤمنون ورب الكعبة(١) » وقال ﷺ «فى الصبر على ما تكره خير كثير(٢)» وقال المسيح عليه السلام: إنكم لاتدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال ﷺ « لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين(٣) » والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى . عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر . الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى افضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه . بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لارأس له ولا إيمان لمن لاصبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾ بكى وقال : واعجباه أعطى وأثنى ، أى هو المعطى للصبر وهو المثنى . وقال أبو الدرداء : ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل ، وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه ، إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف . فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال . فالمعارف هى الأصول وهى تورث الأحوال والأحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى . واسم الايمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ـ كما ذكرناه فى اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد ـ وكذلك الصبر لايتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة . فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ، ولايعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم . فان الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة . أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها .

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا .

وأما الملائكة عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الانسان فانه خلق فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، على الترتيب ، وليس له قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن

---

(١) حديث عطاء عن ابن عباس : دخل على الأنصار فقال « أمؤمنون أنتم؟ » فسكتوا ، فقال عمر: نعم يارسول الله ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء

(٢) حديث « فى الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث «لو كان الصبر رجلا لكان كريما» أخرجه الطبرانى من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى

ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبى إلا جند الهوى كما فى البهائم ، ولـكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ؛ أحدهما يهديه ، والآخر يقويه ، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم . واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعرف . فالبهيمة لامعرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط ، فلذلك لاتطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصـار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة . ولـكن لم تـكن هذه الهداية كافية مالم تـكن له قدرة على ترك ماهو مضر ، فـكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النـازل به مثلا ولـكن لاقدرة له على دفعه ؟ فافتقر إلى قـدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد ،كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر .

فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها : باعثا دينيا ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائـكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره استمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإذن ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى : الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه - أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى - قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ماتتقاضاه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتـكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره إياهما وهما من الـكرام الـكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له . فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال .

والعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء اليه فيـكتب أعراضه سيئة . وبالفـكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيـكتب إقباله له حسنة . وكـذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء اليه فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين .

أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمها ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلاثباتهما الحسنات والسيئات. وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم . فانهما وكتبهما وخطهما وصحائفهما وجملة ماتعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة ، وكل شىء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين . مرة فى القيامة الصغرى ومرة فى القيامة الكبرى ، وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت ، إذ قال ﷺ « من مات فقد قامت قيامته[1] » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وفيها يقال ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فانك تعلم أن الزلزلة اذا نزلت ببلده صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكن غيره، فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان .

واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التى أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات ارضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فاذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقـــد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا . فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا ، فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا ، فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت مافيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكنى أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شىء مما يخصك بل ما يخصك غيرك . فان بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التى تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غـــيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هى القيامة الصغرى . والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبـال وتمت الأهوال .

---

(١) حديث « من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف .

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا في وصفها فإنا لم نذكر عشر عشير أوصافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى ، فإن للانسان ولادتين (إحداها) الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله في سلوكه الى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم الى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا الى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين . واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت . والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال .

فما أعظم غفلتك يامسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ماسمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا(1) » أو ماسمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ « اللهم هون على محمد سكرات الموت(2) » أو ماتستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون ؟ فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، أفيظنون أنهم في الدنيا خالدون ؟ ﴿ أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ ولكن ﴿ ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ وذلك لأنا ﴿ جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ .

ولنرجع الى الغرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة . فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا عن الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الاقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمري إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة بل الى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ـ إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ـ أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة

---

(1) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد .
(2) حديث « اللهم هون على محمد سكرات الموت » أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ « اللهم أعني على سكرات الموت » .

قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها فى حق الصبى ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة(١) » وأشار الى أصبعيه الكريمتين ﷺ .

بيان كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات . ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا . فيكون للايمان ركنان : (أحدهما) اليقين (والآخر) الصبر . والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده الى أصول الدين . والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار . ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . . . الحديث » الى آخره .

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره فيهما ، وله بالإضافة الى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة الى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . وقد يرفع أيضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين ، باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب : قال ﷺ بهذا الاعتبار « الصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها الى الايمان : والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الايمان فإن اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الأسامى التى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان، أحدهما : ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كتعاطى

---

(١) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين » أخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد وتقد .

الأعمال الشاقة إما العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال : كالصبر عن الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرهما . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . إن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص . وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفة[1]» وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى ﴿ والصابرين فى البأساء ﴾ أى المصيبة ﴿ والضراء ﴾ أى أى الفقر ﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فانها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال ، أحدها : أن يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون ﴿ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم ، وقيل لمن قصد إرشادهم ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا

---

(١) حديث « الحج عرفة » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج .

ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ وهـذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى وهو غاية الحمق كما قال ﷺ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[1] » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها تعذرت على فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبتى . وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته ، فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله أسيرا عندهم ، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ماحقه أن لايتسلط عليه، وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه. فهماسخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه الى أبغض أعدائه ،فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته ؛ لأن الهوى أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى ، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لامن الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ هذا باعتبار القوة والضعف . ويتطرق اليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد مايصبرعنه : فانه اما أن يغلب جميع الشهوات أو لايغلب شيئا منها ،أو يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى ﴿ خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ﴾ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى . والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا ، اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات ، وهـذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ، ولذلك قيل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى مايشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الابجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا ، والى مايكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ومثال هـذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لايلقاه فى مصارعته اعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواضبة أورث ذلك مقام الرضا ـ كماسيأتى فى كتاب الرضا ـ فالرضا

---

(١) حديث « الكيس من دان نفسه ... الحديث » تقدم فى ذم الغرور .

أعلى من الصبر ، ولذلك قال ﷺ « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير [١] » .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين .

وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من الرضا ، كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا .

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم . فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا . وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجرى على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع . فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال

اعلم أن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذى يوافق هواه . (والآخر) هو الذى لا يوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر .

(النوع الأول) ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا . وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال . والزوج والولد فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم ﴾ وقال ﷺ «الولد مبخلة مجبنة محزنة [٢]» . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صدق الله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ إنى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته [٣] » ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق ، وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه

---

(١) حديث « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٢) حديث «الولد مجبنة مبخلة محزنة » أخرجه أبو يعلى الموصلى من حديث أبى سعيد وتقدم (٣) حديث «لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر ...الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب

وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيامة بحق الشكر ـ كما سيأتى ـ وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على قصدك نفسك وحجامتك نفسك ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(النوع الثانى) ما لا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب . أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

(القسم الأول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان :

(الضرب الأول) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء .

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يكرهه بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والاخلاص والصبر على شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبه عليه صلوات الله عليه اذ قال « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى [١] » وقال تعالى ﴿وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى ﴿الا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ .

الحالة الثانية : حالة العمل ؛ كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب الى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور الى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى ﴿نعم أجر العاملين الذين صبروا﴾ الى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ وكما قال تعالى ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله :

والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما جميعاً وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى﴾ فالعدل هو الفرض ، والاحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هى المروءة وصلة الرحم ، وكل ذلك يحتاج الى صبر .

(الضرب الثانى) المعاصى : فما أحوج العبد الى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه [٢]

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

(٢) حديث « المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه » أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائى فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد الله بإسنادين جيدين وقد تقدما

والمعاصي مقتضى باعث الهوى .

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعويضا وتصريحا . وأنواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها ، فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد[1] » فلا ينجيه غيره ، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد ، وإلا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(القسم الثاني) مالا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أوذي بفعل أو قول أو جنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال « يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر[2] » وقال تعالى ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك[3] » ورأيت في الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه

---

(١) حديث « إن الغيبة أشد من الزنا » تقدم في آفات اللسان (٢) حديث : « قسمه مرة مالا وقول بعض الأعراب : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(٣) حديث « صل من قطعك ... الحديث » تقدم

الخد الأيسر ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين. وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة على الغضب جميعا .

(القسم الثالث) مالا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب : مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه ، صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وانما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ماقبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا (١) » فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره؟ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهم اؤجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها الا فعل الله به ذلك (٤) » وقال أنس : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله عز وجل قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه؟ قال سبحانك لاعلم لنا الاما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى (٥) » وقال ﷺ « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتى (٦) » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذى يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو

---

(١) حديث « أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا » أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات (٢) حديث « قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبه فى بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل... الحديث » أخرجه ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) حديث « انتظار الفرج بالصبر عبادة » أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله « بالصبر » وكذلك رواه أبو سعيد المالينى فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود « أفضل العبادة انتظار الفرج » وتقدم فى الدعوات (٤) حديث « مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون)... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة

(٥) حديث أنس « إن الله قال ياجبريل ماجزاء من سلبت كريمتيه ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسملى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ « إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة » رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ « إذا أخذت كريمتى عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة » قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال « وإن كانت واحدة » وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٦) حديث « يقول الله إذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكنى إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه... الحديث » أخرجه مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة

الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الراضى لا يتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلى رحمه الله فى المارستان فدخل عليه جماعة فقال : من أنتم ؟ قالوا : أحباؤك جاءوك زائرين ، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى . وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ويقال إن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من جلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكوا وجعك ولا تذكر مصيبتك » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفى كمه صرة فافتقدها فإذا هى قد أخذت من كمه فقال : بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى . وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق فقلت له : أسقيك ماء ؟ فقال جرنى قليلا إلى العدو واجعل الماء فى الترس فإنى صائم فإن عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى .

فإن قلت : فبماذا ينال درجة الصبر فى المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لا تكون فى نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل فى الاختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج من مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة فى الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة فى الملبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغى أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت . كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله ؛ أنها قالت توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية فى البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل ، فقال كيف الصبى ؟ قلت : أحسن حال بحمد الله ومنه فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب منى حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ؟ قال ما لهم ؟ قلت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال « اللهم بارك لهما فى ليلتهما [٢] » .

قال الراوى : فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة كلهم قد قرءوا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة » وقد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع ، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء . ولأن البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبى صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال « ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لايخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لامحالة وقد تفيض عيناه اذا عظم ألمه — وسيأتى ذلك فى كتاب الرضا إن شاء الله تعالى —

---

(١) حديث « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال « من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكى نفسك » .

(٢) حديث الرميصاء أم سليم : توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت ... الحديث» أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

وكتب ابن أبي نجيح يعزى بعض الخلفاء : إن حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له واعلم أن الماضى قبلك هو الباقى لك والباقى بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصبرون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن مهما دفع الكراهية بالتفكر فى نعمة الله تعالى علية بالثواب نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . وقد قيل : من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال ، فان الذى كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهر ، وعن الصبر وعن وساوس الشيطان باطنا . فان اختلاج الخواطر لا يسكن ، وأكثر جولان الخواطر إنما يكون فى فائت ولا تدارك له أو فى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر ، فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون ، هذا إن كان فكره ووساوسه فى المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا ، بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أموه او غرضه بظهور أمارة له منه ، بل يقدر المخالفة من خلص الناس فى حبه حتى فى أهله وولده ، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفته ، ولا يزال فى شغل دائم ، فللشيطان جندان : جند يطير وجند يسير ، والوسواس عبارة وحركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار ، وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار ، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة ، فلا يصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .

فإذن حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقباضه وإذعانه . وانقياده بالإذعان سجود منه ـ فهو روح السجود ـ وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك ، كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب ! فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك ، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء فى القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت فى غير مطمع . بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محـــالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين لا يخلو عن جولان الشيطان ، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ وقال ﷺ «إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ[1]» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا ، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ، ثم تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع ألبتة بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، وكما لا تلقى إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة ، فإذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك وهى صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج ـ حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو ؟ فقال هى نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

فإذن حقيقة الصبر وكماله : الصبر عن كل حركة مذمومة ، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك ، وهو صبر دائم لا يقطعه إلا الموت . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مريض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة .

فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال مصالحة «فنقول» قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن تنظر إلى مادة قوتها وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل فى نفسه ضعيف فى جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

الثانى : قطع أسبابه المهيجة فى الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظر سهم مسموم من سهام إبليس[2] » وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه . فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه وذلك بالنكاح ، فإن كل مايشتهيه الطبع فى المباحات

---

(١) حديث « إن الله يبغض الشاب الفارغ » لم أجده .

(٢) حديث « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس » تقدم غير مرة .

من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر ، فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال : ثم قد لايقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ «عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء(١) » .

فهذه ثلاثة أسباب ، فالعلاج الأول وهو قطع الطعام : يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضارى ليضعف فتسقط قوته . الثانى يضاهى تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب .

وأما تقوية باعث الدين : فإنما تكون بطريقين ، أحدهما : إطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة (وفى الأثر) إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات . وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ، ومن أسلم خسيسا فى نفيس فلا ينبغى أن يحزن لفوات الخسيس فى الحال . وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وإن ضعف ضعفه . وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرى عليها وتقوى منته فى مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهى إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال ﴿ وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ .

والثانى: يضاهى تعويد الصبى الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت ، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه ، وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر ، فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب . وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ، ثم كل ذلك لا يكفى ما لم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك مالم يكن له مجال فى الفكر وسير بالباطن فى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن

---

(١) حديث « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم ... الحديث » تقدم فى النكاح .

لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة : من القراءة والأذكار والصلوات ، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ؛ إذ لايخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة . فهذا أحد الأنواع الشاغلة .

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمة أو واقعة ، وفى تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر ، وينكشف فيه من أسرار الله تعالى فى ملكوت السموات والأرض مالا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف مبالغ مايرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ .

والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبه من جذبات الرحمن فانها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا ، فان المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله ﷺ « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق .

فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لاينفعه إلا بمطر ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر ، فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات ، فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما فى يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان ، فان الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الأمطار فى أوقات الاستسقاء ، وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا الى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من الاسترسال اليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا ، فقال تعالى ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال تعالى ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾

فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وانما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر .

قال الجنيد رحمه الله : السير من الدنيا الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران على الخلق فى حب الحق شديد ، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق .

وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه . فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء ، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية ؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية ، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ وليس القلب مذموما على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير اللعين المبعد عن عالم الأمر ؛ فأضله وأغواه ، وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ؟ فليس يطلب إلا بقاء لافناء فيه . وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمالا لا نقصان فيه ! وهذه كلها من أوصاف الربوبية .وليس مذموما على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له . وطلب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة . ولكن الملك ملكان : ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو فى الدنيا .وملك مخلد دائم لايشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل . وقد خلق عجولا راغبا فى العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة — التى فى طبعه — فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة ، وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور فى الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال ﷺ « والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر امكانه . ولم يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة . فعبر عن المخذولين بقوله تعالى ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا بالحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق أرسل الله الملائكة الى الرسل وأوحوا اليهم ماتم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه ، فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقى عن الملك المجازى الذى لا أصل له ان سلم ولادوام له أصلا فنادوا فيهم ﴿ ياأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ .

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وابراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد ، والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها .وأما ملك الآخرة : فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاءلافناء فيه وعزا لاذل فيه وقرة عين أخفيت فى هذا العالم لاتعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلىملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرةيفوت به اذ الدنيا والآخرة ضرتان،ولعلمه بأن الدنيا لاتسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ، ولكن ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات والمكدرات وطول

الهموم فى التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضى العمر ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ﴾ والزهد فى الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه .

ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا ! وينال الربوبية بأن يصير عبدا ! ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا فى الدنيا منكوسا فى الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ! قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو لى ! فقال كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لى . فهذا إذن هو الملك فى الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا ، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا .

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط فى ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته : إذ تصير بتركه ملكا فى الحال وترجو به ملكا فى الآخرة .

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه فى العلاج مجرد العلم والكشف ؛ بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله فى ثلاثة أمور :

(أحدها) أن يهرب عن موضع الجاه كى لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله فى سعة الأرض إذ قال تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .

(الثانى) أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده ، فيبدل التكلف بالتبذل وزى الحشمة بزى التواضع ، وكذلك كل هيئة وحال وفعل فى مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغى أن يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة .

(الثالث) أن يراعى فى ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج . فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض ، إلى أن يقنع بالبقية . وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى[1] » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه[2] » .

---

(١) حديث « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » الحديث أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقى من حديث جابر وتقدم فى الأوراد. (٢) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يغلبه » تقدم فيه .

فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهده فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الأقسام التى فصلناها من قبل ، فان تفصيل الآحاد يطول ، ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه ، وهذا لايعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير فى العادات ، فان الصبى يحمل على التعلم فى الابتداء قهرا ، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم ، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب ، وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبلى عن الصبر أيه أشد ؟ فقال : الصبر فى الله تعالى ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا فقال : الصبر مع الله . فقال : لا ، فقال : فأيش ؟ قال الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل فى معنى قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله، وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه .

والصبر عنك فمذموم عواقبه   والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا :

الصبر يحمل فى المواطن كلها   إلا عليك فانه لا يحمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

الشطر الثانى من الكتاب فى الشكر

وله ثلاثة أركان : (الأول) فى فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثانى) فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) فى بيان الأفضل من الشكر والصبر .

الركن الأول : فى نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ فقال تعالى ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ وقال تعالى ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ وقال عز وجل إخباراً عن ابليس اللعين ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين فى الخلق فقال : ولاتجد أكثرهم شاكرين . وقال تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ واستثنى فى خمسة أشياء فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ﴾ وقال ﴿ فيكشف ماتدعون اليه ان شاء ﴾ وقال ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وقال ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى ﴿ والله شكور حليم ﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴾ وقال ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصابر [١] » وروى عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت وقالت : وأى شأنه لم يكن عجبا ؟ أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى - أوقالت فى لحافى - حتى مس جلدى جلده ثم قال « يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى » فقالت : إنى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقلت يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ولم أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ الآية [٢] » وهذا يدل على أن البكاء ينبغى أن لا ينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ فأنا أبكى من خوفه ، فسأله أن يجيره من النار فاجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال : لم تبكى الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور ! وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعاً . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة » قيل : ومن الحمادون ؟ قال « الذين يشكرون الله تعالى على كل حال [٣] » وفى لفظ آخر « الذين يشكرون الله على السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن [٤] » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى - فى كلام طويل - وأوحى الله تعالى إليه أيضا فى صفة الصابرين : أن دارهم السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، وبالنظر إلى أزيدهم : ولما نزل فى الكنوز ما نزل ; قال عمر رضى الله عنه : أى المال نتخذ ؟ فقال عليه السلام « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا [٥] » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال : وقال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان .

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه .

---

(١) حديث « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » علقه البخارى وأسنده الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنه وفى اسناده اختلاف .

(٢) حديث عطاء : دخلت على عائشة فقلت لها : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فقالت : وأى أمره لم يكن عجبا ... الحديث فى بكائه فى صلاة الليل . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحى بن أبى حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء دون قولها : وأى أمره لم يكن عجبا ، وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر الحديث . (٣) حديث : ينادى يوم القيامة « ليقم الحمادون ... الحديث » أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « أول من يدعى إلى الجنة الحمادون ... الحديث » وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور . (٤) حديث « الحمد رداء الرحمن » لم أجد له أصلا وفى الصحيح من حديث أبى هريرة « الكبر رداؤه ... الحديث » وتقدم فى العلم .

(٥) حديث عمر : « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا ... الحديث » تقدم فى النكاح .

(فالأصل الأول) العلم : وهو علم بثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لابد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه ، تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لابد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها ، بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان : التقديس . ثم إذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف أنه لامقدس إلا واحد وماعداه غير مقدس : وهو التوحيد ، ثم يعلم أن ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه ، فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد : كمال القدرة والانفراد بالفعل ، وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شىء من الأذكار يضاعف مايضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب « فسبحان الله » كلمة تدل على التقديس و« لا إله إلا الله » كلمة تدل على التوحيد « والحمد لله » كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق ، فالحسنات بإزاء هذه المعارف التى هى من أبواب الإيمان واليقين .

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال : فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فان رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسر ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به فى النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه ، بل منه بوجه ومن غيره بوجه ، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك . نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه ، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك . وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الايصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً ، فإذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من اضافة النعمة الى الملك .

وكذلك من الكاتب . وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها ، فان الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتنفعل ـ شاءت أم أبت ـ كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده . فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى ؛ وألقى فى نفسه أن خيرة فى الدنيا والاخرة أن يعطيك ما أعطاك ، وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل الا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا الى تركه ، فهو إذن انما يعطيك

---

(١) حديث « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ... الحديث » تقدم فى الدعوات (٢) حديث « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر . (٣) حديث « ليس شىء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله » لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن إبراهيم النخعى : يقال الحمد أكثر الكلام تضعيفا .

لغرض نفسه لا لغرض ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ، ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك . فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات ماصار به مضطراً إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا وقدرت على شكره ، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا .

ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا .

فإذن لا تشكر الا بأن تعرف أن الكل منه، فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك : فهذا بيان هذا الأصل .

(الأصل الثانى) الحال المستمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا فى نفسه شكر على على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا وبالإنعام ، ولعل هذا ما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول : الملك الذى يريد الخروج الى سفر فأنعم بفرس على انسان يتصور أن يفرح المنعم بالفرس من ثلاثة أوجه (أحدها) أن يفرح بالفرس من من حيث أنه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس ، وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح (الوجه الثانى) أن يفرح به لامن حيث انه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليك واهتمامه بجانبه ، لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو عطاه غير الملك لكان لايفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك (الوجه الثالث) أن يفرح به ليركبه ليخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ، وربما يرتقى الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية ، بل هو طالب لأن لاينعم الملك بشىء من ماله على أحد الا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب ، فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه : وانما الشكر التام فى الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل الى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر الى وجهه على الدوام ؛ فهذا هو الرتبة العليا ، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن كل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج بل من حيث يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلى رحمه الله . الشكر رؤية المنعم

لا رؤية النعمة . وقال الخواص رحمه الله : شكر العامة على المطعم والملبس والشرب . وشكر الخاصة على واردات القلوب ، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب ، فإن القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه ، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة ويستحلى الأشياء المرة ، كما قيل : ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية ، أما الأولى فخارجة عن كل حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك ، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه :

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العينين : أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء ، والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل « كيف أصبحت ؟ » قال بخير ، فأعاد تعالى صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « هذا الذى أردت منك [1]» وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شىء إلى عبد مملوك لا يقدر على شىء ؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبر ! فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك ! فقال : تكلم، فقال : لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك ، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته .

فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل :

---

(١) حديث قال ﷺ لرجل « كيف أصبحت ؟ » فقال : بخير ، فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره ، فقال « هذا الذى أردت منك » أخرجه الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال فى الثالثة : أحمد الله . وهذا معضل ، ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال : أحمد الله إليك ، وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ، ورواه مالك فى الموطأ موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة . جامع لأكثر معانى الشكر لايشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار شكر النعمة : أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا ، إشارة إلى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط ، ويقول الجنيد : الشكر ان لاترى نفسك أهلا للنعمة . إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لأنهم لايتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عمالا يهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحالة السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه ، فلا ينبغى أن تظن أن ماذكرناه طعن عليهم وأنه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ فى أن اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى ، أم يتناول بعضها مقصوداً وبقية المعانى تكون من توابعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد فى هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة فى شىء ، والله الموفق برحمته .

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل فى حق منعم هو صاحب حظ فى الشكر ، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم فى القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التى هى اعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم فى صورة الخدم ، وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم ، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشىء من ذلك ، وهذا محال فى حق الله تعالى من وجهين :

(أحدهما) أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا سجداً ، فشكرنا إياه بما لا حظ له فيه يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا أو نسجد أو نركع ، إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ، ولا حظ لله تعالى فى أفعالنا كلها .

(الوجه الثانى) أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا ، إذ جوارحنا وقدرتنا وارادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمة فكيف نشكر نعمة بنعمة ، ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ، أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثانى شكرا الأول منا بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لايمكن شكر الشكر الا بنعمة أخرى فيؤدى الى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذا ين الوجهين . ولسنا نشك فى الأمرين جميعاً ، والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع ؟ فاعلم أن هذه الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام فقال : يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع ان أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك ؟ وفى لفظ آخر : وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى اليه : اذا عرفت هذا فقد شكرتنى . وفى خبر آخر : اذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكراً .

فان قلت : فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن ادراك معنى ما أوحى اليهم ، فانى أعلم استحالة الشكر لله تعالى ، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه ، فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا ؟ وكان الحاصل يرجع الى أن من لم يشكر فقد شكر ، وان قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى ، والفهم قاصر عن درك السر فيه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه .

فاعلم أن هذا فرع باب من المعارف وهى أعلى من علوم المعاملة ، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول: ههنا نظران :

نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب ، وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره وأن كل شىء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا ، لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام ، ومثل هذا الغير لاوجود له بل هو محال أن يوجد ، إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه ، وماليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ، فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود ألبتة ، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقى موجودا فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ، ولاقيوم إلا واحد ، ولايتصور أن يكون غير ذلك ، فاذن ليس فى الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد ، فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه ، فهو الشاكر وهو المشكور ، وهو المحب وهو المحبوب .

ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ فقال واعجباه أعطى وأثنى ، إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه ، ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد المهنى حيث قرىء بين يديه ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال : لعمرى يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه ، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك ، فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث انه ولده فقد أحب نفسه ، وكل مافى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته ، فان أحبه فما أحب الا نفسه ، واذا لم يحب الا نفسه فبحق أحب ما أحب ، وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى ، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * واذا مروابهم يتغامزون * واذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * واذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وماأرسلوا عليهم حافظين ﴾ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، اذ قال تعالى ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الارائك ينظرون) وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال (ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ فهذا أحد النظرين .

النظر الثانى : نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان : قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى اثبتوا أنفسهم ، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لاثبات لهم ولا وجود لهم ، وانما وجودهم من حيث أوجدوا ، وفرق بين الموجود وبين الموجد . وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد : فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو . والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان ، واذا كان كل من عليها فان ، فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الفريق الثانى : ليس بهم عمى ولكن بهم عور ، لأنهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلاينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما

أن الذى قبله جاحد تحقيقا ؛ فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين ، فأثبت عبداً وربا ، فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ، ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى ؛ فإن بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو فينمحى على رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله ، فيكون قد بلغ كمال التوحيد ، وحيث أدرك نقصا فى وجود ماسوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد ، وبينهما درجات لاتحصى ، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين ، وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار ، والأنبياء هم الكحالون ، وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض ، وترجمته قول « لا إله إلا الله » ومعناه أن لايرى إلا الواحد الحق ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون ، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون ، وهم على الطرف الأقصى المقابل بالطرف التوحيد ؛ إذ عبدة الأوثان قالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا ، والمتوسطون هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لايثبت ، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لايدوم ، والدوام فيه عزيز .

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له ﴿ واسجد واقترب ﴾ قال فى سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا احصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك(١) » فقوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقط ؛ فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله ، ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك » وهما صفتان ، ثم رأى فى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « أعوذ بك منك » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت نفسك » فقوله صلى الله عليه وسلم « لاأحصى » خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله « أنت كما أثنيت على نفسك » بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شىء هالك إلا وجهه ؛ فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو أن لايرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لايرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبى حتى استغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة(٢) » فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض : أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها ، فكان استغفاره لذلك . ولما قالت عائشة رضى الله عنها : أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ قال

---

(١) حديث قال فى سجوده « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ... الحديث أخرجه مسلم من حديث عائشة : أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ... الحديث .

(٢) حديث « إنه ليغان على قلبى ... الحديث » تقدم فى التوبة ، وقبله فى الدعوات .

« أفلا أكون عبدا شكورا(١) » أفلا أكون طالبا للمزيد فى المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾

وإذا تغلغلنا فى بحار المكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى مايليق بعلوم المعاملة ، فنقول الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذى وصفناه ، ولكن بينهم وبين الوصول إلى مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر فى ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لأجل زاده فى الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك . ثم يكون له حالتان :

إحداهما : أن يكون قصده من وصول العبد الى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية فى خدمته .

والثانية أن يكون للملك حظ فى العبد ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لايزيد فى ملكه لأنه لايقوى على القيام بخدمه تغنى فيه غناء ، وغيبته لا تنقص من ملكه ، فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو فى نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه ، فمنزل العباد من الله تعالى فى المنزلة الثانية لا فى المنزلة الأولى فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لايكون شاكرا فى الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما فى الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا وكافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه اليه مولاه فيما أحبه لأجله لالأجل نفسه وكفره أن لايستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيدفى بعده منه ؛ فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا فى الطريق فقد شكره مولاه إذ استعمل نعمته فى محبته : أى فيما أحبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته: أى استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه ، وإن جلس ولم يركب لافى طلب القرب ولا فى طلب البعد فقد كفر نعمته اذ أهملها ، وان كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بهاعن حضرته ،وإنما سعادتهم فى القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى اذ قال ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * الا الذين آمنوا ﴾ الآية ، فإذن نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها فى معصيته فقد كفر لاقتحامه مايكرهه مولاه ولا يرضاه له ؛ فان الله لايرضى لعباده الكفر والمعصية ، وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ماخلق فى الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى ؛ فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها فى طريق البعد فهو كافر جار غير محبة الله تعالى ، فالمعصية والطاعة تشملها المشيئة ولكن لاتشملها المحبة والكراهة ، بل رب مراد

---

(١) حديث عائشة لما قالت له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء ... الحديث ، وراه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث ، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو فى الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة .

محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا الإشكال الأول ، وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضا ينحل الثانى ، فانا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة فى وجه محبة الله فاذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد ، وفعلك عطاء من الله تعالى ، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه اليك ، فهو الذى أعطى وهو الذى أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته ، فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجوب له ، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده . ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك ، فوصفك بأنك شاكر اثبات شيئية لك وأنت شيء ، إذ جعلك خالق الأشياء شيئا وانما أنت لا شيء اذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك ، فأما باعتبار النظر الى الذى جعل الأشياء شيئا فانت شيء اذجعلك شيئا ؛ فان قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقيا ، والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له[1] » لما قيل له : يارسول الله ففيم العمل اذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟ فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وان كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض .

وقوله « اعملوا » وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله ؛ وهو سبب لعلم الخلق نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى ، والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة ، وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى ، وهو سبب لحركة الأعضاء وهى أيضا من أفعال الله تعالى ، ولكن أفعاله سبب للبعض أى الأول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض أذ لا يخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب لبعض : أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة الا جوهر ولا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهد شرط الحصول لغيره ، وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذى ذكرناه .

فان قلت : فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما الينا شيء فكيف نذم وإنما الكل الى الله تعالى .

فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا ، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف ، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول الى جوار الله ، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها ، فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسها الى الجنة ،ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ، ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء ؛ فاذا لم يسمع لم يعلم ، واذا لم يعلم لم يخف، واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم أجمعين ،فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل ، فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الأسباب ،وهو تسليط العلم والخوف عليه ،وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ،والمجرمون

---

(١) حديث « أعملو فكل ميسر لما خلق له » من حديث على وعمران بن حصين .

يقادون إلى النار قهرا ، ولا قاهر الا الله الواحد القهار ، ولا قادر الا الملك الجبار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف ؛ فنعوذ بالله الحليم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك .

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله عما يكرهه ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو استعمالها فى مكارهه . ولتميز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان :

(أحدهما) السمع ، ومستنده اليه الآيات والأخبار .

(والثانى) بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز ؛ فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ، ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد ؛ فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . أما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله فى كل موجود خلقه ، اذ ما خلق شيئا فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب ، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية .

أما الجلية فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار : والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة ، وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بانواع النبات مطعما للخلق ومراعى للأغنام ، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التى تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذى يقصرون على فهمه ، اذ قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ الآية وأما الحكمة فى سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية وتطلع عليها كافة الخلق ، والقدر الذى يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار اليه قوله تعالى ﴿ انا زينا السماء الدنيا بزينة الكوكب ﴾ فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة إلى ألف الى عشرة آلاف ؛ وكذا أعضاء الحيوان تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بأن العين للابصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشى . والرجل للمشى لا للشم .

فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس ، والذين يعرفونها لا يعرفون منها الا قدرا يسيرا بالإضافة الى ما فى علم الله تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ فاذن كل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ولا على الوجه الذى أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ؛ ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، اذ الإبصار يتم بهما . وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما . فقد استعملهما فى غير ما أريدتا به . هذا لان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به فى الدنيا والتجافى عن غرور الدنيا . ولا أنس

إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا ، فكل ذلك لأجل البدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فلذلك قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق ﴾ الآية ؛ فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لابد منها لإقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثالا واحد الحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامنفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذلا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة . وكذا من يشتري دارا بثياب أو عبدا بخف أو دقيقا بحمار ، فهذه الأشياء لاتناسب فيها فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جدا ، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يسوى مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان .

وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لاغرض له فلا ينتظم الأمر ، فإذن خلقهما الله تعالى لتتداولها الأيدى ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما عزيزان في أنفسهما ولاغرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ، لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء ، والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها ، كالمرآة لالون لها ، وتحكى كل لون فكذلك النقد لاغرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض ، وكالحرف لامعنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره فهذه هي الحكمة الثانية ، وفيهما أيضا حكم بطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لايليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما ، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه اذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولها الأيدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب ، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لاحرف فيه ولا صوت الذى لايدرك بعين البصر بل بعين البصيرة - أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكل

من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز ، لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه ،وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد ، وإنما الأوانى لحفظ المائعات ، ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له : من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم[1] ، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض فى عينهما ، فاذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ماوضع له ظلم ، ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده ، فإنهما وسيلتان الى الغير لا غرض فى أعيانهما ، وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون : ان الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره وكموقع المرآة من الألوان ؛ فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز ، وتقييد الحاكم والبريد الموصل الى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم ، فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم .

فان قلت: فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر: ولم جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل . اذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا . فى المنع منه مايشوش المقصود الخاص به . وهو تيسر التوصل به الى غيره .

وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يستغل به تاجر فإنه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه . ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم الى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه . فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس اليه الا أن يكون أحدهما أجود من الآخر ، وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد ، وإن طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلاجرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء . لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه . ومالا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر الى مضافات دقيقة فى صفاته ، وانما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة فى أعيانها وحقها أن لا تقصد .

وأما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا الا مسامح قاصد الإحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم لأنه اضاعة خصوص المسامحة واخراجها فى معرض المعاوضة ، وكذلك الاطعمة خلقت ليتغذى بها فلا ينبغى أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ويؤخر عنها الاكل الذى أريدت له . فما خلق الله الطعام الا ليؤكل والحاجة إلى الاطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج ولا يعامل

---

(١) حديث « من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم » متفق عليه من حديث مسلمة ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

على الاطعمة الا مستغن عنها : اذمن معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة ، وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه ، فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ، ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه فى كتاب آداب الكسب ؛ نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لايسد مسد الآخر فى الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لاتسمح به إلا عند التفاوت فى الجودة ؛ ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد .

وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوى الردىء فى أصل الفائدة ويخالفه فى وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام ، فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أحوى من جميع ما أوردناه فى الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصيص بالأطعمة دون المكيلات، إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ، ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات ، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن ينضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء ، وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لايقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ، ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص ، فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا، فلذلك قال الله تعالى ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ولأن أصول هذه المعانى لاتختلف فيها الشرائع وإنما تختلف فى وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثير ، والداخل فى الحدود داخل فى التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية ، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين ، فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغى أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولكن لاتصادف جواهر الحكم فى قلوب هى مزابل الشهوات وملاعب الشياطين ، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال ﷺ « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء[1] »

وإذ عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه اما شكر وإما كفر إذ لايتصور أن ينفك عنهما ، وبعض ذلك نصفه فى لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر ، فأقول مثلا : لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله لك اليدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه فى الغالب التشريف والتفضيل ، وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل ، ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال : بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذا بصقت مثلا فى جهة القبلة أو استقبلتها فى قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى فى خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متسعك فى حركتك وقسم الجهات إلى مالم يشرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه . استمالة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم فى الصوم .

لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك فى تلك الجهـة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك ، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهى شريفة كالطاعات وإلى ما هى خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق ،فاذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التى بوضعها كمال عبادتك ، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيسه حظ ، والبداءة فى الحظوظ ينبغى أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل،وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها ، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر فى هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون فى ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها ، فقبيح أن يقال : الذى شرب الخمر وأخذ القدح بيسراه قد تعدى من وجهين :أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ، ومن باع خمرا فى وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين : (أحدهما) بيع الخمر ، والآخر البيع فى وقت النداء .ومن قضى حاجته فى محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب فى قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه .

فالمعاصى كلها ظلمات بعضها فوق بعض فيضمحق بعضها فى جنب البعض ، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية فى نفسه .

فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه فى الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة ، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثر فى العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذى هو مستقر الشياطين ، وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمةالله تعالى فى خلق الأشجار وخلق اليد أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل ، فان كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان ، فانهما جميعا فانيان هالكان ، فافناء الأخس فى بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات والأرض جميعا منه ﴾ .

نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا ، لأن كل شجرة بعينها لا تفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفى بحاجة واحده،ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما،فصاحب الاختصاص هو الذى حصل البذر ووضعه فى الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك،فان نبت ذلك فى موات الأرض لا بسعى آدمى اختص بغرسه أو بغرسه ، فلابد من طلب اختصاص آخر وهو السبق الى أخذه ، فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض، إذ لاملك إلا ملك الملوك الذى له ما فى السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم ،كالملك ينصب مائدة لعبيده،فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبدآخر وأراد انتزاعها

من يده لم يمكن منه لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ـ فإن اليد أيضا مملوك ـ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفى بحاجة كل العبيد فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب الترجيح والاختصاص ، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله فى عباده ، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم ، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا فى حد فتاوى الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إياهم لا يدل على أن اللهو واللعب حق ، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار فى الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه ، إذ قال تعالى ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التى بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة .

فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر ، واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا تفى إلا بالقليل ، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى: ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ وفرح إبليس لعنه الله بقوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأمورا أخر وراء ذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مباديها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبها يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير .

فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة فى كل شىء . وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة ، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ، ولكن الإشكال باق : وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى ، فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى ؟ فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات ، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير ويجحدها من عجز عن الإيضاع فى السير فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير فنقول : إن الله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادى إشراقها ، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ولكن لضعف فى أبصار الخفافيش ، فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادىء حقائقها شيئا ضعيفا جدا ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على

النطق فقلنا لله تعالى صفة هى القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ، ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام وخصوص صفات .

ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت عبارة المشيئة ، فهى توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التى هى حروف وأصوات المتفاهمين بها .

وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق الى المنتهى الذى هو غاية حكمتها . إلى ما يقف دون الغاية .

وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئه لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته الكراهة ، وقيل : إنهما جميعاً داخلان فى وصف المشيئة ، ولكن لكل واحد خاصة أخرى فى النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة ، منهما أمرا مجملا عند طالبى الفهم من الألفاظ واللغات ، ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور .

فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة ، فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب .

فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال ، وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمه الى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه محاسن ثيابه فإذا تمم زينته قال ياجميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة .

فهكذا كانت الأمور فى الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبحث بل عن إراده وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب ، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الآمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادى إلى غير نهاية .

وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء ومقدر ، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفضيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل ، وكان بعضهم لقصوره لايطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه ؛ فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم اسكنوا فا لهذا خلقتم (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبساً من نور الله تعالى فى السموات والأرض ، وكان زيتهم أولا صافياً يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، فسته نار فاشتعل نورا على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هى عليه فقيل لهم : تأدبو بآداب الله تعالى واسكنوا ، وإذا ذكر

القدر فأمسكوا[(١)] فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب ... كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلا له ، وإذا كنت أهلاله فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك ، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حد ما ؛ فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر ؛ فهذه أمور نسبة السير عليها الى السير على ماهو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء الى المشى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم . فأما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ؛ ولذلك قيل للنبى ﷺ : إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء ! فقال ﷺ « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء[(٢)] » فهذه رموز وإشارات الى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها.

وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ماخلق الجن والإنس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين ، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ، ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة ، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى غضب عليه ، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه ، وعندك فى العادة له مثال ، فالملك اذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا الى أحسنهما وأكملهما وأحبهما اليه .

ولا ينبغى أن تقول «هذا فعلى ولم يكون فعله دون فعلى ؟» فانك أخطأت اذ أضفت الى نفسك ، بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالتخصص المكروه والفعل المحبوب اتماماً للعدل ؛ فان عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله ؛ فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب

---

(١) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم فى العلم ، ولم يصرح المصنف بكونه حديثا . (٢) حديث قيل له : يقال إن عيسى مشى على الماء قال « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء » هذا حديث منكر لا يعرف هكذا ، والمعروف ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال : فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر ، فانطلقوا يطلبونه ، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء ، فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء . وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل « لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال » .

حركاتك فى التعبير هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة ؛ إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن مايظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت ، فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنما أنت مثل الصبى الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهى مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر فى ظلام الليـــل ورءوسها فى يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد .

وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربما لايعلمون كيف تفصيله ، والذى يعلم بعض تفصيله لايعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر اليه والجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ، ينظرون إلى الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فيحيلون عليها ، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لايعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف بأشخاص أهل الأرض لاتدرك تلك الخيوط لدقتها بهـذه الأبصار الظاهرة ، ثم شاهدوا رءوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها ، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدى الملائكة المحركين للسموات ، وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كى لايعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من القدر والأمر فقيل ﴿ خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم . وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصـاص الراسخين فى العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى ﴿ يتنزل الأمر بينهن ﴾ فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتمونى ، وفى لفظ آخر : لقلتم إنه كافر .

ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه ، فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول :

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مســـتعملا فى إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم الى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب ، وما منهم إلا وله مقام معلوم ، وأعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام ، وإنما علو درجتهم لأنهم فى أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعـالى بهم الأنبياء عليهم السلام ، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ، ويلى درجتهم درجة الأنبياء فإنهم فى أنفسهم أخيار ، وقد هـدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته ، وأعلاهم رتبة نبينا ﷺ وعليهم ، إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم فى أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحـد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا ﷺ كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه كمل به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبيـاء ، ثم يلى العلماء والسلاطين الصالحون الذين صلحوا دينهم ونفوسهم فقط ، فلم تتم حـكمة الله بهم بل فيهم ، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع .

واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي ﷺ « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون وتفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر[1] » . وقال سهل: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ، ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل : أي الناس ، فقيل : كنا نرى أن شر الناس السلطان ؛ فقال مهلا ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ، ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه ، وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون .

الركن الثاني من أركان الشكر : ماعليه الشكر

وهو النعمة ، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر ، كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب .

بيان حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية ، وتسمية ماسواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز ، كتسمية السعادة الدنيوية التي لاتعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض ، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق ، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضى الى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات :

(القسمة الأولى) أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ماهو نافع في الدنيا والآخرة جميعا : كالعلم وحسن الخلق وإلى ماهو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق ؛ وإلى ماينفع في الحال ويضر في المآل : كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى مايضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل : كقمع الشهوات ومخالفة النفس ، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق اليه . والضار في حال النافع في المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال : ومثاله

---

(١) حديث « سيكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة « يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون » ورواه الترمذي بلفظ « سيكون عليكم أئمة » وقال حسن صحيح ، وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر « السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو خف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » وأما قوله « وما يصلح الله بهم أكثر » فلم أجده بهذا اللفظ ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله : اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول — فذكر حديثا فيه « والإمارة الفاجرة خير من الهرج » رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

الدواء البشع فى الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة ، فالصبى الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه اليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه ؛ فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه اليها ، فان الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس اليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له ، ولو عقل لعلم أن الأم عدوا باطنا فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل ، فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو .

(قسمة ثانية) اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب ، ولكن تنقسم إلى نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى ماضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى مايكافىء ضرروه نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص ؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفعه فى سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه .

(قسمة ثالثة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لا لغيره ، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره ، فالأول : ما يؤثر لذاته لا لغيره : كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التى لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها . الثانى : ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته : كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة ، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبه الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال . الثالث: مايقصد لذاته ولغيره: كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشىء تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة ، فاذن المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى أنفسهما من حيث انها جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل اليه إلا بهما ، فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة .

(قسمة رابعة) اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى نافع ولذيذ وجميل ، فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال ، والنافع هو الذى يفيد فى المآل ، والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الأحوال ، والشرور أيضا تنقسم الى ضار وقبيح ومؤلم ، وكل واحد من القسمين ضربان : مطلق ومقيد ؛ فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة ، وأما فى الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم ، وإنما يحس الجاهل بألم جهله اذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه ، فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك

الكبر وذل التعلم ، ومثل هذا الشخص لايزال فى عذاب دائم لامحالة . والضرب الثانى : المقيد ، وهو الذى جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض ، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ، ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له فإنه لايهتم بالعاقبة فيستريح فى الحال إلى أن يحين وقت هلاكه ، ورب نافع من وجه ضار من وجه : كإلقاء المال فى البحر عند خوف الغرق ، فإنه صار للمال نافع للنفس فى نجاتها . والنافع قسمان : ضرورى كالإيمان وحسن الخلق فى الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل إذ لايقوم مقامها ألبتة غيرهما ، وإلى ما لايكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه .

(قسمة خامسة) اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات .

أما العقلية فكلذة العلم والحكمة ، إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها : أما قلتها فلأن العلم لايستلذه إلا عالم ، والحكمة لايستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم .

وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ودائمة لا تمل ، فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لايتصور أن تمل وتستثقل ، ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد إذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه : أن العلم والعقل لايحتاج إلى أعوان وحفظه بخلاف المال ، إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها ، والعلم لاتمتد إليه أيدى السراق بالأخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه فى روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا ، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل فى كل حال أبدا ، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة ، ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع . إن سماه خيرا فى مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ، فإما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لايدرك حلاوة العسل ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لايدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن ، وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولااستطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحى باطنه كالطفل ، واما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، واما من مرض بسبب اتباع الشهوات : وقوله تعالى ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ اشارة الى مرض العقول . وقوله عز وجل ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ اشارة الى من لم يحى حياة باطنة ، وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الأحياء ؛ ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين و ان كانوا موتى بالأبدان الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء ، وذلك موجود فى الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة : ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ؛ وهذه أكثرها وجودا وهى أخسها ؛ ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة ؛ وهو

أشدها التصاقا بالمتغافلين ، فان جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله ، وهذه رتبة الصديقين ، ولاينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب ، وآخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة .

وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون : فأما قمعها بالكلية ـ حتى لايقع بها الإحساس على الدوام وفى اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لايقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ، ولكن ذلك لايدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدو ، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام :

قلب لايحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لايدرى ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه فى بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة .

أما الأول فان كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد .
وأما الثانى فالدنيا طافحة به .

وأما الثالث والرابع فموجودان ولكن على غاية الندور ، ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا ، وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة ، وإنما تكون كثرته فى الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام ، فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادى ملك الاخرة والملك عزيز والملوك لايكثرون ، فكما لايكون الفائق فى الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من دونهم ، فكذا فى ملك الاخرة ، فان الدنيا مرآة الاخرى ، فانها عبارة عن عالم الشهادة ، والاخرة عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة ، والصورة فى المرآة وإن كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فانها أولى فى حق رؤيتك ، فانك لاترى نفسك ، وترى صورتك فى المرآة أولا فتعرف بها صورتك التى هى قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة ، فالقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة والقلب المتأخر متقدما ، وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم ، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت ، فن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلاينظر فى شىء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال ﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس فى عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا ، فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك ، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ، ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين ، وعين اليقين لايكون إلا فى الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ولكن الذين قد وفوا حظهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ﴾ أى فى الدنيا ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى فى الآخرة . فاذن قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لايكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا .

(قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم : اعلم ان النعم تنقسم إلى ماهى غاية مطلوبة لذاتها وإلى ماهى مطلوبة لأجل

الغاية ، أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لاجهل معه ، وغنى لافقر بعده ،وهى النعمة الحقيقية ، ولذلك قال رسول الله ﷺ «لاعيش إلاعيش الآخرة(١)» وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس ، وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدة الضر ، وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك عند إحداق الناس به فى حجة الوداع(٢) . وقال رجل : إنى أسألك تمام النعمة فقال النبي ﷺ « وهل تعلم ماتمام النعمة ؟ قال : لا ، قال : تمام النعمة دخول الجنة(٣) »

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس ، وإلى مايليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى ، وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية ، فهى إذن أربعة أنواع :

(النوع الأول) وهو الأخص الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق ، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله ، وإلى علوم المعاملة . وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ولا تقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ، إذ قال تعالى ﴿ ان لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح ، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان ، وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعدل به كفتا الميزان ، فاذن الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى أربعة : علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفة . وعدالة . ولايتم هذا فى غالب الأمر الا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة: الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة : المال والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة ولا ينتفع بشى من هذه الأسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ماينا سب الفضائل النفسيه الداخلة وهى أربعة هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر اذا قسمناها الى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة الى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لاسبيل الى الوصول الى سعادة الآخر ألبتة الا بهما ، فليس للإنسان الا ماسعى وليس لأحد فى الآخرة الا ماتزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التى تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق الى صحة البدن ضرورى : وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسيه والبدنيه الى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل ، فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة .

فان قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشيره ؟ فاعلم أن هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود . أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية

---

(١) حديث قوله عند حفر الخندق « لا عيش إلا عيش الآخرة » متفق عليه من حديث أنس .

(٢) حديث قوله فى حجة الوداع « لا عيش إلا عيش الآخرة » رواه الشافعى مرسلا ، والحاكم متصلا وصححه وتقدم فى الحج . (٣) حديث قال رجل : اللهم إنى أسالك تمام النعمة ... الحديث ، أخرجه الترمذى من حديث معاذ بسند حسن .

كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال ﷺ «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[١] وقال ﷺ «نعم العون على تقوى الله المال»[٢] وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال ، ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات .

وقال بعض الحكماء ـ وقد قيل له ما النعيم ؟ فقال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لاعيش له . قيل زدنا ! قال : الأمن ، فإنى رأيت الخائف لاعيش له . قيل زدنا ! قال : العافية ، فانى رأيت المريض لاعيش له . قيل زدنا ! قال : الشباب ، فانى رأيت الهرم لا عيش له . وكأن ماذكر إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . ولذلك قال ﷺ « من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[٣] » وما الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما ، إذ قال ﷺ « نعم العون على الدين المرأة الصالحة[٤] » وقال ﷺ فى الولد «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ... الحديث»[٥] وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد فى كتاب النكاح وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدى فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه ما لو انفرد به لطال شغله . وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذن نعمة . وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا يستغنى عنه مسلم فانه لاينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله ، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ، ولذلك قيل : الدين والسلطان توأمان . قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب ، كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم ، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه ، فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الانبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه ، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ، ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى تسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .

---

(١) حديث « نعم المال للرجل الصالح » رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث « نعم العون على تقوى الله المال » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ، ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا : ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا . (٣) حديث « من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه ...الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله ابن محصن الأنصارى ، وقد تقدم . (٤) حديث « نعم العون على الدين المرأة الصالحة » لم أجد له إسنادا ، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . (٥) حديث « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وتقدم فى النكاح . (٦) حديث ما ناله ﷺ من أذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ... الحديث » وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس « لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال =

فان قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم ،ولذلك قال ﷺ «الأئمة من قريش[١]» ولذلك كان ﷺ من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام[٢] وقال ﷺ «تخيروا لنطفكم الأكفاء[٣]» وقال ﷺ « إياكم وخضراء الدمن» فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال « المرأة الحسناء فى المنبت السوء[٤]» فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب الى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله ﷺ وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل .

فان قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول : لاخفاء بشدة الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بهما ، ولذلك قال ﷺ « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى[٥] » وانما يستحقر من جملته أمر الجمال ، فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ، ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا : أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها ، وأما فى الآخرة فمن وجهين :

(أحدهما) أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الإجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، اذ هو نوع قدرة ، اذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح ، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها .

(والثانى) أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس ؛ لأن نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ، ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ؛ ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان مافى النفس. وقيل : مافى الأرض قبيح الا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال : الروح اذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه[٦] » وقال عمر

= طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال » قال الترمذى : معنى هذا حين خرج النبى ﷺ هاربا من مكة ومعه بلال ، وللبخارى عن عروة قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فدفعه عنه ... الحديث ، وللبزار وأبى يعلى من حديث أنس قال : لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشى عليه ، فقام أبو بكر فجعل ينادى : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله . وإسناده صحيح على شرط مسلم .

(١) حديث « الأئمة من قريش » رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح . (٢) حديث : كان ﷺ من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل ، هذا معلوم ، فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل ، واصطفى قريشا من كنانة » واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » وفى رواية الترمذى « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسمعيل » وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبى وداعة وحسنه «إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم» وفى حديث ابن عباس « ما بال أقوام يبتذلون أصلى ، فو الله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا » .

(٣) حديث « تخيروا لنطفكم » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة ، وتقدم فى النكاح . (٤) حديث « إياكم وخضراء الدمن » تقدم فيه أيضاً . (٥) حديث « أفضل السعادة طول العمر فى عبادة الله » غريب بهذا اللفظ ، وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال « من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح . (٦) حديث « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » أخرجه أبو يعلى من رواية إسمعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة ، وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ، ورواه ابن حبان من وجه آخر فى الشعب من حديث ابن عمر ، وله طرق كلها ضعيفة .

رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم. وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولادهم بالإمامة ، وقال تعالى ممتنا : وزاده بسطة فى العلم والجسم . ولسنا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة ، وإنما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه .

فإن قلت : فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد فى حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله ﷺ[1] وكذا العلماء قال تعالى: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروه﴾ وقال عزوجل ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرىء ما يحسنه . وقيل : المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا ؟

فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى الى إدراك العلوم على ما هى عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى ؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها ، إلا أن فيها فتنا ومخاوف ، فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع ، فإن أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، وإن أصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلىء ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ، ومدحه رسول الله ﷺ وقال «نعم العون على تقوى الله تعالى المال» وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق ، وهو المعنى بالجاه ، ولكن المنقول فى مدحهما قليل ، والمنقول فى ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ، ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالإضافة الى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك كما كان لرسولنا ﷺ ولا أن ينضاف إليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبى ما لا يضر المعزم ، نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض فى حفظ الولد ، فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد ، فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر ضررا كثيرا ، ولو أخذها لاخذها الصبى ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبى بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فان ذلك بما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة ، وكذلك الغواص إذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك ،

---

(١) حديث : ذم المال والجاه . أخرجه الترمذى من حديث كعب بن مالك « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه » وقد تقدم فى ذم المال والبخل .

فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر ، فان كان ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل ، فوجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه ، فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ، ولذلك قال ﷺ « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده [1] » وقال ﷺ « إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وانا آخذ بحجزكم [2] » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك ، فانهم لم يبعثوا الا لذلك ، وليس لهم في المال حظ الا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت ومافضل فلم يمسكوه بل أنفقوه ، فان الانفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق ، فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذتها ، فأما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم ، وحق كل مسافر أن لا يحمل الا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله ، فأما سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب [3] » ومعناه لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان فيمن روى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فإذن له ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقرى الضيف [4] . . . الحديث فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها ، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا يعدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه .

فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتأييد والتسديد ؟ فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد : وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ، ولا خفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل :

اذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فاما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها ؛ لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة الى ما فيه صلاح آخرته

---

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله « لولده » وقد تقدم (٢) حديث « إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم » متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « مثلى ومثل الناس » وقال مسلم « ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقمن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه » ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » . (٣) حديث « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال « بلغة » وقال « مثل زاد الراكب » وقال صحيح الإسناد قلت : هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين . وقال ابن ماجه « عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب » . (٤) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال : مره أن يطعم المسكين . . . الحديث ، أخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد ، قلت : كلا ، فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا .

ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فائده فى الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ، لذلك قال تعالى ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى » أى بهدايته ، فقيل : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا(١) وللهداية ثلاث منازل (الأولى) معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل ، لذلك قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فأسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول ، وهى مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، قال تعالى ﴿ فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ومن جملة المعميات :الالف والعادة وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالى ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ الآية . وعن الكبر والحسد والعبارة بقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء ، والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ والمراد بقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ والهداية الثالثة وراء الثانية :وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ،فيهتدى بها إلى مالايهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات ،وهوالذى شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة اليه وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ وهو المسمى حياة فى قوله تعالى ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ﴾ والمعنى بقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾ وأما الرشد فنعنى به العناية الالهية التى تعين الانسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبى إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يزيد الاستنماء لايسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لايدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد ، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهى نعمة عظيمة .

وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صواب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد صوب الصواب فى أسرع وقت ، فان الهداية بمجردها لا تكفى ، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشد لا يكفى ، بل لا بد من تيسرها الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما أنبعثت الداعية اليه الهداية محض فالتعريف ، والرشد هو تنبية الداعيه لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الاعضاء فى صوب السدود .

وأما التأييد فكأنه جامع للكل ، وهو عبارة وهو عبارة عن تقوية أمراه بالبصير من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج ، وهو المراد بقوله عز وجل ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وتقرب منه العصمة ، وهى

---

(١) حديث « ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله » متفق عليه من حديث أبى هريرة « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم « مامن أحد يدخله عمله الجنة ... الحديث » واتفقا عليه من حديث عائشة » وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

عبارة عن وجود الهى يسبح فى الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس ، وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فهذه هى مجامع النعم ، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير المتواضع المراعى والمعلم الناصح والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء ، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا إلى أن تنتهى بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب ، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لايحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ وبالله التوفيق .

بيان وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى

وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا ، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتأخرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التى بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة ، ولا بد من إرادة للحركة ، ولابد من علم بالمراد وإدراك له ، ولا بد للآكل من مأكول ، ولابد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه ؛ فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الارادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لاعلى سبيل الاستقصاء .

الطرف الأول : فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التى لاتنمى ولا تغذى ؛ فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض ، وهى له آلات ، فيها يجتذب الغذاء وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر ، إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر ، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة فى طلب الغذاء ، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس التى هى آلة الإدراك ، فأولها حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه ، وهذا أول حس يخلق للحيوان ، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إذا لم يحس أصلا فليس بحيوان ، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لايلاصقه ويماسه ، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لامحالة ، وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التى فى الطين فانها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب ، لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع ، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت

ناقصا كالدودة لاتقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل مايمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط ، فافتقرت إلى حس تدرك به مابعد عنك ، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية ، فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به مابعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها ، إلا أنه لولم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه .

وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب،فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات . لأنك لاتدرك بالبصر الاشيئا حاضرا ، وأما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع ، فاشتدت اليه حاجتك فخلق لك ذلك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات ، وكل ذلك ما كان يغنيك لولم يكن لك حس الذوق إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أومخالف فتأ كله فتهلك . كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه . وربما يكون ذلك سبب جفافها.

ثم كل ذلك لا يكفيك لولم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ، ولولاه لطال الأمر عليك ؛ فانك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرأ مخالفاً لك فتركته ، فاذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرمضر مالم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع حتى والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة . فلابد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا . حتى اذا أدركت الصفرة حكم أنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيا .وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها ،فلولم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا: فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلاتدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص اذا قيدت :وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها :ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت :اذ ليس لها الا الإحساس بالحاضر ، فأما ادراك العواقب فلا. فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل . وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها واعداد أسبابها. فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل: وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك . فتكون الحراس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان . والأخرى بأخبار الاصوات . والأخرى بأخبار الروائح : والأخرى بأخبار الطعوم . والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها . وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك . والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ . مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها ، اذ ليس له الا أخذها وجمعها وحفظها . فاما معرفة حقائق ما فيها فلا .

ولكن اذا صادف القلب العاقل الذى هو الامير والملك سلم الإنهاءات اليه مختومة . فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الأعضاء : مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى اتمام التدبيرات التى تعن له

فهذه سيافة نعمة الله عليك فى الإدراكات ، ولا تظنن أنا استوفيناها ، فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات ، والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية ، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة ، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم ، فهذا فى حس واحدة ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس ، بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة ، فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى : فى أصناف النعم فى خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ، فيبقى البصر والإدراك معطلا فى حقه ، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة ، فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء ، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ، ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزرع فانه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقية مرة ويقطع عنه الماء أخرى ، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض ، وكيفيه خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث ، وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحماً ودما ، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء : لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب ، فضلا عما تراه الآن ، ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الأكل وحده كى لا يطول الكلام ، فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ، فانه تأتيك المهلكات من الجوانب ، فلولم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، لبقيت غرضه للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء ، فان كل واحد يشتهى مافى يديك فتحتاج إلى داعية فى دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ، ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع فى الحال ، وأما فى المآل فلا تكفى فيه هذه الارادة ، فخلق الله تعالى لك ارادة أخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل . اذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة ، وهذه

الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبنى آدم كما أفردت بمعرفة العواقب ، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينيا ، وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

الطرف الثالث : فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة والات الحركة

اعلم أن الحس لايفيد إلا الإدراك ، والارادة لا معنى لها إلا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب ، فكم من مريض مشتاق إلى شىء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما . فلا بد من آلات للحركة وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا ؛ فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولاتعرف أسرارها ، فمنها ماهو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب ، ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان ، وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا ، فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع قوائم ، ومنها ماله رجلان ، ومنها مايدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفى مالم تتمكن من أن تأخذه ، فافتقرت إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات فتمتد وتنثنى إليك فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها فى صفين بحيث يكون الابهام فى جانب ويدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجتمعة أو متراكة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض . ثم خلق لها أظفارا وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لاتتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاتحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد فمن أين يكفيك هذا مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن ، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه ، فجعل الفم منفذا إلى المعدة مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة ، ثم ان وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين عن عظمتين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ، ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان الى عريضة طواحين كالأضراس ، والى حادة قواطع كالرباعيات ، والى مايصلح للكسر كالأنياب ، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا، وبذلك لايتم الطحن ؛ فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية ؛ واللحى الأعلى ثابتا لايتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى الا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى ؛ اذ يدور منه الأسفل على الأعلى ؛ فسبحانه ماأعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الاسنان أو كيف تستجره الاسنان إلى نفسها ، وكيف يتصرف باليد فى داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى

هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام ، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك .

ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء ، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه .

فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ، ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق ، وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية ، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد ، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر فى أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم ؛ فيستقر فيها ريثما يحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الأعضاء ، إلا أن حرارة الكبد هى التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ : إحداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ؛ ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء .

فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخلا فى تجويفه ، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوى ، فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية ، ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء ، فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد .

ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد ؛ إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ويصل الى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح الى سائر الأعضاء ، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور الحمرة ، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها ؛ وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره .

ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة . أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له فى ثقل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع ، فتنضغط حتى يندفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك.

وأما الطحال فإنه يحيل إلى تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها كل يوم شيئا الى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقى مع الثقل ، وأما الكلية فإنها تتغذى بما فى تلك المائية من دم وترسل الباقى إلى المثانة ، ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل .

ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها — لطال الكلام ، وكل ذلك محتاج اليه للأكل ولأمور أخر سواه ، بل فى الآدمى آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يا مسكين ، فانظر الى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر ،فإنك لاتعرف من نعمة الله سبحانه إلا الاكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها الا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك الا مايعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك ؟ وهذا الذى رمزنا اليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ماعرفناه حذرا من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة الى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر ، الا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى ﴿ وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ .

ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوم الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ،ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى الى جزء من أجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء ما يحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها ،كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت فلا يصل الى جزء الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته ؛ وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحله القلب ، ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود الذى فى باطن القلب كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج اذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفيء مهما انقطع غذاؤه ،وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت فينطفيء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفيء مع وجود الغذاء، فإنه لايقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به، وكما أن السراج تارة ينطفيء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفيء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل، وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء انسان لايكون الا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح ، وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح ،وكما أن السراج اذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح اذا انطفأ أظلم

البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح وهى أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿ لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ عز وجل : فتعسا لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر نعمته سحقاً .

فان قلت : فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال « قل الروح من أمر ربى [1] » فلم يصفه لهم على هذا الوجه * فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح ؛ فان الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها نحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا ، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه فى الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى فى الأعضاء به ، حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة ، فان هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التى هى الأصل وهى التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة فى وصفه إلا أن يقال : هو أمر ربانى كما قال تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربى ﴾ والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق . وأما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل فى ذكر مبادئ وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شىء من وصفه بل بنور آخر أعلى واشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال ، وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً ، فكما يدرك الصبى المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد ، وإنه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين . وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد . بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد . ولجناب الحق صدر وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ؛ وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الأمر الربانى ؛ فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة واستحال أن يصل الميدان ، فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل : لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا خزانة الاطباء ؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالإضافة الى هذا الامر الربانى كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالإضافه الى الملك فمن عرف الروح الطبى فظن انه أدرك الامر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك ، ولا يشك فى أن خطأه فاحش ، وهذا الخطأ أفحش منه جدا ؛ ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه . بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الامر شيئاً . ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته ، أما نسبته ففى قوله تعالى ﴿ من أمر ربى ﴾ وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى ﴿ ياأيتها النفس

---

(١) حديث : أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال « قل الروح من أمر ربى » متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم فى شرح عجائب القلب .

المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ ولنرجع الآن الى الغرض، فان المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الأكل .

الطرف الرابع : فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لاتحصى وأسباب متوالية لاتتناهى ، وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول ، فان الاطعمة إما أدوية واما فواكه واما أغذية ، فلنأخذ الاغذية فانها الاصل، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الاغذية فنقول : اذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا ، فما أحوجك الى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك ؛ فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى مايغتذى به كما خلق فيك ، فان النبات انما يفارقك فى الحس والحركة ولايخالفك فى الاغتذاء لانه يغتذى بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ، ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ، ولكن نشير الى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لايغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص. فكذلك الحبة لاتغتذى بكل شىء بل تحتاج الى شىء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا هواء . ومجرد الهواء لايصلح لغذائها . ولو تركتها فى الماء لم تزد . ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد . بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا اليه والإشارة بقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان الى طعامه : أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . . . ﴾ الآية ؛ ثم لايكفى الماء والتراب ، إذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثم الهواء لايتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وإنما إلقاحها فى ايقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك يغنيك لو كان فى برد مفرط وشتاء شات ، فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف ، فقد بان احتياج غذائه الى هذه الأربعة ، فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد ، اذ يحتاج الماء لينساق الى أرض الزراعة من البحار والعيون والانهار والسواقى ، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الانهار . ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لاترتفع اليها . فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه الى أقطار الارض وهى سحب ثقال حوامل بالماء . ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله فى الجبال والسحاب والبحار والامطار لايمكن احصاؤها . وأما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان . فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد . والحر عند الحاجة الى الحر ؛ فهذا احدى حكم الشمس ـ والحكم فيها أكثر من أن تحصى ؛ ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها . فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين . فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ؛ ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر

الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة ، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التى يعبر عنها بالزكام، فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ، ولا نطول فيما لا مطمع فى استقصائه ، بل نقول : كل كوكب فى السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب ، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لاتنى قوة البشر باحصائها ، ولولم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقوله عزوجل ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ وكما أنه ليس فى أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس فى أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة ، والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهى متعاونة تعاون أعضاء بدنك فى جملة بدنك ، وشرح ذلك يطول ، ولا ينبغى أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه فى أمور وجعلت أسبابا لها بحكم الحكمة ـ مخالف للشرع لما ورد فيه النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم(١) ، بل المنهى عنه فى النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها : وهذا كفر .

والثانى : تصديق المنجمين فى تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التى لا يشترك كافة الخلق فى دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ماهو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطا ، فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى فى الأرض وفى النبات والحيوان ليس قادحا فى الدين بل حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك : اخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء الايلومك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس . وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال : قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى لم يلزمك تكذيبه بذلك ، وقس بهذا سائر الآثار . إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول . فالمجهول لايجوز دعوى العلم فيه ، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس والمعلوم بعض معلوم لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فاذن الكواكب ما خلقت عبثا . بل فيها حكم كثيرة لاتحصى. ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ ثم قال ﷺ « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته(٢) » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل . ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته . فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفاق والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى . فان من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباله . فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى . فان

---

(١) حديث النهى عن تصديق المنجمين وعن علم النحوم ، أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس « من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » وللطبرانى من حديث ابن مسعود وثوبان « إذا ذكرت النجوم فأمسكوا » وإسنادها ضعيف ، وقد تقدم فى العلم . ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله ، أمورا كنا نصنعها فى الجاهلية كنا يأتى الكهان ! قال « فلا تأتوا الكهان ... الحديث »

(٢) حديث قرأ قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ثم قال « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أى ترك تأملها . أخرجه الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ « ولم يتفكر فيها » وفيه أبو جناب يحيى بن أبى حية ضعيف .

كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار ، فاذن المقصود أن غذاء النبات لايتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولايتم ذلك الا بالافلاك التى هى مركوزة فيها ، ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك يتمادى ذلك الى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه ،ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : فى نعم لله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الاطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد فى بعض الاماكن دون بعض . والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى ، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لايغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون فاما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الاطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب اليك ! وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى ، وانظر الى الإبل كيف خلقت ،والى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار جعل صبورا على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا اليك الأطعمة وسائر الحوائج ! وتأمل مايحتاج اليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج إليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز .

الطرف السادس : فى إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذى ينبت فى الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لايمكن أن يقضم ويؤكل ،وهو كذلك، بل لا بد فى كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض إلى أمور أخر لاتحصى ،واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول،فلنعين رغيفاواحداً،ولننظر الى مايحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للآكل من بعد إلقاء البذر فى الارض،فأول مايحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض، ثم الثور الذى ايثير لارض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسق الماء مدة ،ثم تنقية الارض من الحشيش ،ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية ،ثم الطحن،ثم العجن، ثم الخبز ، فتأمل عدد هذه الافعال التى ذكرناها وما لم نذكره ، وعدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التى يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره اوانظر الى أعمال الصناع فى إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار، وحداد وغيرهما ! وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرصاص والنحاس ! وانظر كيف خلق الله تعالى

الجبال والأحجار والمعادن ! وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة ! فإن فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع ، فابتدئ من الملك الذى يزجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة إلى عمل الإنسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان فى تلك الآلات ، حتى إن الإبرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى فى كل مرة منها عملا ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة ! فانظر إلى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشىء معا ويقطعانه بسرعة ، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكر ناثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى إصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها ؛ فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان ، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد ، أو عن الحجام الذى هو أخس العمال ، أو عن الحائك ، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ! فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء .

الطرف السابع

فى إصـــلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين الأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طبـــاع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ فلأجل الإلف وتعارف الارواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه ، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ، ففى جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة ، وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والاسباب وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها ، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الاسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد ، وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض ، وانظر كيف بعث الانبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه

ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين ! وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة ، والسلطان يصلح الصناع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الانبياء إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف ، وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الأسباب ، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ؛ ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ﴾ فان تكلمنا فباذنه انبسطنا ، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا . إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى ، لا نا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار .

الطرف الثامن

فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ماسبق من نعمة الله فى خلق الملائكة باصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحى إليهم ؛ ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش ؛ فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه دون مايجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما . واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لايغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة الى ماوراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر ؛ ثم يصير لحماً وعظما ؛ وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك ؛ والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار . فهى لاتتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ، ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لايصير طحينا ثم عجيناً ثم خبزاً مستديراً مخبوزاً إلا بصناع ، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصباً إلا بصناع والصناع فى الباطن هم الملائكة كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة ؛ فأقول : لابد من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم ، فان الغذاء لا يتحرك بنفسه . ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره . ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم . ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم . ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ؛ ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا . ولا بد من سابع يرعى المقادير فى الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعريض مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يبطل تجويفه . ويحفظ على كل واحد قدر حاجته ؛ فانه لوجمع مثلا من الغذاء على أنف الصبى مايجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته . بل ينبغى أن يسوق الى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها والى الأفخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته مايليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة

وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع ، بل لو لم يراع هذا الملك العادل فى القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبى فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فمراعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لايدرى مايقول ؛ فهذه هى الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح وفى الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ولا خبر لك منهم وذلك فى كل جزء من أجزائك الذى لايتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للايجاز ، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لايحيط بكنهه إلا الله تعالى ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب(١) أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به .

فإن قلت : فهلا فوضت هذا الأفعال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك . والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولا ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهرا ؟ .

فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقة الإنس ، وما من واحد منهم إلا وهو وحدانى الصفة ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل ، بل مثالهم فى تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس ، فإن البصر لايزاحم السمع فى إدراك الأصول ولا الشم يزاحمها ولا هما ينازعان الشم وليس كاليد والرجل فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب ولا كالإنسان

---

(١) حديث الأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ... ؟ ففى الصحيحين من حديث أبى ذر فى قصة الإسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح ، وفيه : حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها : افتح ... الحديث ، ولهما من حديث أبى هريرة « إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » وفى الصحيحين من حديث عائشة فى قصة عرضه نفسه على عبد ياليل « فنادانى ملك الجبال إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ... الحديث » ولهما من حديث أنس « إن الله وكل بالرحم ملكا ... الحديث » وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمى « مامن نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد ... الحديث » وفيه محمد بن صالح الطبرى وأبو بحر البكراوى واسمه عثمان ابن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف ، وللطبرانى من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف « إن لله ملائكة ينزلون فى كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة فى عنقها جرس » وللترمذى وحسنه من حديث ابن عباس : قالت اليهود يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » ولمسلم من حديث أبى هريرة : « بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة : أسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة ... الحديث»

الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز ، فإن هذا نوع من الأعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحدانى الصفة فلم يكن وحدانى الفعل ، ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته ، وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة ، بل هم مجبولون على الطاعة لامجال للمعصية فى حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجدا أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولافتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه ، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فانك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك أخرى ، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك ، فهذا يشبه من وجه ولكن يخالفه من وجه ، إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون ، فاذن هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك إليهما فى غرض الاكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها ، فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا بحيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما ، فان كل ماخلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة واحد من العباد قد أتم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمه الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ، ونعمة لله تعالى فى ترتيبها صفاً واحداً أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ومتشبثا الأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الاهداب نعمة أعظم من الكل : وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر . فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على حدقة كالمصقلة للمرأة فيطبقها مرة أو مرتين وقد نصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء إلى زوايا العين والاجفان، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح حدقيته ليصقلها من الغبار وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب . ولعلنا نستأنف له كتابا مقصود فيه ان أمهل الزمان وساعد التوفيق تسميه عجائب صنع الله تعالى ؛ فلنرجع الى غرضنا فنقول : من نظر الى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الاجفان ولاتقوم الاجفان الا بعين . ولا العين الا برأس ولا الرأس الا بجميع البدن . ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شىء من ذلك الا بالموت والسموات . ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشىء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فاذن قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد الا ويلعنه . ولذلك ورد فى الاخبار أن البقعة التى يجتمع فيها الناس اما أن تلعنهم اذا تفرقوا أو تستغفر لهم[1] وكذلك ورد أن العالم يستغفر

(١) حديث « إن البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم » لم أجد له أصلا .

له كل شيء حتى الحوت فى البحر[1] وأن الملائكة يلعنون العصاة[2] فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة الى أن العاصى بتظريفة واحدة جنى على جميع مافى الملك والملكوت ، وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه . وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام «يا أيوب مامن عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان: اللهم زده نعما على نعم ، فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة ، وعندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم » .

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك ، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم ، فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها ﴾ قال : إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان : أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها ؟ وكذا ورد فى الأثر : أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه .

وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب فاعتبر ماسواه من النعم به ، فان البصير لاتقع عينه فى العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك ، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع فى غير مطمع .

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد لله ، الشكر لله . ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لايعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم ، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما ، فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال ، والنعمة فى جميع الأحوال أولى بان تشكر فى بعضها ، فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره

---

(١) حديث « إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر » تقدم فى العلم . (٢) حديث « إن الملائكة يلعنون العصاة » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة : الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وان كان أخاه لأبيه وأمه .

أحس به وشكره وعده نعمة ، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم فى جميع الأحوال فلم يعده الجاهل نعمة ، وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما ، حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره إلى أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا : فقال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ فقال لا : فقال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال : أما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا !

وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له : تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدد عليه سوراً ثم قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سرى عنه .

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه فقال له : عظنى ! فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم فقال : لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال : نعم . قال : فلا تفرح بملك لايساوى شربة ماء .

فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ـ وقد ذكرنا النعم العامة ـ فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول : مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لايشاركه فيها أحد ، وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل والخلق ، والعلم .

أما العقل : فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به ، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره ، لانه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فإن أخذ الكنز من حيث لايدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لانه فى حقه كالباقى .

وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها ، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء .

وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ماهو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ! فإذن لكل عبد علم بأمر خاص لايشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لايشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لايطلع عليه أحد ، فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما مطلقا . وأما فى بعض الامور فلننزل عن هذه الطبقة الى طبقة أخرى أعم منها قليلا فيقول : مامن عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أموراً

لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا ، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر ، فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما فى أمر خاص ، فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما فوقه ، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه ، وما باله لا يسوى دنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة ! فينظر أبدا فى الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ، فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك ؟ فإن كان حال أكثر الخلق فى الدين خير منه ، وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال ﷺ « من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين الى ما هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا . ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه وفى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا[١] » فإذن كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ، ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به   فى دينه ثم دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا   ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال ﷺ « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله[٢] » وهذا إشارة الى نعمة العلم . وقال ﷺ « إن القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه [٣] » وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله[٤] » وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن [٥] » وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى[٦] » وقال بعض السلف : يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة « إن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه » وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك   كذا الصحو والأمن
وأصبحت أخا حزن   فلا فارقك الحزن

---

(١) حديث « من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب ، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف . (٢) حديث « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » لم أجده بهذا اللفظ . (٣) حديث « إن القرآن هو الغناء الذى لا غناء بعده ولا فقر معه » أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ « إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه » قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

(٤) حديث « من آتاه الله القرآن فظن أن أحد أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » أخرجه البخارى فى التاريخ من من رجاء الغنوى بلفظ « من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم » وقد تقدم فى فضل القرآن ، ورجاء مختلف فى صحبته . وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن » تقدم فى آداب التلاوة . (٦) حديث « كفى باليقين غنى » رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ، ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه ، وقد تقدم .

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر ﷺ عن هذا المعنى فقال «أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه : فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها[1]» ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الإيمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم ، بل البصير ينبغى أن لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والإيمان ، بل نحن نعلم من العلماء لو سلم اليه جميع مادخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق الى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك : لم يأخذه ، وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به الى قرب الله تعالى فى الآخرة ، بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله .

فخذ هذه اللذات فى الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به ، لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها ، هكذا كانت الى الآن ، وهكذا تكون ما بقى الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى اذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت ، كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغنى، حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها فى تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر اليها فى لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره ، فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغى أن نقول ان المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها ، فان المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضى الى لذة فى الآخرة وتألم المقبل يفضى الى الألم فى الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ﴾ فاذن انما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة .

فان قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر ؟ فأقول : أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا اليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها ، فسبيله أن ينظر أبدا الى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية ، اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التى تقام فيها الحدود ، فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل فى صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء الى الموتى ان يردوا الى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليتدارك ، وأما من أطاع فليزد فى طاعته ، فان يوم القيامة يوم التغابن ، فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبنى اذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات ، وأما العاصى فغبنه ظاهر ، فاذا شاهد المقابر وعلم أن أحب الأشياء اليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر ما بقى له ، فيصرف بقية العمر الى ما يشتهى أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى فى بقية العمر ، بل فى الإمهال فى كل نفس من الأنفاس ، واذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر الى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة ، فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى

---

(١) حديث « من أصبح آمنا فى سربه ... الحديث » تقدم غير مرة .

فعساها تشكر . وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة ، فكان قد حفر فى داره قبرا فكان يضع غلا فى عنقه وينام فى لحده ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا ﴾ ثم يقوم ويقول : ياربيع قد أعطيت ما سألت ،فاعمل قبل تسأل الرجوع فلا ترد .

ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر : أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم . وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفى الخبر « ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال[1] » وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر

فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول : ماذكرته فى النعم إشارة إلى أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا ، فما معنى الصبر إذن . وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء . وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة ، فكيف يتصور الشكر على البلاء ، وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعى ألما والشكر يستدعى فرحا وهما يتضادان . وما معنى ماذكرتموه من أن الله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة ، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان ، ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء . ولكن ،ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه : أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى ، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما ، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه : كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه ، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد : أما المطلق فى الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا .

وأما فى الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التى لا تكون بلاء فى الدين بل فى الدنيا ، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة . وأما البلاء المطلق فى الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية ، بل حق الكافر أن يترك كفره . وكذا حق العاصى ، نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه ، والعاصى يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية ، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته ، فاذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر ، فان الغنى مثلا يجوز أن يكون

---

(١) حديث « ما عظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه ... الحديث » أخرجه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ « الاعظمت مؤنة الناس عليه ، فمن لم يحتمل تلك المؤنة ... الحديث » ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وقال : انه موضوع على حجاج الأعور .

سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده ، والصحة أيضا كذلك ، فما من نعمة من هـــذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه ، فكذلك مامن بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله ، فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض ، ولوصح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى ؛ قال الله تعالى ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ﴾ وقال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمى أحدكم مريضه [1] » وكذلك الزوجة والولد والقريب ، وكل ماذكرناه فى الاقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعما فى حقهم ، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى . ولكن قد تكون على العبد فى بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة . مثاله : جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه . إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه ؛ وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه . اذلو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام . وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه . اذلو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة . بل جهله بالخصال المحمودة فى غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر الى ايذائه واهانته . ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لامحالة أعظم . فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف . ومنها : ابهام الله تعالى أمر القيامة . وابهامه ليلة القدر . وساعة يوم الجمعة . وابهامه بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم . وحيث قلنا ان لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق ، وذلك مطرد فى حق كل أحد . ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التى يخلقها فى بعض الناس ، وهى أيضا قد تكون نعمة فى حق المتألم بها ، فإن لم تكن نعمة فى حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به ، وألم الكفار فى النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها ، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا فى آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبذولة ، ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فاذن قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع على جميع عباده أو على بعضهم ، فاذن فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على المبتلى أو على غير المبتلى . فاذن كل حالة توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة . فيجتمع فيها على العبد وظيفتان : الصبر والشكر جميعا .

فان قلت : فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ اذ لا صبر إلا على غم ، ولا شكر إلا على فرح ؟ فاعلم أن الشيء الوحيد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام : والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها . (أحدها) أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله

(١) حديث « إن الله ليحمى عبده من الدنيا ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا .

الثانى : أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه : قال رجل لسهل رضى الله عنه : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى! فقال اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال : اللهم لاتجعل مصيبتى فى دينى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ماابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به . وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله ، فضرب ؛ فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال : اشكر الله ،فجيء بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى ، فأرسل إليه فقال اشكر الله ، فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال : اشكر الله فقال : الى متى هذا ، وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ فاذن ما من إنسان قد أصيب ببلاء الا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك احداهما فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم : لاتخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ! فقال : أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجر .

فان قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟

فاعلم أن الكافر قد خبىء له ماهو أكثر ، وانما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ وأما المعاصى فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ، ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال تعالى فى مثله ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ، ثم لعله قد أخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم تشكر الله تعالى على ذلك .

وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر : وهو أنه ما من عقوبة الا وكان يتصور أن تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ، ومصيبة الآخرة تدوم ، وان لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين ، ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، اذ قال رسول الله ﷺ « ان العبد اذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا »(١) .

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب وكان لابد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها . فهذه نعمة .

---

(١) حديث « إن العبد إذا اذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث على « من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به » فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ... الحديث » لفظ ابن ماجه . وقال الترمذى « من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا » وقال حسن . وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت « ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ... الحديث » .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين ، أحدهما : الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبي ، فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره ، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التى هى أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الإنسان فى بعض الأحوال، بل العقل الذى هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى فما من شيء هذه الأسباب يوجد من العبد الا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره على البلايا اذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوصنى قال «لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك[1]» ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك ، فسئل فقال « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له[2]» الوجه الثانى : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته ، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر[3] » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها ، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى ، وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى ، بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق ؟ فإذن فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، وأما التألم فهو ضرورى ، وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا ، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح ، فكل بلاء فى الأمور الدنيويه مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل، بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة ، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة ، فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ، ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة

---

(١) حديث : قال له رجل أوصنى قال « لا تتهم الله فى شيء قضاه عليك » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى أوله ، وفى إسناده ابن لهيعة . (٢) حديث : نظر إلى السماء فضحك ، فسئل فقال «عجبت لقضاء الله للمؤمن ... الحديث» أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء ، وضحكه « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث سعد بن أبى وقاص « عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ... الحديث » (٣) حديث « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أخرجه مسلم من أبى هريرة . وقد تقدم

ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة . وحكى أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين صبر الرعية بعد صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس : ماعزانى أحد أحسن من تعزيته .

والأخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة . قال رسول الله ﷺ «من يرد الله به خيرا يصب منه[١]» وقال ﷺ قال الله تعالى «إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا» وقال عليه السلام «مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله ذلك به» وقال ﷺ قال الله تعالى «من سلبته كريمتيه لجزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى» وروى ان رجلا قال يارسول الله ذهب مالى وسقم جسمى فقال ﷺ «لاخير فى عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسمه، إن الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره[٢]» وقال رسول الله ﷺ « ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك[٣]» وعن خباب بن الارت قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برداته فى ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا : يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرا لونه ثم قال « إن من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له فى الارض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه[٤]» وعن على كرم الله وجهه قال : أيما رجل حبسه السلطان ظلما فهو شهيد ، وإن ضربه فمات فهو شهيد . وقال ﷺ «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على مايفنى وتذرون مايبقى ، ألا حبذا المكروهات الثلاث : الفقر والمرض والموت . وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف وان دعاه ثانيا فقال يارب قال الله تعالى : لبيك عبدى وسعديك لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك أو دفعت عنك ماهو خير وادخرت لك عندى ماهو أفضل منه، فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل الاعمال فوفوا أعمالهم بالميزان : أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ، ثم يؤتى بأهل البلاء

---

(١) حديث « من يرد الله به خير يصب منه » رواه البخارى من حديث أبى هريرة .
(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالى وسقم جسدى فقال « لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يقسم جسده، إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ، وإذا ابتلاه صبره » أخرجه ابن ابى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد فيه لين (٣) حديث« إن الرجل ليكون له الدرجة عندالله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك »رواه أبو داود فى رواية ابن داسه ، وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمى عن أبيه عن جده ، وليس فى رواية اللؤلؤى . ورواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى من هذا الوجه ، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقى ، وكذلك لم يروعن خالد إلا ابنه محمد ، وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم ، فالله أعلم . وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج العامرى ذاك مشهور روى عنه جماعة . ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة من رواية عبد الله بن أبى إياس بن أبى فاطمة عن أبيه عن جده .ورواه البيهقى من رواية ابراهيم السلمى عن أبيه عن جده فالله أعلم.
(٤) حديث خباب بن الأرت : أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء فى ظل الكعبة فشكونا إليه الحديث ... تقدم .

فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية فى الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون مايذهب به أهل البلاء من الثواب(١)» فذلك قوله تعالى ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : شكا نبى من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال : يارب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوى البلاء وتبسط له الدنيا ، فأوحى الله تعالى اليه «ان العبادلى والبلاء لى وكل يسبح بحمدى فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه ، حتى يلقانى فأجزيه بحسناته . ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له فى الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته فى الدنيا . حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته .

وروى أنه لما نزل قوله تعالى ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ قال أبو بكر الصديق رضى عنه : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ «غفر الله لك يا ابا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست يصيبك الاذى ؟ ألست تحزن؟ فهذا مما تجزون به(٢)» يعنى أن جميع مايصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ أنه قال «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهومقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾(٣)» يعنى لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿حتى اذا فرحوا بما أوتوا﴾ أى بما اعطوا من الخير أخذناهم بغتة .

وعن الحسن البصرى رحمه الله : أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية. فكلمها تركها ، فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشى فصدمه حائط فأثر فى وجهه فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال صلى الله عليه وسلم « اذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا(٤)» وقال على كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية فى القرآن؟ قالوا : بلى، فقرأ عليهم: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ فالمصائب فى الدنيا بكسب الاوزار ، فاذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وان عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة . وعن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما تجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها . ولا قطرت قطرة أحب الى الله من قطرة دم فى سبيل الله ، أو قطرة دمع فى سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله . وما خطا عبد

---

(١) حديث أنس « اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشى عن أنس أخصر منه دون قوله «فإذا كان يوم القيامة...الى آخره » وبكر بن خنيس والرقاشى ضعيفان . ورواه الأصفهانى فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشى ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف . (٢) حديث لما نزل قوله تعالى (من يعمل سواء يجزبه) قال أبو بكر الصديق: كيف الفرح بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ « غفر الله لك يا ابا بكر ، ألست تمرض ... الحديث » ، من رواية من لم يسم عن أبى بكر . ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه . قال : وليس له اسناد صحيح . وقال الدارقطنى: وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير ، قال : وليس فيها شىء يثبت . (٣) حديث عقبة بن عامر « إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج.. الحديث» رواه أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن . (٤) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط...الحديث ، وفيه « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا » أخرجه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا. ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر. ورواه أيضا من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى .

خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى صلاة الفريضة ، وخطوة إلى صلة الرحم[1] » .

وعن أبى الدرداء قال: توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه فى زى الخصوم ، فقال أحدهما : بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده ، فقال الآخر : ما تقول ؟ فقال أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه . فقال سليمان عليه السلام : ولم بذرت على الطريق ، أما علمت أن لابد للناس من الطريق ؟ قال : فلم تحزن على ولدك ، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة ؟ فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك .

ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال : يابنى ، لأن تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك ، فقال : يا أبت ، لأن يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعى اليه ابنة له ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر قد ساقه الله ، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى : قال تعالى:﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ .

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فعزاه مجوسى يعرفه ، فقال له : ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام فقال ابن المبارك : اكتبوا عنه هذه .

وقال بعض العلماء : إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الأرض وما له ذنب .

وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير .

وقال حاتم الأصم : إن الله عزوجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس: على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ، وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم .

وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل واختفى فى الشجرة فعرفوا ذلك ، فجىء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا فأن منه أنة ، فاوحى الله تعالى اليه : يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة ، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين .

وقال أبو مسعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عزوجل .

وقال لقمان رحمه الله لابنه :يابنى إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء ، فاذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط .

وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام «إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى الى خلقى واشك إلى

---

(١) حديث أنس « ماتجرع عبدقط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها... الحديث » أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث على بن أبى طالب دون ذكر الجرعتين ، وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكى منكر الحديث .وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد : مامن جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه . وروى أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة « ماقطر فى الأرض قطرة أحب إلى الله عزوجل من دم مسلم فى سبيل الله ، أو قطرة مع فى سواد الليل ... الحديث » وفيه محمد بن صدقة ، الفلكى المنكر الحديث .

كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك » نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة .

بيان فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول : هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء ؟ فأقول : لاوجه لذلك ، لما روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة(١) وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة (٢) » وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها (٣) .

وقال على كرم الله وجهه : اللهم إنى أسألك الصبر ، فقال ﷺ « لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية(٤) » .

وروى الصديق رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « سلوا الله العافية ، فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين(٥) » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك ، فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

وقال الحسن رحمه الله : الخير الذى لاشر فيه : العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر .

وقال مطرف بن عبد الله : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلى من أن أبتلى فأصبر .

وقال ﷺ فى دعائه « وعافيتك أحب إلى(٦) » .

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد ، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالإضافة إلى ماهو أكثر منه إما فى الدنيا أو فى الدين ، والآخر بالإضافة إلى مايرجى من الثواب ، فينبغى أن نسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع مافوقه من البلاء ، و نسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر مالا يعطيه على الصبر .

فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا فى النار . وقال سمنون رحمه الله تعالى :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

---

(١) حديث : أنه ﷺ كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ورواه أحمد من حديث بشر بن أبى أرطأة بلفظ « أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » وسناده جيد . ولأبى داود من حديث عائشة « اللهم انى أعوذبك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة » وفيه بقية وهو مدلس ، ورواه بالعنعنة .

(٢) حديث : كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » أخرجه البخارى ومسلم من حديث أنس : كان أكثر دعوة يدعو بها النبى ﷺ يقول « اللهم آتنا فى الدنيا ... الحديث » ولأبى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول مابين الركنين « ربنا آتنا ... الحديث » (٣) حديث : كان يستعيذ من شماتة الأعداء : تقدم فى الدعوات

(٤) حديث قال على رضى الله عنه : اللهم انى أسألك الصبر ، فقال ﷺ « لقد سألت الله البلاء فسله العافية » رواه الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما قال : سمع رجلا . وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على : كنت ساكنا فمر بى رسول الله ﷺ وأنا أقول ... الحديث . وفيه : فإن كان بلاء فصبرنى ، فضربه برجله وقال « اللهم عافه واشفه » وقال حسن صحيح . (٥) حديث أبى بكر الصديق « سلوا الله العافية ... الحديث » أخرجه ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد جيد ، وقد تقدم

(٦) حديث « وعافيتك أحب إلى » ذكره ابن اسحق فى السيرة فى دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ « وعافيتك أوسع لى » وكذا رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ، ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل .

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ! فاعلم أنه حكى عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك ، فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام ، ولو زايله سكره علم أن ماغلب عليه كان حالة لا حقيقة لها ، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه ، كما حكى أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذى يمنعك عنى – ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك ؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال : يارسول الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى   فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعناه أنى أريد مالا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر ، فكيف أراد الهجر الذى لم يرده ، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين (أحدهما) أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة ، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال (الثانى) أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث إنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته ، فعند ذلك يتصور أن يريد مافيه الرضا ، فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء صار البلاء احب إليهم من العافية ، وهذه حالة لا يبعد وقوعها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت ، وإن ثبتت مثلا فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه ، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

بيان الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقال قائلون : الصبر أفضل من الشكر . وقال آخرون : الشكر أفضل . وقال آخرون هما سيان . وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل ، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول : فى بيان ذلك مقامان :

(المقام الأول) البيان على سبيل التساهل : وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب التفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ ، إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والظئر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبى الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف ، وعليها أن تؤخر أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته . ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته فنقول: هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ماورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ

صريحة فى التفضيل كقوله ﷺ «من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر[١]» وفى الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كلا ، أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت ، لأضعفن لك الأجر عليه ، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين[٢]» وقد قال الله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وأما قوله : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر[٣]» فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر . فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر ، وهو كقوله ﷺ «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل[٤]» وكقوله ﷺ «شارب الخمر كعابد الوثن[٥]» وأبدا المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله ﷺ «الصبر نصف الإيمان» لايدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله ﷺ الصوم نصف الصبر فإن كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وإن كان بينهما تفاوت ، كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ، فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفى الخبر عن النبى ﷺ « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه . وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه[٦]» وفى خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا[٧] » وفى الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد ، وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام[٨] » .

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى ، فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم :

(المقام الثانى) هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف

---

(١) حديث « من أفضل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » تقدم (٢) حديث : يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ، ويؤتى بأصبر أهل الأرض... الحديث. لم أجد له إصلا . (٣) حديث «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

(٤) حديث «الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل» أخرجه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، والطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت: كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال : طاعة أزواجهن .وفى رواية: ماجزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج ...الحديث » وفيه القاسم بن فياص .وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات .

(٥) حديث «شارب الخمر كعابد الوثن» أخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ «مدمن الخمر» ورواه بلفظ «شارب» الحرث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمرو . وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى : إن حديث أبى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى . (٦) حديث «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه. وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث معاذ بن جبل «يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاما » وقال :لم يروه إلا شعيب بن خالد وهو كوفى ثقة. وروى البزار من حديث أنس « أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن ابن عوف» وفيه أغلب بن تميم ضعيف .

(٧) حديث «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا » تقدم حديث معاذ قبله . ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك . ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس . والحديث منكر .

(٨) حديث « أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد ... الحديث » لم أجده أصلا ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة ؛ فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى. وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن عزوان: ولقد ذكر لنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة. وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام .

والإيضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان . والصبر والشكر أقسامها وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمها فى الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة : علوم، وأحوال ، وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هى كذلك ، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال ، والأعمال هى الأفضل .

وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك ، فان الاعمال تراد للأحوال والاحوال تراد للعلوم . فالأفضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال : لأن كل مراد لغيره فذلك لامحالة أفضل منه .

وما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض ، وكذا آحاد المعارف ، وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهى أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة . ففائدتها إصلاح العمل . وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ، فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه . وهى الغاية التى تطلب لذاتها . فان السعادة تنال بها بل هى عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة إنما يشعر بها فى الآخرة . فهى المعرفة الحرة التى لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها . وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة اليها . فانها انما تراد لأجلها . ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الإفضاء الى معرفة الله تعالى . فان بعض المعارف يفضى الى بعض اما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أيل فهى أفضل .

وأما الأحوال فنعنى بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق . حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق . فاذن فضائل الاحوال بقدر تأثيرها فى اصلاح القلب وتطهيره واعداده لأن تحصيل له علوم المكاشفة وكاأن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هى أفضل مما دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال فان تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، وكل عمل إما أن يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول المعصية . واسم الثانى الطاعة . والمعاصى من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة : وكذا الطاعات فى تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال . وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة . وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه أن الغنى الذى معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام : لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأما هذا المدبر اذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله الى حال غيره وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه . والشح المطاع من جملة

المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة ، بل لا يزيله إلا إخراج المال ، فعليه أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذه مما ذكرناه فى ربع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف ، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ ، إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب ، فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل . فان تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل : السكنجبين أفضل أم شراب الليثوفر ؟ لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا : السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء . لأن السكنجبين مراد له ، وما يراد لغيره فلذلك أفضل منه لا محالة . فاذن فى بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه ، فالأفضل المعرفة ودونها الحال ، ودونها العمل .

فإن قلت : فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ فى ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه ، فانه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به ، والسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعق أن وجهه لا عيب فيه .

ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد عليه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك فى حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة بى إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربما يظن الصبى المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالى قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبى لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفى به ، واعلم أنه لا نقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن ، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه فى العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدرى ، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا : إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا . فأى معنى لقوله ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ وقالوا أيضا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم . فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ﴾ فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا فى المساكين ولا حظ لله فينا وفى أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا : هلكوا كما هلك الصبى لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل

العبيد ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه وتأكده فى قلبه حتى يكون سبب ذلك سعادته فى الدنيا ، وإنما كان ذلك من الولد تلطفا به فى استجراره إلى مافيه سعادته ؛ فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق ، فإذن المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ،فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك ،فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام ،ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض فى أن يصنع شيئا بالدم ، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله ﷺ من أخذها وانتهى عنها(١) .

كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس ،وشرف أهل بيته بالصيانة عنها(٢) ، والمقصود أن الأعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات ،والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلى والقانون الأصلى الذى ينبغى أن يرجع اليه فى معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف ، ولنرجع الآن إلى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول : فى كل واحد منهما معرفة وحال وعمل ، فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال ،أو العمل فى الآخر ، بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر : أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى .ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله ،وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرنا فى البلاء والمصائب .وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية ،وفيها يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ماهو مقصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين فى مقابلة الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى .ويسمى شكراً بالإضافة إلى باعث الدين ، إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة : وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة ، فهما عبارتان عن معنى واحد ، فكيف يفضل الشىء على نفسه ؛ فإذن مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمها فى الطاعة والمعصية ، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة ، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا . وإما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال ، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى ، وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين :

أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما فى الطاعة ، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر ، فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها ، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين . وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين . فقد دخل الصبر فى شكره . وكذا استعان بالعينين على الطاعة فلابد أيضا فيه من صبر على الطاعة . ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى . فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر . ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء . لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا . ولكان الكمال فى أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا

---

(١) حديث : النهى عن كسب الحجام تقدم . (٢) حديث « امتنع من الصدقة وأسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .أخرجه مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعه «إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هى أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد » وفى رواية له « أوساخ الناس» .

لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة فى الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين . وذلك لايكون إلا بصبر . وأما ما يقع فى محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ماوراءه . ففى الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة . و شكرها أن تصرف إلى الخيرات . أو أن لا تستعمل فى المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا . وفيه فرح بنعمة الله تعالى . وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح . وكان الحاصل يرجع الى أن شيئين أفضل من شىء واحد . وأن الجملة أعلى رتبة من البعض. وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجلة وبين أبعاضها . وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغنى الممسك ماله الصارف اياه الى المباحات لا من الغنى الصارف ماله الى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعى لا محاله قوة . والغنى اتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح . والمباح فيه مندوحة عن الحرام. ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا . الا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها . فإن الأعمال لاتراد الا لأحوال القلوب . وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان . فما دل على زيادة قوة الإيمان فهو أفضل لامحالة .

وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار انما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق الى أفهام الناس من النعمة والأموال الغنى بها . والسابق الى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها الى الطاعة . فإذن الصبر أفضل من الشكر . أى الصبر الذى تفهمه العامة أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة . والى هذا على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل : أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وانما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما . فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها . والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها . والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها . فاذا كان الإثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر فى القسم الأخير الذى ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال : كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال : الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر : فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشر سنة . فكان يقول : دعوة الجنيد أصابتنى . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر .

ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجها فى بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق . ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير . اذ لايمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقى يصرفه الى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وانما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف اليها : ثم اذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منه بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر .

فان قلت : فهذا لاثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر . لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر ، فان كان متألما بفراق المال فيجبر ذلك بلذته فى القدرة على الانفاق * فاعلم أن الذى تراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فايلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها ، وذلك يضاهى ضرب كلب الصيد ، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة فى البداية ولا يحتاج إليهما فى النهاية ، بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما فى حقه لذيذا عنده ، كما يصير العلم عند الصبى العاقل لذيذا . وقد كان مؤلما له أولا ، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين فى البداية — بل قبل البداية بكثير — كالصبيان . أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل ، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ، فاذن إذا كنت لاتفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فاطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق الى الأفهام ، فاذا أردت التحقيق ففصل ، فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر . ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا . إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح . والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ، فيدخل فى جملتها أمور دونها ، فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله[1] » وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدى المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لاتنحصر آحادها ، وهى درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الأخبار والآثار .

وقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخا كبيراً قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال ، إنى كنت فى بداية عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى ، فقال اتفق أنها زوجت منى . فليلة زفافها قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ماجمعنا . فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك . فصلينا طول الليل . فمنذ سبعين أو ثمانين سنة ونحن على تلك الحالة كل ليلة . أليس يافلانة ؟ قالت العجوز : هو كما يقول الشيخ . فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة . أو لم يجمع الله بينهما . وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه : فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل . فاذن لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفضيل كما سبق . والله أعلم .

---

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم فى الزكاة .

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه. المخوف مكره وعقابه . الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه . والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه . وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته . وصدهم عن التعرض لأئمته والتهدف لسخطه ونقمته . قوداً لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته . وعلى آله وأصحابه وعترته :

[أما بعد] فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود . ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود . فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان - مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء - إلا أزمة الرجاء . ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم - مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات - إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف ؛ فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما . ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الاول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف .

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء . وبيان فضيلة الرجاء . وبيان دواء الرجاء . والطريق الذى يجتلب به الرجاء

بيان حقيقة الرجاء

أعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام . وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب . وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل . وإلى ماهو بينهما كصفرة المريض . فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام ؛ فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لأنه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء . فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل ؛ فالعلم سبب يثمر الحال . والحال يقتضى العمل . وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة . وبيانه : أن كل مايلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر فى الاستقبال ؟ فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا وتذكرا . وإن كان ماخطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وإدراكا وإنما سمى وجدا لانها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شىء فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا ؛ فان كان المنتظر مكروها حصل منه ألم فى القلب سمى خوفا وإشفاقا . وإن كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ماهو محبوب عنده . ولكن ذلك

المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب ؛ فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء علية صادق ، وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق علية أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقه الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع . ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان . وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . وكما لا ينمو بذر فى أرض سبخة ، فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس . ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء اليه فى أوقاته . ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده . ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سمى انتظاره رجاء . وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر اصلا . ثم انتظر الحصاد منه : سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا : سمى انتظاره تمنيا لا رجاء ؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات : فالعبد إذ بث بذر الإيمان . وسقاه بماء الطاعات . وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة : وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة : كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت : وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات . وترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة . فانتظاره حمق وغرور : قال صلى الله عليه وسلم «الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة [1]» وقال تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ وقال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ﴾ فإذن العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة : وما تمام النعمة الا دخول الجنة .

وأما العاصى فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير لحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها ، لحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة : وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ معناه أولئك يستحقون أن يرجو رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود

---

(١) حديث «الأحمق من أتبع نفسه هواها ... الحديث» تقدم غير مرة .

الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لايتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ،والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد ، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد . فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لاينبت : فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها . والرجاء محمود لأنه باعث . واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل. والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه . بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة . فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص . فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى؟ فإن كان لايظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء. ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل. إذ قال لرسول الله ﷺ : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ؟ فقال « كيف أصبحت؟» قال: أصبحت أحب الخير وأهله . وإذا قدرت على شىء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتنى منه شىء حزنت عليه وحننت إليه . فقال: «هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها ثم لا يبالى فى أى أوديتها هلكت » فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور(١) .

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيـــه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد فى الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما فى وقت الموت : قال تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ فحرم أصل اليأس وفى أخبار يعقوب السلام أن الله تعالى أوحى إليه . أتدرى لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له . وقال صلى الله عليه وسلم « لا يموتن

---

(١) حديث: قال زيد الخيل جئت لا سألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد... الحديث. أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال «أنت زيد الخير» وكذا قال ابن أبى حاتم سماه النبى ﷺ زيد الخير ليس يروى عنه حديث . وذكره فى حديث يروى: فقام زيد الخير فقام : يارسول الله ... الحديث . سمعت أبى يقول ذلك

أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى[1]، وقال ﷺ «يقول الله عزوجل : أناعند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء[2]، ودخل ﷺ على رجل وهو فى النزع فقال « كيف تجدك ؟ » فقال : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى . فقال ﷺ « مااجتمعتا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وأمنه مما يخاف[3] » وقال على رضى الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان : من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه ، قال : لأن الله عز وجل عير قوما فقال ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ﴾ وقال ﷺ « إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإن لقنه الله حجته قال . يارب رجوتك وخفت الناس . قال فيقول الله تعالى : قد غفرته لك[4] » وفى الخبر الصحيح : أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيرا قط . فقال الله عز وجل : من أحق بذلك منا[5] » فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفوا عنه مع إفلاسه من الطاعات . وقال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ ولما قال ﷺ « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى ؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم[6] . وفى الخبر إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أحبنى وأحب من يحبنى وحببنى إلى خلقى فقال : يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى وإحسانى وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل[7] . ورئى أبان بن أبى عياش فى النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء . فقال : أوقفنى الله تعالى بين يديه فقال : ماالذى حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحببك إلى خلقك ، فقال : قد غفرت لك . ورئى يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله بين يديه وقال: ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت ، وقال فأخذنى من الرعب مايعلم الله ثم قلت : يارب ماهكذا حدثت عنك فقال :وما حدثت عنى ؟ فقلت : حدثنى عبد الرازق عن معمر عن الزهرى عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت : أنا عندظن عبدى بى فليظن بى ماشاء ، وكنت أظن بك أن لا تعذبنى ، فقال الله عز وجل : صدق جبريل وصدق نبيى ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر وصدق عبد الرازق وصدقت ، قال فألبست ومشى بين

---

(١) حديث « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله « فليظن بى ماشاء » . (٣) حديث : دخل ﷺ على رجل وهو فى النزع فقال « كيف تجدك ؟ ... الحديث » رواه الترمذى وقال غريب ، والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى : إسناد جيد . (٤) حديث « إن الله يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد ، وقد تقدم فى الأمر بالمعروف . (٥) حديث : إن رجلا كان يدين الناس فيسامح الغنى ويتجاوز عن المعسر .. الحديث ، أخرجه مسلم من حديث أبى مسعود «حوسب رجل من قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء إلا إنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عزوجل : نحن أحق بذلك ، تجاوزا عنه . واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه (٦) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ... الحديث » وفيه « فهبط جبريل ... » أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، فأوله متفق عليه من حديث أنس . ورواه بزيادة « ولخرجتم إلى الصعدات » أخرجه أحمد والحاكم ، وقد تقدم . (٧) حديث « إن الله أوحى إلى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى ... الحديث» لم أجد له أصلا ، وكأنه من الإسرائيليات كالذى قبله .

يدى الوالدان إلى الجنة ، فقلت : يالها من فرحة . وفى الخبر « إن رجلا من إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم . قال : فيقول له الله تعالى يوم القيامة . اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها[1] » وقال ﷺ « إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى : ياحنان يامنان ، فيقول الله تعالى لجبريل : اذهب فائتنى بعبدى قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان . قال : فيقول رده إلى مكانه . فيمشى ويلتفت ورائه . فيقول الله عز وجل : إلى أى شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها ، فيقول الله تعالى : اذهبو به إلى الجنة[2] » فدل هذا على أن رجائه كان سبب نجاته ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج لأحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفى الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصى المغرور المتمنى على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلبت عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها ، فإذا جاوز الوسط إلى حد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد فى ميله عن الوسط ، وهذا الزمان زمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا . قال على كرم الله وجهه . إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم مكر الله .

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذى يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما : الاعتبار ، والآخر: استقراء الآيات والأخبار والآثار .

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ماذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر حتى اذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا وعجائب حكمه التى رعاها فى فطرة الإنسان حتى أعد له فى الدنيا كل ماهو ضرورى له فى دوام

(١) حديث : أن رجلا من بنى إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ... الحديث ، رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم ، فذكره مقطوعا .

(٢) حديث «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان ... الحديث» أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس .

الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال ، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد ، بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة ، وإنما الذى يتمنى الموت نادر ، ثم لا يتمناه إلا فى حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة ، فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم ، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء ، فقيل له : وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه ؟

الفن الثانى : استقراء الآيات والأخبار فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر ، أما الآيات فقد قال تعالى ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا يبالى إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] وقال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياء فقال لهم ﴿ من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ ويقال أن النبى ﷺ لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾[2] . وفى تفسير قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال « لا يرضى محمد وواحد من أمته فى النار » وكان أبو جعفر محمد بن على يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية ، ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال « أمتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة عجل الله عقابها فى الدنيا : الزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار[3] »

---

(١) حديث : قرأ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى أخرجه الترمذى من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

(٢) حديث : إن النبى ﷺ لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له : أما ترضى وقد أنزل عليك ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ لم أجده بهذا اللفظ . وروى ابن أبى حاتم والثعلبى فى تفسيرهما من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ «لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحد العيش...الحديث»

(٣) حديث أبى موسى « أمتى مرحومة لا عذاب عليها عجل الله عذابها فى الدنيا بالزلزال والفتن .. الحديث » أخرجه أبو داود دون قوله « فإذا كان يوم القيامة الخ » فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفى صحيحه من حديث أبى موسى كما سيأتى ذكره فى الحديث الذى يليه .

وفى لفظ آخر «يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودى أو نصرانى إلى جهنم فيقول : هذا فدائى من النار فيلقى فيها[١]» وقال ﷺ «الحمى من فيح جهنم وهى حفظ المؤمن من النار[٢]» وروى فى تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ﴾ أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام : أنى أجعل حساب أمتك إليك . قال «لا يارب أنت أرحم بهم منى» فقال «إذن لانخزيك فيهم[٣]» وروى عن أنس: أن رسول الله ﷺ سأل ربه فى ذنوب أمته فقال «يارب اجعل حسابهم إلى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فأوحى الله تعالى اليه : هم أمتك وهم عبادى ، وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم الى غيرى لئلا تنظر الى مساويهم أنت ولاغيرك[٤]» وقال ﷺ «حياتى خير لكم وموتى خير لكم ، أما حياتى فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع . وأما موتى فإن أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم[٥]» وقال ﷺ يوما «ياكريم العفو» فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ماتفسير : ياكريم العفو ؟ هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه[٦] . وسمع النبى ﷺ رجلا يقول : اللهم انى أسألك تمام النعمة . فقال «هل تدرى ماتمام النعمة ؟» قال لا . قال «دخول الجنة[٧]» قال العلماء : قد أتم الله نعمته برضاه الإسلام لنا اذ قال تعالى ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وفى الخبر أن «اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكته : انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب ، أشهدكم أنى قد غفرت له[٨]» وفى الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له مااستغفرنى ورجانى[٩]» وفى الخبر «لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقراب الأرض مغفرة[١٠]» وفى الحديث «ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات ، فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة[١١]» وفى لفظ آخر : فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب

---

(١) حديث «يأتى كل رجل من هذه أمة بيهودى أو نصرانى إلى جهنم ... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبى موسى «إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول : هذا فداؤك من النار» وفى رواية له «لايموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا» . (٢) حديث «الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار» أخرجه أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى من أبى أمامة وأبو صالح لايعرف ولا يعرف اسمه .

(٣) حديث : إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ أنى أجعل حساب أمتك إليك . فقال «لا يارب أنت خير لهم منى ... الحديث» فى تفسير قوله تعالى ﴿ يوم لايخزى الله النبى ﴾ أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله .

(٤) حديث أنس : أنه ﷺ سأل ربه فى ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ... الحديث» لم أقف له على أصل . (٥) «حياتى خير لكم وموتى خير لكم... الحديث» أخرجه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ، ورواه ابن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٦) حديث قال ﷺ يوما «ياكريم العفو» فقال جبريل: أتدرى ماتفسير ياكريم العفو ؟ ... الحديث لم أجده عن النبى ﷺ ، والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل ، هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد . ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى الزهاد ... فذكره . (٧) حديث سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة ... الحديث ، تقدم (٨) حديث «إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ... الحديث» متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ «إن عبداً أصاب ذنبا فقال : أى رب أذنبت ذنبا فاغفر لى ... الحديث» وفى رواية «أذنب عبد ذنبا فقال ...» . (٩) حديث «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ... الحديث» أخرجه الترمذى من حديث أنس «ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك» وقال : حسن . (١٠) حديث لو لقانى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة» أخرجه مسلم من حديث أبى ذر «ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لايشرك بى لقيته بمثلها مغفرة» وللترمذى من حديث أنس الذى قبله «ياابن آدم لو لقيتنى ... الحديث» . (١١) حديث «إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات ، فإن تاب واستغفر لم يكتبه ... الحديث» قال : وفى لفظ آخر «فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين =

الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه السيئة ، وروى أنس فى حديث أنه عليه الصلاة قال : « إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه » فقال أعرابى : وإن تاب عنه ؟ قال « محى عنه » قال فإن عاد ؟ قال : النبى صلى الله عليه وسلم « يكتب عليه » قال الأعرابى : فإن تاب ؟ قال « محى من صحيفته » قال : إلى متى ؟ قال « إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل ، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار ، فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها ، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل [١] » .

وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذا مت ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم معى ، إذا حفظت قلبك من اثنين : الغل ،والحسد، ولسانك من اثنتين : الغيبة،والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ماحرم الله ، وأن تزدرى بهما مسلما ـ دخلت معى الجنة على راحتى هاتين [٢] »

وفى الحديث الطويل لأنس : أن الأعرابى قال : يارسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ فقال « الله تبارك وتعالى » قال : هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى ، فقال صلى الله عليه وسلم « مم ضحكت يا أعرابى ؟ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صدق الأعرابى ، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى ، هو أكرم الأكرمين» ثم قال « فقه الأعرابى [٣] » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى » قال الأعرابى : ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى ، أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ﴾ » وفى بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة [٤] » و « المؤمن طيب

= لصاحب الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ... الحديث» أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول . ورواه أيضا أطول منه وفيه « إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » وليس فيه : أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقى من حسناته حسنة واحدة ولم أجد لذلك أصلا .

(١) حديث أنس « إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه » فقال أعرابى: فإن تاب عنه ؟ قال« محى عنه» قال: فإن عاد ؟... الحديث . وفيه « إن الله لا يمل عن التوبة حتى يمل العبد عن الاستغفار » ... الحديث أخرجه البيهقى فى الشعب بلفظ: فقال يارسول الله إنى أذنبت ذنبا . قال «استغفر ربك» قال فأستغفر ثم أعود . قال «فإذا عدت فاستغفر ربك» ثلاث مرات أو أربعا. قال.فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصرى منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر : أحدنا يذنب ؟ قال « يكتب عليه » قال ثم يستغفر ويتوب ؟ قال « يغفر له ويتاب عليه » قال فيعود... الحديث . وفيه « لا يمل الله حتى تملوا » وليس فى الحديثين قوله فى آخره «فإذا هم العبد بحسنة ... الخ » وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرونه عن ربه «فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » زاد مسلم فى رواية « أو محاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » ولهما نحوه ، من حديث أبى هريرة . (٢) حديث : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ولا تطوع ... الحديث تقدم . (٣) حديث أنس الطويل : قال أعرابى : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال « الله تبارك وتعالى » فقال هو بنفسه ؟ قال « نعم » فتبسم الأعرابى ... الحديث ، لم أجد له أصلا .

(٤) حديث « المؤمن أفضل من الكعبة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ « ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله وذمه وأن يظن به الا خيرا » وشيخه نصر بن محمد بن سليمان الحمصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وقد تقدم .

طاهر (١) » و « المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة(٢) » وفى الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٣) » . وفى خبر آخر « يقول الله عز وجل : إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم (٤) » وفى حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماخلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه (٥) » وفى الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى تغلب غضبى (٦) » وعن معاذ بن جبل وأنس مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٧) » . و « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار(٨) » . و« من لقى الله لايشرك به شيئا حرمت عليه النار (٩) » . و « لا يدخلها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان (١٠) » وفى خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (١١) » ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ قال « أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام : قم فابعث بعث النار من ذريتك ، فيقول : كم ؟ فيقال : من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة » قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مالكم لاتعملون » فقالوا : ومن يشتغل بعمل بعد ماحدثتنا بهذا؟ فقال « كم أنتم فى الأمم؟ أين تاويل وثاريث ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لايحصيها الا الله تعالى ، انما أنتم فى سائر الأمم كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، وكالرقمة فى ذراع الدابة (١٢) » فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة

---

(١) حديث « المؤمن طيب طاهر » لم أجده بهذا اللفظ . وفى الصحيحين من حديث حذيفة « المؤمن لا ينجس »

(٢) حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة » أخرجه ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ « المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة » وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف . (٣) حديث « خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده إلى الجنة » لم أجده هكذا ، ويغنى عنه ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة « عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة فى السلاسل » . (٤) حديث « قال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم » لم أقف له على أصل . (٥) حديث أبى سعيد « ما خلق الله شيئا إلاجعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم ، وقال صاحب الميزان : ليس بواه ولا بمجهول . (٦) حديث « إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (٧) من حديث معاذ وأنس «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه الطبرانى فى الدعاء بلفظ « من مات يشهد ... » وتقدم من حديث معاذ ،وهو فى اليوم والليلة للنسائى بلفظ «من مات يشهد» وقد تقدم من حديث معاذ ، ومن حديث أنس أيضاً ، وتقدم فى ذم الأذكار . (٨) حديث « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » . (٩) حديث « من لقى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار » أخرجه الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال لمعاذ « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار » وزاد البخارى « صادقا من قلبه » وفى رواية له « من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة » ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ « جعله الله فى الجنة » وللنسائى من حديث أبى عمرة الانصارى فى أثناء حديث فقال « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لايلقى الله عبد يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة » . (١٠) حديث « لا يدخلها من فى قلبه وزن ذرة من ايمان أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء « من شهد أن لااله الا الله حرمه الله على النار » وفيه انقطاع ، وله من حديث عثمان ابن عفان «انى لأعلم كلمة لايقولها عبد حقا من قلبه الاحرم على النار » قال عمر بن الخطاب : هى كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار واخراجهم بالشفاعة ، نعم لايبقى فى النار من فى قلبه ذرة من ايمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد ، وفيه « فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه » وقال مسلم » من خير « يدل « من ايمان » . (١١) حديث « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبى هريرة . (١٢) حديث: لما تلا(ان زلزلة=

الرجاء الى الله تعالى ، اذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال ، والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر فى الأول ماوآه سببا للشفاء واقتصر عليه ، فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر : فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة : وان لم يراع ذلك كان مايفسد بوعظه أكثر مما يصلحه . وفى الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم (١) » وفى لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم » وفى الخبر لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب قيل : وماهو ؟ قال : العجب (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٣) » وفى الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت على قلب أحد ، حتى ان ابليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه (٤) » وفى الخبر « ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها فى الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق ، فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها . فاذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض . قال : فلا يهلك على الله يومئذ الا هالك (٥) » وفى الخبر « مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته (٦) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجيه عمله (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى أترونها للمطيعين المتقين بل هى للمتلوثين المخلطين (٨) » وقال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحه السهلة (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى « أحب أن يعلم أهل الكتابين أن فى ديننا سماحة (١٠) » ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم ﴿ ولا تحمل علينا إصراً ﴾ وقال تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ وروى محمد بن الحنفية عن على رضى الله تعالى عنهما أنه قال : لما نزل قول تعالى ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال « ياجبريل ، وما الصفح الجميل » ؟ قال عليه السلام : « اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه » فقال ياجبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه » فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى

= الساعة شيء عظيم) قال « أتدرون أى يوم هذا؟... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عمران بن حصين وقال : حسن صحيح. قلت: هو من: رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع عنه، وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد.

(١) حديث « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم » . وفى لفظ « لذهب بكم... حديث » أخرجه مسلم من حديث أبى أيوب، واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه . (٢) حديث « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو شر من الذنوب » قيل ما هو؟ قال « العجب » أخرجه البزار وابن حبان فى الضعفاء، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس، وتقدم فى ذم الكبر والعجب

(٣) حديث « والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالده الشفية بولدها » متفق عليه من حديث عمر بنحوه.

(٤) حديث « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف. (٥) حديث « إن لله تعالى مائة رحمة... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، (٦) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة، وقد تقدم

(٧) حديث « اعملوا وأبشروا واعلمو أن أحدا لن ينجيه عمله » تقدم أيضا .

(٨) حديث « إنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى... الحديث » أخرجه الشيطان من حديث أبى هريرة « لكل نبى دعوة وإنى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى » ورواه مسلم من حديث أنس، وللترمذى من حديثه . وصححه، وابن ماجه من حديث جابر « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » ولابن ماجه من حديث أبى موسى، ولاحمد من حديث ابن عمر « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ...الحديث » وفيه من لم يسم

(٩) حديث « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » أخرجه أحمد بن حديث أبى أمامه بسند ضعيف دون قوله « السهلة » وللطبرانى من حديث ابن عباس « أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة » وفيه محمد بن إسحق رواه بالعنعنة .

(١٠) حديث « أحب أن يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة » رواه ابو عبيد فى غريب الحديث ، وأحمد

إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه، هذا مالا يشبه كرمى[١].

والأخبار الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخر ، ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة . وقال الثورى : ما أحب أن يجعل حسابى إلى أبوى لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه : إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يارب حجبت الملائكة صوته . وكذا الثانية والثالثة ، حتى إذا قال الرابعة : يارب ، قال الله تعالى : حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى ، قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى، أشهدكم أنى قد غفرت له . وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه : خلا لى الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة ، فوقفت فى الملتزم عند الباب فقلت: يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبداً ، فهتف بى هاتف من البيت : ياابراهيم أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون منى ذلك ، فاذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ وكان الحسن يقول : لو لم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السماوات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : ان بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين . ولقى مالك بن دينار أبانا فقال له : الى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال : يا أبا يحيى ، انى لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ماتخرق له كساءك هذا من الفرح وفى حديث ربعى بن حراش عن أخيه ـ وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت ـ قال ، لما مات أخى سجى بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال . انى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وربى غير غضبان، وانى رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تغتروا ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع اليهم قال : ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت فى طشت ، فحملناه ودفناه .

وفى الحديث أن رجلين من بنى اسرائيل تواخيا فى الله تعالى . فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره ، فكان يقول : دعنى وربى ، ابعثت على رقيبا ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لايغفر الله لك . قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة ، أيستطيع أحد أن يحظر رحمتى على عبادى ، اذهب أنت فقد غفرت لك ، ثم يقول للعابد ، وأنت فقد أوجبت لك النار . قال : فوالذى نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته[٢] .

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق فى بنى إسرائيل أربعين سنة ، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الحواريين ، فقال اللص فى نفسه ، هذا نبى الله يمر والى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى ويقول فى نفسه : مثلى لا يمشى الى جنب هذا العابد . قال . وأحس الحوارى به فقال فى نفسه ، هذا يمشى الى جانبى ، فضم نفسه ومشى الى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه فبقى اللص خلفه ، فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة

---

(١) حديث محمد بن الحنفية عن على : لما نزل قوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) قال : « يا جبريل وما الصفح الجميل ؟ » قال : اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ... الحديث » أخرجه ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على مختصرا قال : الرضا بغير عتاب ، ولم يذكر بقية الحديث ، وفى اسناده نظر . (٢) حديث « ان رجلين من بنى اسرائيل تواخيا فى الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا ... الحديث » رواه أبو داود من حديث أبى هريرة بإسناد جيد .

والسلام : قل لها ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالها ؛ أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفســـه ، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه . فأخبرهما بذلك وضم اللص اليه فى سياحته وجعله من حوارييه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطىء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته ، قال : فرفع النبى عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال « اذهب فلن يغفر الله لك » فأوحى الله تعالى اليه : تتألى على فى عبادى ، إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ الآية ، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للاسلام (١) .

وروى فى الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة ، قال : فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ماكان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله .

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الرجى منها على الخائف ، فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما (٢) » وقال « إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى ، فإن الله تعالى لا يتعاظمه شىء (٣) » .

وقال بكر بن سليم الصواف : دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ قال : لا أدرى ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب ، ثم مابرحنا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى إياك مع الأعمال ؛ لأنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف .

وقيل : إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال : إن أسلمت أضفتك ؛ فمر المجوسى

---

(١) حديث ابن عباس : كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته ، فنزل قوله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) عليهم ... الحديث ، أخرجه البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول «اللهم العن فلانا وفلانا» بعد مايقول «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد» فأنزل الله عز وجل (ليس لك من الأمر شىء) إلى قوله (فإنهم ظالمون) ورواه الترمذى وسماهم أباسفيان والحرث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد «فتاب عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم» وقال حسن غريب. وفى رواية له «أربعة نفر» ولم يسمهم وقال «فهداهم الله للاسلام» وقال حسن غريب صحيح .

(٢) حديث «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريما» لم أجده بهذا اللفظ . وللترمذى من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل » وقال : وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ .

(٣) حديث «إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لايتعاظمه» أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفرلى إن شئت، ولكن ليعزم وليعظم الرغبة ، فإن الله عز وجل لايتعاظمه شىء أعطاه» والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة» ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت .

فأوحى الله تعالى اليه . ياإبراهيم لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو ضفته ليلة ماذا كان عليك ، فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه . فقال له المجوسى : ماالسبب فيما بدا لك ؟فذكر له، فقال له المجوسى ، هكذا يعاملنى ثم قال : اعرض على الإسلام فأسلم .

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له . كيف حالك؟ فقال : وجدنا الأمر أهول مما توهمنا .

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لاتوصف ، فقال له : يا أستاذ ، بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظنى بربى .

وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : فجاءوا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال : فقلنا يارب قصرنا وأسأنا . قال : فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت : أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه ، فقال . اذهبوا به فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس ، فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع اليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام اليه الدراهم ، فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال : لى سيد أريد أن أتخلص منه ، فدعا منصور وقال : الأخرى . قال : أن يخلف الله على دراهمى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى . وقال : أن يتوب الله على سيدى ، فدعا ، ثم قال : الأخرى ، فقال : أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيده ، لم أبطأت ! فقص عليه القصة . قال : وبم دعا ، فقال: سألت لنفسى العتق ، فقال له : اذهب فأنت حر . قال : وأيش الثانى ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى . قال : وأيش الرابع ؟ قال : أن يغفر الله لى ولك وللقوم . قال : هذا الواحد ليس الى . فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ، أفترى أنى لا أفعل ما إلى . قد غفرت لك والغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين .

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال : رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة . قال : فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت . فقلت للمرأة : من كان هذا الميت منك ! قالت : ابنى . قلت : ولم يكن لكم جيران ؟ قالت : بلى ولكن صغروا أمره . قلت : وأيش كان هذا ؟ قالت: مخنثا . وقال: فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا ، قال : فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى . فقلت : من أنت ؟ فقال : المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس إياى .

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة . إذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون . فقالوا لمعروف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين . ادع الله عليهم . فرفع يديه وقال : إلهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقال القوم : إنما سألناك أن تدعو عليهم ! فقال : إذا

فرحهم فى الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض السلف يقول فى دعائه : يارب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب .

فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا .

الشطر الثانى من الكتاب : فى الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

بيان حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال . وقد ظهر هذا فى بيان حقيقة الرجاء . ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام : لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها . وإلى هذا أشار الواسطى حيث قال : الخوف حجاب بين الله بين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه فى مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاء فى الشهود . وإنما دوام الشهود غاية المقامات . ولكننا الآن إنما نتكلم فى أوائل المقامات فنقول : حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضى إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع فى يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك فى نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خالياً عمن يتشفع اليه فى حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذى وقع فى مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وإن كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع فى مجرى سيل أوجوار حريق فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق . وكذا النار على الإحراق . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه . وذلك الإحراق هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع . وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى، وتارة يكون بهما جميعا ، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون﴾

فتكون قوة خوفه ؛ فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله [1] » وكذلك قال الله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات .

أما فى البدن فبالنحول والصفار والخشية والزعقة والبكاء ، وقد تنشق به المرارة فيفضى إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما فى الجوارح فبكفها عن المعاصى وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب اليه . وقيل لذى النون: متى يكون العبد خائفا : قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام . وأما فى الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر فى خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حالة حال من وقع فى مخالب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره : هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذى هو تألم القلب واحتراقه ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى : أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق فى التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا ، ويدخل فى الصدق التقوى ، ويدخل فى التقوى الورع ، ويدخل فى الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فإذن الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا ووراءه اسم الصديق والمقرب ، وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم ، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول . الإنسان إما عربى وإما عجمى : والعربى إما قرشى أو غيره ، والقرشى إما هاشمى أو غيره ، والهاشمى إما علوى أو غيره ، والعلوى اما حسنى أو حسينى ، فاذا ذكرت أنه حسنى مثلا فقد وصفته بالجميع ، وان وصفته بأنه علوى وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه ، فكذلك اذ قلت صديق فقد قلت : انه تقى وورع وعفيف ، فلا ينبغى أن تظن أن كثرة هذه الأسامى تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

---

(١) حديث «أنا أخوفكم لله» أخرجه البخارى من حديث أنس «والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له» وللشيخين من حديث عائشة « والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

على من طلب المعانى من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعانى،فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له،ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداما .

بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط ، بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والأصلح للبهيمة أن لاتخلو عن سوط وكذا الصبى ، ولكن ذلك لايدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة ، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط ، فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن الخوف ، بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت «لا» كفرت ، وإن قلت «نعم» كذبت ، وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا .

وأما المفرط فإنه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ، ولولاه لما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لأن المخوف هو الذى يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه ،فاذن هو محمود بالإضافة الى نقص الآدمى ، وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل مايجوز أن يوصف الله تعالى به وما لايجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال فى ذاته، وإنما يصير محمودا بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت ، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم ، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل ، وقد يخرج الى الموت ، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذى يقتل الصبى والسوط الذى يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها وإنما ، ذكر رسول الله ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى الى القنوط أو أحدهذه الامور ، فكل مايراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى الى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحه البدن وسلامة العقل ، فكل مايقدح فى هذه الأسباب فهو مذموم .

فان قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مذموما ؟ فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف ، فهو بالإضافة إليه فضيلة ، فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة ، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق

الفكر والمجاهدة والترقى فى درجات المعارف فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبى يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبى أو ولى يموت حتف أنفه ، وهو محال ، فلا ينبغى أن يظن هذا ، بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر ، كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى مادونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين ، فاذن الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذى لايزيد فى حركة الدابة ، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره ، فان لم يحمل إلا على العفة وهى الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة ، فاذا أثمر الورع فهو أعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين : وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لايبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما يحمد منه ، وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فان جوز هذا الى إزالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه . ولو كان محموداً لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل .

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى مايخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى الى المكروه . كما تكره المعاصى لأدائها الى مكروه فى الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها الى الموت . فلا بد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة . فالذين يغلب على قلوبهم ماليس مكروها لذاته بل لغيره : كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة . أو خوف نقض التوبة ونكث العهد . أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى . أو خوف رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة . أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة . أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله . أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه . أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم . أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله مالم يحتسب . أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء . أو خوف مالا يدرى أنه يحدث فى بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت . أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا . أو خوف اطلاع على سريرته فى حال غفلته عنه . أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء . أو خوف السابقة التى سبقت له فى الازل .

فهذه كلها مخاوف العارفين . ولكل واحد خصوص فائدة : وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف . فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة . والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا الى بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة . فان الامر فيه مخطر . وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء فى أم الكتاب . والخائف من الخاتمة بالإضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد . فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما ذا يظهر . ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الموت وكيفيته وأنه ما الذى خطر له فى حال

التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الإلتفات إلى ماهو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلى الذى جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر فى الأبد ؛ وإليه أشار النبى ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة . وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقه ، السعيدمن سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم[(١)] »

وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته ، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة لا محالة ، فهذا أعلى رتبة ، ولذلك يبقى خوفه وإن كان فى طاعة الصديقين ، وأما الآخر فهو فى عرضة الغرور والأمن : إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصاة خوف الصالحين ، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين ، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى ، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بأن يخاف من غير جناية ، بل العاصى لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ، ولولا أنه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيله ومهد له أسبابها .

فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعه وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات ، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى ، وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا ﷺ إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله ، فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمه والقدرة التامه يصير الفعل ضروريا فليت شعرى ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه ، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعى المعصية عليه ، وكيف يحال ذلك على العبد ؟ وإذا كانت الحوالة ترجع الى القضاء الأزلى من غير جنايه ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ، ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز إفشاؤه ولا يمكن تفهيم الخوف منه فى صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة ، فقد جاء الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : ياداود خفنى كما تخاف السبع الضارى[(٢)] .

فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لايقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ، ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لالجناية سبقت اليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ، ولأنه يفعل مايفعل ولايبالى ، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وان خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على

---

(١) حديث « هذا كتاب من الله فى أسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب

(٢) حديث « إن الله تعالى أوحى إلى داود : ياداود ، خفنى كما يخاف السبع الضارى » لم أجد له أصلا ، ولعل المصنف قصد بإيراده من الإسرائيليات ، فإنه عبر عنه بقوله : جاء فى الخبر ، ، وكثيرا مايعبر بذلك عن الإسرائيليات التى هى غير مرفوعة .

روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت اليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة ، إذ لا يقدح ذلك فى عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ، ولله المثل الأعلى . ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التى هى أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق فى قوم «هؤلاء الى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى» ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة .

الطبقة الثانية من الخائفين أن يتمثل فى أنفسهم ماهو المكروه ، وذلك مثل سكرات الموت وشدته . أو سؤال منكر ونكير . أو عذاب القبر . أو هول المطلع . أو هيبة الموقف بين يدى الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه والخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات . أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى . وكل هذه الأسباب مكروهة فى نفسها لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها . وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين . ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق ، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب منه فى نفسه ، وربما أنكر لذة النظر الى وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره ، فيكون اعترافه به اللسان عن ضرورة التقليد ، والا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف الا لذة البطن والفرج والعين بالنظر الى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم ، فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ، ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره؛ فالى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والاخبار .

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه فى الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى فى الآخرة ، إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا فى لقاء مولاه والقرب منه ؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته ، وقد ظهر أنه لا وصول الى سعادة لقاء الله فى الآخرة الا بتحصيل محبته والانس فى الدنيا ، ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس الا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك المشتهات الا بقمع الشهوات . ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فان فضيلته بقدر مايحرق من الشهوات وبقدر مايكف عن المعاصى ويحث على الطاعات . ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق . وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الأعمال الفاضلة المحمودة التى تقرب الى الله زلفى .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والآخبار فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنان ، قال الله تعالى ﴿ وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وصفهم بالعلم لخشيتهم ، وقال عز وجل ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء فى خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام : وأما الخائفون

فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه ؛ فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ، ولذلك لما خير رسول الله ﷺ فى مرض موته بين البقاء والدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى[١] » فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم ، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ماورد فى فضائلهما ، حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله ﷺ ، حتى يقال : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين . وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف ـ كما سبق ـ ولذلك قال تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ وقال عز وجل ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فى الإيمان ؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه ، وقال رسول الله ﷺ فى فضيلة التقوى « وإذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيها الناس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، انما هى أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إنى قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم ، قلت ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان؛ فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون ؛ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب[٢] » وقال عليه الصلاة والسلام «رأس الحكمة مخافة الله[٣] » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى[٤] » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير ، وقال الشبلي رحمه الله : ماخفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة مارأيته قط . وقال يحيى بن معاذ : مامن مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين . وفى خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما فى يديه إلا الورعين فإنى أستحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف ، فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسامى ، وكذلك ماورد فى فضائل الذكر لا يخفى ، وقد جعله الله تعالى الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال ﴿سيذكر من يخشى﴾

---

(١) حديث : لما خير فى مرض موته كان يقول « أسألك الرفيق الأعلى » متفق عليه من حديث عائشة قالت : كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» فلما نزل به ورأسه فى حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص ببصره إلى سقف البيت «اللهم الرفيق الأعلى» فعلمت أنه لايختارنا ،وعرفت أنه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح ... الحديث . (٢) حديث« إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول ياأيها الناس إنى قد أنصت إليكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم ، إنما هى أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إنى جعلت نسبا ... الحديث» أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك بسند ضعيف والثعلبي فى التفسير مقتصرا على آخره « إنى جعلت نسبا ... الحديث » من حديث أبى هريرة.

(٣) حديث«رأس الحكمة مخافة الله » رواه أبو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق ، والبيهقى فى الشعب ، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه فى دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا .

(٤) حديث « إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى » قاله لابن مسعود : لم أقف له على أصل

وقال تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وقال ﷺ « قال الله عزوجل : وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وان خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة[١] » وقال ﷺ «من خاف الله تعالى خافه كل شىء ، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شىء[٢]» وقال ﷺ «أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى ، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً[٣] » وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه : مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه . وقال ذو النون أيضا : ينبغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقضى زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفاً اليوم. وقال سهل رحمه الله : لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن، يا أباسعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير ! فقال : والله إنك ان تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : مافارق الخوف قلبا إلاخرب وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هو الرجل يسرق ويزنى قال «لا ، بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[٤]» والتشديدات الواردة فى الأمن من مكر الله وعذابه لاتنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشىء ثناء على ضده الذى ينفيه ، وضد الخوف الأمن، كما أن ضد الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ماورد فى فضل الرجاء فهو دليل على الخوف لانهما متلازمان . فان كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، فان كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا . فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولايلتفت إلى الآخر فى الحال لغفلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف ؛ فاذن المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لامحالة ، فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان لامحالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه ، نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة اليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ وقال عزوجل ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء ، فقال تعالى ﴿مالكم

---

(١) حديث « لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين » أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة ، ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا .

(٢) حديث « من خاف الله خافه كل شىء ... الحديث» رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث أبى أمامة بسند ضعيف جدا . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل ، وقد تقدم .

(٣) حديث « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث » لم أقف له على أصل ولم يصح فى فضل العقل شىء .

(٤) حديث عائشة ، قلت يارسول الله ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هو الرجل يسرق ويزنى ؟ قال « لا ... الحديث » رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . قلت ، بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذى وروى عن عبد الرحمن بن حازم عن أبى هريرة .

لا ترجون لله وقارا)﴿ أى لا تخافون ، وكثيراً ماورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف ،وذلك لتلازمهما ، اذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول : كل ماورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية ، فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال الله عزوجل ﴿(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا)﴾ وقال تعالى ﴿(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا)﴾ وقال عزوجل ﴿(أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون)﴾ وقال ﷺ «مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشـية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه الا حرمه الله على النار[1]» وقال ﷺ « اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها[2]» وقال ﷺ «لايلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع[3]» وقال عقبة بن عامر : ما النجاة يارسول الله ؟ قال «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك[4]» وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسـول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نعم من ذكر ذنوبه فبكى[5]» وقال ﷺ «مامن قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت فى سبيل الله سبحانه وتعالى[6]» وقال ﷺ «اللهم ارزقنى عينين هطالتين تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك قبل أن تصير الدموع دما والاضراس جمرا[7]» وقال ﷺ «سبعة يظلهم الله يوم لاظل الا ظله » وذكر منهم «رجلاذكر الله خاليا ففاضت عيناه»[8] .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك .

وكان محمد بن المنـكدر رحمه الله اذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : ابكوا فان لم تبكوا تباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه .

وقال أبوسليمان الدارانى رحمه الله : ما تغرغرت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولاذلة يوم القيـامة ،

---

(١) حديث « مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب ... » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٢) حديث « إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه ... الحديث » أخرجه الطبرانى والبيهقى فيه من حديث العباس بسند ضعيف . (٣) حديث « لايلج النار عبدبكى من خشية الله ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح ، والنسائى وابن ماجة من حديث أبى هريرة.
(٤) حديث قال عقبة بن عامر: ما النجاة يارسول الله ؟ قال « أمسك عليك لسانك ... الحديث » تقدم .
(٥) حديث عائشة : قلت يدخل الجنة أحد أمتك بغير حساب؟قال «نعم من ذكر ذنوبه فبكى » لم أقف له على أصل .
(٦) حديث «مامن قطرة أحب إلى من قطرة دمعة من خشية الله ... الحديث» أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن غريب ، وقد تقدم (٧) حديث « اللهم ارزقنى عينين هطالتين يشفيان بذروف الدمع ... » أخرجه الطبرانى فى الـكبير فى الدعاء من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، ورواه الحسين المروزى فى زياداته على الزهدوالرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطنى فى العلل أن من قال فيه «عن أبيه» وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسلا . قال ، وسالم هـذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربى وليس بابن عمر انتهى ، وما ذكره من أنه سالم المحاربى هو الذى يدل عليه البخارى فى التاريخ ومسلم فى الـكنى وابن أبى حاتم عن أبيه وأبى أحمد الحاكم فإن الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة ، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربى والله أعلم ، نعم حكى ابن عساكر فى تاريخه الخلاف فى أن الذى يروى عن سالم المحاربى أو سالم بن عبد الله بن عمر .
(٨) حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ، ولو أن رجلا بكى فى أمة ماعذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الأحبار رضى الله عنه : والذى نفسى بيده ، لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب إلى من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار .

وروى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فوعظناموعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا فى الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى: قد نافقت حيث تحول عنى ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت أنادى : نافق حنظلة ، فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول : نافق حنظلة ؛ فقال ﷺ : « كلا لم ينافق حنظلة » فقلت يارسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا ، فرجعت الى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال ﷺ « ياحنظلة لو أنكم كنتم ابدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ؛ ولكن ياحنظلة ساعة وساعة[1] » .

فاذن كل ماورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم ان الأخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت ، وربما ينظر الناظر إليهما فيعتريه شك فى أن الأفضل أيهما ، وقول القائل : الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهى قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فان اجتمعا نظر الى الأغلب: فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل مايراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فان كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا : الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجبين مرض الصفراء ، ومرض الجوع اغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل ، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن المعاصى والاغترار على الخلق أغلب ، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة ، ومستقى الخوف من بحر الغضب ، ومن لاحظ من صفات الله تعالى مايقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء .

---

(١) حديث حنظلة ، كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا . . . الحديث، وفيه« نافق حنظلة الحديث» وفيه «ولكن ياحنظلة ساعة» وساعة أخرجه مختصرا .

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروى أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل ، وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي ؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه ؛ فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره .

فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه ، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين ؛ فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله ، وذلك وإن أوردناه مثلا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة ، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها ، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها ، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزراع ولم يختبرها ، وهي في بلاد ليس يدري اتكثر الصواعق فيها أم لا ، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاه على خوفه ، والبذر في مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ـ وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب مالا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله ، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لم يجرب مثله ، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب ، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين ، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه ؛ فأما أن يغلب رجاؤه فلا ، ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئا ، إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين(١) ، فمن ذا الذي يقدر على تطهير من خفايا النفاق والشرك الخفي ، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه ؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة؟ وقد قال ﷺ إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين أهل الجنة إلا شبر(٢) » وفي رواية « إلا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل

---

(١) حديث حذيفة : أن حذيفة كان خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين أخرجه مسلم من حديث حذيفة «في أصحابي اثنا عشر منافقا » تمامه « لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ... الحديث » .

(٢) حديث « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين أهل الجنة إلا شبر» وفي =

النار » وقدر فواق الناقة لايحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج فى القلب عند الموت فيقتضى خاتمةالسوء فكيف يؤمن ذلك ؟ فاذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء فى غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى بينهما فى وصف من أثنى فقال تعالى ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ وأين مثل عمر رضى الله عنه ؟ فالخلق الموجودون فى هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا إلى الانهماك فى المعاصى فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذى يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافى عن دار الغرور فهو الخوف المحمود ، دون حديث النفس الذى لايؤثر فى الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط .

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبدالله تعالى بمحض الخوف غرق فى بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام فى محجة الادكار .

وقال مكحول الدمشقى : من عبد الله بالخوف فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد .

فإذن لابد من الجمع بين هذه الامور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لايطيق أسباب الخوف ، فإذن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذى إليه رجاؤه ، ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى ، فان من أحب الله تعالى ، أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب ، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير اليه والقدوم بالموت عليه ، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه ، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب : فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا ، فالدنيا جنته ، اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين مايشتهيه . ولا يخفى حال من يحال بينه وبين مايشتهيه . فإذا لم يكن محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا اذن سجنه . لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن . ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر . فهذا أول مايلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر ، وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من

= رواية إلا قدر فواق ناقة ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار » وللبزار والطبرانى فى الأوسط «سبعين سنة» وإسناده حسن . وللشيخين فى أثناء حديث لابن مسعود « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ... الحديث» ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر « شبر » ولا « فواق ناقة » .

الأنكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزى والنكال ، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ، ولا مطمع فى إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن ، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد(١) » والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه(٢) » وقال تعالى « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء » ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه : يا بنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به ، وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت : أذكر لى الأخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : أن حببنى إلى عبادى . فقال : بماذا ؟ قال : بأن تذكر لهم آلائى ونعمائى ؛ فإذن غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الدارانى فى المنام وهو يطير ، فسأله ، فقال : الآن أفلت ، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه فى دواء الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هـــذا الغرض ، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء ، لأن أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار ، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة ، والرجاء والخوف يقويان على الصبر ، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا الخوف ، ولذلك قال على كرم الله وجهه : من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويؤدى الذكر إلى الأنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدى كمال المعرفة والأنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات ، فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين ، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا مقام بعد المجاهدة لمن له الطريق إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل ، فاذن فيما ذكرناه فى علاج الصبر كفاية . ولكنا نفرد الخوف بكلام جملى فنقول : الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ، ومثاله : أن الصبى إذا كان فى بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها ، فإذا نظر الصبى إلى أبيه

---

(١) « حديث اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث معاذ ، وتقدم فى الأذكار والدعوات .

(٢) حديث « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

وهو ترتعد فرائصه ويحتال فى الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه فى الهرب ؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فإيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لايخاف إلا من سبب مخوف فى نفسه ، فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه ، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثانى الخوف منه ، فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته مايقتضى الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله عز وجل ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر فى أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب فى الآخرة ، وزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ، فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير ، وأما الثانى وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى : خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت فى بحر لجى ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد أيضا هى خوف الصبى من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لايستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب ، حتى إن الصبى ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والعقائد التقليدية ضعيفة فى الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها فى تكثير الطاعات واجتناب المعاصى مدة طويلة على الاستمرار ؛ فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف . كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا فى مخالبه لايحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : خفنى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة فى جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع فى مخالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواه .

فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ماشاء ولا يبالى . ويحكم مايريد ولا يخاف. قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة . وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة . بل صفته ماترجمه قوله تعالى : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى .

وإن خطر ببالك أنه لايعاقب الا على معصية ولايثيب الا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصى بدواعى المعصية حتى يعصى شاء أم أبى . فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة .

فان كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الى غير نهاية أو يقف لامحالة على أول لاعلة له من جهة العبد بل قضى عليه فى الأزل، وعن هذا المعنى عبر ﷺ إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما . فحج آدم موسى عليه السلام ، قال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده و نفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته . ثم أهبط الناس بخطيئتك الى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ قال نعم . قال : أفتلومنى على

أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال ﷺ « فحج آدم موسى[1] » فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ، ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ؛ فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع ، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمى اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا .

والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع ، لأن السبع مسخر : إن سلط عليه الجوع افترس وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك ، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته ، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله ؛ فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ماخلق له ، فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخروا لأسبابها شاءوا أم أبوا ، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر ، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين[2] وكان أشد الناس خوفا[3] ، حتى روى أنه كان يصلي على طفل ، ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار[4] » وفي رواية ثانية : أنه سمع قائلا يقول : هنيئا لك ، عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك أنه كذلك ، والله إني رسول الله وما أدري ما يصنع بي ! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم[5] » وروى أنه ﷺ قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة: هنيئا لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك : والله لا أزكى أحدا بعد عثمان[6]

---

(١) حديث « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بألفاظ أخر . (٢) حديث : كان سيد الأولين والآخرين . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ... الحديث » . (٣) حديث : كان أشد الناس خوفا ، تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا . قوله « والله إني لأخشاكم لله » وقوله « والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . (٤) حديث : أنه كان يصلي على طفل فسمع في دعائه يقول « اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي ﷺ صلى على صبي أو صبية وقال « لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي » واختلف في إسناده ، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب أن صبيا دفن فقال رسول الله ﷺ « لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي » . (٥) حديث : إنه سمع قائلة تقول لطفل مات : هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « ما يدريك ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت : توفى صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة ... الحديث . وليس فيه فغضب ، وقد تقدم . (٦) حديث : لما توفى عثمان بن مظعون قالت أم سلمة : هنيئا لك الجنة ... الحديث ، أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، قال « وما يدريك ... الحديث » وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد ، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة .

وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لا أزكى أحداً غير رسول الله ﷺ ولا أبى الذى ولدنى . قال : فثارت الشيعة عليه . فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه . وروى فى حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله ﷺ وقتلت فى سبيل الله فقال ﷺ «وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع مالا يضره [١]» وفى حديث آخر « أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنة . فقال ﷺ « من هذه المتألية على الله تعالى ؟ » فقال المريض : هى أمى يا رسول الله . فقال « وما يدريك . لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه [٢] » وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم . وهو ﷺ يقول شيبتنى هود وأخواتها [٣] سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما فى سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى ﴿ ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ ﴿ ألا بعداً لثمود ﴾ ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا . إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفى سورة الواقعة ﴿ ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة ﴾ أى جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين فى الدنيا ، وأما رافعة قوما كانوا مخفوضين فى الدنيا .وفى سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وقوله تعالى ﴿ وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت ﴾ وفى عم يتساءلون ﴿ يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ﴾ الآية ، وقوله تعالى ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ، ولو لم يكن فيه إله قوله تعالى ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ لكان كافيا ، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها . وأشد منه قوله ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ الآية . وقوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ الآيتين وقوله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ الآية وقوله ﴿ اعملوا ماشئتم ﴾ الآية، وقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ الآية وقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الايتين ، وقوله تعالى ﴿ وقدمنا الى ماعملوا من عمل ﴾ الاية . وكذلك قوله تعالى ﴿ والعصر ان الإنسان لفى خسر ﴾ الى آخر السورة فهذه أربعة شروط من الخسران وانما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى ﴿ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾ حتى روى أن النبى وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله اليهما لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ [٤].

وكأنهما اذا علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله « قد أمنتكما » ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما ، حتى ان سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما

---

(١) حديث : إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه : هنيئا لك يا بنى الجنة ، ورواه البيهقى فى الشعب ، إلا أنه قال : فقالت أمه : هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى ، إلا أنه قال : إن رجلا قال له : أبشر بالجنة ، وقد تقدم فى ذم المال والبخل ، مع اختلاف . (٢) حديث : دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول : هنيئاله الجنة ... الحديث ، تقدم أيضاً . (٣) حديث « شيبتنى هود وأخواتها ... الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس ، وهو فى الشمائل من حديث أبى جحيفة ، وقد تقدم فى كتاب السماع . (٤) حديث : أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل . فأوحى إليهما : لم تبكيان الحديث أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة من حديث عمر ،ورويناه فى مجلس من أمالى أبى سعيد النقاش بسند ضعيف.

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع فى المنجنيق قال: حسبى الله ، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل فى الهواء ، حتى قال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبى الله ، فأخبر الله تعالى عنه فقال ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى بموجب قوله : حسبى الله .

وبمثل هذا أخبر عن موسى ﷺ حيث قال ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى فى نفسه خيفة ، إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال ﷺ «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك[1]» فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك ، فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعانى صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر ، وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لامحالة ، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾ وقال ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية . فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شىء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان ، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالى بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد .

ثم يخبر عنه ويقول ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم ﴾ الآية ، فكيف لا يخاف ما حق من القول فى الأزل ولا يطمع فى تداركه ولو كان الأمر أنفا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفى السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح ؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشقاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له ، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا : كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلبا من القدر فى غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ فأجهل الناس من أمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف .

فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد

---

(١) حديث قال يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » ، أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بلفظ « اللهم إن شئت لم تعبد اليوم ... الحديث » .

خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد ، لأنى لا أدرى ماظهر له من التقلب وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لأنى لاأدرى مايعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ماأحد أمن على إيمانه أن يسلبه عنـد الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة . وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ .

ولما احتضر سفيان جعل يبكى ويجزع ،فقيل له: ياأبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبى أبكى ؟ لوعلمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى ، فان رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لايغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصـــيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة ، فرأى علامة التوحيدعند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه .

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالـكفر .

وكان أبو زيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأن فى وسطى زناراً أخاف أن يذهب بى إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنا ، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات .

وروى عن المسيح عليه الصلاة والسـلام أنه قال : يامعشر الحواريين ، أنتم تخافون المعاصى ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الـكفر .

وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدى ، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تـكفر بى حتى تسالنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، وقال : بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الـكفر .

فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمه فكيف لا يخافه الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنى برىء من النفاق كان أحب إلى مما طلعت عليه الشمس وماعنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الإيمان بل المراد به مايجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلما منافقا ، وله علامات كثيرة : قال ﷺ « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا اؤتمن خان وإذا خاصم فجر[1] » وفى لفظ آخر «وإذا عاهد غدر» .

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شىء منـه إلا صديق .إذ قال الحسن : ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج . ومن الذى يخلو عن هـــذه المعانى

---

(١) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد .

بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتاد ةونسى كونها منكرا بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهدبزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ! حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بهـا منافقا إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات (١) . وكان أصحاب رسول الله صلى اللهعليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر (٢) . وقال بعضهم علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتى مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : انا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فاذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى اللهعليه وسلم (٣) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به ؟ قال : لا . قال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . واشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ؛ فكانوا يتكلمون فى شيءمن شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال : تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ؛ فقال : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : انه يأتى على القلب ساعة يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة ، ويأتى عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز ابرة ، فقدعرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصى . ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ؟ وان ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ؛ اذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : انى أخاف على نفسى النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق . فلا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين . بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فوالذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار (٦) » ؛ والله المستعان .

بيان معنى سوء الخاتمة

فان قلت : ان أكثر هؤلاء يرجع خوفهم الى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين . إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة ، فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ؛ اما الشك ، واما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على

(١) حديث حذيفة ،إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ ، فيصير بها منافقا...الحديث ، أخرجه أحمد من حديث حذيفة ، وقد تقدم فى قواعد العقائد .

(٢) حديث أصحاب النبى ﷺ « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أنس وأحمد ، والبزار من حديث أبى سعيد ، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن فرس وصحح إسناده وتقدم فى التوبة . (٣) حديث ، قال رجل لابن عمر ، إنا لن ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون ... الحديث ، رواه أحمد والطبرانى ، وقد تقدم فى قواعد العقائد . (٤) حديث سمع عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال : أرأيت لو كان الحاج حاضرا ... ، تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج . (٤) حديث ، إن يفر قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون فى شيء من شأنه ، فلما خرج سكتوا ... الحديث . لم أجد له أصلا

(٦) حديث « العبد المؤمن بين مخافتين ، من أجل قد مضى ... الحديث» أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبى ﷺ وقد تقدم فى ذم الدنيا ؛ ذكره ابن المبارك فى كتاب الزهد بلاغا ، وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس

القلب من عقدة الجحود حجابا بينه و بين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فتتمثل ذلك فى قلبه و يستغرقه حتى لايبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه الى الدنيا وصارفاً وجهه اليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تأخذ الى المحجوبين عنه : فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار : جز يامؤمن فان نورك أطفأ لهبى ؛ فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا . فالأمر مخطر ؟ لأن المرء يموت على ما عاش عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه ، اذ لا لاتصرف فى القلوب الا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال ، فلامطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع الى الدنيا ليتدارك . وعند ذلك تعظم الحسرة . إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت : فان كان ايمانه فى القوة الى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب ، وان كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ، ولو لم يكن الا مثقال حبة فلابد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين .

فان قلت : فا ذكرته يقتضى أن تسرع النار اليه عقيب موته ، فما باله يؤخر الى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة ؟ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان ، بل الصحيح عند ذوى الأبصار ماصحت به الأخبار وهو : أن القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١) . وأنه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم (٢) ، كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقى بسوء الخاتمة . وانما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات ، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) . ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملأ من الأشهاد فى القيامة (٦) ، ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) . . . الى آخر ماوردت به الاخبار ، فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الاحوال معذب الا أن يتغمده الله برحمته . ولا تظنن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها الى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التى هى محل الإيمان ، وقد كانت من وقت الموت الى الإعادة اما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة ، واما على حالة تضاد هذه الحال ان كانت والعياذ بالله شقية .

---

(١) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث « إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم » لم أجد له أصلا .

(٣) حديث سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر . تقدم فى قواعد العقائد .

(٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه . (٥) حديث المناقشة فى الحساب ، تقدم فيه .

(٦) حديث الافتضاح على ملأ الأشهاد فى القيامة : رواه ابن عمر «وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رءوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم »والطبرانى والعقيلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياش « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكر . (٧) حديث خطر الصراط ، تقدم فى قواعد العقائد .

(٨) هول الزبانية أخرجه الطبرانى من حديث أنس « الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران » قال صاحب الميزان ، حديث منكر . وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى خزنة جهنم مابين منكبى أحدكم كما بين المشرق والمغرب .

فإن قلت : فما السبب الذى يفضى إلى سوء الخاتمة ؟

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لايمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها ؛ أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين :

(أحدهما) يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الأعمال . كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا ، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعنى مذهبا فأقول أنه بدعه ، فان بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعنى البدعة: أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ماهو عليه ، إما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر ، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله ، فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه وبما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان مااعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور ، فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ فى هذا الاعتقاد خاصة لالتجائه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص ، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها ، فان اتفق زهوق روحه فى هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنياوهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وكما أنه قد ينكشف فى النوم ما سيكون فى المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف فى سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا هى المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع مافى اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ماهى عليه ، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف ، ويكون الكشف سبب الشك فى بقية الاعتقادات ، وكل من اعتقد فى الله تعالى وفى صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظراً بالرأى المعقول ، فهو فى هذا الخطر والزهد والصلاح لايكفى لدفع هذا الخطر ، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق ، والبله بمعزل عن هذا الخطر ، أعنى الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا فى البحث والنظر ولم يشرعوا فى الكلام استقلالا ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين فى تقليد أقاويلهم المختلفة . ولذ قال النبى صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله[1] » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض فى الكلام والتفتيش عن هذه الأمور ، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده أن نفى التشبيه ، ومنعوهم عن الخوض فى التأويل لأن الخطر فى البحث عن الصفات عظيم وعقباته كئودة ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة ، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض ، والقلوب لما ألقى إليها فى مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة ، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين فى أول الأمر ، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة ، فاذا فتح باب الكلام فى الله وفى صفاته بالرأى والمعقول مع تفاوت الناس فى قرائحهم واختلافهم فى طباعهم وحرص كل جاهل منهم

---

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله » أخرجه البزار من حديث أنس ، وقد تقدم .

على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم ، وتأكد ذلك بطول الالف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم ، فكانت سلامة الخلق فى أن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولايتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ، ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان ، ويظن أنه ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وينبغى أن ينشد فى هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض فى البحث ، فقد تعرض لهذا الخطر ، ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو فى ملتطم الامواج يرميه موج الى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل ، وذلك بعيد ، والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الادلة التى حرروها فى تعصباتهم أو دون الادلة ، فان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين ، وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقلة الناقص ، وكل خائض فى البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين ، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذى هو مشرق فى عالم الولاية والنبوة ، وذلك هو الكبريت الاحمر ، وأنى يتيسر ، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا فى هذا الفضول ، فهذا أحد الاسباب المخطرة فى سوء الخاتمة .

(وأما السبب الثانى) فهو ضعف الايمان فى الاصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الايمان وضعيف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا ، فيصير بحيث لايبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولايظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يطفىء مافيه نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعا ورينا ، فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهو المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ماقدر عليه من الموت وكراهة ذلك . من حيث إنه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب ، كما أن الذى يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التى هى أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا ، فان اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا مؤبدا ، والسبب الذى يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى . فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر . وحب الدنيا رأس كل خطيئة . وهو الداء العضال . وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى . إذ لايحبه الا من عرفه . ولهذا قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ فاذن كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه . فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا

لما أحبه ، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، فلا يخفى مايستحقه من الخزى والنكال ؛ وأما الذى يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذى تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا فى لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التى هى دون الأولى وليست مقتضية للخلود فى النار ، فلها أيضا سببان :

(أحدهما) كثرة المعاصى وإن قوى الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى ، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الإلف والعادة،وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى ، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذى لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر ، والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر ، والذى غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ، ونعرف هذا بمثال : وهو أنه لايخفى عليك أن الإنسان يرى فى منامه جملة من الأحوال التى عهدها طول عمره ، حتى إنه لايرى إلا ما يماثل مشاهداته فى اليقظة وحتى إن المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ، ولو بقى كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثم لايخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة ، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر فى حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب ، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب ، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الإلف ، فطول الإلف بالمعاصى والطاعات أيضاً مرجح،وكذلك تخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفساق ، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة فى قلبه وتميل اليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها ، وكما أن مايخطر فى اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى ، فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها ، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشىء إلى ماينا سبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه .

أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل فى شدة التفاوت بينهما ، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان ، وقد ينتقل الخاطر من شىء إلى شىء ولا يدرى وجه مناسبته له ، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين ، مثل أن ينتقل من شىء إلى شىء ثان ، ومنه إلى شىء ثالث ،ثم ينسى الثانى ، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة ، ولكن يكون بينه وبين الثانى مناسبة وبين الثانى والأول مناسبة .

فكذلك لانتقالات الخواطر فى المنامات أسباب من هذا الجنس ، وكذلك عند سكرات الموت ، فعلى هذا — والعلم عند الله — من كانت الخياطة أكثر أشغاله ، فإنك تراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل أصبعه التى لها عادة بالكستبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله ، ثم يمد يده إلى

المقراض ، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصى والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر فى فطامه نفسه عنها وفى قمع الشهوات عن القلب ، فهذا هو القدر الذى يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، فإنه يموت المرء على ماعاش عليه ويحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتى الشهادة فيقول : خمسة ستة أربعة ، فكان مشغول النفس بالحساب الذى طال إلفه له قبل الموت .

وقال بعض العارفين من السلف : العرش جوهرة تتلألأ نورا ، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله فى العرش على الصورة التى كان عليها ، فإذا كان فى سكرات الموت كشف له صورته من العرش ، فربما يرى نفسه على صورة معصية ، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف مايجل عن الوصف وما ذكره صحيح ، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك ، فإن النائم يدرك مايكون فى المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهى جزء من أجزاء النبوة ، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله ، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وإن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن لايرى فى المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لاتدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة مايظهر فى النوم لما غلب فى اليقظة ، حتى سمعت الشيخ أبا أباعلى الفارمذى رحمة الله عليه يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لايكون فى قلبه إنكار لكل مايقوله ولا فى لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخى أبى القاسم الكرمانى مناما لى وقلت . رأيتك قلت لى كذا ، فقلت: لم ذاك ؟ قال : فهجرنى شهر ولم يكلمنى وقال : لولا أنه كان فى باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك فى النوم وهو كما قال ، إذ قلما يرى الإنسان فى منامه خلاف مايغلب فى اليقظة على قلبه ، فهذا هو القدر الذى نسمح بذكره فى علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل فى علم المكاشفة .

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هى عليه من غير معصية ، فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلابد وأن يغلب عليك من الخوف ماغلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك ، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك ، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم فى النفس الأخير الذى عليه خروج الروح ، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً ، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول : إنى لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكنى أعجب ممن نجا كيف نجا ! ولذلك قال حامد اللفاف : إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا . وكان الثورى يوما يبكى فقيل له علام تبكى ؟ فقال : بكينا على الذنوب زمانا ،فالآن نبكى على الإسلام. وبالجملة من وقعت سفينته فى لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة فى حقه أبعد من الهلاك ، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر ، وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب[1] »ولايتسع

---

(١) حديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة ... الحديث » تقدم .

فواق الناقة لأعمال توجب الشقاوة ، بل هى الخواطر التى تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف . وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبى فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة ، ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها ، وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لايخلوا عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ،وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح فى حالة لم يبق فى القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب ، إذ لايهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت إلا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذى بايعه الله به ، إذ قال تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ والبائع راغب عن المبيع لامحالة ومخرج حبه عن القلب ، ومجرد حب العوض المطلوب فى قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب فى بعض الأحوال ولكن لايتفق زهوق الروح فيها ،فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة ، وهذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة ؛ فإن من هذا حاله وإن قتل فى المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار(١) .

وإذا بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصى ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضا يؤثر فى قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك ، فراقب قلبك فى كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تخطف فيها روحك ، هــذا مادمت فى يقظتك ؛ وأما إذا نمت فاياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله قلبك ، لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الأثر . واعلم قطعا أنه لايغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ، وأنه لايغلب فى النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ماغلب على قلبك فى نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لاينام العبد إلا على ماغلب عليه فى يقظته ولا يستيقظ إلا على ماكان عليه فى نومه ، فكذلك لايموت المرء إلا على ماعاش عليه ولا يحشر إلا على مامات عليه ، وتحقق قطعا ويقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك فى خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، واعــلم أن ذلك لايتيسر لك مالم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقى كله فضول ، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك ، فينبغى أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك فى قضاء حاجتك ،

---

(١) حديث « المقتول فى الحرب إذ كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة » متفق عليه من حديث أبى موسى الاشعرى « أن رجلا قال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وفى رواية : الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء . وفى رواية غضبا .

إذ لافرق بين ادخال الطعام فى البطن وإخراجه ، فهما ضروريتان فى الجبلة ، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التى يشتغل بها قلبك فلا ينبغى أن يكون تناول الطعام من همتك ، واعلم أنه ان كان همتك مايدخل بطنك فقيمتك مايخرج من بطنك ؛ واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك ، فعلامة ذلك تظهر فى ثلاثة أمور : من مأكولك فى وقته وقدره وجنسه ، أما الوقت فأقله أن يكتفى فى اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم ، وأما قدره فبأن لايزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لايطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق ، فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤنة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لاتأكل الا من حله ، فان الحلال يعز ولا يفى بجميع الشهوات . وأما ملبسك فيكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة ؛ فكل مادفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم فى تحصيله بالكذب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ماتدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ما حصل مقصود اللباس ان لم تكتف به فى خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده ، بل كنت ممن لايملأ بطنه الا التراب . وكذلك المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا ، فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد ، فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك ، ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت فى مهواة يبعد رقيك منها ، وهكذا جميع ضرورات أمورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك ، وان جاوزت حد الضرورة الى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله فى أى واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج الى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير ، فاذا دفعته يوما بيوم فى تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة فى غير وقت ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت اليه بضعف خوفك اذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية فى تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين مانرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك . فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك فى أحوالهم : لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا الى الأرض . ولا غرو ان كان ذلك لايؤثر فى قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿ وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام فى الخوف

روت عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله(١) . وقرأ صلى الله عليه وسلم آية فى سورة الواقعة فصعق(٢) ، وقال تعالى ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل

---

(١) حديث عائشة : كان إذا تغير الهوا وهبت ريح عاصفة تغير وجهه ... متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث : قرأ فى سورة الحاقة فصعق ، المعروف فيما يرى من هذه القصة أنه قرىء عنده (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) فصعق ، كما رواه ابن عدى والبيهقى فى الشعب مرسلا . وهكذا ذكره المصنف على الصواب فى كتاب السماع كما تقدم .

عليه السلام بالأبطح فصعق (١). وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيزا كأزيز المرجل(٢). وقال ﷺ « ماجاءنى جبريل قط إلا وهو يرعد فرقا من الجبار (٣) » وقيل : لما ظهر على إبليس ماظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان ، فأوحى الله إليهما : مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا ! يارب ، ما نأمن مكرك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى .

وعن محمد بن المنكدر قال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق بنو آدم عادت .

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مالى لا أرى ميكائيل يضحك ؟ » فقال جبريل : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٤) .

ويقال . إن لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل ، فقال : « ياابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » فقلت : يارسول الله لا أشتهيه ، فقال « لكنى أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربى لأعطانى ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين فى قلوبهم ؟ » قال : الله مابرحنا ولا قمنا حتى نزلت ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾ قال فقال رسول الله ﷺ « إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات ، من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد (٥) » .

وقال أبو الدرداء : كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم اذا قام فى الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه .

وقال مجاهد : بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه ، فنودى : ياداود أجائع أنت فتطعم ؟ أم ظمآن فتسقى ؟ أم عار فتكسى ؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر جوفه ، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال ، يارب اجعل خطيئتى فى كفى فصارت خطيئته فى كفه مكتوبة ، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته ، قال : وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا

---

(١) حديث : أنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق : أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جديد : سأل النبى ﷺ جبريل أن يراه فى صورته؟ فقال : أدع ربك ، فدعى ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير ، فلما رآه صعق . ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ : فغشى عليه. وفى الصحيحين عن عائشة : رأى جبريل فى صورته . مرتين ، ولهما عن ابن مسعود : رأى جبريل له ستمائة جناح . (٢) حديث : كان إذا دخل فى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذى فى الشمائل ، وللنسائى من حديث عبد الله بن الشخير ، وتقدم فى كتاب السماع . (٣) حديث « ما جاءنى جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائصه من الجبار » لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن ابن عباس قال : إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدى الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقا من عذاب الله ... الحديث » وفيه زميل بن سماك الحنفى يحتاج إلى معرفته .

(٤) حديث أنس أنه ﷺ قال لجبريل « مالى لا أرى ميكائيل يضحك » فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار رواه أحمد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد ، ورواه ابن شاهين فى السنة من حديث ثابت مرسلا ، وورد ذلك أيضاً فى حق إسرافيل . رواه البيهقى فى الشعب ، وفى حق جبريل رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين .

(٥) حديث ابن عمر : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل الحديث . أخرجه ابن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر . قال البيهقى : هذا إسناد مجهول ، والجراح بن منهال ضعيف .

تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عزوجل ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى إذا ذكرت خطيئتى ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روحى ، سبحانك إلهى أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتى فكلهم عليك يدلنى ، فبؤسا للقانطين من رحمتك .

وقال الفضيل : بلغنى أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا أريدكم ، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلنى إلا البكاء ، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء . وكان يعاتب فى كثرة البكاء فيقول : دعونى أبكى قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بى ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : إلهى بح صوتى فى صفاء أصوات الصديقين .

وروى أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه ، فقال : يارب أما ترحم بكائى ؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ، نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال : إلهى وسيدى كيف أنسى ذنبى وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجارى عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلنى الطير على رأسى وأنست الوحوش إلى محرابى ، إلهى وسيدى فما هذه الوحشة التى بينى وبينك ، فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، ياداود آدم خلق من خلقى خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى وأسجدت له ملائكتى وألبسته ثوب كرامتى وتوجته بتاج وقارى ، وشكا لى الوحدة فزوجته حواء أمتى وأسكنته ، عصانى فطردته عن جوارى عريانا دليلا ، ياداود اسمع منى والحق أقول ؛ أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك . وقال يحيى بن أبى كثير : بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لايأكل الطعام ولايشرب الشراب ولايقرب النساء ، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية ، فأمر سليمان أن ينادى بصوت يستقرى البلاد وماحولها من الغياض والآكام والجبال والبرارى والصوامع والبيع ، فينادى فيها : ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت ، قال : فتأتى الوحوش من البرارى والآكام وتأتى السباع من الغياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن ، وتجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتى داود حتى يرقى المنبر ويحيط به إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه ، فيأخذ فى الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ فى ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ، ثم يأخذ فى أهوال القيامة وفى النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بنى إسرائيل ومن الوحوش والهوام ، فيأخذ فى الدعاء ، فبيناهو كذلك إذ ناداه بعض عباد بنى إسرائيل ياداود عجلت بطلب الجزاء على ربك ! قال فيخر داود مغشيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ماأصابه أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا ينادى الا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار ، فكانت المرأة تأتى بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يامن قتله ذكر النار ، يامن قتله خوف الله ، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : ياإله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجى ربه ، فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول : ياأبتاه تقو بهذا على ما تريد ، فيأكل من

ذلك القرص ماشاء الله ثم يخرج إلى بنى إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشى : خرج داود ذات يوم مالناس يعظهم ويخوفهم ، فخرج فى أربعين ألفافات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلافى عشرة آلاف ، قال : وكان له جاريتان اتخذهما ، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قدلبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهديهم قدخرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس ، فهاله ذلك ، فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون ، فقالوا له : يايحيى ، هلم بنا نلعب فقال : إنى لم أخلق للعب ، قال : فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا ، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب ، فخرج أبواه فى طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكانى منك ، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه ، فدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ، ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه ، فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين ، فقالت له أمه : يابنى لوأذنت لى أن أتخذ لك شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين؟ فأذن لها ، فعمدت إلى قطعتى لبود فألصقتهما على خديه ، فكان إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما ، فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى أمه قال : اللهم هذه دموعى وهذه أمى وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين ، فقال له زكريا يوما : يابنى إنما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناى بك ، فقال يحيى : ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لايقطعها إلا كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام : يابنى فابك .

وقال المسيح عليه السلام : معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا ، بحق أقول لكم : إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل .

وقيل : كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له : ربك يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلا يخاف خليله ؟ فيقول : ياجبريل إنى إذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى . فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته ، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين فى شدة الخوف

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر . ليتنى مثلك ياطائر ولم أخلق بشرا .

وقال أبوذر رضى الله عنه : وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة .

وقال عثمان رضى الله عنه : وددت أنى إذا مت لم أبعث .

وقالت عائشة رضى الله عنها : وددت أنى كنت نسيا منسيا .

وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه ، فكان يعاد أياما . وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال : ياليتنى كنت هذه التبنة ، ياليتنى لم أك شيئا مذكورا ، ياليتنى كنت نسيا منسيا ،

ياليتنى لم تلدنى أمى . وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه : من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . ولما قرأ عمر رضى الله عنه ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ خر مغشيا عليه . ومر يوما بدار إنسان وهو يصلى ويقرأ سورة (والطور) فوقف يستمع ، فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه .

وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيئا يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجداً وقياما يتلون كتاب الله يراحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم ، والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين ، ثم قام ، فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم .

وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف .

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه : وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى .

وكان على بن الحسين رضى الله عنه إذا توضأ اصفر لونه ، فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟

وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه .

وقرأ مضر القارئ يوما ﴿ هـذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ... الآية ﴾ فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لا أعصيتك جهدى أبدا ، فأعنى بتوفيقك على طاعتك .

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما . حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ فقال : أنا من المجرمين ولست من المتقين . أعد على القول أيها القارىء . فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة .

وقرىء عند يحيى البكاء ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة .

وقال مالك بن دينار : بينا أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ؛ يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكى . فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك : فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول : ثكلت مالكا أمه .

وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكى بكاء الثكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت . ثم انقلب مع الناس .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين ؟ فقال : قلوبهم بالخوف فرحة ، وأعينهم باكية . يقولون : كيف نفرح والموت من ورائنا . والقبر أمامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا . وبين يدى الله ربنا موقفنا .

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس ، فقال له الحسن: يافتى ، هل مررت بالصراط ؟ قال : لا ، قال : فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ قال : لا. قال : فما هذا الضحك ؟ قال فما رؤى ذلك الفتى بعدها ضاحكا .

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه، فيقال له: لو اطمأننت ؟ فيقول : تلك جلسة الآمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى .

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى .

وقال مالك بن دينار . لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم ينطلقوا بى الى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده .

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقى آدم عليه السلام فيها مالقى : ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقى مالقى ؟ ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقى ؟ ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه ؟

وقال السرى . إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى . وقال أبوحفص منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك .

وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال : إنى اجترأت البارحة على الله سألته الجنة .

وقالت أم محمد بن كعب القرظى لابنها : يابنى إنى أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا ، وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك تصنع فى ليلك ونهارك ؟ فقال : يا أماه ، ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال : وعزتى وجلالى لا غفرت لك .

وقال الفضيل : إنى لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبداً صالحا ، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخلق .

وروى : أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار ، فكان يبكى حتى حبسه ذلك فى البيت ، فجاء النبى ﷺ فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا ، فقال ﷺ « جهزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده[1] »

وروى عن ابن أبى ميسرة أنه كان إذا أوى الى فراشه يقول : ياليت أمى لم تلدنى ، فقالت له أمة : يا ميسرة ، إن الله تعالى قد أحسن إليك : هداك الى الإسلام ، قال : أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردوا النار لم يبين لنا أنا صادرون عنها .

وقيل لفرقد السبخى : اخبرنا بأعجب شىء بلغك عن بنى إسرائيل ؟ فقال : بلغنى أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح ، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا فى يوم واحد .

وكان عطاء السلمى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو . وقيل له فى مرضه : ألا تشتهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعاً للشهوة. ويقال: إنه مارفع رأسه إلى السماء ولا ضحك

---

(١) حديث : أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه فى البيت ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى الخائفين من حديث حذيفة ، والبيهقى فى الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر .

أربعين سنة . وأنه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق فى بطنه فتق ، وكان يمس جسده فى بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ ، وكان اذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال . هذا من أجلى يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس.
وقال عطاء : خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم فى رءوسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين ، فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه . فجلس أصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال : إنى ذكرت أنى عصيت الله فى ذلك المكان .

وقال صالح المرى : قرأت على رجل من المتعبدين ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ فصعق ثم أفاق فقال: زدنى ياصالح فإنى أجد غما ، فقرأت ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فخر ميتا .

وروى أن زرارة بن أبى أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ ﴿ فاذا نقر فى الناقور ﴾ خر مغشيا عليه فحمل ميتا.
ودخل يزيد الرقاشى على عمر بن عبد العزيز فقال : عظنى يا يزيد ! فقال : يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال . زدنى ؛ قال. يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت ، فبكى ثم قال زدنى يا يزيد فقال . يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل ، فخر مغشيا عليه .
وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية ﴿ وان جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ صاح سلمان الفارسى ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لايقدرون عليه[1].
ورأى داود الطائى امرأة تبكى على رأس قبر ولدها وهى تقول: يا ابناه ، ليت شعرى أى خديك بدأ به الدود أولا ؟ فصعق داود وسقط مكانه .
وقيل : مرض سفيان الثورى فعرض دليله على طبيب ذمى فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ، ثم جاء وجس عروقه ثم قال : ما علمت أن فى الملة الحنيفية مثله.
وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عزوجل أن يفتح على بابا من الخوف ، ففتح فخفت على عقلى ؛ فقلت : يارب على قدر ما أطيق ، فسكن قلبى .
وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا ، فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه ، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا[2] »
وقال العنبرى : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكى ولحيته ترجف ، فقال : عليكم بالقرآن ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ! ليس هذا زمان حديث ، انما زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق ، إنما هذا زمان : احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر .

---

(١) حديث ميمون بن مهران : لما نزلت هذه الآية (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) صاح سلمان الفارسى : لم أقف له على أصل . (٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » تقدم فى قواعد العقائد .

وروى الفضيل يوما وهو يمشى ، فقيل له إلى أين ؟ قال لا أدرى ، وكان يمشى والها من الخوف .

وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : مابال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد ! فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ! فقال : يابنى ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وحكى أن قوما وقفوا بعابد وهو يبكى فقالوا : ما الذى يبكيك يرحمك الله ؟ قال : قرحة يجدها الخائفون فى قلوبهم . قالوا : وما هى ؟ قال : روعة النداء بالعرض على الله عزوجل .

وكان الخواص يبكى ويقول فى مناجاته قد كبرت وضعف جسمى عن خدمتك فأعتقنى .

وقال صالح المرى : قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرنى شيئا من بعض عجائب عبادكم ، فذهبت به إلى رجل فى بعض الأحياء فى خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصا ، فقرأت عليه ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله ، وذهبنا إلى اخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه ، فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا ، فقرأت ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط فى دمه حتى يبس ، فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ، ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا ، فإذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فإذا شيخ فان جالس فى مصلاه ، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا ، فقلت بصوت عال ألا إن للخلق غدا مقاما ، فقال الشيخ بين يدى من ويحك ! ثم بقى مبهوتا فاتحاً فاه شاخصا بصره بصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة ، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا ، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى . وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حالته مبهوتا متحيرا لايؤدى فرضا ، فلما كان بعد ثلاث عقل .

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال ، وكان قد حلف أن لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمنا أبدا ، فما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمنا حتى مات رحمه الله .

وقال الحجاج لسعيد بن جبير : بلغنى أنك لم تضحك قط ! فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت .

وقال رجل للحسن : ياأبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك ؟ فتبسم الحسن وقال: تسألنى عن حالى؟ ماظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة . على أى حال يكون ؟ قال الرجل على حال شديدة . قال الحسن : حالى أشد من حالهم .

ودخلت مولاة لعمر بن العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد فى بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت فى منامها ، ثم انتبهت فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى والله رأيت عجبا ، قال ؛ وماذاك ؟ قالت : رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط ووضع على متنها ، فقال : هيه . قالت : فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر: هيه ، قالت : ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ الصراط فهوى إلى جهنم ، فقال عمر : هيه قالت: ثم جىء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك ، فقال عمر : هيه قالت: ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين : فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خر مغشيا عليه ، فقامت إليه

فجعلت تنادى فى أذنه : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيتك والله قد نجوت ! إنى رأيتك والله قد نجوت ! قال : وهى تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه . ويحكى أن أويسا القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكى من كلامه ، فاذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون .

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : إن المؤمن لايسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه .

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة فى المقلى ، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول : طير ذكر جهنم نوم الخائفين .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، ياليتنى كنت ذلك الرجل ، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة ، قال : وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه ، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها ، فاذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه . وعوتب فى شدة حزنه وخوفه فقال : مايؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فى على بعض ما يكره فمقتنى فقال: اذهب فلا غفرت لك ، فأنا أعمل فى غير معتمل .

وعن ابن السماك قال : وعظت يوما فى مجلس ، فقام شاب من القوم فقال : يا أبا العباس ، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالى أن لا نسمع غيرها . قلت : وما هى رحمك الله ؟ قال قولك : لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار . ثم غاب عنى ففقدته فى المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت : يا أخى ما الذى أرى بك ؟ فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما فى الجنة أو فى النار . قال : ثم مات رحمه الله فرأيته فى المنام فقلت : يا أخى مافعل الله بك؟ قال. غفرلى ورحمنى وأدخلنى الجنة . قلت بماذا ، قال بالكلمة .

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا ، بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا ، فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تحركنا ، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ، ولا خطر الخاتمة يزعجنا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا ، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا .

ومن العجائب أنا إذا أردنا المال فى الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبرارى وخاطرنا . وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا فى حفظه وتكراره وسهرنا . ونجتهد فى طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس فى بيوتنا فنقول : اللهم ارزقنا ، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا : اللهم اغفر لنا وارحمنا ، والذى إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ﴾ ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ ﴿ يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلا محنة هائلة إن لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا ، فلاعلامة للخذلان أعظم من هذا ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وفضله .

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ماأوردناه فإن القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني . ولقد صدق الراهب الذى حكى عنه عيسى بن مالك الخولانى ـ وكانمن خيار العباد ـ أنه رآه على باب بيت المقدس ، واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء ، فقال عيسى : لما رأيته هالنى منظره ، فقلت : أيها الراهب أوصنى بوصية أحفظها عنك ، فقال : ياأخى بماذا أوصيك إن أستطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل ؛ فهو فى المخافة ليله وإن أمن المغترون ، وفى الحزن نهاره وإن فرح البطالون . ثم ولى وتركنى فقلت : لو زدتنى شيئا عسى ينفعنى ؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره ، وقد صدق فان القلب الصافى يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبوا عنه كل المواعظ ، وماذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغى أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق ؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها ، وهى التى لاتزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها ؛ فاذا انكشف الغطاء ووضعت فى قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك فى قبرك وإنما هى صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها ، فان أردت أن تقتلها وتقهرها أنت قادر عليها قبل الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فصلا عن ظاهر بشرتك ، والسلام .

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تسبح له الرمال ، وتسجو له الظلال ، وتتدكدك من هيبته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له فى قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ، ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، مااستقبح دون مبادى اشراقه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا فى الصورة امرأة جميلة تميس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزى وضربت فى قالب النكال ، وهى متلفلفة بجلبابها لتخفى قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبائلها فى مدارج الرجال ، فهى تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ، ثم لاتجتزى معهم بالخلف فى مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد المبغض فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال ، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لايعتريها فناء ولا زوال . والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

أما بعد؛ فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل ، وبمكرها زل من زل ، فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات . وقد استقصينا مايتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات ، فلا مطمع فى النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أو تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا . ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادات وحظ فى الإعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر فى شطر من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه . ونبدأ بذكر الفقر فنقول :

الشطر الأول من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر ، وبيان فضيلة الفقر مطلقا . وبيان خصوص فضيلة الفقراء . وبيان فضيلة الفقير على الغنى . وبيان أدب الفقير فى فقره . وبيان أدبه فى قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة . وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال . وبيان أحوال السائلين . والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

أعلم أن الفقر عبارة عن فقد ماهو محتاج إليه . أما فقد مالا حاجة إليه فلا يسمى فقرا . وان كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا ، وإذا فهمت هذا لم تشك فى أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده ؛ فإن كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغنى المطلق . ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا : فليس فى الوجود إلا غنى واحد . وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام ، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ﴿والله الغنى وأنتم الفقراء﴾ هذا معنى الفقر مطلقا . ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص . وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لاينحصر . لأن حاجاته لاحصر لها . ومن جملة حاجاته مايتوصل إليه بالمال . وهذا هو الذى نريد الآن بيانه فقط . فنقول : كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذى فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجا إليه فى حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر . ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها :

(الحالة الأولى) وهى العليا : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد . واسم صاحبه الزاهد ،

(الثانية) أن يكون بحيث لايرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه . وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا .

(الثالثة) أن يكون وجود المال أحب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به ، وان افتقر إلى تعب فى طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع مافيه من الرغبة الضعيفة .

(الرابعة) أن يكون تركه الطلب لعجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

(الخامسة) أن يكون مافقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته فى الطلب إما ضعيفة وإما قوية ، وقلما تنفعك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال : أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هى أعلى من الزهد وهى أن يستوى عنده وجود المال وفقده ؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ ، وإن فقده فكذلك ، بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت : لو ذكرتينى لفعلت ؛ فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال فى خزانة الله تعالى لافى يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره .

وينبغى أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لأنه غنى عن فقد المال ووجوده جميعاً ، وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد ، فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال فى يده ، وإنما هو غنى عن دخول المال فى يده لا عن بقائه ، فهو إذن فقير من وجه ، وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده أيضا ، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه ، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه ، وليس فاقدا له ليحتاج إلى الدخول فى يده ، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب ، وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لابقرب المكان ، ولكنا لا نسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ، ليبقى الغنى إسما لمن له الغنى المطلق عن كل شىء .

وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه ، فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذى أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى أوقات متقاربة، لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن ،فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا .

واعلم أن الزهد درجة هى كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها ، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا ، فانه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو فى مكان حتى تكون السماوات والأرض حجابا بينك وبينه ، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره ، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهوات نفسك فكذلك لاتزال محجوبا عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى ، والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله ، مثاله مثال الرقيب الحاضر فى مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فان قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو فى حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه ، فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك فى العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال فى أن لايلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا ، فإنه كما لايجتمع فى القلب حبان فى حالة

واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب فى حالة واحدة ، فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافل وهو فى غفلته سالك فى طريق القرب ، إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هـذه الغفلة وتتبدل بالشهود ، فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالمحب والمبغض كرجلين فى طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما ، سيان بالإضافة إلى الحال فى أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول اليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف فى الكعبة الملازم لها الذى لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة فى الوصول اليها ، فلا ينبغى أن تظن أن بغض الدنيا مقصود فى عينه ، بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول اليه إلا بدفع العائق ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : من زهد فى الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة ، بل ينبغى أن يشتغل بالآخرة ، فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج ، فإذن قد ظهر أن الزهد فى الدنيا إن أريد به عدم الرغبة فى وجودها وعدمها فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة فى عدمها فهو كمال بالإضافة الى درجة الراضى والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة الى درجة المستغنى ، بل الكمال فى حق المال أن يستوى عندك المال والماء ، وكثرة الماء فى جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ، ولا قلته تؤذيك الا فى قدرة الضرورة ، مع أن المال محتاج اليه كما أن الماء محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغى أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد فى الحاجة وانما الفرق بينهما فى قلة أحدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذى دبر به العالم : علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتى بيانه فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

قال احمد بن ابى الحوارى : قلت لأبى سليمان الدارانى . قال مالك بن دينار للمغيرة . اذهب الى البيت فخذ الركوة التى اهديتها لى فإن العدو يوسوس لى أن اللص قد أخذها : قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية : قد زاده فى الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة فى بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان .

فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار ؟ فأقول : كما هربوا من الماء على معنى انهم ماشربوا أكثر من حاجتهم فنفروا عما وراءه ولم يجمعوه فى القرب والروايا يديرونه مع انفسهم بل تركوه فى الأنهار والآبار والبرارى للمحتاجين اليه . لا انهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأخذوها ووضعوها فى مواضعها وما هربوا منها[1] ، إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فإما ان ينقل عمن خاف

---

(١) حديث : إن خزائن الأرض حملت إلى رسول الله ﷺ وإلى أبى بكر وعمر فأخذوها ووضعوها فى مواضعها هذا معروف ، وقد تقدم فى آداب المعيشة من عند البخارى تعليقا مجزوما به من حديث أنس : أتى النبى ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه . ووصله عمر بن محمد البحيرى فى صحيحه من هذا الوجه . وفى الصحيحين من حديث عمرو ابن عوف : قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدومه ... الحديث ، ولهما من حديث جابر : لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا ، فلم يقدم حتى توفى رسول الله ﷺ ، فأمر أبو بكر مناديا ينادى ، من كان له على رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا ، فقلت ، إن النبى ﷺ وعدنى ، فحثا لى ثلاثا .

أن لو اخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلاجرم البغض المال والهرب منه فى حقهم كال ، وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به فى الترك: إذ لو اقتدوا به فى الأخذ لهلكوا . كما يفر الرجل المعزم بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون . والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء . فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص .وأما المضطر فيتصور فى حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجة تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى فى جميع أموره عامة وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة . فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها . فانه أحق باسم العبد من الغافلين . وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، وإذا عرفت هذا الاشترك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر [١] » وقوله عليه السلام « كاد الفقير أن يكون كفرا [٢] » لا يناقض قوله « أحيني مسكينا وأمتنى مسكينا [٣] » إذ فقر المضطر هو الذى استعاذمنه . والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

بيان فضيلة الفقير مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ الآية. وقال تعالى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ ساق الكلام فى معرض المدح .ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار ، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقير .

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأ كثر من أن تحصى . روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير ؟ » فقالوا : موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله فقال « نعم الرجل هذا وليس به » فقالوا : فمن خير الناس يارسول الله ؟ قال « فقير يعطى جهده [٤] » وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا [٥] » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال [٦] » وفى الخبر المشهور « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام [٧] » وفى حديث آخر

---

(١) حديث أعوذ بك من الفقر » تقدم فى الأذكار والدعوت .

(٢) حديث «كاد الفقر أن يكون كفرا» تقدم فى ذم الحسد . (٣) حديث« اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا» رواه الترمذى من حديث أنس وحسنه ، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم. (٤) حديث ابن عمر أنه ﷺ قال لأصحابه : أى الناس خير ؟ فقالوا : موسر المال يعطى حق الله من نفسه وماله . فقال : نعم الرجل هذا وليس به فقالوا فمن خير الناس ؟ قال : فقير يعطى جهده ، أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له . (٥) حديث : قال لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا» أخرجه الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال . ورواه الطبرانى من حديث ابى سعيد بلفظ « مت فقيرا ولا تمت غنيا » وكلاهما ضعيف . (٦) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين ، وقد تقدم . (٧) حديث « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم .

« بأربعين خريفا (١) » أى أربعين سنة ، فيكون المراد بهتقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص،والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب ، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقير يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم ، وكأن الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ، ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق؛ بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة (٢)» فإنه تقدير تحقيق لا محالة، ولكن ليس فى قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين ؛ فأما بالتحقيق فلا ، إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبى ويفارق به غيره . وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة . لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف .
والثانى : أن له فى نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا باختيارنا وهى القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى .

والثالث : أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات .

والرابع : أن له صفة بها يدرك ما سيكون فى الغيب إما فى اليقظة أو فى المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب ، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام،وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها الى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله ﷺ أم لا ، وانما المعلوم بجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها،وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة التقدير : فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك الا بنوع من التخمين ولا وثوق به ، والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور ، فان الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولنرجع الى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا «خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ان لى حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى: الفقر والجهاد (٤) » وروى ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا(٥)»

---

(١) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا ، أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ، إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد ، ورواه هو ومسلم من حديث أبى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ «رؤيا المؤمن جزء... الحديث» وقد تقدم (٣) حديث «خير الأمة فقراؤها ، وأسرعها تضطجعا فى الجنة ضعفاؤها »لم أجد له أصلا
(٤) حديث « إن لى حرفتين اثنتين ... الحديث» وفيه « الفقر والجهاد » لم أجد له أصلا .
(٥) حديث : أن جبريل نزل فقال : إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا... الحديث وفيه «إن الدنيا دار من لادار له... الحديث» هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبى أمامه « عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت : لايارب ، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما» الحديث الحديث وقال : حسن ولأحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لادار له ... الحديث » وقد تقدم فى ذم الدنيا .

وتكون معك أينما كنت ، فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « ياجبريل ، ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لامال له ولها يجمع من لا عقل له » فقال له جبريل: يامحمد ثبتك الله بالقول الثابت .

وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرفى سياحته رجل نائم ملتف فى عباءة ، فأيقظه وقال : يانائم قم فاذكر الله تعالى ، فقال : ماتريد منى ؟ انى قد تركت الدنيا لأهلها ، فقال له : فنم اذن ياحبيبى .

ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة ، فقال : يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع: فأوحى الله تعالى اليه: ياموسى أما علمت أنى اذا نظرت الى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها .

وعن أبى رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه ، فارسلنى الى رجل من يهود خيبر وقال « قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بعنى دقيقا الى هلال رجب » قال فأتيته فقال : لا الله الا برهن ، فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال « أما والله إنى لأمين فى أهل السماء أمين فى أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأديت اليه اذهب بدرعى هذا اليه فارهنه » فلما خرجت نزلت هذه الآية ﴿ ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) ﴾ الآية ، وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣) »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقير مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين .

وقال عطاء الخراسانى : مر نبى من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال : بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شىء ، ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يارب ماهذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك ؟ فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال :رضيت يارب .

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء » وفى لفظ آخر « فقلت أين الأغنياء ؟ حبسهم الجد » وفى حديث آخر « فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ماشأنهن ؟ فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر (٥) » وفى الخبر « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦) » وفى حديث آخر « رأيته دخل الجنة زحفا (٧) » .

---

(١) حديث أبى رافع : ورد على رسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر الحديث فى نزول قوله تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أخرجه الطبرانى بسند ضعيف .
(٢) حديث « الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس » رواه الطبرانى من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن عدى فى الكامل هكذا . (٣) حديث « من أصبح منكم معافى فى جسمه ... الحديث» أخرجه الترمذى وقد تقدم . (٤) حديث « اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء ... الحديث » تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره . (٥) حديث « تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر » رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر ، وأبو منصور الديلمى فى مسند الفروس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ، ورواه أبو منصور أيضاً فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا . (٦) حديث « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان ... الحديث » تقدم ، وهو فى الأوسط للطبرانى بإسناد فرد ، وفيه نكارة . (٧) حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة .

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ،فإذاأحبه الحب البالغ اقتناه . قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلا ولا مالا (١) » .
وفى الخبر « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته (٢) » .

وقال موسى عليه السلام : يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال :كل فقير فقير : فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء ، وكان أحب الأسامى اليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين . ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولانجيء ،ونجيء اليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبى ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وذلك لأنهم شكوا إليه التاذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر ، فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم ، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد : فنزل عليه قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يعنى الفقراء (تريد زينة الحياة الدنيا) يعنى الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعنى الأغنياء ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٣) ﴾ الآية .

واستأذن ابن أم مكتوم على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ يعنى ابن مكتوم ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى (٤) ﴾ يعنى هذا الشريف .
وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا ، فيقول : وعزتى وجلالى مازويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما اعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج ياعبدى إلى هذه الصفوف ، فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة (٥) » .

---

(١) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى .
(٢) حديث « إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبى الدرداء ولم يسمع منه قال : قال رسول الله ﷺ « أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى .. » فذكره بزيادة فى أوله . ورواه أبو نعيم فى الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف . (٣) حديث : قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبى ﷺ : إجعل لنا يوم ولهم يوما ... الحديث فى نزول قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم . .) الآية، تقدم من حديث خباب ، وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا ، وهذه الزيادة من حديث سلمان (٤) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبى ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى (عبس وتولى) أخرجه الترمذى من حديث عائشة وقال غريب وقلت : ورجاله الصحيح . (٥) حديث « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل فى الدنيا ، فيقول وعزتى وجلالى ما زويت عنك الدنيا لهوانك على =

وقال عليه السلام «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة» قالوا : يارسول الله ، وما دولتهم ؟ قال « إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة [١] » وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فإذا بلال ، ونظرت فى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ، ونظرت فى أسفلها فاذا فيه من الأغنياء والنساء قليل ، فقلت يارب ماشأنهم ؟ قال : أما النساء فأضر بهن الأحمران الذهب والحرير ، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب ، وتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ، ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى ، فقلت : ماخلفك عنى ؟ قال : يارسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك ، فقلت : ولم ؟ قال : كنت أحاسب بمالى [٢]» فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة [٣] » وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا [٤] » ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال : « لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم [٥] » .

وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره [٦]» .

وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزله وجاه ، فقال « ياعمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله ، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب وقال « السلام عليكم . أأدخل ؟ » فقالت : أدخل يا رسول الله . قال أنا ومن معى ، قالت : ومن معك يارسول الله ؟ قال « عمران » فقالت فاطمة : والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة . قال « اصنعى بها هكذا وهكذا » وأشار بيده ، فقالت : هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ، فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شدى بها على رأسك » ثم أذنت له فدخل فقال

= الحديث أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنو منى أحبائى ، فتقول الملائكة : ومن أحباؤك ؟ فيقول : فقراء المسلمين ، فيدنون منه فيقول : أما إنى لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتى اليوم ، فتمنوا على ما شئتم اليوم.. الحديث دون آخر الحديث ، وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم فى الحلية ، وسيأتى فى الحديث الذى بعده .

(١) حديث « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة ... الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن على بسند ضعيف واتخذوا عند الفقراء أيادى ، فإن لهم دولة يوم القيامة ؛ فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيروا إلى الفقراء ، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه فى الدنيا .

(٢) حديث «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى ، فنظرت فإذا بلال ، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه ، وقصة بلال فى الصحيح من طريق آخر .

(٣) حديث : إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ورواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد ، قال الترمذى : حسن صحيح . (٤) حديث « ألا من قال بالمال هكذا وهكذا » متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٥) حديث : دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال « لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم » لم أجده . (٦) حديث « الا أخبركم عن ملوك الجنة ... الحديث» متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقول « ملوك » وقد تقدم ، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ « ألا أخبركم عن ملوك الجنة ... الحديث » دون قوله « أغبر أشعث » .

« السلام عليكم ياابنتاه ، كيف أصبحت ؟ » قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بى الجوع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «لاتجزعى يا ابنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربى لأطعمنى ولكن آثرت الآخرة على الدنيا» ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها «أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة» قالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال « آسية سيدة نساء عالمها ، ومريم سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، إنكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب » ثم قال لها « اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة [١]» .

وروى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال ، بالقحط من الزمان ، والجور من السلطان ، والخيانة من ولاة الأحكام ، والشوكة من الأعداء [٢] » .

وأما الآثار ، فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبساً أو قال أشد حسابا من ذى الدرهم .

وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار ، فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال : أشد من ذلك ، ثم قال : أرينى درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج [٣]» .

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد .

وقيل : جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له : تخط ، لو كنت غنيا لما قربتك ، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغنى أذل منه فى مجلس الثورى . ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله .

وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً ، ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعاً ، ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعاً .

وقال ابن عباس : ملعون من أكرم بالغنى وهان بالفقر .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : لاتحقرن احداً لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد .

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين .

وفى الأخبار عن الكتب السالفة : ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط

---

(١) حديث عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله ﷺ منزلة وجاه ، فقال « يا عمران ، إن لك عندنا منزلة وجاها ، فهل لك فى عيادة فاطمة ؟ الحديث » تقدم . (٢) حديث « إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى بإسناد فيه جهالة ، هو منكر . (٣) حديث سعيد بن عامر « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ... الحديث » وفى أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها ، وقد روى أحمد فى الزهد القصة إلا أنه قال « تسعين عاما » وفى إسناده يزيد بن أبى زياد تكلم فيه ، وفى رواية له « بأربعين سنة » وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذى من حديث أبى هريرة وصححه ، وقد تقدم .

من عينى فأصب الدنيا عليك صباً

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة الف درهم فى يوم واحد بوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وان درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية : لواشتريت لك بدرهم لحماتفطرين عليه ! وكانت صائمة فقالت : لو ذكرتينى لفعلت ، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه [١] » .

وجاء رجل الى ابراهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى عليه أن يقبلها ، فألح عليه الرجل ، فقال له ابراهيم : أتريد أن أمحو أسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ، لاافعل ذلك أبدا ـ رضى الله عنه .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى الى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به [٢] » وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا [٣] » فالأول القانع وهذا الراضى ، ويكاد يشعر هذا بمفهومه : إن الحريص لاثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة فى فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه ، فلعل المراد بعدم الرضاهو الكراهة لفعل الله فى حبس الدنيا عنه ، ورب راغب فى المال لايخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة فى فعله ، فتلك الكراهة هى التى تحبط ثواب الفقر .

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال « ان لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة [٤] » .

وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى ﷺ انه قال «احب العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى [٥] » وقال ﷺ « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا [٦] » وقال «مامن احد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة انه كان اوتى قوتا فى الدنيا [٧] » واوحى الله تعالى الى اسماعيل عليه السلام : اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم . قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال ﷺ «لا احد افضل من الفقير اذا كان راضيا [٨] » وقال ﷺ «يقول الله تعالى يوم القيامة اين صفوتى من خلقى ، فتقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ، فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائى الراضون بقدرى ،

---

(١) حديث : قال لعائشة « إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء ، وإياك ومجالسة الأغنياء ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه نحواً من حديثها ، وقد تقدم .

(٢) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » رواه مسلم ، وقد تقدم .

(٣) حديث «يامعشر الفقراء أعطو الله الرضا من قلوبكم ... الحديث» رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وهو ضعيف جدا ، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى متهم بالكذب ووضع الحديث.

(٤) حديث إن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين ... الحديث » رواه الدارقطنى فى غرائب مالك وأبو بكر ابن لال فى مكارم الأخلاق ، وابن عدى فى الكامل ، وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر .

(٥) حديث «أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله » لم أجده بهذا اللفظ ، وتقدم عند ابن ماجه من حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف » (٦) حديث « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه بلفظ «قوتا» وقد تقدم . (٧) حديث «مامن أحد غنى ولا فقير إلا ود أنه أوتى قوتا فى الدنيا أخرجه ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم. (٨) حديث« لاأحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا » لم أجده بهذا اللفظ

أدخلوهم الجنة . فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس فى الحساب يترددون (١) » فهذا فى القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله فى الشطر الثانى من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الآثار فى الرضا والقناعة فكثيرة ، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع . وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن الطمع فقر واليأس غنى ، وإنه من يئس عما فى أيدى الناس وقنع استغنى عنهم .

وقال أبو مسعود رضى الله تعالى عنه : ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش : ياابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : مامن أحد إلا وفى عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان فى هدم عمره ثم لايحزنه ذلك ، ويح ابن آدم ماينفع مال يزيد وعمر ينقص .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر وفى يده رغيف يأكله ، فلما أكل نام ، فقال لبعض غلمانه : إذا قام فجئنى به ، فلما قام جاء به اليه ، فقال إبراهيم : أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعت ؟ قال نعم ، قال ثم نمت طيباً ؟ قال نعم . فقال إبراهيم فى نفسه ، فاأصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر .

ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا ، فقال له : ياعبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال : ألا أدلك على من رضى بشر من هذا ؟ قال : بلى . قال : من رضى بالدنيا عوضاً عن الآخرة .

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول : من رضى من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد .

وقال الحسن رحمه الله : لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ، ثم قرأ ﴿ وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وكان أبو ذر رضى الله عنه يوما جالسا فى الناس فأتته امرأته فقالت : أتجلس بين هؤلاء ؟ والله مافى البيت هفة ولا سفة ، فقال : ياهذه ، ان بين أيدينا عقبة كئودا لاينجو منها الا كل مخف ، فرجعت وهى راضية .

وقال ذو النون رحمه الله : أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لاصبر له .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالك؟ فقال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس .

وروى أن الله عز وجل قال فى بعض الكتب السالفة المنزلة : يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت ، فاذا أنا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا محسن اليك .

وقد قيل فى القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس واقنع بيأس فان العز فى الياس
واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم إن الغنى من استغنى عن الناس

---

(١) حديث «يقول الله يوم القيامة : أين صفوتى من خلقى ؟ فتقول الملائكة : ومن يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

وقد قيل فى هذا المعنى أيضاً :

ياجامعاً مانعا والدهر يرمقه	مقدرا أى باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيتـه	أغاديا أم بها يسرى فتطرقه
جمعت مالا فقل لى هل جمعت له	يا جامع المـال أياماً تفرقه
المـال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنسه	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق فى ظلها هم يؤرقـه

بيـان فضيـلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى هذا ، فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء . الغنى الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال : إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه فى هذا فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الصبر وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر — ومهدنا سبيل طلب الفضيلة فى الأعمال والأحوال ، وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل

فأما الفقر والغنى إذا أخـذا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار فى تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول : إنما يتصور الشك فى مقامين (أحدهما) فقير صابر ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غنى منفق ماله فى الخيرات ليس حريصا على إمساك المال (والثانى) فقير حريص مع غنى حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغنى الحريص الممسك ، وأن الغنى المنفق ماله فى الخيرات أفضل من الفقير الحريص ، أما الأول فربما يظن أن الغنى أفضل من الفقير ؛ لأنهما تساويا فى ضعف الحرص على المال ، والغنى متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه ، وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ؛ فأما الغنى المتمتع بالمال وإن كان فى مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع ، وقد يشهد له ماروى فى الخبر . أن الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد ، فعلمهم كلمات فى التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ماناله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال عليـه السلام «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[1]» .

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال : الغنى أفضل لأنه وصف الحق ، أما دليله الأول ففيه نظر لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ؛ وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى رسول الفقراء إليـك ؛ فقال « مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم » قال : يارسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ، ويعتمرون ولا نقدر عليه ،

---

(١) حديث : شـكى الفقراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالصدقات ... الحديث ، وفى آخره : فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » متفق عليه من حديث أبى هريرة نحوه .

وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم ، فقال النبي ﷺ « بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء : أما خصلة واحدة : فإن فى الجنة غرفا ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء ، لايدخلها إلا نبى فقير ، أو شهيد فقير ، أو مؤمن فقير ، والثانية : يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة : إذا قال الغنى : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم ، وكذلك أعمال البر كلها » فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله ﷺ ، فقالوا : رضينا رضينا[1] فهذا يدل على أن قوله «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم . وأما قوله : إن الغنى وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض ، فانقطع ولم ينطق ،وأجاب آخرون فقالوا : إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ، ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لاينبغى أن ينازع فيها ، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته[2] » وقال سهل: حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى ، فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لاتبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضل الغنى بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد،وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم ، فكشف الغطاء عن هذا هو ماذكرناه فى كتاب الصبر : وهو أن مالا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ،والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ، والفقر مطلوبا لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه ، وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان بن عوف رضى الله عنهما ، وكم فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ،والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل ، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لايجتمع معه حب الله فى القلب ،والمحب للشىء مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله ،وربما يكون شغله فى الفراق أكثر ، وربما يكون شغله فى الوصال أكثر،والدنيا معشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، فإذن إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد ، اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده ، اذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة . وان أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقير عن الخطر أبعد ، اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر ، ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم : بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه خلقة الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الأعصار الكثيرة الا نادراً .

---

(١) حديث زيد بن أسلم عن أنس : بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا : إن الأغنياء بالجنة يحجون ولا ولا نقدر نحن عليه ... الحديث ، وفيه «بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء ... الحديث » لم أجده هكذا بهذا السياق ، والمعروف فى هذا المعنى مارواه ابن ماجه من حديث ابن عمر : اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ مافضل الله به عليهم أغنيائهم، فقال «يامعشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام » وإسناده ضعيف .

(٢) حديث « قال الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى » تقدم فى العلم وغيره

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر ـ والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ـ زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام : لاتنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم .

وقال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان .

وفى الخبر « إن لكل أمة عجلا وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم[1] » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا ، واستواء المال والماء ، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء ، ثم يتم لهم ذلك بعض فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إن كان النبي ﷺ يقول للدنيا « إليك عنى[2] » إذكانت تتمثل له بزينتها . وكان على كرم الله وجهه يقول يا صفراء غرى غيرى ، ويا بيضاء غرى غيرى ، وذلك لاستشعاره فى نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه ، وذلك هو الغنى المطلق ، إذ قال ﷺ « ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس[3] » وإذا كان ذلك بعيدا فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لاينفكون فى القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة فى بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ، وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ، وبقدر مايأنس من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها ، والقلب إذا تجافى عما سوى الله وكان مؤمنا بالله انصرف لامحالة إلى الله ، إذ لايتصور قلب فارغ وليس فى الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان ، فالمتردد بينهما بقدر مايقرب من أحدهما يبعد عن الآخر ، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه فى عزوبه عن الدنيا وأنسه بها فإذن فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبهما بالمال فقط ، فان تساويا فيه تساوت درجتهما ؛ إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور فان الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفينا فى باطنه وهو لايشعر به وإنما يشعر به إذا فقده ، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه ، فان وجد لقلبه إليه التفاتا فليعلم أنه كان مغرورا ، فكم من رجل باع سريته لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التى كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذن أنه كان مغرورا ، وأن العشق كان مستكنا فى القلب استكنان النار تحت الرماد ، وهذا حال كل الأغنياء والأنبياء والأولياء ، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته ، فان حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور ، ولا يكون تأثيرها فى إثارة الأنس فى قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها فى قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبد وهو فى طلب الدنيا مثل من يطفىء النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك .

---

(١) حديث « لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم » رواه أبو منصور الديلمى من طريق أبى عبد الرحمن السلمى من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة

(٢) حديث : كان يقول للدنيا « إليك عنى ... الحديث » رواه الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

(٣) حديث « ليس الغنى عن كثرة العرض ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم

وقال أبو سليمان الدرانى رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لايقدر عليها ، أفضل من عبادة غنى ألف عام .

وعن الضحاك قال : من دخل السوق فرأى شيئا يشتهيه فصبر واحتسب ، كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها فى سبيل الله تعالى .

وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لى فقد أضرّ بى العيال فقال : إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لى فى ذلك الوقت فان دعائك أفضل من دعائى . وكان يقول : مثل الغنى المتعبد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر فى جيد الحسناء . وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : اللهم إنى اسألك الذى عند النصف من نفسى ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ، ومن نوقش الحساب فقد عذب ، ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ما أحب أن لى حانوتا على باب المسجد ولا تخطئنى فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها فى سبيل الله تعالى . قيل : وما تكره ؟ قال سوء الحساب ، ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء ؛ اختار الفقراء تعب النفس وفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب ، وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوى عنده كلاهما ، فأما إذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا إلى بقائه فلا يضاهى غناه غنى الله تعالى . لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق ؛ وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح فى ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لاتليق بالعبد غير صحيح . بل العلم من صفاته وهو أفضل شىء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول : إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافا له أو قد يكون له من كل واحد نصيب . وأما التكبر فلا يليق بالعبد . فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه وليس من صفات الله تعالى . وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به . قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شىء . وأنه يعلم أنه كذلك ، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس ، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع أكبر من العاصى . والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات ، وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة فى حقه . الا أنه لاسبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة . وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تنفق ؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر . إذ ربما يختم للكافر بالإيمان . وقد يختم له بالكفر . فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة . ولما تصور أن يعلم الشىء على ماهو به كان العلم كمالا فى حقه لأنه

فى صفات الله تعالى ، ولمــا كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا فى حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التى لا ضرر فيها هى التى تتصور فى العبد من صفات الله تعالى ، فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء ، فإذن لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجود الغنى الذى يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة، أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا، فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثانى فى نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

ولنفرض هذا فى شخص واحد هو طالب للمــال وساع فيه وفاقد له ثم وجده ، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول : ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بد منه فى المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل ، لأن الفقر يشغله بالطلب ، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل ، والمكفى هو القادر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » وقال « كاد الفقر أن يكون كفرا » أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه ، وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ، ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين : فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنهما استويا فى الحرص وحب المــال ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى : ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه ، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا ؛ فحاله أشد لا محالة : إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه (1) » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد: فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا ، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ،فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه : وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لهـا وإن كان حريصا عليها ، فإذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا فى موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له : إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم : والثانى الفقر عن مقدار الضرورة فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى : ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل: فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجد ما يضطر إليه أيضا : فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر . ويبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المــال ليس له هم سواه ، وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال : ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا فى محل النظر ، والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده : والعلم عند الله تعالى فيه .

---

(1) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه » تقدم

بيان آداب الفقير فى فقره

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها .

فاما أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر ، أعنى أنه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ـ وإن كان كارها للفقر ـ كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها الحجام ، بل ربما يتقلد منه منة ، فهذا أقل درجاته وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا » وأرفع من هذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به ، وأرفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ، ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف . وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر : من علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علاماته ـ إذا كان عقوبة ـ أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء ، وهذا يدل أن كل فقير فليس بمحمود ، بل المحمود الذى لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته ، إذ قيل: ما أعطى عبد شيئا من الدنيا إلا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول حساب .

وأما أدب ظاهره : فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففى الحديث « إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال » وقال تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر .

وأما فى أعماله فأدبه : أن لا يتواضع لغنى لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال على كرم الله وجهه : ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل : فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع . قال الثورى رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً فى العطاء .

وأما أدبه فى أفعاله : فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى : روى زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم » قيل وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها ، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه ، فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف [1] » وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات (إحداها) أن لا يدخر إلا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين (والثانية) أن يدخر لأربعين يوما فان مازاد عليه داخل فى طول الأمل ، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام

---

(١) حديث زيد بن أسلم « درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف » قيل : وكيف يارسول الله ؟ قال « أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف . . . الحديث » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة متصلا ، وقد تقدم فى الزكاة ، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلا .

ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما . وهذه درجة المتقين (والثالثة) أن يدخر لسنته وهى أقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ، ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ، فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه فى قوت سنته ، وغنى الخصوص فى أربعين يوما ، وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة . وقد قسم النبى ﷺ نساءه على مثل هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت أربعين يوما ، وبعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

بيان اداب الفقير فى قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال وغرض المعطى وغرضه فى الأخذ .

أما نفس المال فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها ، فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطى فلا يخلو : إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، والذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض .

أما الأول — وهو الهـــدية — فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله ﷺ[1] ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منة ، فان كان فيها منة فالأولى تركها ، فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ، فقد أهدى إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش ، فقبل السمن والأقط ورد الكبش[2]. وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض[3] . وقال « لقد هممت ان لا اتهب الا من قرشى او ثقفى او انصارى او دوسى[4] » وفعل هذا جماعة من التابعين ، وجاءت إلى فتح الموصلى صرة فيها خمسون درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « من أتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله[5] » ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سائرها . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان . فرد ذلك وقال : من جلس مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد فى قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه . وكان إبراهيم التيمى يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول : اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله فى قلبك افضل منى قبل القبول فاخبرنى

---

(١) حديث أن قبول الهدية سنة : تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية .

(٢) حديث : أهدى إلى النبى ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش . أخرجه أحمد فى أثناء حديث ليعلى بن مرة : وأهدت إليه كبشين وشيئا من سمن وأقط ، فقال النبى ﷺ «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر » وإسناده جيد ، وقال وكيع : مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه . (٣) حديث : كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى هريرة « وايم الله لا أقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجريا ... الحديث » فيه محمد بن إسحق ورواه بالعنعنة . (٤) حديث « لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال : روى من غير وجه عن أبى هريرة ، قلت : ورجاله ثقات . (٥) حديث عطاء مرسلا هكذا . ولأحمد وأبى يعلى والطبرانى بإسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى « من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه » ولأحمد وأبى داود الطيالسى من حديث أبى هريرة « من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله » وفى الصحيحين من حديث عمر « ما أتاك من هذا المـال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ... الحديث » .

حتى آخذه وإلا فلا ، وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه فى قبول صديقه هديته ،فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلاسريا السقطى لأنه قد صح عندى زهده فى الدنيافهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عونا له على مايحب . وجاء خراسانى إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال : أفرقه على الفقراء ،فقال ماأريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟قال :ماأريد أن تنفقه فى الخل والبقل بل فى الحلاوات والطيبات ، فقبل ذلك منه،فقال الخراسانى :ما أجدفى بغداد أمن على منك ، فقال الجنيد: ولا ينبغى أن يقبل إلا من مثلك .

الثانى :أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة.فعليه أن ينظر فى صفات نفسه هل هو مستحق الزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة ،وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى كتاب أسرار الزكاة .وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه ،فإن كان مقارفا لمعصية فى السر يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه، فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن ،فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه .

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ،إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثورى يرد مايعطى ويقول: لو علمت انهم لايذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت وعوتب بعضهم فى رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم .

وأما غرضه فى الأخذ فينبغى أن ينظر : أهو محتاج اليه فيما لابد منه أهو مستغن عنه ، فإن كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ ، قال النبى ﷺ « ماالمعطى من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجا(١) »وقال ﷺ «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله اليه(٢) »وفى لفظ آخر «فلايرده» وقال بعض العلماء :من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سرى السقطى يوصل الى احمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة.فقال له السرى :يااحمد،احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد:أعد ماقلت ،فأعاده ،فقال احمد مارددت عليك إلا لأن عندى قوت قوت شهر،فاحبسه لى عندك،فاذا كان بعد شهر فانفذه إلى .

وقد قال بعض العلماء :يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة او غيره، فأما إذا كان ماأتاه زيداعلى حاجته فلا يخلو:إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما فى طبعه من الرفق والسخاء،فان كان مشغولا بنفسه فلاوجه لأخذه وإمساكه ان كان طالبا طريق الآخرة،فان ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان أو داع اليه،ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ،ثم له مقامان (احدهما) أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر ، او يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ،وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس لايطيقه الا من اطمانت نفسه بالرياضة (والثانى) أن يترك ولايأخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج منه ، او يأخذ ويوصل الى من هو احوج منه ،فيفعل كليهما فى السر او كليهما فى العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل اظهار

(١) حديث « ماالمعطى من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إن كان محتاجا » رواه الطبرانى من حديث ابن عمر ، وقد تقدم فى الزكاة

(٢) حديث «من أتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشرف فإنما هو رزق ساقه الله إليه » وفى لفظ آخر «فلا ترده» تقدم قبله بحديث .

الأخذ أو إخفاؤه ؛ فى كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله، فإنما كان لاستغنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ؛ فإن فى ذلك آفات وأخطارا ، والورع يكون حذراً من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة : كانت عندى دراهم أعددتها للانفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى ، فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى : لا أجد لدراهمى موضعاً أحسن من هذا ، فحملتها اليه ، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثا فلا حاجة بى إلى الباقى فرده . قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس فى نفسى منه شىء فالتفت إلى فأخذ بيدى ، فأطافنى معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس ، فقال : هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدى الخلق لأن هذه أثقال وفتنة . وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة . والمقصود من هذا : أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه . وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك . فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم الا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه . وثوب يوارى عورته . وبيت يكنه فما زاد فهو حساب [1] » فاذن أنت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب . وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرض للحساب . وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب . ومن الاختيار أيضا : أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها ، فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون : وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ مازاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به الى الصرف إليهم ولا تدخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلو فى قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة ، فإن رزقه الله من حلال قضاه ، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة ، وقد قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ قيل معناه : ليبع أحد ثوبيه وقيل معناه : فليستقرض بجاهه ، فذلك مما آتاه الله . وقال بعضهم: إن لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف : الأقوياء ، والأسخياء ، والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أما الأقوياء فهم أهل

---

(١) حديث « لا حق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب» أخرجه الترمذى من حديث عثمان بن عفان وقال « وجلف الخبز والماء » بدل قوله « طعام يقيم صلبه » وقال صحيح .

التوكل على الله تعالى . وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى ، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى . فاذن مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه ، وينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى ؛ لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء ، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعى والإردات والاعتقادات وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه ؛ فوضع الرجل مائدة حسنة ، فلما قعد قال لأصحابه : إن هذا الرجل يقول . من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام . فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة ، فقال صاحب المنزل لشقيق . ماقصدت بهذا ؟ قال . أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم . وقال موسى عليه السلام . يارب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل يغدينى هذا يوما ويعشينى هذا ليلة فاوحى الله تعالى إليه . هكذا أصنع بأوليائى ، أجرى أرزاقهم على ايدى البطالين من عبادى ليؤجروا فيهم. فلا ينبغى أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه .

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ؛ وآداب الفقير المضطر فيه

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فى السؤال وتشديدات ، وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم « للسائل حق ولو جاء على فرس [1] » وفى الحديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق [2] » ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعدى على عدوانه والإعطاء إعانة ، فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرم فى الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فان كان عنها بد فهو حرام ، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

(الأول) إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى ، وهذا ينبغى أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة .

(الثانى) أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه ؛ فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله فلا ينبغى أن يذل لهم إلا لضرورة ، وفى السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسئول.

(الثالث) أنه لا ينفك عن ايذاء المسئول غالبا ؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استحيا وتأذى فى نفسه بالمنع إذ يرى نفسه فى صورة البخلاء ، فنى البذل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب فى الإيذاء والإيذاء حرام الابضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم « مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها [3] » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح

---

(١) حديث « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث الحسين بن على ، ومن حديث على ، وفى الأول يعلى بن يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وفى الثانى شيخ لم يسم ، وسكت عليهما أبو داود ، وما ذكره ابن الصلاح فى علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال : أربعة أحاديث تدور فى الأسواق ليس لها أصل منها « للسائل حق ... الحديث » فانه لا يصح عن أحمد ، فقد أخرج حديث الحسين بن على فى مسنده . (٢) حديث « ردوا السائل ولو بظلف محرق » رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح ، والنسائى واللفظ له من حديث أم بجيد . وقال ابن عبد البر : حديث مضطرب .

(٣) حديث « مسئلة الناس من الفواحش ، وما أحل الله من الفواحش غيرها » لم أجد له أصلا .

لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لايجد غيره . وقال ﷺ « من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم[١] » « ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم » وفى لفظ آخر « كانت مسألته خدوشا وكدوحا فى وجهه[٢] » وهذه الألفاظ صريحة فى التحريم والتشديد . وبايع رسول الله ﷺ قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة « ولا تسألوا الناس شيئا[٣] » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول « من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا[٤] » وقال ﷺ « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير » قالوا : ومنك يارسول الله ؟ قال « ومنى[٥] » وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه : عش الرجل ، فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال : ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال : قد عشيته ، فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال : لست سائلا ولكنك تاجر ، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال : لا تعد . ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته ، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول : أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير ، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة باخذ المال فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدر القصور فى الفقه ، فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم فى حوصلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده ؟ أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا فى معصية الله وحاشاه ، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبى الله ، وهيهات فإن ذلك أيضا معصية ، بل الفقه الذى لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئا فانما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج ، وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه ، إذلا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لامالك له . فوجب صرفه إلى المصالح . وإبل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوى بقوله إنى علوى وهو كاذب فانه لايملك ما يأخذه . كأخذ الصوفى الصالح الذى يعطى لصلاحه وهو فى الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه — وقد ذكرنا فى مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه — فاستدل بفعل عمر رضى الله عنه على صحة هذا المعنى الذى يغفل عنه كثير من الفقهاء . وقد قررناه فى مواضع ؛ ولا تستدل بغفلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر .

---

(١) حديث « من سأل عن غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم ... الحديث » رواه أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصرا على ما ذكر منه وتقدم فى الزكاة ، ولمسلم من حديث أبى هريرة « من يسأل الناس أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ... الحديث وللبزار والطبرانى من حديث مسعود بن عمر « ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه » وفى إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم » وإسناده جيد . (٢) حديث « من سأل وله ما يغنيه كانت مسئلته خدوشا وكدوحا فى وجهه » رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى الزكاة . (٣) حديث : بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة « ولا تسألوا الناس شيئا » أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعى . (٤) حديث « من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القناعة ، والحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أبى سعيد الخدرى ، وفيه حص بن هلال لم أر من تكلم فيه ، وباقيهم ثقات . (٥) حديث « استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير ... الحديث » أخرجه البزار والطبرانى من حديث ابن عباس « استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك ، وإسناده صحيح ، وله فى حديث « فتعففوا ولو بحزم الحطب » وفيه من لم يسم ، وليس فيه : وما قل من السؤال ... الخ .

فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفية ، أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال :

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهومباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسئول بكونه مباحا ، والمسئول بكونه راضيافى الباطن ، وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب ، فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال إلا إذا استغرق فى طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة .

وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله ، فسؤاله حرام قطعا ، وهذان طرفان واضحان .

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج إلى الدواء ليس يظهرخوفه لولم يستعمله ولكن لايخلو عن خوف وكمن له جبة لاقميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لاينتهى إلى حد الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة ، فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة لأنها حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليست تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ولكن يشق على ، فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى .

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز ، وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار ، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام ، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لاتصلح لأن تباح بها هذه المحذورات ، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة .

فان قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس ، فيخرج به حد الشكوى . وأما الذل فبأن يسأل أباه اوقريبه او صديقه الذى يعلم أن لاينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله ، او الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح وجودمثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لامحالة . وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه ان لايعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة ، وإن كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الأحب إليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . واما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى ان لايصرح بل يعرض تعريضا يبقى سبيلا إلى التغافل إن أراد ، فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فلذلك لرغبته وأنه غير متأذ به وينبغى أن يسأل من لايستحيا منه لو رده أو تغافل عنه ، فان الحياء من السائل يؤذى كما أن الرياء مع غير السائل يؤذى .

فان قلت فاذا أخذ من العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول : ذلك حرام محض لاخلاف فيه بين الأمة ، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لافرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب او يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام ، وضرب الباطن اشد نكاية فى قلوب العقلاء ، ولايجوز ان يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله

عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر(١) » فان هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات ،إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ،فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب،ولكن الضرورة دعت اليه ،وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ،والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا إلا الى قلبك وإن أفتوك وأفتوك .فان المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة.ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ،وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا ، فإذا ماأخذه مع الكراهة لا يملكه بينه و بين الله تعالى ويجب عليه رده الى صاحبه،فان كان يستحيى من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته ،فان لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فان تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه و بين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه و بالسؤال الذى حصل به الأذى .

فان قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل الى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا ؟ فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير فى السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا ، لأن الأذى إنما يحل بضرورة:وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ،فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة ، فكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ،ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا، كما فعل رسول الله ﷺ فى الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ،ولكن قد تكون رغبته طمعا فى جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك ، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا فى موضعين : أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء فى موضع الضرورة : سليمان . وموسى . والخضر عليهم السلام .

ولا شك فى أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب فى إعطائهم . والثانى : السؤال من الأصدقاء والإخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم فى اقتدار إخوانهم على مايريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم ان المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير الا فى تعريف حاجتك، فاما فى تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا ،ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك فى الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ فى الحالة الأولى حلال طلق ، وفى الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الإثم . وليدع ما يريبه إلى مالا يريبه . وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته . فان قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له مايوافق غرضه . فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله ﷺ « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه(٢) » وقد أوتى جوامع الكلم . لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد

---

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، لم اجد له اصلا ، وكذا قال المزى لما سئل منه .

(٢) حديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » تقدم .

قرابته فليأكل من أيدى الناس . وان أعطى بغير سؤال فانما يعطى بدينه . ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة . فاذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذى اكتسبته بحلالك أنت أو مورثك فاذن بعيدا أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدى الناس . فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره . وأن يغنينا بحلاله عن حرامه . وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على مايشاء قدير .

بيان مقدار الغنى المحرم عن السؤال

اعلم أن قوله ﷺ « من سأل عن ظهر غنى فانما يسأل جمرا فليستقل منه أو ليستكثر » صريح فى التحريم ، ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير . وليس إلينا وضع المقادير . بل يستدرك ذلك بالتوقيف . وقد ورد فى الحديث « استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره . قالوا : وما هو ؟ قال : غداء يوم وعشاء ليلة[1] » وفى حديث آخر «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا[2]» وورد فى لفظ آخر «اربعون درهما» ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغى ان يقطع بورودها على احوال مختلفة . فان الحق فى نفسه لايكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية الممكن فيه تقريب . ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين . فنقول قال رسول الله ﷺ « لا حق لابن آدم إلا فى ثلاث : طعام يقيم صلبه . وثوب يوارى به عورته . وبيت يكنه فما زاد فهو حساب» فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الأجناس والمقادير والأوقات . فأما الأجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها مافى معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لايقدر على المشى وكذلك مايجرى مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة ايضاً .

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه مايليق بذوى الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعاً . ولاينبغى ان يطلب رقة الثياب وكون الأوانى من النحاس والصفر فيما يكفى فيه الخزف . فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه مالم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدره فى اليوم مد وهو ماقدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير . والأدم على الدوام فضلة . وقطعه بالكلية إضرار . ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله مايجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة . فاما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى . وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج اليه فى الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات (إحداها) ما يحتاج اليه فى غد (والثانية) ما يحتاج اليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما (والثالثة) مايحتاج اليه فى السنة . ولنقطع بأن من معه مايكفيه له ولعياله إن كان له عيال

---

(١) حديث « استغنوا بغنى الله » قالوا : وما هو ؟ قال « غداء يوم وعشاء ليلة » تقدم فى الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا وما يغنيه ؟ قال « ما يغديه أو يعشيه » ولأحمد من حديث على بإسناد حسن: قالوا وما ظهر غنى؟ قال « عشاء ليلته » وأما اللفظ الذى ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبى هريرة . (٢) حديث «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافا » وفى لفظ آخر « أربعون درهما» تقدما فى الزكاة.

لسنة فسؤاله حرام ، فإن ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث ؛ فان خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد ؛ أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج اليه قبل السنة . فانكان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لأنه مستغن فى الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر . وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال . لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه ، فان كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا وكان ما لأجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخى المدة التى فيها يحتاج إلى السؤال ، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى ، فيستفتى فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة ، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجىء الرزق فى المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى ، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ والسؤال من الفحشاء التى أبيحت بالضرورة ، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج اليه فى السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة ، وكلاهما مباحان فى الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله ، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقال الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ ، فهذا مع الروحانيين فى عليين . وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ ، فهذا مع المقربين فى جنات الفردوس . وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين

فاذن قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة .

قال شقيق البلخى لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال : تركتهم إن أعطوا شكروا ، وإن منعوا صبروا ـ وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء ، فقال شقيق : هكذا تركت كلاب بلخ عندنا ، فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال : صدقت يا أستاذ .

فاذن درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة ، فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقى من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين ، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقى قطعا ، وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فانه ربما لا يقدر عليه ، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة يقتضى أن يكون السؤال مزيدا لهم فى درجاتهم ولكن بالإضافة الى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا إسحاق النورى رحمه الله يمد يده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال : فاستعظمت ذلك واستقبحته له ، فاتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال : لا يعظم هذا

عليك ، فان النورى لم يسال الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم. وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ « يد المعطى هى العليا[1] » فقال بعضهم : يد المعطى هى يد الآخذ للسال لأنه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ، ثم قال الجنيد : هات الميزان ، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها اليه ، فقلت فى نفسى : إنما يوزن الشىء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال . هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال . ردها عليه وقل له : أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ مازاد على المائة قال. فزاد تعجبى ، فسألته فقال : الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ماجعله لنفسه . قال : فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا الله المستعان ، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة اللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الأسرار ، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة.

فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه خاصة لعلة فى باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا ، وهذا وإن كان فى الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل ، بل البصير أحد رجلين : إما رجل سالك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين . ولعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين ﴿ آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ .

الشطر الثاني من الكتاب فى الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد .

بيان حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مراداً لعينه وإن لم يكن صادراً عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا ، والعلم هو السبب فى حال يجرى مجرى المثمر، والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة؛ فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل : أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء إلى ماهو خير منه

---

(١) حديث « يد المعطى هى العليا » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره ؛ فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا ، فإذن يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه . وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا ، إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا ، وإنما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة ، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة ، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشترى عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ معناه باعوه : فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلولهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب اليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض : فإذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للميل فى وضع اللسان .

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال ، والذى يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول ، والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الأكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ، ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين ، وهو زهد صحيح ، كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة ، فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات ، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وكان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات .

فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهى الدرجة العليا ، وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه : فان ترك مالا يقدر عليه محال ، وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك : يازاهد ، فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها .

وأما أنا ففيماذا زهدت ؟ . وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، ومالم يتحقق هذا للعلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع . فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى ، أى لذاتها خير فى أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له : فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة ، حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ فليس يحتاج من العلم فى الزهد إلا إلى هذا القدر . وهو أن الآخرة

خير وأبقى ،وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدنيا ،إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان ، وإما لا غتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت . وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ﴾ فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ، ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه قال رجل فى دعائه : اللهم أرنى الدنيا كما تراها ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «لا تقل هكذا ، ولكن قل: أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك (١) » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هى . وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالإضافة الى ماهو خير له . ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلا ، لأنه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس . والله تعالى غنى بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل فى درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ، ويراه متفاوتا بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالإضافة الى نفسه لا الى غيره .

وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى ، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها ،فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ماأخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات . وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفى بشرط الجانبين فى الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به . فإن الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد . فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سلم اليه الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ، وما دام ممسكا الدنيا لا يصح زهده أصلا، ولذلك لم يصف الله تعالى اخوه يوسف بالزهد فى بنيامين وان كانوا قد قالوا ﴿ ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ﴾ وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك.ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على اخراجه . بل عند التسليم والبيع .فعلامة الرغبة الإمساك وعلامة الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا. وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد . لأن مالا يقدر عليه لا يقوى على تركه . وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك أن الدنيا وان لم تأتك فأنت زاهد فيها . فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله. فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها . فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . واذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات . فإياك أن تثق بوعدها فى المباحات . والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها . أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة . فاذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما

ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر . فانها سريعة النقض للعهد. قريبة الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها الا عند الترك بالإضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة .قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة :ألا ترى الى ابن الحائك هذا

---

(١) حديث : قال رجل : اللهم أرنى الدنيا كما تراها ، فقال له « لا تقل هكذا ، ولكن قل : أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك » ذكره صاحب الفردوس مختصرا « اللهم أرنى الدنيا كما تريها صالح عبادك » من حديث أبى القصير ولم يخرجه ولده .

لا تفتى فى مسألة إلا رد علينا - يعنى أبا حنيفة ، فقال ابن شبرمة : لاأدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت اليه فهرب منها ،وهربت منا فطلبناها ، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله ﷺ : إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه إلا قليل منهم[1] ﴾. قال ابن مسعود رحمه الله : قال لى رسول الله ﷺ :أنت منهم - يعنى من القليل . قال:وماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة[2] ﴾.

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشىء منه فى العبادات ؛ وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة الى نفاسة الآخرة ؛ فأما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لايؤمن بالآخرة ، فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق؛ ولكن لايكون زهدا ؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألذ وأهنأ من المال ، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد ، فكذلك تركه طمعا فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما فى حفظ المال من المشقة والعناء ، والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا ، بل هو استعجال حظ آخر للنفس ؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها ، فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ، ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعا فى ثواب الله فى الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا فى أشربة الجنة ، وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعا فى الحور العين، وترك التفرج فى البساتين طمعا فى بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة ، وترك المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ﴾ فآثر فى جميع ذلك ماوعد به فى الجنة على ماتيسر له فى الدنيا عفوا صفوا ، لعلمه بأن مافى الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فمعاملات دنيوية لاجدوى لها فى الآخرة أصلا .

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى ﴿ خرج على قومه فى زينته ... إلى قوله تعالى ... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء ،وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ وجاء فى التفسير على الزهد فى الدنيا . وقال عز وجل ﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : معناه أيهم أزهد فيها ، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال . وقال تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فوصف الكفار بذلك ، فمفهومه أن المؤمن هو الذى يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا .

---

(١) حديث قال المسلمون : إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية لم أقف له على أصل .

(٢) حديث ابن مسعود : ماعرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى (منكم من يريد الدنيا) الآية أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة بإسناد حسن .

وأما الأخبار : فما ورد منها فى ذم الدنيا كثير ، وقد أوردنا بعضها فى كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات . ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات ،وهو المعنى بالزهد ، وقد قال رسول الله ﷺ « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة [١] » وقال ﷺ إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتاً وزهداً فى الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة [٢] » وقال تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولذلك قيل من زهد فى الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطقها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : قلنا يارسول الله ،أى الناس خير؟ قال « كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان » قلنا يارسول الله وما محموم القلب ؟ قال « التقى النقى الذى لاغل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد » قلنا : يا رسول الله ، فمن على أثره ؟ قال « الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة [٣] » ومفهوم هذا أن شر الناس الذى يحب الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا [٤] » فجعل الزهد سببا للمحبة ، فمن أحبه الله تعالى فهو فى أعلى الدرجات ،فينبغى أن يكون الزهد فى الدنيا من أفضل المقامات ، ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى . وفى خبر من طريق أهل البيت « الزهد والورع يجولان فى القلوب كل ليلة ، فان صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا [٥] » ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ أنا مؤمن حقا قال « وما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وذهبها، وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا ، فقال ﷺ « عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان [٦] » فانظر كيف بدأ فى إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال عبد نور الله قلبه بالإيمان .

ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح فى قوله تعالى *(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)* وقيل له: « ماهذا الشرح؟ قال «إن النور إذا دخل فى القلب انشرح له الصدر وانفسح» قيل يارسول الله ،وهل لذلك من علامة ؟ قال « نعم ،التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله [٧] » فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافى عن دار الغرور ؟ وقال ﷺ « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : إنا لنستحيي منه تعالى ، فقال « ليس كذلك تبنون مالا تسكنون ، وتجمعون مالا تأكلون [٨] » فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وما علامة إيمانكم ؟ » فذكروا

---

(١) حديث « من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت والترمذى من حديث أنس بسند ضعيف نحوه . (٢) حديث «إذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة رواه ابن ماجه من حديث أبى خلاد بسند ضعيف (٣) حديث : قلنا يارسول الله وما محموم القلب ؟ قال «التقى النقى ...» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله: يارسول الله فمن على أثره وقد تقدم ، ورواه بهذا الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٤) حديث «إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا» رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه ، وقد تقدم . (٥) حديث «الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة ، فان صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا» لم أجد له أصلا . (٦) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا ، فقال «وما حقيقة إيمانك ... الحديث» أخرجه البزار من حديث أنس والطبرانى من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف

(٧) حديث : سئل عن قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهدية ... الحديث . أخرجه الحاكم ، وقد تقدم

(٨) حديث استحيوا من الله حق الحياء ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف .

الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء ، فقال عليه الصلاة والسلام « إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون ولا تبنوا مالا تسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون(١) » فجعل الزهد تكملة لإيمانهم . وقال جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة » فقام اليه علي كرم الله وجهه ، فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله مالا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا فسره لنا ، فقال « حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة(٢) » . وفي الخبر « السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن ، والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك(٣) » . قال أيضا « السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة . والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار(٤) » والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا ، والسخاء ثمرة الزهد . والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وروى عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام(٥) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم اليهم وأنفسها عندهم لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغض بصره ، فقيل له : يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها ؟ فقال « قد نهاني الله عن ذلك » ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به ﴾ الآية(٦) وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ قالت : وبكيت لما رأيت به من الجوع : فقال ياعائشة ، والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض: ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها : ياعائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض لأولي العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض إلا أن يكلفني ما كلفهم ، فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة الا بالله(٧) » . وروى عن عمر رضي الله عنه : أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها،

(١) حديث: لما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال « وماعلامة إيمانكم... الحديث » رواه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما بإسناد ضعيف من حديث جابر . (٢) حديث جابر « من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة » لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف . (٣) حديث « السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن... الحديث » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده

(٤) حديث « السخي قريب من الله.. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ، وقد تقدم .

(٥) حديث أبي ذر « من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه ...الحديث » لم أره من حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري « من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » وقال حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب « من أخلص لله » وكلها ضعيفة .

(٦) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل.. الحديث. وفيه. ثم تلا قوله تعالى ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الآية. لم أجد له أصلا

(٧) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله. الا تستطعم ربك فيطعمك. قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ... الحديث . وفيه « ياعائشة . إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرا « ياعائشة ان الله لم يرض من اولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا ان كلفني ما كلفهم. فقال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) ومجالد مختلف في الاحتجاج به .

البس الين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق . ومر بصنعه طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر : ياحفصة ، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال : ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال « منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها » ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بنى ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج الى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك ؟ فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضى الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج[1] »وفى بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو انه قال : كان لى صاحبان سلكا طريقا ، فان سلكت طريقا غير طريقهما سلك بى طريقا غيرطريقهما ، وإنى والله سأصبر على عيشها الشديد لعلى ادرك معهما عيشهما الرغيد .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلى يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس الا العباءة ، وان كان احدهم يبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم[1] .

وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضر البقل ترى فى بطنه من الهزال ؛ فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز فى الآخرة .

وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

---

(١) حديث : أن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة : ألبس لين الثياب إذا قدمت عليك الوفود ... الحديث بطوله . وفيه ، ناشدتك الله هل تعلمين كذا ، يذكرها ما كان عليه النبى ﷺ حتى أبكاها وبكى ... الخ ، لم أجده هكذا مجموعا فى حديث ، وهو مفرق فى عدة أحاديث ؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ماشبع رسول الله ﷺ وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقى ربه ، وفيه عمرو بن عبدالله القدرى متروك الحديث ، وللترمذى من حديث عائشة قالت : ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا ابكيت ، قالت: لم ؟ قالت : أذكر الحال التى فارق رسول ﷺ الدنيا عليها ، والله ماشبع من خبز ولحم مرتين فى يوم. وقال حديث حسن، وللشيخين من حديثها :ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان ... الحديث ، وتقدم فى آداب الأكل ، وللترمذى فى الشمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت : ما كان على فراش النبى ﷺ ؟ مسح تثنية ثنتين فينام عليه ... الحديث . ولابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة .أنها كانت تفرش للنبى ﷺ عباءة باثنتين . الحديث وتقدما فى آداب المعيشة . وللبزار من حديث أبى الدرداء قال : كان ﷺ لاينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال : لانعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد . قال يونس بن بكير : قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على مافيها . قلت : فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحي القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وإسناده ضعيف . وتقدم فى آداب المعيشة .

(٢) حديث أبى سعيد الخدرى : كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة ... الحديث بإسناد صحيح فى أثناء حديث أوله . دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل.

فى سبيل الله ﴾قال ﷺ « تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم » فقلنا : يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة، فأى شيء ندخر؟ فقال ﷺ « ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينة على أمر آخرته[١] » .

وفى حديث حذيفة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هما لايفارق قلبه أبدا وفقرا لا يستغنى أبدا وحرصا لا يشبع أبدا[٢] ».

وقال النبى ﷺ « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إلية من أن يعرف ؛ وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته[٣] » .

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له: يانبى الله لو أمرتنا أن نبنى بيتا نعبد الله فيه ؟ قال : اذهبوا فابنوا بيتا على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟ .

وقال نبينا ﷺ « إن ربى عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا » فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما، فأما اليوم الذى اجوع فية فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك »

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبى ﷺ « ياجبريل ، والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق » فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته. فقال رسول الله ﷺ « أمر الله القيامة أن تقوم؟» قال : لا ، ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقل : إن الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأومأ اليه جبريل أن تواضع لله فقال « نبيا عبدا » ثلاثا[٤] .

وقال ﷺ « إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الاخرة وبصره بعيوب نفسه[٥] » .

---

(١) حديث عمر لما نزل قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية ؛ قال « تبا للدينار والدرهم ... الحديث» وفيه : فأى شيء ندخر ؟ أخرجه الترمذى وابن ماجه وتقدم فى النكاح دون قوله « تبا للدينار والدرهم» والزيادة رواها الطبرانى فى الأوسط وهو من حديث ثوبان ؛ وإنما قال المصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذى سأل النبى ﷺ . أى يتخذ ؛ كما فى رواية ابن ماجه ، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس . (٢) حديث حذيفة « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث ... الحديث » لم أجده من حديث حذيفة ، أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند حسن: من أشرق فى قلبه حب الدنيا التاط بثلاث : شقاء لاينفد عناه ، وحرص لايبلغ غناه ، وأمل لايبلغ منتهاه ، وفى آخره زيادة. (٣) حديث « لايستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لايعرف أحب إليه من يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته » لم أجد له إسناداً . وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن طلحة مرسلا « لايستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب من كثرته . وحتى يكون أن يعرف فى ذات الله أحب إليه من أن يعرف غير ذات الله» ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس. وعلى بن أبى طلحة أخرج له مسلم . وروى عن ابن عباس . لكن روايته عنه مرسلة فالحديث إذن معضل . (٤) حديث ابن عباس : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا ... الحديث فى نزول إسرافيل . وقوله : إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة ... الحديث تقدم مختصرا

(٥) حديث « إذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس دون قوله « ورغبه فى الآخرة » وزاد « فقهه فى الدين » وإسناده ضعيف .

وقال ﷺ لرجل « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس[١] » .
وقال صلوات الله عليه « من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا[٢] وقال ﷺ « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النار لها عن الشهوات ، ومن ترقب الموت ترك اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات[٣] » .

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام « أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع وكثرة الذكر ، وقلة الشيء[٤] » وإيراد جميع الأخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن ، فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان .

وأما الآثار : فقد جاء فى الأثر : لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يسألوا ما نقص من دنياهم . وفى لفظ آخر :مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى كذبتم ، لستم بها صادقين .

وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا .
وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم . قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد منكم.
وقال عمر رضى الله عنه : الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد .
وقال بلال بن سعد : كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها .
وقال رجل لسفيان : أشتهى ان أرى عالما زاهدا ، فقال : ويحك ، تلك ضالة لا توجد .
وقال وهب بن منبه : إن للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون . وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة .

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله : إنى لأشتهى من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ، ولا يكون على دين ، ولا على عظمى لحم فاعطى ذلك كله .
وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ،وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له بنوه . قد قبل الفقهاء وانت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها ، كذلك أنتم اردتم ذبحى على كبر سنى، موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا !
وقال عبيد بن عميرة كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ،ولا يدخر لغد ،أينما ادركه المساء نام .
وقالت امرأة أبى حازم لأبى حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب !

---

(١) حديث « ازهد فى الدنيا يحبك الله ... الحديث » .
(٢) حديث « من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا » لم أجد له أصلا .
(٣) حديث « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ...» رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث على بن أبى طالب
(٤) حديث «أربع لا يدركن إلا بتعب : الصمت هو أول العبادة ... الحديث» رواه الطبرانى والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

فقال لها أبو حازم : من هذا كله بد ، ولكن لابد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة أو النار .

وقيل للحسن : لم لا تغسل ثيابك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وقال ابراهيم ابن أدهم : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا .

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا ، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ « إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه[1] » فإذا فهم هذا علم أن النعمة فى المنع المؤدى إلى الصحة أكثر منها فى الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثورى يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل لمتعبد حتى لا يفزع من أربعة أشياء : الجوع ، والعرى ، والفقر ، والذل .

وقال الحسن البصرى : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شىء منها أدبر ، ولهى كانت فى أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط فإن كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد فى نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث ، الدرجة الأولى : وهى السفلى منها ، أن يزهد فى الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهذا يسمى المتزهد ، وهو مبدأ الزهد فى حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد ، والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه فى الطاعات لا فى الصبر على ما فارقه ، والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها فى قليل أو كثير . الدرجة الثانية : الذى يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، كالذى يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، ويظن فى نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه ، وهذا أيضا نقصان ، الدرجة الثالثة : وهى العليا أن يزهد طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لا شىء فيكون كمن

---

(١) حديث « إن الله يحمى عبده المؤمن من الدنيا... الحديث » تقدم

ترك خزفة وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا ، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ، ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة ، فهذا هو الكمال فى الزهد ، وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة فى البيع .

قال أبو زيد رحمه الله تعالى لأبى موسى عبد الرحيم : فى أى شىء تتكلم ؟ قال : فى الزهد ، قال فى أى شىء ؟ قال فى الدنيا . فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم فى شىء ، والدنيا لاشىء ؟ إيش يزهد فيها .

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره فى جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله ؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها فى حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها فى المعدة ، ثم تنتهى إلى النتن والقذر ويحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثقل ، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وان عمر مائة سنة بالاضافة الى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة الى ملك الدنيا ، اذ لا نسبة للمتناهى الى ما لا نهاية له ، والدنيا متناهية على القرب ؛ ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها الى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية . فأى نسبة لها الى نعيم الأبد فإذن لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه . ولا يلتفت الى ما زهد الا لأنه يراه شيئا معتدا به . ولا يراه شيئا معتدا به الا لقصور معرفته . فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة . فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة فى الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده .

وأما أنقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فهو أيضا على ثلاث درجات (الدرجة السفلى) أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدى العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار ، اذ فيها أن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء[1] فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا . فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد العدم . (الدرجة الثانية) أن يزيد رغبة فى ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة فى جنته من الحور والقصور وغيرها . وهذا هو زهد الراجين . فان هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا فى وجود دائم ونعيم سرمد لاآخر له . (الدرجة الثالثة) وهى العليا : أن لا يكون له رغبة الا فى الله وفى لقائه فلا يلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها ، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى ، وهو الذى أصبح وهمومه هم واحد ، وهو الموحد الحقيقى الذى لا يطلب غير الله تعالى . لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود ، وكل طالب عبد بالإضافة الى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفى . وهذا زهد

---

(١) حديث «إن الرجل ليوقف فى الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس » التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ومؤمن فقير ... الحديث . وفيه : « إنى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ما وصلت إليك حتى سال منى العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء» وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد : حديثه مثله .

المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه . وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره ، ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع فى قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به ، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب اللعب بالعصفور التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لا لأن اللعب بالعصفور فى نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق .

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل ، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل . فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل .

أما الإجمال فى الدرجة الأولى : فهو كل ما سوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد فى نفسه أيضاً ، والإجمال فى الدرجة الثانية : أن يزهد فى كل صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها . وفى الدرجة الثالثة : أن يزهد فى المال والجاه وأسبابهما إذ اليهما ترجع جميع حظوظ النفس . وفى الدرجة الرابعة : أن يزهد فى العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع الى العلم والقدرة وأعنى به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر .

وقد ذكر الله تعالى فى آية واحدة سبعة منها فقال ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ ثم رده فى آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾ ثم رده تعالى فى موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى ﴿ انما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ ثم رد الكل الى واحد فى موضع آخر فقال ﴿ ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس فى الدنيا ، فينبغي أن يكون الزهد فيه . واذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقه فى الشرح مرة والإجمال أخرى .

فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها . ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء فى الدنيا فقصر أمله لا محالة . لأنه انما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فان من أراد شيئا أراد دوامه ، ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود أو ممكن فى هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ، ولذلك لما كتب عليهم القتال ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ فقال تعالى ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ أى لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا . فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المنافقين : أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين . وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الماء البارد حرصا على نصرة دين الله

أو نيل رتبة الشهادة ، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة ، حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول : كم غررت بروحى وهجمت على الصفوف طمعا فى الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز ؛ فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات ، هكذا كان حال الصادقين فى الإيمان رضى الله عنهم أجمعين . وأما المنافقون ، ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ﴿ إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾ فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ؛ فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون ، فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذى بايعوا به ، فهذا بيان المزهود فيه .

وإذا فهمت هذا علمت أن ماذكره المتكلمون فى حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم مارآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه ، فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس ، وهذا إشارة الى الزهد فى الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى : الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوف ، فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة الى الزهد فى شهوة واحدة ، ولعمرى هى أغلب الشهوات على الأكثر وهى المهيجة لأكثر الشهوات .

وقال الفضيل : الزهد فى الدنيا هو القناعة ، وهذا إشارة الى المال خاصة . وقال الثورى : الزهد هو قصر الأمل ، وهو جامع لجميع الشهوات ، فإن من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ، ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس : اذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا فى الزهد . وقال أويس أيضا : هو ترك الطلب للمضمون . وهو إشارة الى الرزق . وقال أهل الحديث : الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول . والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذى يطلب به الجاه فى الدنيا فهو صحيح . ولكنه إشارة الى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ماهو من فضول الشهوات. فإن من العلوم مالا فائدة فيه فى الآخرة. وقد طولوها حتى ينقضى عمر الإنسان فى الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده . وقال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال : هذا أفضل منى . فذهب إلى أن الزهد هو التواضع. وهذا إشارة إلى نفى الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد .

وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول : الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ؛ ولا شك فى أنه أراد ترك طلب الحلال. وقد كان يوسف بن أسباط يقول : من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد .

وفى الزهد أقاويل وراء مانقلناه فلم نر فى نقلها فائدة . فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة . وأما من انكشف له الحق فى نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه . فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته . وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور فى البصيرة لكنهم ذكروا ماذكروه عند الحاجة. فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة . والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف . وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التى هى مقام العبد فى نفسه والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف . وأما الحق فى نفسه

فلا يكون إلا واحداً ولا يتصور أن يختلف ، وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل فى نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل : ماقاله أبو سليمان الدارانى إذ قال : سمعنا فى الزهد كلاما كثيراً ، والزهد عندنا ترك كل شىء يشغلك عن الله عز وجل ، وقد فصل مرة وقال : من تزوج أو سافر فى طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ فقال :هو القلب الذى ليس فيه غير الله تعالى وقال : إنما زهدوا فى الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة .

فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه .

فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض : هو الزهد فى الحرام . والنفل : هو الزهد فى الحلال . والسلامة : هو الزهد فى الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد ، إذ قيل لمالك بن أنس : ما الزهد ؟ قال التقوى ، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيـــه ، إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس فى الخطرات واللحظات وسائر الحالات ، لاسيما خفايا الرياء فإن ذلك لايطلع عليه إلا سماسرة العلماء ، بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيهـا لا تتناهى .

فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا فى نومه فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما الذى بدا لك ؟ قال : وما الذى تجدد ؟ قال : توسدك الحجر ، أى تنعمت برفع رأسك عن الأرض فى النوم ، فرمى الحجر وقال : خذه مع ما تركته لك .

وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس ، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل ، فأوحى الله تعالى إليه : يايحيى ، آثرت على الدنيا ، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه . وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهو زهد أويس ، بلغ من العرى أن جلس فى قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام فى ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط ، فقال: ما أقمتنى أنت إنما أقامنى الذى لم يرض لى أن أتنعم بظل الحائط ، فإذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لاحصر لها ، وأقل درجاته : الزهد فى كل شبهة ومحظور . وقال قوم : الزهد هو الزهد فى الحلال لافى الشبهة والمحظور ، فليس ذلك من درجاته فى شىء ، ثم رأوا أنه لم يبق حلال فى أموال الدنيا فلايتصور الزهد الآن .

فإن قلت : مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى ؟ فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيـا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ، ولايتصور ذلك إلامع البقاء ، ولا بقاء إلا بضروريات النفس ، فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العادة لم تـكن مشتغلا بغير الله ، فإن مالا يتوصل إلى الشىء الا به فهو منه ؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها فى طريق الحج ليس معرضا عن الحج ، ولـكن ينبغى أن يكون بدنك فى طريق الله مثل ناقتك فى طريق الحج ، ولا غرض لك فى تنعم ناقتك باللذات ، بل غرضك مقصور على دفع المهلـكات عنها حتى تسير بك الى مقصدك ، فكذلك ينبغى أن تـكون فى صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن ، فتقتصر على قدر الضرورة ولاتقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فلذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد . وإن قلت : فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لايضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ ، فإن شارب المـاء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال ألم العطش ، ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك

ولكن لايكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد ، فلا يكون القلب منصرفا اليه ، فالإنسان قد يستريح فى قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لايضره . ولقد كان فى الخائفين من طلب موضعا لايصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان فى الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ، ولذلك كان داود الطائى له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ؟ فهذه مخاوف المحتاطين والحزم فى جميع ذلك الاحتياط ، فانه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد ، لايثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المتعصمين بعروة اليقين فى معرفة المضادة التى بين الدنيا والدين ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ماالناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم ، فالفضول كالخيل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشى والمهم كالأكل والشرب ، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لاينحصر ، وإنما ينحصر المهم الضرورى ، والمهم ايضا يتطرق اليه فضول فى مقداره وجنسه وأوقاته ، فلا بد من بيان وجه الزهد فيه ، والمهمات ستة أمور : المطعم والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق وكيفية الاحتراز منه فى كتاب الرياء من ربع المهلكات ، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة .

[الأول المطعم] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض ، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد ، فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه ففى مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله ، أما طوله فلايقصر إلا بقصر الأمل ، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ، ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه ، وهذه هى الدرجة العليا . (الدرجة الثانية) أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . (الدرجة الثالثة) أن يدخر لسنة فقط ، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدى الناس ، كداود الطائى فانه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأنفقها فى عشرين سنة ، فهذا لايضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد ، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار ، وأقل درجاته فى اليوم والليلة نصف رطل ، وأوسطه رطل ، وأعلاه مد واحد : وهو ما قدره الله تعالى فى إطعام المسكين فى الكفارة ، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد فى البطن نصيب ، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ، ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير والذرة ، وأعلاه خبز البر غير منخول ، فاذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل فى التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله . وأما الأدم : فأقله الملح أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أى دهن كان ، وأعلاه اللحم اى لحم كان ، وذلك فى الأسبوع مرة أو مرتين ، فإن صار دائما أو أكثر من مرتين فى الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا فى البطن أصلا ، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله فى اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما ، وأوسطه

أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعلاه أن ينتهى إلى أن يطوى ثلاثة أيام أوأسبوعا وما زاد عليه ، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه فى ربع المهلكات ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم فى كيفية زهدهم فى المطاعم وتركهم الأدم .

قالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مصباح ولا نار . قيل لها فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودين التمر والماء[١] . وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم .

وقال الحسن : كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض . ويقول « إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد ، وأجلس كما تجلس العبيد[٢] » .

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، أنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير .

وقال الفضيل : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر[٣] .

وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول : يابنى إسرائيل ، عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره . وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف فى المطعم والمشرب فى ربع المهلكات فلا نعيده .

ولما أتى النبى صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أما إنى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى[٤] » .

وأتى عمر رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اعزلوا عنى حسابها . وقال يحيى ابن معاذ الرازى : الزاهد الصادق قوته ماوجد ولباسه ماستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكرته ، والقرآن حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

[المهم الثانى] الملبس ، وأقل درجته : مايدفع الحر والبرد ويستر العورة ، وهو كساء يتغطى به ، وأوسطه : قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه : أن يكون معه منديل وسراويل ، وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد : أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه ، بل يلزمه القعود فى البيت ، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار : أما الجنس فأقله المسوح

---

(١) حديث عائشة : كانت تأتى أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة : كان يأتى على آل محمد الشهر مايرى فى بيت من بيوته دخان ... الحديث . وفى رواية له : مايوقد فيه بنار . ولأحمد كان عر بنا هلال وهلال مايوقد فى بيت من بيوته نار . وفى رواية له : ثلاثة أهلة .

(٢) حديث الحسن . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ... الحديث تقدم دون قوله « إنما أنا عبد » فإنه ليس من حديث الحسن . إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم .

(٣) حديث . ماشبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر . تقدم .

(٤) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده ... الحديث تقدم .

الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ . وأما من حيث الوقت ، فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله مايبقى يوما ، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف اليه ، وأوسطه مايتماسك عليه شهرا ومايقاربه فطلب مايبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد الزهد ، وإلا إذا كان المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه : فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به ، فإن أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس : قال أبو بردة : أخرجت لنا عائشة رضى الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذين (١) قال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يحب المتبذل الذى لا يبالى ما لبس (٢) » وقال عمرو بن الأسود العنسى لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبدا ، ولا أركب على مأثور أبدا ، ولا أملأ جوفى من طعام أبداً فقال عمر : من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود (٣) . وفى الخبر « ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا (٤) » واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم .

وكانت قيمة ثوبيه عشرة(٦) وكان إزاره أربعة أذرع ونصفا(٧) . واشترى سراويل بثلاثة دراهم(٨) . وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف (٩) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ . وفى الخبر : كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (١٠) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم(١١) فكان أصحابه يلمسونه ويقولون

---

(١) حديث أخرجت عائشة كساء ملبد وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول الله ﷺ فى هذين . رواه الشيخان وقد تقدم فى آداب المعيشة . (٢) حديث « إن الله يحب المتبذل لايبالى مالبس » لم أجد له أصلا (٣) حديث عمر « من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود » رواه أحمد بإسناد جيد . (٤) حديث « مامن عبد لبس ثوب شهرة ... الحديث » رواه ابن ماجة من حديث أبى ذر بإسناد جيد دون قوله « وان كان عنده حبيبا » (٥) حديث : اشترت رسول الله ﷺ ثوبا بأربعة دراهم . أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة ، قال دخلت يوما السوق مع رسول الله ﷺ فجلس الى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم ... الحديث وإسناده ضعيف . (٦) حديث : كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم ، لم أجده . (٧) حديث : كان إزاره أربعة أزرع ونصفا . أخرجه أبو الشيخ فى كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عروة بن الزبير مرسلا : كان رداء رسول الله ﷺ أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف ... الحديث ، وفيه ابن لهيعة . وفى طبقات ابن سعد من حديث أبى هريرة : كان له إزارا من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر فى ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدى . (٨) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم ، المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبى يعلى ، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه ، قال الترمذى حسن صحيح . (٩) حديث : كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد ، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ ، تقدم فى آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والحبرة . وأما لبسه الحلة ففى الصحيحين من حديث البراء : رأيته فى حلة حمراء ولأبى داود من حديث ابن عباس حين خرج الى الحرورية وعليه أحسن مايكون من حلل اليمن وقال رأيت على رسول الله ﷺ أحسن مايكون من الحلل . وفى الصحيحين من حديث عائشة : أنه ﷺ قبض فى ثوبين أحدهما ازار غليظ مما يصنع باليمن ، وتقدم فى آداب المعيشة . ولأبى داود والترمذى والنسائى من حديث أبى رمثة : وعليه بردان أخضران ، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذى . وللبزار من حديث قدامة السكلابى : وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن ابراهيم لايعرف ، قاله الذهبى . (١٠) حديث : كان قميصه كأنه قميص زيات . أخرجه الترمذى من حديث أنس بسند ضعيف : كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات .
(١١) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه ... الحديث .

يارسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا — وكان قد أهداه اليه المقوقس ملك الإسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج ، وكأنه إنما لبسه أولا تأكيدا للتحريم . كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه(١) فحرم لبسه على الرجال . وكما قال لعائشة فى شأن بريرة « اشترطى لأهلها الولاء »(٢) فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه . وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح(٣) وقد صلى رسول الله ﷺ فى خميصة لها علم ، فلما سلم قال : شغلنى النظر الى هذه . اذهبوا بها إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانيته(٤) يعنى كساءه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه . فلما سلم قال « أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فإنى نظرت إليه فى الصلاة » ولبس خاتما من ذهب ونظر اليه على المنبر نظرة فرمى به فقال « شغلنى هذا عنكم . نظرة اليه ونظرة اليكم(٥) » وكان ﷺ قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما . فخر ساجدا وقال « أعجبنى حسنهما فتواضعت لربى خشية أن يمقتنى » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه(٦) . وعن سنان بن سعد قال : حيكت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال « انظروا ما أحسنها ما ألينها ! » قال : فقام إليه أعرابى فقال يارسول الله هبها لى . وكان رسول الله ﷺ إذا سئل شيئا لم يبخل به . قال : فدفعها اليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى . فمات ﷺ وهى فى المحاكة(٧) . وعن جابر قال دخل النبى ﷺ على فاطمة رضى الله عنها وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل . فلما نظر اليها بكى وقال « يافاطمة ؛ تجرعى مرارة الدنيا لنعيم الأبد » فأنزل الله عليه ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٨) وقال ﷺ « إن من خيار أمتى فيما أنبأنى الملأ الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى . ويبكون سرا من خوف عذابه . مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة . يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان . اجسامهم فى الأرض وافئدتهم عند العرش(٩) » فهذه كانت سيرة النبى ﷺ فى الملابس . وقد أوصى أمته عامة باتباعه : إذ قال « من احبنى فليستن بسنتى(١٠) » وقال « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . عضوا عليها بالنواجذ(١١) » وقال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ واوصى رسول الله ﷺ عائشة رضى الله عنها خاصة وقال « إن أردت اللحوق بى فاياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى ثوبا حتى ترقعيه(١٢) » وعد على قميص عمر رضى الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم .

---

(١) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه . متفق عليه وقد تقدم (٢) حديث قال لعائشة فى شأن بريرة « اشترطى لأهلها ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٣) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها . أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع . (٤) حديث : صلى فى خميصة لها علم ... الحديث ، متفق عليه ، وقد تقدم فى الصلاة (٥) حديث : ليس خاتما اليه على المنبر فرمى به وقال « شغلنى هذا عنكم ... الحديث » تقدم . (٦) حديث : احتذى نعلين فأعجبه حسنهما ... الحديث ، تقدم . (٧) حديث سنان بن سعد : حيكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار ... الحديث رواه أبو داود الطيالسى والطبرانى من حديث سهل بن سعد دون قوله : وأمر أن يحاك له أخرى ، فهى عند الطبرانى فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ، ويقع فى كثير من نسخ الإحياء : سيار بن سعد وهو غلط . (٨) حديث جابر : دخل على فاطمة وهى تطحن بالرحى ... الحديث أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف (٩) حديث ان من خيار أمتى فيما آتانى العلى الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سرا من خوف ... الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقى فى الشعب وضعفه .

(١٠) حديث « من أحبنى فليستعن بسنتى » تقدم فى النكاح . (١١) حديث « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ... الحديث » رواه أبو داود والترمذى وصححه ، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية .

(١٢) حديث قال لعائشة « ان أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء » أخرجه الترمذى وقال غريب ، والحاكم وصححه من حديث عائشة ، وقد تقدم .

واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه. وقال الثوري وغيره: البس من الثياب مالا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمر بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم: قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ماخدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف. البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها مايشهرك فينظر اليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله وهو مايستر العورة، وثوب للنفس وهو مايطلب لينه، وثوب للناس وهو مايطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه. وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين درهما، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين، قميص ومئزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه. وقال بعض السلف. أول النسك الزي. وفي الخبر «البذاذة من الإيمان» وفي الخبر «من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقري الجنة في تخات الياقوت» وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه. قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي. ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال. انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق - وكان عليه ثياب رقاق. وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال علي كرم الله وجهه: ان الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم. ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال «إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين[١]» وروى فضالة بن عبيد وهو والي مصر أشعث حافيا فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحيانا[٢]. وقال علي لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: اخشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر. وقال علي كرم الله وجهه: من تزيا بزي قوم فهو منهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يطلبون الوان الطعام والوان الثياب ويتشدقون في الكلام[٣]» وقال صلى الله عليه وسلم «أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا[٤]».

وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق[٥]» وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة. ودخل محمد بن واسع

---

(١) حديث نهى عن التنعم وقال «إن لله عبادا ليسوا بالمتنعمين» أخرجه أحمد من حديث معاذ وقد تقدم.
(٢) حديث فضالة بن عبيد: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحيانا. أخرجه أبو داود بإسناد جيد (٤) حديث «إن من شرار أمتي الذين غذوا بالتنعم ... الحديث» رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام ... الحديث» وآخره «أولئك شرار أمتي» وقد تقدم.
(٤) حديث «أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ... الحديث» رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد، ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيي الذهلي وكلا الحديثين محفوظ.
(٥) حديث أبي سليمان «لايلبس الشعر من أمتي إلا مراء أو أحمق» لم أجد له إسنادا.

على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف، فقال له قتيبة : مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت فقال : أكلمك ولاتجيبنى! فقال : أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، أو فقراً فأشكو ربى. وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه : أن وار عورتك من الأرض ، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لايأتى عليه حال إلا وعورته مستورة ، وقيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه : مالك لاتلبس الجيد من الثياب ؟ فقال : وما للعبد والثوب الحسن ، فإذا عتق فله والله ثياب لا تبلى أبداً. ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى. وقال الحسن لفرقد السبخى : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ، بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نفاقا. وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها ، فقلت : إنك تكسى خيرا من هذا ! فقال : ماضرهم ماأصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى ابن معين يحدث بها ويبكى .

[المهم الثالث] المسكن ، وللزهد ، فيه أيضا ثلاث درجات (أعلاها) ان لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة . (وأوسطها) أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف او خص أو ما يشبهه (وأدناها) أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجازة ، فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد ، فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف اكثر من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن ، فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق ، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا ، وللزهد مدخل فى جميع ذلك ، وبالجملة كل مايراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة ، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته ، وماجاوز ذلك فهو مضاد الدين والغرض من المسكين دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم . وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا. وقد قيل: أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله ﷺ التدريز والتشييد . يعنى بالتدريز : كف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والآجر . وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد[1] . وقد جاء فى الخبر « يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية » وأمر رسول الله ﷺ العباس أن يهدم علية كان قد علا بها[2]. ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال «لمن هذه؟» قالوا لفلان . فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه ﷺ فأخبر . فذهب فهدمها فمر رسول الله ﷺ بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير[3] .

---

(١) كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد . أما شل الثياب من غير كف فروى الطبرانى والحاكم أن عمر قطع مافضل عن الأصابع من غير كف. قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما البناء ففى الصحيحين من حديث أنس فى قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة ... الحديث ، ولهما من حديث أبى سعيد : كان المسجد على عريش فوكف المسجد . (٢) حديث : أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها : رواه الطبرانى من روايه أبى العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبى ﷺ « اهدمها ... الحديث » وهو منقطع .

(٣) حديث : مر بجنبذة معلاة فقال « لمن هذه ؟ » فقالوا لفلان ، فلما جاء الرجل أعرض عنه ... الحديث . أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ فرأى قبه مشرفه الحديث ، والجنبذة القبة .

وقال الحسن : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[١] » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الطين[٢] » وقال عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا ، فقال « ماهذا ؟ » قلنا خص لنا قدوهى فقال : أرى الأمر أعجل من ذلك[٣] » واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له : لو بنيت ؟ فقال : هذا كثير لمن يموت . وقال الحسن : دخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له : لو أصلحته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله . وقال رسول الله ﷺ « من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة[٤] » وفى الخبر « كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين[٥] » وفى قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾ إنه الرياسة والتطاول فى البنيان . وقال ﷺ « كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر أو برد[٦] » وقال ﷺ للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله « اتسع فى السماء[٧] » أى فى الجنة ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال : ما كنت أظن أن يكون فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون ، يعنى قول فرعون ﴿ فأوقد لى ياهامان على الطين ﴾ يعنى به الآجر ، ويقال : إن فرعون هو أول من بنى له بالجص والآجر . وأول من عمله هامان ، ثم تبعهما الجبابرة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا فى بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ، ثم رأيته مبنيا من رهص ، ثم رأيته الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن . وكان فى السلف من يبنى داره مرارا فى مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده فى إحكام البنيان ، وكان منهم من اذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه ، فإذا رجع أعاده ، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن ، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن : كنت اذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدى الى السقف . وقال عمرو بن دينار : اذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : الى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وقد نهى سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال : لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر اليه معين عليه . وقال الفضيل : انى لم أعجب ممن بنى وترك ، ولكنى أعجب ممن نظر اليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : يأتى قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين ، يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم .

---

(١) حديث الحسن : مات رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة ... الحديث ، رواه ابن حبان فى الثقات ، وأبو نعيم فى الحلية هكذا مرسلا . والطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة « من سأل عنى أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ... الحديث » وإسناده ضعيف .

(٢) حديث « إذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله فى الماء والطين » رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد « خضر له فى الطين واللبن حتى يبنى » . (٣) حديث عبد الله بن عمر : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصا لنا قد وهى الحديث ، رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه . (٤) حديث « من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمله » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع . (٥) حديث « كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين » رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ : إلا فى التراب أو قال فى البناء . (٦) حديث « كل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد » رواه أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ « إلا مالا » يعنى مالا بد منه . (٧) حديث قال للرجل الذى شكى إليه ضيق منزله « اتسع فى السماء » قال المصنف : أى فى الجنة . رواه أبو داود فى المراسيل من رواية اليسع بن المغيرة قال : شكى خالد بن الوليد فذكره ، وقد وصله الطبرانى فقال عن اليسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد ابن الوليد ، إلا أنه قال : ارفع إلى السماء واسأل الله السعة ، وفى إسناده لين .

[المهم الرابع] أثاث البيت ، وللزهد فيه أيضا درجات (أعلاها) حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنسانا يمشط لحيته بأصابعه ، فرمى بالمشط ، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز ، وهذا حكم كل أثاث ، فانه إنما يراد لمقصود ، فاذا استغنى عنه فهو وبال فى الدنيا والآخرة ، ومالا يستغنى عنه فيقتصر على أقل الدرجات وهو الخوف فى كل مايكفى فيه الخوف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به (وأوسطها) أن يكون له اثاث بقدر الحاجة صحيح فى نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة فى مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها ، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة فى أشياء للتخفيف (وأعلاها) أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس ، فان زاد فى العدد أو فى نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ، ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله ﷺ الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف (١) . وقال الفضيل : ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف (٢) . وروى : أن عمر الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى اثر الشريط فى جنبه عليه السلام ، فدمعت عينا عمر ، فقال له النبى ﷺ «ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب ؟ » قال : ذكرت كسرى وقيصر وماهما فيه من الملك ، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشرط ؟ فقال ﷺ « أما ترضى ياعمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة » قال : بلى يارسول الله ؟ قال «فذلك كذلك (٣) » ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال : يا أبا ذر ، ما أرى فى بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال : ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا ، فقال : انه لا بد لك من متاع مادمت ههنا ، فقال : ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه . ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له : ما معك من الدنيا ؟ فقال : معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى ، ومعى قصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ، ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة ، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى ، فقال عمر : صدقت رحمك الله . وقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة ، فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فاخبرته برجوع رسول الله ﷺ ، فسأله أبو رافع فقال « من أجل الستر والسوارين » فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله ﷺ ، وقالت : قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال « اذهب فبعه وادفعه الى اهل الصفة» فباع القلبين بدرهمين و نصف و تصدق بهما عليهم فدخل صلى الله عليه وسلم فقال « بابى أنت قد احسنت (٤) » ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه

---

(١) حديث عائشة :كان ضجاع رسول الله ﷺ الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح ، وابن ماجه . (٢) حديث : ماكان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف . رواة الترمذى فى الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة ، وقد تقدم ، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه . (٣) حديث دخل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه ... الحديث ، متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم .

(٤) حديث : قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع ... الحديث لم أره مجموعا ولأبى داود وابن ماجة من حديث سفينة بإسناد جيد : أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتى الباب فرأى القرام قد ضرب فى ناحيه البيت فرجع ، فقالت فاطمة لعلى : انظر فأرجعه ... الحديث رواه النسائى من حديث ثوبان بإسناد جيد قال : جاءت ابنة هبيرة إلى النبى ﷺ وفى يدها فتخ من ذهب ... الحديث . وفيه : أنه وجد فى =

وقال «كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به إلى آل فلان (١) » وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية ؛ فما زال يتقلب ليلته ، فلما أصبح قال لها « أعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة (٢) » وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها ، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضى الله عنها : فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال « ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده (٣) » وقال الحسن : أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط : كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبا فوقه .

[المهم الخامس] المنكح ، وقد قال قائلون : لامعنى للزهد فى أصل النكاح ولا فى كثرته ، وإليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال . قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ؟ ووافقه على القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة على بن أبى طالب رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية . والصحيح ماقاله أبو سليمان الدارانى رحمه الله إذ قال : كل ماشغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشئوم ، والمرأة قدتكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه : أنه قد تكون العزوبة أفضل فى بعض الأحوال كما سبق فى كتاب النكاح،فيكون ترك النكاح من الزهد ، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبةفهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد ؟ وإن لم يكون عليه آفة فى تركه ولافعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد ، فإن علم أن المرأة لاتشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات ، واللذة التى تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لاتضره ، إذ لم تكن هى المقصد والمطلب ، وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد فى شىء، لأن فى ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك فى ترك النكاح انقطاع نسله ، فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا فى لذته من غير خوف آفة أخرى . وهذا ماعناه سهل لامحالة ، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن (٤) فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ، ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغلهم

= يد فاطمة سلسة من ذهب . وفيه « يقول الناس فاطمة بنت محمد فى يدها سلسلة من نار » وأنه خرج ولم يقعد ، فأمرت بالسلسلة فبيعت فاشترت بثمنها عبدا فأعتقته ، فلما سمع قال « الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار » .

(١) حديث رأى على باب عائشة سترا فهتكه ... الحديث . أخرجه الترمذى وحسنه ، والنسائى فى الكبرى من حديثها

(٢) حديث : فرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا . وفيه : كان ينام على عباءة مثنية ...الحديث . رواه ابن حبان فى كتاب أخلاق النبى ﷺ من حديثها قالت : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية ، فانطلقت فبعثت إلى بفراش حشوه صوف ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال « ماهذا ... الحديث » وفيه . أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته ، وفيه مجالد بن سعيد مختلف فيه ، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل. (٣) حديث : أتته دنانير خمسة أو ستة عشاء فبيتها فسهر ليله . . . الحديث، وفيه « ماظن محمد بربه لو لقى الله وهذه عنده» أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال فى مرضه الذى مات فيه « ياعائشة ،ما فعلت بالذهب» فجاء مابين الخمسة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول « ماظن محمد ... الحديث » وزاد « انفقها » وفى رواية : سبعة أو تسعة دنانير ، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح : دخل على رسول الله ﷺ وهو ساهم الوجه قالت : فحسبت ذلك من وجع ، فقلت : يانبى الله مالك ساهم الوجه ؟ فقال «من أجل الدنانير السبعة التى أتتنا أمس أمسينا وهى فى خصم الفراش » وفى رواية « أمسينا ولم تنفقها »

(٤) حديث : كان لايشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن » تقدم فى النكاح .

كثرة النسوان ، فينبغى أن يترك الأصل إن كان يشغله ، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه فى ذلك .

قال أبو سليمان : الزهد فى النساء : أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة .

وقال الجنيد رحمه الله : أحب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث والتزوج . وقال : أحب للصوفى أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه ، فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً .

[المهم السادس] ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة ، وهو المال والجاه : أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به إلى الاستعانة فى الأغراض والأعمال ، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه فى جميع حاجته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة فى قلب خادمه ، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته ، وقيام القدر والمحل فى القلوب هو الجاه ، وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به إلى هاوية لا عمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإنما يحتاج الى المحل فى القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم ، فأما النفع فيغنى عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر ، وإنما يحتاج إلى الجاه فى قلب من يخدم بغير أجرة ، وأما دفع الضر فيحتاج لأجله الى الجاه فى بلد لا يكمل فيه العدل ، أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له فى قلوبهم أو له عند السلطان ، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب ، والخائض فى طلب الجاه سالك طريق الهلاك ، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل فى القلوب أصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل فى القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار ، فكيف بين المسلمين ، فأما التوهمات والتقديرات التى تحوج إلى زيادة فى الجاه على الحاصل بغير كسب فهى أوهام كاذبة ، إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى فى بعض الأحوال ، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه ، فاذن طلب المحل فى القلوب لا رخصة فيه أصلا ، واليسير منه داع الى الكثير ، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضرورى فى المعيشة أعنى القليل منه ، فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغى أن يترك الكسب ، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام ، هذا شرط الزهد ، فان جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً ، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين فى التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفى ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد ، فان شرط التوكل فى الزهد كما شرطه أويس القرنى رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا : انه خرج من حد الزهاد نعنى به أن ما وعد للزاهدين فى الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله ، والا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة ، وأمر المنفرد فى جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغى أن يرهق الرجل أهله الى الزهد بل يدعوهم اليه ، فان أجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء : معناه أن التضييق المشروط على الزهد يخصه ولا يلزمه . كل ذلك فى عياله ، نعم لا ينبغى أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة ، فاذاً ما يضطر الإنسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ، والمقتصر على الضرورة دواء

نافع ، وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر ، وما يقرب من الضرورة فهو ان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره ، فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ، ومن يتساهل فانما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك مايريبه الى مالا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرق الناجية لامحالة . والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز أن ينسب الى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين . والشرط من جملة المشروط . ويدل عليه ماروى أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه ، فرجع مهموما ، فأوحى الله تعالى اليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئا ، فأوحى الله تعالى اليه : ليس الحاجة من الدنيا. فاذن قدر الحاجة من الدين. وماوراء ذلك وبال فى الآخرة ، وهو فى الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة فى كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه ، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذى عمله بنفسه ، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ؛ فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ، ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا فى هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة . فتبقى السلاسل فى قلبه معلقة بالدنيا التى فاتته وخلفها فهى تجاذبه الى الدنيا ، ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة ، فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين . والذى ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره ، فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية اليه من غيره ، فهذا أول عذاب يلقاه قبل مايراه من حسرة فوت النزول فى أعلى عليين وجوار رب العالمين . فالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى ، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم اذ النار غير مسلطة إلا على محجوب : قال الله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب ، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار ، فكيف إذا أضيفت العلاوة اليه ؟ فنسأل الله تعالى أن يقرر فى أسماعنا ما نفث فى روع رسول الله ﷺ ، حيث قيل له : أحبب من أحببت فانك مفارقه [1] » وفى معنى ماذكرناه من المثال قول الشاعر :

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه : رفضوا الدنيا بالكلية ، حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفى لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم قالوا

---

(١) حديث : نفث فى روعه أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، تقدم .

ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم قالوا مايؤمن هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول : أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لامحالة يخاف من فساده ، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ . وقال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم ﴾ فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك ، فقال : أخرج مالك والحقني . فقال : لاأستطيع ؛ فقال عيسى عليه السلام : بعجب يدخل الغني الجنة — أو قال بشدة . وقال بعضهم : مامن يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ، ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم بالمشرق : يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم اعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا . ويقول اللذان بالمغرب ، أحدهما : لدوا للموت وابنوا للخراب . ويقول الآخر : كلوا وتمتعوا لطول الحساب .

بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة ، بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة . كما قال الخواص في وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ، لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق ، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم ، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله ، فإذن معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزهد مشكل .

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات (العلامة الأولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك ؛ وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده (العلامة الثانية) أن يستوي عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه (العلامة الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، فالماء إذا ادخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأنس بالله ، فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها ، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي .

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس — وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه — وهذا مقام العارفين . والزهد لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين ،ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا .

قال ابن أبى الحوارى : قلت لأبى سليمان : أكان داود الطائى زاهداً ؟ قال : نعم . قلت : قد بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة ، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير ؟ فقال : أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ، وأراد بالحقيقة الغاية، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه ، وآخره أن يترك كل ماسوى الله حتى لايتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع فى غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لايتعاظمه شىء فلا بعد فى أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال .

فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لامحالة . مثل أن يترك الدنيا ولا يبالى من أخذها .

وقيل : علامته أن يترك الدنيا كما هى فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجدا .

وقال يحى بن معاذ : علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغى أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خمسة دراهم .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سرى : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه. ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

وقال النصراباذى : الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فى الآخرة .

وقال يحى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث : عمل بلا علاقة . وقول بلا طمع . وعز بلا رياسة . وقال أيضا الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر . وقال له رجل : متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك . فأما مالم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت اليها . وقال السرى . مارست كل شىء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد فى الناس فانى لم أبلغه ولم أطقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا .

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى .

كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بغير عماد ، المقدر فيها أرزاق العباد . الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ماعداه والاعتماد على مدبر سواه ، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله . وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق ، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة إلا على الله رزقها ؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

والصلاة على محمد قامع الأباطيل ، الهادى الى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .

[أما بعد] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل : ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا . ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى .

بيان فضيلة التوكل

أما الآيات ، فقد قال تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال تعالى ﴿ من يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ، ومضمون كفاية الله تعالى ملابسه ؛ فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب . وقال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل : وهو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن

تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه . وقال تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ﴾ وقال عز وجل ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار .

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قدملأوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم ، فقيل لى : أرضيت ؟ قلت : نعم ، قيل : ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يارسول الله ، قال الذين لايكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة وقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » فقام آخر فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال ﷺ «سبقك بها عكاشة[1]» وقال ﷺ «لوأنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا[2]» وقال ﷺ «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها[3]» وقال ﷺ « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق بما فى يديه[4] » ويروى عن رسول الله ﷺ : أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قوموا إلى الصلاة » ويقول «بهذا أمرنى الله عز وجل » قال عز وجل﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[5] الآية . وقال ﷺ « لم يتوكل من استرق واكتوى[6] » .

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود ، مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا .

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن جبير : لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى لتسترقين ، فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ .

---

(١) حديث ابن مسعود « أريت الأمم فى الموسم فرأيت أن أمتى قد ملأوا السهل والجبل ... الحديث » رواه ابن منيع بإسناد حسن ، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس .

(٢) حديث : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير... الحديث» أخرجه الترمذى والحاكم وصححاه من حديث عمروقد تقدم . (٣) حديث «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ...الحديث» أخرجه الطبرانى فى الصغير وابن أبى الدنيا ، ومن طريقه البيهقى فى الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولم يسمع منه ، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث « من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يده » رواه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . (٥) حديث : كان إذا أصاب أهله خصاصة قال « قوموا إلى الصلاة » ويقول « بهذا أمرنى ربى ، قال تعالى ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى ﷺ إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية . ومحمد بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه (٦) حديث « لم يتوكل من استرق واكتوى » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبير والطبرانى واللفظ له ، إلا أنه قال : أو من حديث المغيرة بن شعبة ، وقال الترمذى « من اكتوى أو استرق فقد برىء من التوكل » وقال النسائى : ماتوكل من اكتوى أو استرق .

وقرأ الخواص قوله تعالى ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ إلى آخرها ، فقال : ما ينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى منامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ : فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لى : ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى ؟ .

وقال هرم بن حيان لأويس القرنى : أين تأمرنى أن أكون ؟ فأومأ إلى الشام . وقال هرم : كيف المعيشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة .

وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ؛ وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ؛ والتوكل كذلك ينتظم من ـ علم ـ هو الأصل و ـ عمل ـ هو الثمرة و ـ حال ـ هو المراد باسم التوكل .

فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل وهو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبنى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان القدرة التى يترجم عنها قولك (له الملك) والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك (وله الحمد) فمن قال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة : ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لا نتعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له ، فنقول :

للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فإن له قشرتين ، وله لب وللب دهن هو لب اللب ، فالرتبة الأولى من التوحيد : هى أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين . والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة : أن لا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان . والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو

عقد على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليه تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته . والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحداً إذ انكشف له الحق كما هو عليه . ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، اذلم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث انه واحد. وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد : فالأول كالقشرة العليا من الجوز . والثانى كالقشرة السفلى . والثالث كاللب . والرابع كالدهن المستخرج من اللب . وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر المذاق . وان نظر الى باطنه فهو كريه المنظر . وان اتخذ حطبا أطفأ النار وأكثر الدخان . وان ترك فى البيت ضيق المكان فلا يصلح الا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن . لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت : والقشرة السفلى هى القلب والبدن.

وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه، إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ وبقوله عز وجل ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وكما أن اللب نفيس فى نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه . فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهى كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر فى كتاب ؛ فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر ، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة ، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن : وهو أن الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد ، فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد ، وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع ، والملتفت إلى الكثرة فى تفرقه ، فكذلك كل ما فى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من

الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرسواه كثير ، وبعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحداً ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التى لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، والدوام نادر عزيز ، وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار فقال : فيماذا أنت ؟ فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالى فى التوكل وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : قد أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ؟ فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه ! فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبنيا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول وهو النفاق فواضح وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام . وقد ذكرنا فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذى ينبنى عليه التوكل ، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به دون تفصيله الذى لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله : أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فانه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر . وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات . والثانى الالتفات إلى الجمادات ، أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم ، وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها : وهذا كله شرك فى التوحيد وجهل بحقائق الأمور . ولذلك قال تعالى ﴿فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾ قيل : معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا .

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا الى أن ينتهى الى المحرك الأول الذى لا محرك له ولا هو متحرك فى نفسه عز وجل ، فالتفات العبد فى النجاة الى الريح يضاهى التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له فى نفسه وإنما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك

الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فإذا انكشف لك أن جميع ما فى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات إلى اختيار الحيوانات فى الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك وإن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك. فكيف لاتخافه ، وكيف لاترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له أيضا نعم إن كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب وهو المسخر له ، وعند هذا زل أقدام الأكثرون إلا عباد الله المخلصين الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم تمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف فى الطريق على الكاتب وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض بقدرته التى بها نطق كل شىء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز بالأصوات فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .

فإن قلت : فهذه أعجوبة لايقبلها العقل فصف لى كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة فى السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر ﴾ الآية ، ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجى بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً[١] » بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبكون ولا يضحكون . ولما نهى عن إفشاء سر القدر[٢] ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا[٣] » ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار[٤] . فإذن عن حكايات مناجاة ذوات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان (أحدهما) استحالة إفشاء السر (والثانى) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكنا فى المثال الذى كنا فيه - وهى حركة القلم -

---

(١) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ... الحديث » تقدم غير مرة . (٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر : رواه ابن عدى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر «القدر سر الله فلا تفشوا لله عز وجل سره» لفظ أبى نعيم وقال ابن عدى «لاتكلموا فى القدر فإنه سر الله ... الحديث » وهو ضعيف ، وقد تقدم .

(٣) حديث «إذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ... الحديث » أخرجه الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء ، وتقدم فى العلم .

(٤) حديث : أنه خص حذيفة ببعض الأسرار ، تقدم .

فحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ؛ ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هى حروفا وأصواتا ، ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر : ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد ؟ فلم سودت وجهك ؟ وما السبب فيه ؟

فقال الكاغد : ما أنصفتنى فى هذه المقالة ! فانى ما سودت وجهى بنفسى ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ! فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك ؟ فقال : ماأنصفتنى فانى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ! فقال صدقت .

ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه؟ فقال :سل اليد والأصابع فانى كنت قصبا نابتا على الأنهار متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى وفصلت بين أنابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى . ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى ، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتنح عنى وسل من قهرنى ؛ فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ماأنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة ، فهى التى ترددنى ، وتجول بى فى نواحى الأرض . أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شىء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى فانى مركب أزعجنى من ركبنى ، فقال صدقت .

ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع عنك لومى ومعاتبتى، فكم من لائم ملوم .وكم من ملوم لا ذنب له.وكيف خفى عليك أمرى؟ وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا استسخرها . بل كنت نائمة ساكنة نوماظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة . لأنى ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى إلى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ولم تكن لى قوة على مخالفته . وهذا الموكل يسمى الإرادة . ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله.اذ أزعجنى من غمرة النوم وأرهقنى الى ما كان لى مندوحة عنه لوخلانى ورأيى فقال : صدقت . ثم سأل الإرادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها الى التحريك وأرهقتها اليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصاً ولا مناصا . فقالت الإرادة : لا تعجل على فلعل لنا عذرا وأنت تلوم . فانى ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فانى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته . لكنى أدرى أنى فى دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى ما دام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه . فانا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه . فاذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه . فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك

فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا   أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبالهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها الأشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت ، وقال القلب : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم : أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى ، فسل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم ؛ فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنى كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال : فأما قولك : إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه فإنى لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا .

فقال له القلم :إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف. واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت إليها كثيرة : فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد .

واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكوت وهو ورائى ، فإذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله وفيه المهامه والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ، ولا أدرى كيف تسلم فيها ، والثالث هو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل فى أوائلها منزل القدرة والإرادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الأرض والماء ، فلا هى فى حد اضطراب الماء ، ولا هى فى حد سكون الأرض وثباتها ،وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى فى عالم الجبروت : فان انتهى الى أن يمشى على الماء من غير سفينة مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع: فان كنت لاتقدر على المشى على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافى ،وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء ؛ أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام « لو ازداد يقينا لمشى على الهواء [1] » لما قيل له أنه كان يمشى على الماء . فقال السالك السائل : قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق. ولست أدرى أأطيق قطع هذه المهامه التى وصفتها أم لا ؟ فهل لذلك من علامة ؟ قال: نعم . افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فان ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق . فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم . أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك

---

(١) حديث : قيل له إن عيسى يمشى على الماء .قال : لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » تقدم .

الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فوالله ماأرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة ، أماسمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لاتشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لاتشبه يده الأيدى ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان بخلاف غيره ، ولايده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى . ولاقلمه من قصب . ولا لوحه من خشب . ولا كلامه بصوت وحرف . ولا خطه رقم ورسم . ولاحبره زاج وعفص . فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه . مذبذبا بين هذا وذا لاإلى هولاء ولا إلى هؤلاء . فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها . ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه !

فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا . كما يقال : كن يهوديا صرفا وإلا فلاتلعب بالتوراة . وإن فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا . واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى . واستمع بسر قلبك لما يوحى . فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى موسى ﴿إنى أنا ربك﴾ فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص : ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهى فاذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه : ماهو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكأن له فى كل قلب رأسا ولا رأس له ، فقضى منه العجب وقال : نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ، فانى أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره وقال : قد طال مقامى عندك ومرادتى لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأساله عن شأنه ، فسافر اليه وقال له : ما بالك أيها القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ماتبعث به الإرادات الى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات ؟ فقال : أو قد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ؟ قال : لم أنس ذلك . قال : فجوابى مثل جوابه . قال : كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم : أماسمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال : نعم . قال : فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الآدمى فى معنى التسخير . وإنما الفرق فى ظاهر الصورة . فقال : فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ ؟ قال : نعم . قال : والأقلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يرددها فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه على ما يزيد من عجائب القلم لا يجوز وصف شىء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه . والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ولا يد كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع . فرأى القلم محركا فى قبضته فظهر له عذر القلم . فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم . فقال : جوابى مثل ماسمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة . إذ اليد لا حكم لها فى نفسها وإنما محركها القدرة لامحالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات : وعند هذا كاد

أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة ﴿ لايسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ فغشيته هيبة الحضرة، فخر صعقاً يضطرب فى غشيته فلما أفاق قال : سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك ، فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لسانى لأثنى عليك ، فنودى من وراء الحجاب : إياك أن تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الأنبياء ، بل ارجع اليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه ، وما قاله لك فقله ، فانه مازاد فى هذه الحضرة على أن قال « سبحان لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[1] » فقال : إلهى إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك، فنودى: إياك أن تتخطى رقاب الصديقين، فارجع الى الصديق الأكبر فاقتد به، فان أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم واهتديتم أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك، فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا ، فعند ذلك رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : أقبلوا عذرى فانى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه البلاد ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له : كيف يكون هو الأول والآخر وهما وصفان متناقضان ، وكيف يكون هو الظاهر والباطن . فالأول ليس بآخر ، والظاهر ليس بباطن ، فقال : هو الأول بالإضافة الى الموجودات ، اذ صدر منه على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر بالإضافة الى سير السائرين اليه فانهم لايزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر ، فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود ، وهو باطن بالإضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ، ظاهر بالإضافة الى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت ، فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

فان قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له الا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت . وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لانها لاتدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال : وأنا منهم فانى لاأهتدى الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه . فقال : إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فانهم قالوا : ما نراه لانثق به ، فلعلنا نراه فى المنام . فان قال : وأنا من جملتهم فانى شاك أيضا فى المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه ، فيترك أياما قلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء : هذا حكم الجاحد . أما الذى لا يجحد ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى

---

(١) حديث « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك » تقدم .

يشاهد بها عالم الملكوت ، فان وجدوها صحيحة فى الأصل وقد نزل فيهاماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقية اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه : فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فان فى عالم الشهادة أيضا توحيدا، إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأميرين ،فيقال له على حد عقله : إله العالم واحد والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله ، وقد كلف الله الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة .

فان قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول : نعم : فان الاعتقاد إذا قوى عمل عمل الكشف فى إثارة الأحوال إلا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده . وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شىء من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا ، كما أن الذى يرى إنسانا فى وقت الأسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه انسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته ، وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى : فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ بل ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان إيمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا الى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله ﴿ هذا إلهكم وإله موسى ﴾ ونسوا أنه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا : فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لامحالة اذا نظر الى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير. وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لاتجد فيه اختلافا وتضادا أصلا .

فان قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات ، وكل ذلك ظاهر الا فى حركات الإنسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟ فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء ان لم يرد أن يشاء ، لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء اذا شاء إن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة اليه ، اذ لو كانت اليه لا فتقرت الى مشيئة أخرى وتسلسل الى غير نهاية ، واذا لم تكن المشيئة اليه فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة . والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة فى القلب . فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض . وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة . فهو مضطر فى الجميع .

فان قلت : فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار . وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا؟ فأقول:

لو انكشف الغطاء لعرفت أنه فى عين الاختيار مجبور ، فهو إذن مجبور على الاختيار ، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم نقصد به إلا علم المعاملة ، ولكنى أقول لفظ الفعل فى الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه .

إذ يقال : الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق فى الماء والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء ذلك فى امور فأعرب لك عنها بثلاث عبادات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ، ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا ، والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لامحالة وقد يكون الخرق بعد التخطى ضروريا ، والتنفس فى معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن : فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه ، وكذلك الإرادة ليست اليه .

ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرارا ، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر ، مع أن تغميض الأجفان اضطرارا فعل إرادى ، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة فى مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة ، وحدثت الحركة بها ، و أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة ، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا .

وأما الثالث ـ وهو الاختيارى ـ فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق ، وهو الذى يقال فيه ان شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء ، فيظن من هذا أن الأمر اليه ، وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، وبيانه : أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك ، والأشياء تنقسم الى ماتحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافيك من غير تحير وتردد ، والى ما قديتردد العقل فيه ، فالذى نقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بإبرة أو بدنك بسيف فلا يكون فى علمك تردد فى أن دفع ذلك خير لك وموافق ، فلاجرم تنبعث الإرادة ، وتحصل حركة الأجفان بالدفع ، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة . ويكون ذلك بالإرادة . ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى أنه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك . فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية فكر . فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان ، فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخير ، أى هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ، ولم ينتظر فى انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه ، إلا أن الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية . فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت بإشارة العقل فيما له فى ادراكه توقف ، وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين . ولا يتصور أن تنبعث الإرادة الا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل . ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة فى اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الإرادة لأنها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقا . وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه الا اذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق : فإذن العقل هنا يتوقف فى الحكم ويتردد : لأن

تردده بين شر الشرين ، فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزما لاميل فيه ولاصارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه ، كالذى يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا وإن كان مهلكا ولا يبالى ولا يمكنه أن لايرمى نفسه ، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمى فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث لهداعية ألبتة ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدرة بالضرورة فيه من حيث لايدرى ، فانما هو محل ومجرى لهذه الأمور ، فأما أن يكون منه فكلا ولا ؛ فإذن معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضاً موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ، ففعل النار فى الإحراق مثلا جبر محض ، وفعل الله تعالى اختيار محض ، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة ، لأنه لما كان فنا ثالثا واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ، وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لايفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فان ذلك فى حقه محال ، وجميع الألفاظ المذكورة فى اللغات لايمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى إلا نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه .

فان قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة ، والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة ، وأن كل متأخر حدث من المتقدم ؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شىء لامن قدرة الله تعالى ، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الأزلية ، وهو الأصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون فى العلم فانهم وقفوا على كنه معناه . والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول ، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم ، وكذلك جميع أفعال الله تعالى ، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين ـ تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لايتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر إلا لانتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لايوصف بكونه مقدورا ، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم ، وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ، ليس فى شىء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير ، وتفهيم ذلك عسير ، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة ، وذلك بأن

لقدر إنسانا محدثا قد انغمس فى الماء إلى رقبته ، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له ، فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء الأعضاء ، ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه ، فاذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر أعضائه وارتفع الحدث ، فربما يظن الجاهل أن الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيبه ، إذ يقول : كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه مالم يحصل من قبل ، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فاذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم ، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاق لها لا بغسل الوجه ، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شىء ، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة ، فهكذا ينبغى أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ، فلنترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد فى الفعل ، فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد .

ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد ، واستيفاء ذلك فى عمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه ، وكل ذلك ينطوى تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤنته على اللسان ! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ! وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين فى العلم فكيف عند غيرهم .

فان قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ؟ ومعنى التوحيد : أن لا فاعل إلا الله تعالى ، ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ، فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ؟ وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد ، وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض ، كما يقال : قتل الأمير فلانا ، ويقال : قتله الجلاد ، ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر ، فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر ، فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذى خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم ، فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط ، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلوم بالعلة وارتباط المخترع ، وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا ؛ لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين ، فلذلك سمى فعلا لهما .

فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال فى القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه ، فقال تعالى فى الموت ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ أضاف إلينا ثم قال تعالى ﴿ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا ﴾ وقال عز وجل ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وكان النافخ جبريل عليه السلام ، وكما قال تعالى ﴿ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قيل فى التفسير : معناه إذا قرأه عليك جبريل . وقال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ فأضاف القتل اليهم والتعذيب إلى نفسه ، والتعذيب هو عين

القتل ، بل صرح وقال تعالى ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ وهو جمع بين النفى والإثبات ظاهرا ، ولكن معناه : وما رميت بالمعنى الذى يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذى يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ﴿ الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ﴾ ثم قال ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ وقال ﴿ علمه البيان ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ فى وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة فى يده ثم يصورها جسدا ، فيقول : يارب ، أذكر أم أنثى ، أسوى أم معوج ؟ فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك[1] » وفى لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » .

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ، ولذلك سمى روحا ، وما ذكره فى مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم ؛ فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد ، وكذلك ذكر الله تعالى فى القرآن من الأدلة والآيات فى الأرض والسموات ، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وقال ﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو ﴾ فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لما عرفت ربى ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيى والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ؛ ففى الخبر « أن ملكى الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحيى الموتى ؛ فأوحى الله تعالى إليهما : كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع ، وأنا المميت والمحيى لا يميت ولايحيى سواى[2] » فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعانى إذا فهمت ؛ ولذلك قال ﷺ الذى ناوله التمرة « خذها ، لو لم تأتها لأتتك[3] » أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتى على الوجه الذى يأتى الإنسان إليها ، وكذلك لما قال التائب : أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد ، فقال ﷺ «عرف الحق لأهله[4] »فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة، ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوز والمستعير فى كلامه، وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها ،واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق ،وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنه مجاز بالإضافة الى نسبته إلى الجلاد، فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس

---

(١) حديث : وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا...الحديث» رواه البزار وابن عدى من حديث عائشة « إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول :يارب ماذا ..الحديث » وفى آخره « فما من شىء إلا وهو يخلق معه فى الرحم » وفى سنده جهالة . وقال ابن عدى: أنه منكر؛ وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه .

(٢) حديث « إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة : أنا أحيى الأموات ؛ فأوحى الله إليهما : أن كونا على عملكما . . . الحديث » لم أجد له أصلا . (٣) حديث : قال للذى ناوله التمرة « خذها لو لم تأتها لأتتك » أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ، ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله الصحيح . (٥) حديث إنه قال للذى قال أتوب إلى الله ولاأتوب إلى محمد « عرف الحق لأهله » تقدم فى الزكاة .

وقالوا : إن الفاعل قد وضعته أيها اللغوى المخترع فلا فاعل إلا الله ؛ فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز ؛ أى تتجوز به عما وضعه اللغوى له . ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله ﷺ فقال « أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد : * ألا كل شيء ما خلا الله باطل *[1] » أى كل مالا قوام له بنفسه — وإنما قوامه بغيره — فهو باعتبار نفسه باطل ، وإنما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه ؛ فإذن لا حق بالحقيقة إلا الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء : فانه قائم بذاته وكل ماسواه قائم بقدرته ، فهو الحق وما سواه باطل ، ولذلك قال سهل : يامسكين كان ولم تكن ، ويكون ولا تكون ، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا . كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان .

فان قلت ؛ فقد ظهر الآن أن الكل جبر ، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا ، وكيف غضبه على فعل نفسه ؟

فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا اليه فى كتاب الشكر فلا نطول باعادته ، فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز إليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة : فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الأسباب ، ولا يتم حال التوكل كما سيأتى إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل . وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول . فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها . ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر . ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم . لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة . ولا أن يرفع منها ذرة ولا أن يخفض منها ذرة ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به . ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه . بل كل ماخلقه الله تعالى من السموات والأرض — إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر — ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور . وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية . فكله عدل محض لا جور فيه . وحق صرف لا ظلم فيه . بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى . وليس فى الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل . ولو لم يكن قادراً لكان عجزا يناقض الإلهية . بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره . إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار . ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة . ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة . وكما أن فداء أرواح الأنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل ؛ فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران . وفداء

---

(١) حديث : أصدق بيت قالته العرب بيت لبيد : * ألا كل شيء ماخلا الله باطل * متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ « قاله الشاعر » وفى رواية لمسلم « أشعر كلمة تكلمت بها العرب » .

أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ، وما لم يخلق الناقص لايعرف الكامل ، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فان الكمال والنقص يظهر بالإضافة ، فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا ، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك الأمر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة ؛ فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا أن ذلك غامض لايعقله إلا العالمون ،ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون.

والحاصل أن الخير والشر مقضى به ، وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره ، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك .

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل :

الشطر الثانى من الكتاب

فى أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان ماقاله الشيوخ ، وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد والمعيل . وبيان التوكل بقدر الادخار وبيان التوكل فى دفع المضار . وبيان التوكل فى إزالة الضرر بالتداوى وغيره . والله الموفق برحمته.

بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من : علم وحال وعمل . وذكرنا العلم .

فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه . وإنما العلم أصله والفعل ثمرته . وقد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة فى النقل والإكثار . فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة . يقال . وكل أمره الى فلان أى فوضه اليه واعتمد عليه فيه . ويسمى الموكول اليه وكيلا . ويسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا . فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية . ومنتهى القوة . ومنتهى الفصاحة. ومنتهى الشفقة .أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لايخفى عليه من غوامض الحيل شىء أصلا. وأما القدرة والقوة فليستجرىء على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولايجبن . فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به: وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة الا أنها قدرة فى اللسان عن الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار اليه .فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس : وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل مايقدر

عليه فى حقه من المجهود ، فان قدرته لاتغنى درن العناية به إذا كان لايهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك ، فان كان شاكا فى هذه الأربعة أوفى واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع مايحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لاينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لاضعف فيه ، كما لوكان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لسانا وأقواهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فان ثبت فى نفسك كشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ؛ اتكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته ؛ فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ؛ فان الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فان كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين :

إما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الأربعة .

وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له من غير نقصان فى اليقين . فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو راش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقنا بكونه ميتا وأنه جماد فى الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا عليه . كما أنها مطردة بأن لايقلب القلم الذى فى يده حية ولايقلب السنور أسدا وإن كان قادرا عليه . ومع أنه لايشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش أو الميت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعيف قلما يخلو الإنسان عن شىء منه وان قل . وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه .

فاذن لايتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً . إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون فى القلب شىء واليقين شىء آخر فكم من يقين لاطمأنينة معه كما قال تعالى لإبرهيم عليه السلام ﴿ أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ فالتمس أن يكون مشاهداً إحياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولاتطمئن باليقين فى ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون فى البداية أصلا ، وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذهب ، فان اليهودى مطمئن القلب الى تهوده . وكذا النصرانى ولا يقين لهم أصلا . وانما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب القين ، الا أنهم معرضون عنه ؛ فاذن الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها ، فهى أحد الأسباب التى تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب ، واذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى ، وقد قيل : مكتوب فى التوراة : ملعون من ثقته انسان مثله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« من استعز بالعبيد أذله الله تعالى(١) » وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التى سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات :

(الدرجة الأولى) ماذكرناه ، وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل (الثانية) وهى أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفزعه ، قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذى له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبى لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا فى ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبى بأمه فيكون متوكلا حقا : فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لأن له التفاتا إلى توكله وشعورا به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ماأدناه ؟ قال : ترك الأمانى . قيل : وأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار ، وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (الثالثة) وهى أعلاها : أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه إلا فى أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت . وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبى فإن الصبى يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صبى علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه ، وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق ، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط .

فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثانى والثالث أعزها ، والأول أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل ، فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ؛ فإن البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم ، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوما ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول .

---

(١) حديث « من اعتز بالعبيد أذله الله » أخرجه العقيلى فى الضعفاء ، وأبو نعيم فى الحلية من حديث عمر ، أورده العقيلى فى ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموى وقال : لا يتابع على حديثه ؛ وقد ذكر ابن حبان فى الثقات وقال : يخالف فى روايته .

فان قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب فى هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأساً مادامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثانى ينفى كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الدعاء والابتهال كتدبير الطفل فى التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفى أصل التدبير والاختيار ولكن ينفى بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذى أشار إليه وكيله به أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته .

فأما الذى يعرفه باشارته بأن يقول له : لست أتكلم إلا فى حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضا توكله عليه ، إذ ليس هو فزعا منه إلى حول نفسه وقوته فى إظهار الحجة ولا الى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له إذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمداً له فى قوله لما حضر ، فقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته : فهو أن يعلم من عادته أنه لايحاج الخصم الا من السجل ، فتمام توكله ان كان متوكلا عليه : أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها ؛ وهو أن يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته ، فاذن لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى احضار السجل ، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصا فى توكله فكيف يكون فعله نقصا فيه ، نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا الى محاجته فقد ينتهى الى المقام الثانى والثالث فى حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لايفزع الى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولاقوة ، وقد كان فزعه الى حوله وقوته فى الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته ، وقد انتهى نهايته فلم يبق الا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى .

واذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال فى التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لايجوز أيضا مع التوكل بل هو على الأنقسام وسيأتى تفصيله فى الأعمال ، فاذا فزع المتوكل الى حوله وقوته فى الحضور والاحضار لا يناقض التوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى ؛ فاذن لايصير مفيدا من حيث أنه حوله وقوته بل من حيث ان الوكيل جعله معتمداً لمحاجته ، وعرفه ذلك باشارته وسنته ؛ فاذن لاحول ولا قوة بالوكيل ، الا أن هذه الكلمة لايكمل معناها فى حق الوكيل لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله ، وانما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق وهو الله تعالى اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد ، وهو الذى جعلهما مفيدين اذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فاذن لاحول ولاقوة الا بالله حقا وصدقا ! فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الأخبار فيمن يقول لاحول ولا قوة الا بالله (١) وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد ، ونسبة هذه الكلمة وثوابها الى كلمة (لا اله الا الله) وثوابها كنسبة معنى احداهما الى الأخرى ، اذ فى هذه الكلمة اضافة شيئين الى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا اله الا الله فهو نسبة الكل اليه ، فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله الا الله) بالإضافة الى هذا .

وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين ، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات ، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وماطرقوا الى اللبين ، والى اللبين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا اله الا الله

---

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت فى الدعوات .

صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة[1] » وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح فى بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان فى بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح ؛ فالملك لاينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس ، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما ، ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لاتنتهى إلا الملك ، أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ﴿ على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ﴾ ولما انتهى إلى أصحاب اليمين مازاد على ذكر الماء والظل ومفواكه والأشجار والحور العين ، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام ، وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوارب رب العالمين ، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة ، افترى أن أحوال البهائم — وهى مسيبة فى الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد — أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوطة — من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين ، هيهات هيهات ماأبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حماراً أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام ! وليس يخفى أن شبه كل شىء منجذب إليه ، وأن النفس التى نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة ، فهو بالأساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب ، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة ، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة ، فتركها الطلب للعجز . وأما الإنسان ففى قوته ذلك ، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال . وإذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لاحول ولا قوة إلا بالله) وإن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل .

فإن قلت : ليس فى قولك (لاحول ولا قوة الا بالله) الا نسبة شيئين الى الله ، فلو قال قائل ، والسماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ؛ لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز وصفها بالصغر تجوزا ، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى ؛ فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثير ممن يدعى أنه يدقق النظر فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره ، فهى مهلكة مخطرة عظيمة هلك فيها الغافلون اذ أثبتوا لأنفسهم أمرا وهو شرك فى التوحيد واثبات خالق سوى الله تعالى ، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قول لاحول ولا قوة الا بالله ، وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد الا عقبتان (احداهما) النظر الى السماء والأرض

---

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة » رواه الطبرانى من حديث زيد بن أرقم، وأبو يعلى من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات (والثانية) النظر الى اختيار الحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد ، فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها فإذا رجع حال التوكل الى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق ،وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل ان شاء الله تعالى .

بيان ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل

ليتبين أن شيئا منها لايخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير الى بعض الأحوال ، فقد قال أبو موسى الديلى: قلت لأبى يزيد : ما التوكل ؟ فقال : ماتقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعى عن يمينك ويسارك ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل ، فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث ، وماذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة ، وأن مافعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة الى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراء سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم الا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا فى المقام الأول من التوكل ؛ فقد احترز أبو بكر رضى عنه فى الغار اذ سد منافذ الحيات[1] الا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال : انما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله ﷺ لافى حق نفسه ، وانما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لأمر يرجع الى نفسه ، وللنظر فى هذا مجال ، ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لايناقض التوكل ، فان حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لاحول للحيات ولا قوة لها الا بالله ، فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير .

وسئل ذو النون المصرى عن التوكل ؟ فقال : خلع الارباب وقطع الأسباب ، فخلع الأرباب إشارة الى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة الى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له : زدنا ! فقال : إلقاء النفس فى العبودية واخراجها من الربوبية ، وهذا إشارة الى التبرى من الحول والقوة فقط .

وسئل حمدون القصار عن التوكل ؟ فقال : ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لاتيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا اشارة الى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة .

وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ؟ فقال : التعلق فى كل حال: فقال السائل: زدنى ! فقال: ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك ، فالأول عام للمقامات الثلاث . والثانى اشارة الى المقام الثالث خاصة . وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال : أما اليك فلا ؛ اذ كان سؤاله سببا يفضى الى سبب وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن تعالى ان أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتول لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره ،وهو حال عزيز فى نفسه ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز .

---

(١) حديث : إن أبا بكر سد منافذ الحيات فى الغار شفقة على النبى ﷺ ، تقدم .

وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ، ولعله يشير إلى المقام الثانى ؛ فسكونه بلا اضطراب : إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطراب بلا سكون : إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها .

وقال أبو على الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمسلم يكتفى بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه : وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالاضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شىء من ذلك ؛ وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل، فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه .

بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يثمر الأعمال ، وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام فى الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ، بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعى العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض ، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه ؛ فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[الفن الأول : فى جلب النافع] فنقول فيه : الأسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وموهوم وهما لاتثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه .

(الدرجة الأولى) المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف ، كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعى ومد اليد إليه سعى وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الحنك على أسافله ! فهذا جنون محض وليس من التوكل فى شىء ؛ فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز ، أو يخلق فى الخبز حركة اليك ، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك : فقد جهلت سنة الله تعالى ، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت فى أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام : فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه ؛ أليس التوكل فى هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذى يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لاعلى اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف فى الحال وتفلج ؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك فى الحال مايزيل عقلك ويبطل قوة حركتك ؟ وكيف تعول على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه

أو يبعث جبة تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول ، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فإنه متوكل .

(الدرجة الثانية) الأسباب التى ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا ، كالذى يفارق الأمصار والقوافل ويسافر فى البوادى التى لا يطرقها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد ، فهذا ليس شرطا فى التوكل ، بل استصحاب الزاد فى البوادى سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ، ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص .

فإن قلت : فهذا سعى فى الهلاك وإلقاء النفس فى التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراماً بشرطين :

أحدهما : أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر فى ذكر الله تعالى .

والثانى : أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة ؛ فبعد هذين الشرطين لايخلو فى غالب الأمر فى البوادى فى كل أسبوع عن أن يلقاه آدمى أو ينتهى إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزىء به فيحيا به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل ، وعلى هذا يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول : هذا لايقدح فى التوكل . وسببه أنه علم أن البوادى لايكون الماء فيها على وجه الأرض ، وماجرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو فى البوادى كما يغلب وجود الحشيش ، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه فى كل يوم أو يومين مرة ، فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام ، وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ، ولا يوجد المقراض والإبرة فى البوادى غالبا عند كل صلاة ، ولا يقوم مقامها فى الخياطة والقطع شىء مما يوجد فى البوادى ، فكل مافى معنى هذه الأربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية ، لأن مظنون ظنا مقطوعا به ، لأنه يحتمل أن لايتخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ، ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه ، فبين الدرجتين فرقان ولكن الثانى فى معنى الأول ، ولهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لاماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا ، فهو آثم به ساع فى هلاك نفسه ، كما روى أن زاهدا من الزهاد فارق الأمصار وأقام فى سفح جبل سبعا وقال لاأسأل أحد شيئا حتى يأتينى ربى برزقى ، فقعد سبعة فكاد يموت ولم يأته رزق فقال : يارب إن أحييتنى فائتنى برزقى الذى قسمت لى وإلا فاقبضنى إليك فأوحى الله جل ذكره إليه : وعزتى لأرزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وقعد ، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس فى نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تذهب حكمتى بزهدك فى الدنيا ؛ أما علمت أنى إن أرزق عبدى بأيدى عبادى أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى ، فإذن التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لايناقض التوكل كما ضربناه مثلا فى الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية ، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب .

فإن قلت : ماقولك فى القعود فى البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب ، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله ، فهو أفضل ، وهو من مقامات التوكل : وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فإن الرزق يأتيه لا محالة ، وعند هذا يصح ماقاله بعض العلماء ؛ وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه ، كما لو هرب من الموت لأدركه ، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب وكان عاصيا ، ولقال له : ياجاهل ، كيف أخلقك ولا أرزقك ؟ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : اختلف الناس فى كل شىء إلا فى الرزق والأجل ، فإنهم أجمعوا على أن لا رزاق ولا مميت إلا الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال [1] » وقال عيسى عليه السلام انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوم بيوم ؛ فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق . وقال أبو يعقوب السوسى: المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون . وقال بعضهم : العبيد كلهم فى رزق الله تعالى، ولكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال ، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار ، وبعضهم بامتهان كالصناع، وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة .

(الدرجة الثالثة) ملابسة الأسباب التى يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة بها، كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه ، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذى فيه الناس كلهم : أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح : فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب ، فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الأسباب التى نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكى بالإضافة إلى إزالة الضار : فإن النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب ، وأمثال هذه الأسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها .

وقال سهل فى التوكل : إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه ، وإنما حجابهم بتدبيرهم ، ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهى التى تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية : فإذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى مايخرج التعلق بها عن التوكل وإلى مالا يخرج ، وأن الذى يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها

---

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله ... الحديث » وزاد فى آخره « ولزالت بدعائكم الجبال » وقدتقدما قريبا دون هذه الزيادة ، فرواها الإمام محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد فيه لين « لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال »ورواه البيهقى فى الزهد من رواية وهيب المكى مرسلا دون قوله « لمشيتم على البحور » قال : هذا منقطع .

بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا ، والمتوكلون فى ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

(الأول) مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا وما فوق ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شىء من ذلك ، فإن الذى يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بغيره ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده .

(المقام الثانى) أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ولكنه فى القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول ، لكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود فى الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالية ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذى يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه اليه لا الى سكان البلد ، اذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم .

(المقام الثالث) أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب ، وهذا السعى لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمأنينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته ، فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة ، بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع، فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ؟ والى ماذا يميل ؟ وبم يحكم ؟ ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو فبدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع ؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته، والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق أن الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى ، حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال : لا تشغلونى عن عيالى فانى ان أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين ، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ، ويستحيل أن يقال : لم يكن الصديق فى مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه ؟ فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشرط كان راعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره . فمن دخل السوق ودرهمه أحب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا ، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد. وقال أبو جعفر الحداد — وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق : كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام ، بل اخرجه كله قبل الليل . وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول : أستحى أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى . واعلم أن الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل ، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ، ولكن يقوى بالحال والعلم ، كتوكل المكتسب . وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل

إليهم فهذا أقوى فى توكلهم ، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا ، فهو كدخول السوق ، ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق .

فان قلت : فما الأفضل أن يقعد فى بيته ، أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى ، فالقعود له أولى . وإن كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى ، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب ، وتركه أهم من ترك الكسب ، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم : كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه . فرده : فلما ولى قال له أحمد : الحقه واعطه فانه يقبل فلحقه وأعطاه فأخذه ، فسأل أحمد عن ذلك ؟ فقال كان قد استشرفت نفسه فرد ، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله اذا نظر إلى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره : رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تكن نفسى اليه فيكون نقصا فى توكلى . فاذن المكتسب اذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن من لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا .

فان قلت : فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية ؟ فأقول علامته أنه ان سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا . فان لم يسكن الى شىء لم يضطرب لفقده . ومن اضطرب لفقد شىء فقد سكن اليه . وكان بشر يعمل المغازل فتركها . وذلك لأن البغادى كاتبه قال : بلغنى أنك استعنت على رزقك بالمغازل . أرأيت ان أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك فى قلبه فاخرج آلة المغازل من يده وتركها : وقيل : تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها . وقيل : فعل ذلك لما مات عياله . كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها . فلما مات عياله فرقها .

فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن اليها وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول : بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة . وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغى أن يعتقد أن الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته ، فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها : ففى الخبر « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه ، من سبقنى : من دهانى ؟ وما هى إلا رحمة رحمه الله بها (١) » ولذلك قال عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنى

---

(١) حديث « إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه .. الحديث » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه ، إلا أنه قال « إن العبد ليشرف على حاجة من حاجات الدنيا ... الحديث » بنحوه .

لا أدرى أيهما خيرلى ، ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ، ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لأحمد بن أبى الحوارى : لى من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإنى ماشممت من رائحة ، هذا كلامه مع علو قدره ، ولم يفكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال : ما أدركته ، ولعله أراد إدراك أقصاه ، وما لم يكمل الإيمان بأن لافاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل مايقدر على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد : لم يكمل حال التوكل ، فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور ـ كما سبق ـ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ، ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد .

فإن قلت : فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى فى تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول : نعم ، هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى : قال الله تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾ فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ، ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظن مولع ، وإذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل ، فقد حكى عن عابد أن عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الامام : لو اكتسبت لكان أفضل لك . فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال فى الرابعة : يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين ، فقال : إن كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك . فقال : يا هذا ، لو لم تكن إماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيراً لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك .

وينفع فى حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية : أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيها عجائب قهر الله تعالى فى إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا ، كما روى حذيفة المرعشى وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا فى طريق مكة أياما لم نجد طعاما ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : ياحذيفة ، أرى بك الجوع ، فقلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : على بدواة وقرطاس . فجئت به اليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود اليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعرا :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر   أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا مضمين لنصفها   فكن الضمين لنصفها يا بارى
مدحى لغيرك لهب نار خضتها   فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الى الرقعة فقال : أخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة الى أول من يلقاك . فخرجت فاول من لقينى كان رجلا على بغلة . فناولته الرقعة فأخذها . فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : هو فى المسجد الفلانى . فدفع الى صرة فيها ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة

فقال : هذا نصرانى ، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لاتمسها فإنه يجىء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم .

وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً ، فحدثتنى نفسى بالخروج ، فخرجت إلى الوادى لعلى أجد شيئاً يسكن ضعفى ، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها ، فوجدت فى قلبى منها وحشة وكأن قائلا يقول لى : جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة ، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت ، فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جلس بين يدىووضع قمطرة وقال : هذه لك ، فقلت : كيف خصصتنى بها ؟ قال : اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق ، فنذرت إن خصلنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، فقلت : افتحها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كعاب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم ، وقد قبلتها ، ثم قلت فى نفسى : رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى .

وقال ممشاد الدينورى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه ، فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول : يابخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما .

وحكى عن بنان الحمال قال : كنت فى طريق مكة أجىء من مصر ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة وقالت لى : يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لايرزقك ، قال : فرميت بزادى ، ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالا فى الطريق فقلت فى نفسى : أحمله حتى يجىء صاحبه فربما يعطينى شيئاً فأرده عليه ، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى يجىء صاحبه فآخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئاً من الدراهم وقالت : أنفقها ، فاكتفيت بها إلى قريب من مكة .

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا : هو ذا يجىء النفير فنشترى ما يوافق ، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا : إنها تصلح له ، فقالوا لصاحبها : بكم هذه ، فقال : إنها ليست للبيع ، فألحوا عليه فقال : إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة .

وقيل : كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص فقال : إن أكلته مت ، فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره ، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقى القرص عنده .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ، ثم فكرت فى نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها ، فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعت صوتا فى نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ، إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية .

وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقائل يقول : ياهذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ أذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر . فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة : فجاءه عمر فقال له : إنى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عنى ؟ فقال : إنى قرأت القرآن فأغنانى

عن عمر وآل عمر ، فقال عمر : رحمك الله فما الذي وجدت فيه ، فقال وجدت فيه ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال : صدقت ، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس اليه .

وقال أبو حمزة الخراساني : حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث ، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد ، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح فقلت في نفسي : إلى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة إذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلقت به فأخرجني ، فاذا هو سبع ، فمر وهيف بي هاتف : يا أبا حمزة أليس هذا أحسن ، نجيناك من التلف بالتلف ، فمشيت وأنا أقول :

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبي من هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر ، واذا قوي الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق اليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه : تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات ، وإلا فلا يتم أصلا .

بيان توكل المعيل

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد ، لأن المنفرد ، لايصح توكله إلا بأمرين (أحدهما) قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس (والآخر) أبواب من الإيمان ذكرناها . من جملتها : أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأتيه رزقه ، علما بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة ، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له : وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت مايكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادرا ، وكذا سائر أبواب الإيمان ، فاذن لايمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب ، فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام . وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم ، بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله ؛ فانه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فان كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روى أن أبا تراب النخشبي نظر الى صوفي مد يده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام . فقال له : لايصلح لك التصوف . الزم السوق اى لاتصوف الا مع التوكل ،

ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام ، وقال أبو علي الروذباري : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام . أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب ، فإذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله وإنما يفارقهم في شيء واحد : وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس ذلك في عياله ، وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لاتخلوا عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر ، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي ، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا ، وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقا أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لايجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فان العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه .

أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما اشعل في قلبها من نار الحب ، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لايحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لايحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؛ فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ ، فاذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت ، فانه لم يكن قادرا على الاكتساب ، فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه . فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة ، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته ، فقد كان المشفق عليه واحد والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لايشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا ، ولو رأوه يتيما لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه ، فما رؤى إلى الآن في سني الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض ، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم ؛ فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون اليتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون اليه ويقولون : هو مثلنا فليجتهد لنفسه ؟

فأقول : إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل فى حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطال والتوكل ؟ وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته ، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس ، وما رؤى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو فى الأمصار فمات جوعا ولا يرى قط ، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه ، فإن من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ، ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها ، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لأهل الملك والملكوت .

فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم ما دبره تدبير يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة ، وقد يقع ذلك أيضا فى بعض الأحوال لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة ، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية ، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا ، وفى النادر ايضا قد لا يحصل بغير اضطراب ، فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته ، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله فى حق المضطرب ، فاذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ما قاله الحسن البصرى رحمه الله إذ قال: وددت أن أهل البصرة فى عيالى ، وأن حبة بدينار .

وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك : فاذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه ، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فاياك أن تجمع بين الإفلاسين: الإفلاس عن وجود المقام ذوقا والإفلاس عن الإيمان به علما : فاذن عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لا محالة وإن فررت منه ، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدى من لا تحتسب ، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الأطعمة ، فما ضمن إلا الرزق الذى تدوم به حياته ، وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذى أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه فى السماء . قال الله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأسرار السماء لا يطلع عليها ، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال : ماذا تطلبون ؟ قالوا : نطلب الرزق ، فقال: إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه ، قالوا : نسأل الله . قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه . فقالوا : ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون . فقال : التوكل على التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ؟ قال: ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى

الخراز : كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما ، فقلت : ليس هذا من أفعال المتوكلين ، فطالبتنى أن أسأل الله صبرا ، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وإنا لا نضيع من أتانا
ويسألنا على الإقتار جهدا كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من تكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدبير الله تعالى : كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل ، فان أسوأ حاله أن يموت ، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب ، والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق . فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التى لم تسكن فى ظنك وحسابك ، ولا تكن فى توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب . كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم ، والمحرك الأول واحد فلا ينبغى أن يكون النظر إلا اليه ، وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد أو يقعد وفى الأمصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام ، بل يأتيه أضعافه . فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور . فان اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الخامل مع الاكتساب : فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والقانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن . فان الكسب يمنع السير بالفكر الباطن . فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ، ومن نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيما عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه ، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه : فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن اذن من جهلهن البهائم

بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال ذلك الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام : فاخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم ، وأمر مناديا حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى اذا خرجوا اليكم ، بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا اليكم طعامكم . فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعه بغلام يكون موكلا به الى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى أختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ، ومن ثبت فى مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له ، ومن أخطأه غلمانى فما أوصلوا اليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان

ولا قائل ليته أوصل إلى رغيفاً فإنى غدا أستوزره وأفوض ملكى إليه فانقسم السؤال إلى أربعه أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ، وقالوا : من اليوم إلى غدا فرج ! ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم فى الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة ، وقسم قالوا : إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفا واحداً ونقنع به ، فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة ، وقسم رابع اختفوا فى زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا : إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد ، وإن أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة ، فلعلنا تقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك ، فما نفعهم ذلك ، إذا اتبعهم الغلمان فى كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا ، وجرى مثل أياما حتى اتفق على الندور أن اختفى ثلاثة فى زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش ، فباتوا فى جوع شديد ، فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر ، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة ، فهذا مثال الخلق ، والميدان هو الحياة فى الدنيا ، وباب الميدان الموت ، والميعاد المجهول يوم القيامة ، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة ، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، والمتعلق بالغلمان هو المعتدى فى الأسباب والغلمان المسخرون هم الأسباب ، والجالس فى ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون فى الأمصار فى الرباطات والمساجد على هيئة السكون ، والمختفون فى الزوايا هم السائحون فى البوادى على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور ، فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى ، وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية فى الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح فى البوادى ثلاثة ، وتسخط منهم اثنان . وفاز بالقرب واحد ، ولعله كان كذلك فى الأعصار السالفة ، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهى الى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثانى فى التعرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله فى الادخار ثلاثة أحوال :

(الأولى) أن يأخذ قدر حاجته فى الوقت ، فيأكل إن كان جائعا ، ويلبس إن كان عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ، ويفرق الباقى فى الحال ، ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذى يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية ، فهذا هو الوفى بموجب التوكل تحقيقا وهى الدرجة العليا .

(الحالة الثانية) المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل : أن يدخر لسنة فما فوقها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا ، وقد قيل : لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة ، الفأرة ، والنملة ، وابن آدم .

(الحالة الثالثة) أن يدخر لأربعين يوما فما دونها ، فهذا ، هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود فى الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه : فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل . وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المكى ، لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا ، وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل ؛ فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة ، وتلك الرتبة لها بداية

ونهايه . ويسمى أصحاب النهايات : السابقين ، وأصحاب البدايات : أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات ، وكذلك السابقون ، وأعالى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلا معنى للتقدير فى مثل هذا ، بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل ، وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو فى نفس ، فإن ذلك كالممتنع وجوده : أما الناس فمتفاوتون فى طول الأمل وقصره ، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات ، وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الإنسان ، وبينهما درجات لا حصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة ، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام : بعيد ، فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسرجرت به وبأمثاله سنة الله تعالى فى تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام « إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا (١) » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر : فاذن ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب ، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب : فان أسباب الدخل فى الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما فى الرتبة ، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا . وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر .

وقد روى فى الفقير الذى أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته، فلما دفنه قال لأصحابه « إنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ولولا خصلة كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية » قلنا : وما هى يارسول الله ؟ قال « كان صواما كثير الذكر لله تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه ، وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء . ثم قال ﷺ ، بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر (١) » الحديث .

وليس الكوز والشفرة وما يحتاج اليه على الدوام فى معنى ذلك: فان ادخاره لا ينقص الدرجة . وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج اليه فى الصيف . وهذا فى حق من لا ينزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا الى الوكيل الحق . فان كان يستشعر فى نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر كفايته وكان لا يتفرغ قلبه الا به فذلك له أولى ، لأن المقصود اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه ، والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل ، والا فالدنيا فى عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله صلى وسلم الى أصناف الخلق وفيهم التجار المحترفون وأهل الحرف والصناعات ؛ فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما ، بل دعا الكل الى الله تعالى وأرشدهم الى أن فوزهم ونجاتهم فى انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى ، وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب ، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته ، كما أن صواب القوى ترك الادخار،

---

(١) حديث « خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسى بإسناد ضعيف جدا وهو باطل

(٢) حديث : أنه قال فى حق الفقير الذى أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته . أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر . . . الحديث وفى آخره « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر » لم أجد له أصلا، تقدم آخر الحديث قبل هذا.

وهذا كله حكم المنفرد : فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم ، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرر السنين ؛ فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى ، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة . وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة [(١)]، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد[(٢)]، ونهى بلالا عن الادخار فى كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا [(٣)] » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ [(٤)] » اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول « ما يدرينى لعلى لا أبلغه [(٥)] » وقد كان صلى الله علية وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره ، ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليما للأقوياء من أمته . فإن أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة الى قوته ، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا نضعف قلب فيه وفى عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من أمته ، بل أخبر : « ان الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه [(٦)] » تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات . فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم ، واذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ماروى أبو أمامة الباهلى : أن بعض أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم « فتشوا ثوبه » فوجدوا فيه دينارين فى داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم « كيتان [(٧)] » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك فى حقه ، وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين : (أحدهما) أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى ﴿ تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإفلاس عنه فهو نوع تلبيس (والثانى) أن لا يكون ذلك عن تلبيس ، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين فى الوجه ، وذلك لا يكون تلبيس فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته فى الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل ، فيشهد له ما روى عن بشر . قال الحسين المغازلى من أصحابه : كنت عنده من النهار ، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام اليه بشر ، قال : وما رأيته قام لأحد غيره ، قال : ودفع إلى كفا من دراهم وقال . اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب ، وما قال لى قط

---

(١) حديث : ادخر لعياله قوت سنة ، متفق عليه ، وتقدم فى الزكاة .

(٢) حديث : نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد . تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها .

(٣) حديث : نهى بلالا عن الادخار وقال « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال : دخل عليه النبى ﷺ وعنده صبر من تمر ، فقال ذلك . وروى أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط حديث أبى هريرة ، وكلها ضعيفة . وأما ماذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز ، فلم أره .

(٤) حديث قال لبلال « إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تخبأ » رواه الطبرانى والحاكم من حديث أبى سعيد وهو ثقة . (٥) حديث : أنه ﷺ بال وتيمم مع قرب الماء ويقول « ما يدرينى لعلى لا أبلغه » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٦) حديث « إن الله يحب أن تؤتى رخصه... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى والبيهقى من حديث ابن عمر وقد تقدم .

(٧) حديث أبى أمامة : توفى بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين فى داخلة إزاره ، فقال ﷺ « كيتان » رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

مثل ذلك ، قال : فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال : فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شيء كثير ، فيأخذه الرجل وجمعه فى ثوبه وحمله معه وانصرف ، فعجبت من ذلك وكرهته له ، فقال لى بشر : لعلك أنكرت فعله ؟ قلت : نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن ، فقال : ذاك أخونا فتح الموصلى زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار .

[الفن الثالث فى مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف فى نفس أو مال . وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا . أما فى النفس فكالنوم فى الارض المسبعة اوفى مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى عنه . وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . نعم تنقسم هذه سباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة . وإلى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهى التى نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكى والرقية . فان الكى والرقية قد تقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع ، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة ، ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل مافى معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر فى الشتاء تهييجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق فى الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكى بخلاف الجبة ، واترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفى فشرط التوكل الاحتمال والصبر ، قال الله تعالى ﴿ فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ وقال عز وجل ﴿ ودع أذاهم وتوكل على الله ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ وقال تعالى ﴿ نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ وهذا فى أذى الناس ، وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل فى شيء إذ لافائدة فيه ، ولا يراد السعى ولا يترك السعى لعينه بل لإعانته على الدين ، وترتب الأسباب ههنا كترتبها فى الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة ، وكذلك فى الأسباب الدافعة عن المال . فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت سنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا ، ولذلك قال ﷺ للأعرابى لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله « اعقلها وتوكل(١) » وقال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وقال فى كيفية صلاة الخوف ﴿ وليأخذوا أسلحتهم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ وقال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ فأسر بعبادى ليلا ﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب ، واختفاء رسول الله ﷺ فى الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر(٢) ، وأخذ السلاح فى الصلاة فليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعا ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإنما الموهوم هو الذى يقتضى التوكل تركه .

فان قلت : فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغى أن يغرك ذلك المقام ، فانه وإن كان صحيحاً فى نفسه فلا يصلح للاقتداء

---

(١) حديث « اعقلها وتوكل » أخرجه الترمذى من حديث أنس ، قال يحيى القطان: منكر ورواه ابن خزيمة فى التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمرى بإسناد جيد « قيدها » . (٢) حديث: اختفى رسو الله ﷺ عن أعين الأعداء دفعا للضرر ، تقدم فى قصة اختفائه فى الغار عند إرادة الهجرة .

بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع فى الكرامات وليس ذلك شرطا فى التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .

فان قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها؟ فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه : أن يسخر لك كلب هو معك فى إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويعض غيرك ، فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا باشارتك وكان مسخراً لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع ، وكلب دارك أولى أن يكون مسخرا لك من كلب البوادى ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك، فاذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع فى استسخار الكلب الظاهر .

فان قلت : فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأى اعتبار يكون متوكلا؟ فأقول : يكون متوكلا بالعلم والحال، فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته فى إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه ، فكم من باب يغلق ولا ينفع ، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت ، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب، فلا تتكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب، كما ضربنا المثل فى الوكيل فى الخصومة فانه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوته ، وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به فى بيته ونفسه ويقول : اللهم إن سلطت على ما فى البيت من يأخذه فهو فى سبيلك وأنا راض بحكمك، فانى لا أدرى أن ما أعطيتنى هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ، ولا أدرى أنه رزقى أو سبقت مشيئتك فى الأزل بأنه رزق غيرى ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له ، بل جريا على مقتضى سنتك فى ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب .

فإذا كان هذا حاله وذلك الذى ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ، ثم إذا عاد فوجد متاعه فى البيت فينبغى أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله ، وإن لم يجده بل وجده مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما أنه ما أخذ الله سبحانه ذلك منه إلا ليزيد رزقه فى الآخرة فقد صح مقامه فى التوكل وظهر له صدقه .وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا فى دعوى التوكل . لأن التوكل مقام بعد الزهد . ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتى . بل يكون على العكس منه . فكيف يصح له التوكل ؟ نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه فى الطلب والتجسس. وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه . فقد كانت السرقة مزيداً له فى ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه فى جميع الدعاوى . فبعد هذا ينبغى أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه فى دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها . فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير .

فان قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل فى يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه والجراب الذى فيه زاده. وإنما ذلك فى

المأكول وفى كل مال زائد على قدر الضرورة ، لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين فى زوايا المساجد ، وماجرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، والخروج من سنة الله عز وجل ليس شرطا فى التوكل ، ولذلك كان الخواص يأخذ فى السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد ، ولكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين .

فإن قلت : فكيف يتصور أن لايحزن إذا أخذ متاعه الذى هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه ، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولايحزن وقد حيل بينه وبين مايشتهيه ؟ فأقول : انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذا كان يظن أن الخيرة له فى أن يكون له ذلك المتاع ، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه اياه ، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته فى أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب فى تحصيل غرضه ويكون ثوابه فى النصب والتعب أكثر ، فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه فى جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به ، فيقول : لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لى فى وجودها إلى الآخرة والخيرة لى الآن فى عدمها لما أخذها منى ، فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب ، بل من حيث انه يسرها مسبب الاسباب عناية وتلطفا ، وهو كالمريض بين يدى الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فان قدم اليه الغذاء فرح وقال : لولا أن الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله لماقربه إلى ، وان أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرنى ويسوقنى الى الموت لما حال بينى وبينه ، وكل من لا يعتقد فى لطف الله تعالى ما يعتقده المريض فى الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته فى اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب ، فانه لايدرى اى الاسباب خيرله ، كاقال عمر رضى الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيرا ، فانى لاأدرى أيهما خير لى : فكذلك ينبغى أن لا يبالى المتوكل بسرق متاعه أو لا يسرق فانه لايدرى أيهما خير له فى الدنيا أو فى الآخرة ، فكم من متاع الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ! وكم من غنى يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول ياليتنى كنت فقيراً !

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

المتوكل آداب فى متاع بيته اذا خرج عنه (الأول) أن يغلق الباب ولا يستقصى فى أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق ، وكجمعه أغلاقا كثيرة . فقد كان مالك بن دينار لايغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول : لولا الكلاب ماشددته أيضا (الثانى) أن لايترك فى البيت متاعا يحرض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ، ولذلك لما أهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة قال : خذها لا حاجة لى اليها . قال : لم ؟ قال : يوسوس الى العدو أن اللص يأخذها ، فكأنه احترز من أن يعصى السارق : ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ، ولذلك قال أبو سليمان : هذامن ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد فى الدنيا فما عليه من أخذها (الثالث) أنما يضطر الى تركه فى البيت ينبغى أن ينوى عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول : مايأخذه السارق فهو منه فى حل أو هو فى سبيل الله تعالى ، وان كان فقيرا فهو عليه صدقة ، وان لم يشترط الفقر فهو أولى . فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير (احداهما) أن يكون

ماله مانعا له من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله فى حل (والثانية) أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما ينوى حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوى دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما (١) » ونصر الظالم : أن تمنعه من الظلم ، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له ، وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلى . ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده ، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا ، كما روى رسول صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل فى سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (٢) لأنه ليس أمر الولد إلا الوقاع ، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه ، فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة (الرابع) أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغى أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول : لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ، ثم إن لم يكن قد جعله فى سبيل الله عز وجل فلا يبالغ فى طلبه وفى إساءة الظن بالمسلمين وإن كان قد جعله فى سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة ، فإن أعيد عليه ، فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله فى سبيل الله عز وجل ، وإن قبله فهو فى ملكه فى ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ، ولكنه غير محبوب عند المتوكلين .

وقد روى أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ، ثم قال : فى سبيل الله تعالى ، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن ناقتك فى مكان كذا فلبس نعله وقام ، ثم قال : أستغفر الله وجلس ، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال : إنى كنت قلت فى سبيل الله .

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة وعرض على منازلى فيها فرأيتها ، قال : وهو مع ذلك كئيب حزين ! فقلت : قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ؟ فتنفس الصعداء ثم قال : نعم انى لا أزال حزينا الى يوم القيامة . قلت : ولم ؟ قال : انى لما رأيت منازلى فى الجنة رفعت لى مقامات فى عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، ففرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له انما هى لمن أمضى السبيل ، فقلت : وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لى كنت تقول للشىء انه فى سبيل الله ثم ترجع فيه ، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيناها لك .

وحكى عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما الى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به ؛ فقال له : كم كان فى هميانك ؟ فذكر له ، فحمله الى البيت ووزنه من عنده ، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا اخذوا الهميان مزحا معه ، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال : خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود فى مال أخرجته فى سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شىء .

فهكذا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده الى البيت بعد اخراجه فيعطيه فقيرا آخر ، وكذلك يفعل فى الدرهم والدنانير وسائر الصدقات (الخامس) وهو أقل الدرجات :

---

(١) حديث « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » متفق عليه من حديث أنس ، وقد تقدم . (٢) حديث « من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام ... الحديث » لم أجد له أصلا .

أن لايدعو على السارق الذى ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات ، وبطل زهده ، ولو بالغ بطل أجره أيضا فيما أصيب به ؛ ففى الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر[1] » .
وحكى أن الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى ، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه ، فجاءه قوم يعزونه فقال : أما انى قد كنت رأيته وهو يحله . قيل : وما منعك أن تزجره؟ قال : كنت فيما هو أحب من ذلك — يعنى الصلاة — فجعلوا يدعون عليه فقال : لاتفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شىء قد كان سرق له : ألا تدعوا على ظالمك ؟ قال ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه . قيل أرأيت لو رد عليك ؟ قال : لا آخذه ولا أنظر اليه لأنى كنت قد أحللته له .

وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال : ماظلمنى أحد ، ثم قال : انما ظلم نفسه ، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا .

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه ، فقال : لاتغرق فى شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه .
وفى الخبر « ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم[2] » (السادس) أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا فى دنياه لانقصا فى دينه ، فقد شكا بعض الناس الى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال : ان لم يكن لك غم أنه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر غمك بمالك فما نصحت للمسلمين .

وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن ، فقال : أعلى الدنانير تبكى ؟ فقال : لا ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة .
وقيل لبعضهم : ادع على من ظلمك ، قال : انى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه . فهذه أخلاق السلف رضى عنهم أجمعين .

[الفن الرابع : فى السعى فى إزالة الضرر كمداراة المرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع . وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب . أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الأسباب الظاهرة فى الطب ، وإلى موهوم كالكى والرقية ، أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت . وأما الموهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله ﷺ المتوكلين ، وأقواها الكى ، ويليه الرقية ، والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق فى ملاحظة الأسباب ، وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم . وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الأحوال وفى بعض الأشخاص فهى على درجة بين الدرجتين ، ويدل على

---

(١) حديث « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » تقدم .
(٢) حديث « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ماظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة ... الحديث » تقدم.

أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وأمره به : أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام [١] » يعنى الموت . وقال عليه الصلاة والسلام « تداووا عباد الله فان الله خالق الداء والدواء [٢] » وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : « هى من قدر الله [٣] » وفى الخبر المشهور « مامررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة [٤] » وفى الحديث أنه أمر بها وقال « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين لايتبيغ بكم الدم فيقتلكم [٥] » فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى . وبين أن اخراج الدم خلاص منه ، اذ لافرق بين اخراج الدم المهلك من الإهاب وبين اخراج العقرب من تحت الثياب واخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفى خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة [٦] » وأما أمره ﷺ فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالحمية [٧] ، وقطع لسعد بن معاذ عرقا [٨] أى فصده ، وكوى سعد بن زرارة [٩] ، وقال لعلى رضى الله عنه وكان رمد العين « لاتأكل من هذا » يعنى الرطب « وكل من هذا فانه أوفق لك [١٠] » يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرا وأنت أرمد » فقال : انى آكل من الجانب الآخر فتبسم ﷺ [١١] . وأما فعله ﷺ والسلام فقد روى فى حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة [١٢] قيل السنا المكى

(١) حديث « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام » رواه أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود دون قوله « إلا السام » وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله « عرفه ... إلى آخره » وإسناده حسن . وللترمذى وصححه من حديث أسامة بن شريك « إلا الهرم » وللطبرانى فى الأوسط والبزار من حديث أبى سعيد الخدرى والطبرانى فى الكبير من حديث ابن عباس وسندها ضعيف ، والبخارى من حديث أبى هريرة « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » ولمسلم من حديث جابر « لكل داء دواء » . (٢) حديث « تداووا عباد الله ... » رواه الترمذى وصححه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة ابن شريك . (٣) حديث : سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال « هى من قدر الله ... » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى خزامة ، وقيل عن أبى خزامة عن أبيه ، قال الترمذى : وهذا أصح . (٤) حديث « مامررت بملأ من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة » رواه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين ... الحديث » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ، ورفعه الترمذى بلفظ « إن خير ماتحتجمون فيه سبع عشرة ... الحديث » دون ذكر التبيغ ، قال حسن غريب ، وقال البزار : إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف « من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر ... الحديث » .

(٦) حديث « من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة » رواه الطبرانى من حديث معقل بن يسار ، وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس وإسنادهما واحد اختلف على راويه فى الصحابى ، وكلاهما فيه زين العمى وهو ضعيف . (٧) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه « تداووا ... الحديث » وسيأتى فى قصة على وصهيب فى الحمية بعده . (٨) حديث : قطع عرقا لسعد ابن معاذ ، أخرجه مسلم من حديث جابر قال : رمى سعد فى أكحله فحسمه النبى ﷺ بيده بمشقص ... الحديث .

(٩) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة ، رواه الطبرانى من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ، ومن حديث أبى أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل . (١٠) حديث قال لعلى وكان رمدا « لاتأكل من هذا ... الحديث » رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم المنذر .

(١١) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين « تأكل تمرا وأنت رمد ... الحديث » تقدم فى آفات اللسان.

(١٢) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ، أخرجه ابن عدى من حديث عائشة وقال : إنه منكر ، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحي بن معين .

وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها(١) . وروى أنه كان إذا نزل به الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء(٢) . وفى خبر : أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا(٣) وما روى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى طب النبى صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء فى الإسرائليات : أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا أتداوى حتى يعافينى هو من غير دواء ، فطالت علته ، فقالوا له : إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإنا نتداوى به فنبرأ ، فقال : لا أتداوى ، وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه : وعزتى وجلالى لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك ، فقال لهم :داوونى بما ذكرتم ، فداووه فبرأ ، فأوجس فى نفسه من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على؛ من أودع العقاقير منافع الأشياء غيرى ؟

وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها ، فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض وشكا نبى آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن فإن فيهما القوة ، قيل: هو الضعف عن الجماع .

وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم . فأوحى الله تعالى إليه : مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد ، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل ، والنفساء الرطب .

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة ، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب ، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء . والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين (أحدهما) أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص ، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالأول (والثانى) أن الدواء يسهل ، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب فى المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة ، وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا وينحصر فى هذين الشيئين ، وإلا فالمسبب يتلوا السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب ، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره ، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته ، فلا يضر المتوكل استعماله ، مع النظر إلى مسبب الأسباب ؛ دون الطبيب والدواء ، فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال يارب ممن الداء والدواء ؟ فقال تعالى : منى . فقال فما يصنع الأطباء ؟ قال : قال يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس

---

(١) حديث أنه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها. رواه الطبرانى بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله ﷺ لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس ... الحديث، وله فى الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى تقمح كفا من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلا ، ولأبى يعلى والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبى ﷺ احتجم بعد ما سم . وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور .

(٢) حديث : كان إذا نزل عليه الوحى صدع رأسه فيغلفه بالحناء ، وأخرجه البزار وابن عدى فى الكامل من حديث أبى هريرة ، وقد اختلف فى إسناده على الأحوص بن حكيم : كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء ، رواه الترمذى وابن ماجه من حديث سلمى ، قال الترمذى : غريب .

(٣) حديث : جعل على قرحة خرجت بيده ترابا ، رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة : كان إذا اشتكى الإنسان الشىء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبى ﷺ بيده هكذا ، ووضع سفيان بن عيينة الراوى سبابته بالأرض ثم رفعها وقال « بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا » .

عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى ، فإذن معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال ، كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع ، فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه .

فإن قلت : فالكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول : ليس كذلك ، إذ الأسباب الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للمحرور . وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد ، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب ، فهذ من الأسباب الموهومة كالرقى ، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق النار فى الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكى إلا وله دواء يغنى عنه ليس فيه إحراق ، فالإحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الكى دون الرقى[1]. وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع ، فلم يزالوا به عزم عليه الأمر حتى اكتوى ، فكان يقول : كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة ، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى ، وكان يقول : اكتوينا كيات . فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى ، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة . وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى الملائكة التى أكرمنى الله بها قد ردها الله تعالى على ؛ بعد أن كان أخبره بفقدها ، فإذن الكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لأنه يحتاج فى استنباطه إلى تدبير ، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها ، والله أعلم .

بيان أن ترك التدواى قد يحمد فى بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداووا من السلف لا ينحصرون ، ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر ، فربما يظن أن ذلك نقصان ، لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله ﷺ ، إذ لا يكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله .

وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قيل له : لو دعونا لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب قد نظر إلى وقال: إنى فعال لما أريد . وقيل لأبى الدرداء فى مرضه : ما تشكى ؟ قال : ذنوبى . قيل : فما تشتهى قال : مغفرة ربى . قالوا: ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

وقيل لأبى ذر وقد رمدت عيناه : لو داويتهما ؟ قال : إنى عنهما مشغول، فقيل : سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال : أسأله فيما هو اهم على منهما .

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج . فقيل له : لو تداويت، فقال قدهممت ثم ذكرت عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الأطباء ، فهلك المداوى والمداوى ، ولم تغن الرقى شيئا .

وكان أحمد بن حنبل يقول : أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره، وإن كان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا إذا سأله.

---

(١) حديث : نهى رسول الله ﷺ عن الكى دون الرقى ، رواه البخارى من حديث ابن عباس « وأنهى أمتى عن الكى » وفى الصحيحين من حديث عائشة : رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى رحمة.

وقيل لسهل : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال : إذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه شغلا بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه .

فإذاً منهم من ترك التداوى وراءه ، ومنهم من كرهه ، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوى . فنقول : إن لترك التداوى أسباباً (السبب الأول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ، ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتاره بحدس وظن ، وتارة بكشف محقق ، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإن كان من المكاشفين . فانه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث : إنما هن أخناك ، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى ، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله ، وإلا فلا يظن به إنكار التدواى وقد شوهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به (السبب الثانى) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله ، وعليه يدل كلام أبى ذر قال : إنى عنهما مشغول . وكلام أبى الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبى ، فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته ، أو كالخائف الذى يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له : ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول : أنا مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل ، ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال : هو ذكر الحى القيوم . فقيل : إنما سألناك عن القوام ؟ فقال : القوام هو العلم . قيل : سألناك عن الغذاء ؟ قال : الغذاء هو الذكر . قيل : سألناك عن طعمة الجسد ؟ قال : مالك وللجسد ، دع من تولاه أولا يتولاه آخراً : إذا دخل عليه علة فرده الى صانعه ، اما رأيت الصنعة اذا عيبت ردوها إلى صانعها حتى يصلحها (السبب الثالث) أن تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة الى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية ، فيتركه المتوكل . واليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال : ذكرت عادا وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى اى ان الدواء غير موثوق به . وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطاب وقلة تجربته له ، فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ، ولا شك فى أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الادوية من غيره . فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد . والاعتقاد بحسب التجربة ، وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئاً موهوما لا أصل له . وذلك صحيح فى بعض الأدويه عند من عرف صناعة الطب . غير صحيح فى البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر الى الكل نظرا واحدا . فيرى التداوى تعمقا فى الأسباب كالكى والرقى . فيتركه توكلا (السبب الرابع) أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى . أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر . فقد ورد فى ثواب المرض مايكثر ذكره . فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء . وان كان فى ايمانه ضعف خفف عنه البلاء [1] » وفى الخبر « ان الله تعالى يجرب عبد بالبلاء كما يجرب احدكم ذهبه بالنار

---

(١) حديث « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل ... الحديث » رواه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف ، وقد تقدم مختصرا ، ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبى وقاص ، صحيح على شرط الشيخين .

فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، لا يريد . ومنهم دون ذلك . ومنهم من يخرج أسود محترقا[١] وفى حديث من طريق أهل البيت « ان الله تعالى اذا أحب عبدا ابتلاه . فاذا صبر اجتباه . فان رضى اصطفاه[٢] » وقال ﷺ « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون[٣] » وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تجد المؤمن أصح شيء قلبا وأمرضه جسما . وتجد المنافق أصح شيء جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه . فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قعودا مثلا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة . فى الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكته : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فانه فى وثاقى ان اطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ، وان توفيته توفيته الى رحمتى[٤] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس[٥] » فقيل : معناه مادخل عليه من الأمراض والمصائب . واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ وكان سهل يقول ترك التداوى وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها ، وكان يداوى الناس منها وكان اذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام الى الصلاة والنهوض الى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما . وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل فى شيء من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ، ومن لم يدخل فى شيء فهو أفضل :لانه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه. وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من اعمال القلوب : مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من امثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا اذا كان ألمه غالبا مدهشا . وقال سهل رحمه الله : علل الاجسام رحمة وعلل القلب عقوبة .

السبب الخامس : أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها ، فيرى المرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة[٦] » وفى الخبر « حمى يوم كفارة سنة[٧] » فقيل لأنها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل

---

(١) حديث « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه ... الحديث رواه الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٢) حديث : من طريق أهل البيت : إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ... الحديث ، ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده ؛ وللطبرانى من حديث أبى عنبه « إذا أراد الله بعبد خيرا ابتلاه ، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا » وسنده ضعيف . (٣) حديث « تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون » أخرجه ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى ، وأبو نعيم وابن عبد البر فى الصحابة ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى فاطمة ، وهو صدر حديث «إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله ... الحديث » وقد تقدم .

(٤) حديث « إن الله يقول للملائكة : اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمل فإنه فى وثاقى ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر ، وقد تقدم . (٥) حديث « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس» تقدم ولم أجده مرفوعا . (٦) حديث لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة» أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث أبى هريرة ، والطبرانى من حديث أبى الدرداء نحوه وقال «الصداع» بدل «الحمى» وللطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع فى صفاتها ولونها» وأسانيده ضعيفة . (٧) حديث حمى يوم كفارة سنة » رواه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال « ليلة » بدل « يوم » .

ألم كفارة يوم . ولماذ كرﷺ كفارة الذنوب بالحمى ، سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لايزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله ، وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لاتزايلهم (١) ولما قالﷺ « من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة (٢) » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام : لايكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه . وروى أن موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال : يارب ارحمه فقال تعالى : كيف أرحمه فيما به أرحمه - اى به أكفر ذنوبه - وأزيد فى درجاته .

السبب السادس : أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان تطول مدة الصحة فيتحرك التداوى خوفا من أن يعاجه زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان ، أو طول الأمل والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصى ، وأقلها أن تدعو إلى التنعم فى المباحات ، وهو تضييع الأوقات واهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات ، واذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب ، ولذلك قيل : لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة . وقد روى « أن الله تعالى يقول : القدر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى » ، فاذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية فى ترك المعاصى ، فقد قال بعض العارفين لإنسان : كيف كنت بعدى ؟ قال فى : عافية ، قال : إن كنت لم تعص الله عز وجل فأنت فى عافية وان كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية . ماعوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد : ما هذا الذى أظهروه ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم ، فقال : كل يوم لايعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد .

وقال تعالى ﴿ من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ قيل العوافى ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ وكذلك اذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى لطول العافية . لأنه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية - لعنه الله - ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات (٣) » وقيل : الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف .

وقال تعالى ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون ﴾ قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها . ويقال : ان العبد اذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت : ياغافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب .

---

(١) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن يزال محموما ... الحديث، وسأل ذلك طائفة من الأنصار : أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد : أن رجلا من المسلمين قال يارسول الله : أرأيت هذه الأمراض تصيبنا مالنا فيها قال « كفارات » قال أبى : وإن قلت ؟ قال « فإن شوكة فما فوقها » قال : فدعا أبى أن لايفارقه الوعك حتى يموت ... الحديث » وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال : يارسول الله ، ماجزاء الحمى ؟ قال : تجرى الحسنات على صاحبها مااختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق ، فقال : اللهم إنى أسألك حمى خروجا فى سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا لمسجد نبيك ... الحديث ، والإسناد مجهول ، قاله على بن المدينى .

(٢) حديث « من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة » تقدم المرفوع منه دون قوله : فلقد كان فى الأنصار من يتمنى العمى . (٣) حديث « أكثروا ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وقد كان السلف لذلك يستوحشون اذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال . وقالوا : لايخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب ببلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم « عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وأنها ما مرضت قط ، فقال لاحاجة لى فيها [١] » وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ما أعرفه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « اليك عنى من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا وهذا [٢] » لأنه ورد فى الخبر « الحمى حظ كل مؤمن من النار [٣] » .

وفى حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما : قيل يارسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة [٤] » وفى لفظ آخر « الذى يذكر ذنوبه فتحزنه » ، ولاشك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها اذ رأوا لأنفسهم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التداوى نقصانا ؟ وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك ﷺ ؟ .

بيان الرد على من قال : ترك التداوى أفضل بكل حال

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله ﷺ ليسن لغيره والا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ؟ فيقال : ينبغى أن يكون من شروط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم .

فان قيل : ان ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أوالحية فلا ينحيها عن نفسه اذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ؟ فيقال : ينبغى أن لايزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به .

ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون ، فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا ، فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم : لا ندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى : بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال : نرجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون فى رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا . فقال : أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان : إحداهما مخصبة . والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا : نعم ، ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـ وكان غائبا ـ فلما أصبحوا جاء

---

(١) حديث : عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل : فإنها مامرضت قط ، فقال « لاحاجة لى فيها » أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد . (٢) حديث : ذكر رسول الله ﷺ الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل : وما الصداع ، ما أعرفه ؟ فقال « اليك عنى . . . الحديث » رواه أبو داود من حديث عامر الرام أخى الخضر بنحوه ، وفى إسناده من لم يسم . (٣) حديث « الحمى حظ كل مؤمن من النار » البزار من حديث عائشة ، وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس ، وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود ، وحديث أنس ضعيف وباقيها حسان . (٤) حديث أنس وعائشة : قيل يارسول الله ، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة » لم أقف له على إسناد .

عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال : عندى فيه ياأمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : الله أكبر ، فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع فى أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه[1] » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل .

فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر وترك التوكل فى أمثال هذا مباح ، وهذا لايدل على المقصود ، ولكن الذى ينقدح فيه — والعلم عند الله تعالى — أن الهواء لايضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن ، فالخروج من البلد لايخلص غالبا من الأثر الذى استحكم من قبل ، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ، ولكن صار منهيا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ، ولم يبق فى البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيا فى هلاكهم تحقيقا ، وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الأصحاء منتظر ؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع فى إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه . فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهى وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإعانة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار الفرار من الزحف[2] لأن فيه كسرا لقلوب المسلمين وسعيا فى إهلاكهم ، فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماسمعه ، وغلط العباد والزهاد فى مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك .

فإن قلت : ففى ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها ، أوخاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى مايذكره الموت لغلبة الغفلة ، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين ، أو نصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى فى الأدوية من لطائف المنافع حتى صار فى حقه موهوما كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع ، فإلى هذه المعانى رجعت الصوارف فى ترك التداوى ، وكل هذه كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها إذكان حاله يقتضى أن يكون

---

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف « إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلاتقدموا عليه ...الحديث» وفى أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء... الحديث، رواه البخارى .

(٢) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ، ومن حديث جابر بإسناد ضعيف ، وقد تقدم.

مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها . فان لم يكن له نظر فى الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أن الرغبة فى المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالا فهى أيضا نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه ، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر ، وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر عنده ، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوفه على بفسه من إمساكه ، فانه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها(١) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لاضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لايضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه ، والمؤمن فى غالب الأمر لايقصد ذلك ، وأحد من المؤمنين لايرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث أنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا لحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب ، فانه إن اكتسب الاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها ، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه ، فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات ، وأن واحد من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل إلا ترك الموهومات كالكى والرقى فان ذلك تعمق فى التدبيرات لايليق بالمتوكلين .

بيان أحوال المتوكلين فى إظهار المرض وكتمانه

أعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات : لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات .

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فى النية والمقصد ومقاصد الإظهار ثلاثة :

الأول : أن يكون غرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المطبب أوجاعه ، وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول انما أصف قدرة الله تعالى فى .

الثانى : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتضى به وكان مكينا فى المعرفة ، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصرى : إذا حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى .

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روى أنه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت ؟ قال : بشر ، فنظر بعضهم الى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنو أنه شكاية ، فقال : أتجلد على الله ؟ فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ماعلم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه

---

(١) حديث : أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ، ولفظه : عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردها .

عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء ، فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية[1] » .

فبهذه النيات يرخص فى ذكر المرض ، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام — كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة — ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى ، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء . وقد قال بعضهم : من بث لم يصبر ، وقيل فى معنى قوله ﴿فصبر جميل﴾ لاشكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام : ماالذى أذهب بصرك ؟ قال : مر الزمان وطول الأحزان ؛ فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواى إلى عبادى ، فقال : يارب أتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالا : يكتب على المريض أنينه فى مرضه ، وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل : ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه فى مرضه ،فجعل الأنين حظه منه.

وفى الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فإن حمد الله وأثنى بخير دعوا له وإن شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون[2] » وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة فى الكلام ، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم ، منهم : فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول : أشتهى أن أمرض بلا عواد ، وقال : لا أكره العلة إلا لأجل العواد . رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه ، يتلوه إن شاء الله كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق .

كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته ، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم

---

(١) حديث : مرض على قسمه رسول الله ﷺ وهو يقول : اللهم صبرنى على البلاء ، فقال « لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية » تقدم مع اختلاف .

(٢) حديث « إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا مايقول لعواده ... الحديث » تقدم .

كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر فى وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى فى بحر معرفته ، ومحترقة بنار محبته ، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

أما بعد : فان المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال . ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه . ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر فى هذا الكتاب : بيان شواهد الشرع فى المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ، ثم بيان السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول فى علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصى ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض ؛ وكيف يفرض مالا وجود له؛ وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلابد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ؛ إذ قال أبو رزين العقيلى : يارسول الله ما الايمان ؟ قال « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما[1] » وفى حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما[2] » وفى حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين[3] » وفى رواية « ومن

(١) حديث أبى رزين العقيلى : أنه قال يارسول الله ما الإيمان؟ قال « أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما » أخرجه أحمد بزيادة فى أوله . (٢) حديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » متفق عليه من حديث أنس بلفظ « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله » وذكره بزيادة . (٣) حديث « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وفى رواية « ومن نفسه » متفق عليه من حديث أنس، واللفظ لمسلم دون قوله « ومن نفسه » وقال البخارى « من والده وولده » وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى ، فقال « لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى ، فقال « الآن ياعمر » .

نفسه ، كيف وقد قال تعالى ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ﴾ الآية . وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله إياى (١) » ويروى أن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك ، فقال صلى الله عليه وسلم « استعد للفقر » فقال : إنى أحب الله تعالى ، فقال « استعد للبلاء (٢) » وعن عمر رضى الله عنه قال : نظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « انظروا الى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ماترون (٣) » .

وفى الخبر المشهور « ان ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟ فأوحى الله تعالى اليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال ياملك الموت الآن فاقبض (٤) » وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه .

وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى الى حبك واجعل حبك أحب إلى من الماء البارد (٥) » وجاء أعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولاصيام إلا أنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب (٦) » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال الحسن : من عرف ربه أحبه . ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فاذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الدارانى : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشغلون عنه بالدنيا ؟ .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف : ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال : ما الذى بلغ بكم ماأرى ؟ قالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : نحب الله عزوجل ، فقال : أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم فى الثلج فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد . وعن سرى السقطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائهم عليهم السلام فيقال ياأمة موسى وياأمة عيسى وياأمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا الى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

---

(١) حديث « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه » الحديث . أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب .

(٢) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنى أحبك ، فقال « استعد للفقر ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ « فأعد للفقر تجفافا » دون آخر الحديث وقال حسن غريب . (٣) حديث عمر قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب ابن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ... الحديث ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن .

(٤) حديث : إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه ليقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله ... الحديث ، لم أجد له أصلا .

(٥) حديث « اللهم ارزقنى حبك وحب ... الحديث » تقدم . (٦) حديث قال أعرابى يارسول الله متى الساعة ؟ قال « ما أعددت لها ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عزوجل أحبه وإذا أحبه أقبل اليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال اليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة . وقال يحيى ابن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسى مادونه فكيف لطفه ؟ وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب فبحقى عليك كن لى محبا . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ : إلهى إنى مقيم بفنائك مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتنى إليك وسربلتنى بمعرفتك وأمكنتنى من لطفك ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً تسقينى من حياضك وتهملنى فى رياضك ملازماً لأمرك ومشغوفاً بقولك ، ولما طر شاربى ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً ؟ فلى ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة إليك همهمة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف .

وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار مالا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلنشتغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ، ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى .

فأول ما ينبغى أن يتحقق ، أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الانسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحى المدرك ، ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ . فكل ما فى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً . فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ، ومعنى كونه محبوباً أن فى الطبع ميلاً إليه ، ومعنى كونه مبغوضاً أن فى الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشىء الملذ . فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقاً . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتاً . فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته .

(الأصل الثانى) أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لامحالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين فى الابصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة . أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعل قرة عينى فى الصلاة [1] » فسمى الطيب محبوباً ومعلوم أنه لا حظ للعين والسمع فيه ، بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهن إلا للبصر واللمس دون

---

(١) حديث « حبب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ... الحديث » أخرجه النسائى من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشاركه فيها البهائم الانسان ، فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس — حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب — فاذن قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه وهيهات ، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد ادراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الالهية التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما فى إدراكه لذة — كما سيأتى تفصيله — فلا ينكر اذن حب الله تعالى الا من تعد به القصور فى درجة البهائم فلم يجاوز ادراك الحواس أصلا .

(الأصل الثالث) أن الانسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه . هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته مالم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، والحق أن ذلك متصور وموجود .

فلنبين أسباب المحبة وأقسامها . وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حى : نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا الى دوام وجوده . ونفرة عن عدمه وهلاكه . لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب . وأى شىء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ؟ وأى شىء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل . لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم فى الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء . فان أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء . فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب .

وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال . والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه . والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات وكمال الوجود كما أنه ممقوت فى أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب . كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته . ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه . فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب لأنه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الاسباب . فالانسان يحب هذه الاشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله لأنه يخلفه فى الوجود بعد عدمه . فيكون فى بقاء نفسه أبداً .

نعم لو خير بين قتله وقتل ولده — وكان طبعه باقيا على اعتداله — آثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم . فان العشيرة والمال والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان . وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فاذن المحبوب الاول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام

ذلك كله ، والمكروه عنده ضد ذلك فهذا أول الأسباب.

السبب الثاني : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، وقال رسول الله ﷺ «اللهم لاتجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبي [(١)]» إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه ، وهو جبلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذى لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب ، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب.وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام . فاذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيق البالغ الذى يوثق بدوامه ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ وقد كان رسول الله ﷺ يعجبه الخضرة والماء الجارى [(٢)] والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الانسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر . فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب . وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فان ثبت أن الله جميل كان لامحالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال [(٣)] » .

(الأصل الرابع) فى بيان معنى الحسن والجمال ، اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لامعنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان ، فان الحسن الاغلب عن الخلق حسن الابصار ، وأكثر التفاتهم

---

(١) حديث « اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيحبه قلبي» رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس : من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع ، وقد تقدم. (٢) حديث ،كان يعجبه الخضرة والماء الجارى ... أخرجه أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجارى، وإسناده ضعيف .
(٣) حديث « إن الله جميل يحب الجمال » رواه مسلم فى أثناء حديث لابن مسعود .

إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن فى إدراكه لذة فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة . فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن ، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا فى الصورة ؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ومامن شيء من المدركات الا وهو منقسم الى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء ؟ فلابد من البحث عنه . وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه فنصرح بالحق ونقول : كل شيء فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ماحضر ، فالفرس الحسن هو الذى جمع كل مايليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه، والخط الحسن كل ماجمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده : فحسن كل شيء فى كماله الذى يليق به . فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس . ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الأوانى بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات والطعوم فانها لم تنفك عن ادراك الحواس لها فهى محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس .

فاعلم أن الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات إذ يقال : هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وانما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشيء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم ؛ حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق ، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه ومتبوعه. فكم من دم أريق فى نصرة أرباب المذاهب ،وليت شعرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته، ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العلم ، وهذه أمور جميلة لايدرك جمالها إلا بنور البصيرة . فأما الحواس فقاصرة عنها . وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله اذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقى ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان

الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور . وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين،وهما غير مدركين بالحس ، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة . وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله فإذن الجمال موجود فى السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس ، حتى إن الصبى المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب اليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة . فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لا تدرك بالحواس ؟ بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار. فإذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن اليه ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لا ينتهى قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب ، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة :فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولايلتذ بها ولا يحبها ولا يميل اليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة ؟ فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب : إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم « فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف [١]» وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لانه أيضا من عجائب أسباب الحب فاذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه . وحبه من أحسن اليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه . وحبه من كان محسنا فى نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه . وحبه لكل ماهو جميل فى ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة . وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن . فلو اجتمعت هذه الاسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لا محالة ،كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا لا محالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها ، فان كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات . فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى.

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى ، وحب الرسول

---

(١) حديث « فما تعارف منها ائتلف » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم فى آدب الصحبة.

صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التى ذكرناها، وتبين أنها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة فى حق الله تعالى، ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له. ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا، وبان أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى.

فأما السبب الأول: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى، ولا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى بالإيجاد، وهو هالك عقب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله بالتكميل لخلقه. وبالجملة فليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به. فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها.

ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى، من عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه؟ ومعلوم أن المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل، وكل ما فى الإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذا تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الابصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى، ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق، فاذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى، إن عرف ذلك كذلك، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثانى: وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته

وقمع أعدائه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لامحالة عنده . وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الإحسان منه ، وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الاحسان إليك ؟ ولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها احسان الله إليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فان اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فانه لا يتصور الإحسان من الانسان إلا إلى نفسه ، أما الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له فى البذل إما آجل وهو الثواب وإما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الانسان لا يلقى ماله فى البحر اذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد انسان الا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا ألبتة . فاذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين :

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير فانه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك .

والثانى : أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالاحسان فى الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل ، وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض . فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه حق غير محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان . فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف الا الله تعالى . اذ الإحسان

من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده ، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث : هو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضا موجود فى الطباع . فانه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ؛ فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثانى وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فان الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق ، أولا : بإيجادهم ، وثانيا : بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم ، وثالثا : بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة ، ورابعا : بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

ومثال الضرورى من الأعضاء : الرأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه : العين واليد والرجل . ومثال الزينة : استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوز العينين إلى غير ذلك مما لوفات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة .

ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الإنسان : الماء والغذاء . ومثال الحاجة : الدواء واللحم والفواكه . ومثال المزايا والزوائد : خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة .

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فاذن هو المحسن ، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ فانه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال : فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لايعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لايدركه . نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ماظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هى مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها ، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل

حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا . وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك مايقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فاذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور :

(أحدها) علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه .

(والثاني) قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة .

(والثالث) تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى :

وأما العلم : فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو في نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالاضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الاجهل ويترك الاعلم وإن كان الاجهل لايخلو عن علم ماتتقاضاه معيشته . والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الاعلم يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهي أيضا كمال والعجز نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه لذيذ ، حتى إن الانسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهده ، ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به فانه نوع كمال، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الاشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره - مامنتهى قدرته ؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور وهو مع ذلك لايملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا ، بل لايقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عدما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلاقدرة له على ذرة منها . وماهو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد

قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الارض ذى القرنين إذ قال ﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه فى جزء من الارض ، والارض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وما عليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فان كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة ، والانبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والاكرام .

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس فى المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخراً لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب . وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره .

فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالإضافة الى ماهو أشد منه نقصانا ، كما أن للفرس كمالا بالإضافة الى الحمار وللإنسان كمالا بالإضافة الى الفرس وأصل النقص شامل للكل وانما يتفاوتون فى درجات النقصان .

فاذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له ، الفرد الذى لاضد له ، الصمد الذى لامنازع له الغنى الذى لاحاجة له ، القادر الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العلم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلى الذى لا أول لوجوده ، الأبدى الذى لا آخر لبقائه ، الضرورى الوجود الذى لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت . ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال . الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول وتخرس فى وصفه الألسنة . الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك . أنت كما أثنيت على نفسك[1] » وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك . سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا ؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » تقدم .

والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أن ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه ؟ فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ؛ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها . وفى الزبور : من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع . ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا : نخاف النار ونرجو الجنة فقال لهم : مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا : نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال : أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم . وقال أبو حازم : إنى لأستحى أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفى الخبر « لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل ، ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل [1] » .

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لأن شبه الشيء منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك يرى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح . وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه . وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي فى معنى الصبا ، وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى أن الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير مناسبة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فالتعارف هو التناسب . والتناكر هو التباين . هذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة فى الصور والاشكال بل الى معان باطنة ، يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك .

فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل ، الى غير ذلك من مكارم الشريعة . فكل ذلك يقرب الى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات .

وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى فهى التى يومىء اليها قوله تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ﴾ اذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾ ولذا أسجد له ملائكته . ويشير اليه قوله تعالى ﴿ إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ اذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز وله صلى الله

---

(١) حديث « يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل » لم أجد له أصلا .

عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته (١) » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام « مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده (٢) » وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به (٣) » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم : أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا : هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون : اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون . ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لازلت أنزل من ودادك منزلا تتحير الألباب عنـــد نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك . وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا . فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لا فى أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه فى السبب ، والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق ـ إذ الأصل المحبة ـ ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للادراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثاً بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » . (٢) حديث قوله تعالى « مرضت فلم تعدنى، فقال: وكيف ذلك! قال، مرض فلان ... الحديث » تقدم. (٣) حديث قوله تعالى « لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم.

نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى فان الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، كادراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التى فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها .

وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به ، وحتى أن الانسان لايكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الاشياء الحقيرة . فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لايطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به .

فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فان اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فان كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فان كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فان كنت لاتشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها واشهاها ، وأحرى ماتستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر مايعظم به الفرح والارتياح والاستبشار .

وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وان ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره فى مملكته — من منتهى عرشه الى تخوم الارضين — فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة اقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة . وهى مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى

اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم انها ألذ عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل : فيعلم به أن لذة الغلبة فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة ، فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من الطعومات الطيبة. نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبى، أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وأنه أعدلهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة اليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها بكبرها ، وانما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والأرض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ، اذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، اذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى ، وانما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعدمها فلا ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة فان للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفى الخبر « ان الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد الى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء [1] » .

فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة الى أن يتحرك اليها بجسمه وشخصه . فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا . الا أنهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم

---

(١) حديث « إن الشهيد يتمنى أن يرد فى الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى ... الحديث» متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم ، وليس فيه « وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء ... الحديث » .

وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم ، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هـذه اللذة لاتكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة ، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لاقلب له لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لايمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لأنه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف . ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها ، فإنهـا أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية ، فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشىء اليسير فانه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها .

ولهذا قال أبو سليمان الدارانى : إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنى يا أبا محفوظ أى شىء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت فقال : ذكر الموت ، فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ، فقال: وأى شىء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة فقال: وأى شىء هذا؟ ان ملكا هذا كله بيده ان أحببته أنساك جميع ذلك وان كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفى أخبار عيسى عليه السلام : اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث فى النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ! فقال : تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان . قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النظر اليه . وعن على بن الموفق قال : رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ، ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لايطرف ، فقلت لرضوان : من هذا ؟ قال : معروف الكرخى عبد الله لاخوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حباً له فأباحه النظر اليه الى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين : بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة ايمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالاجير السوء . بل عبدته حباله وشوقا إليه . وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[1]» وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إنى أقول يارب يا ألله فأجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادى جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة؛ أى يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا. فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط، فهى قرة العين التى لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها، فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية، وليت شعر من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل؟ وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق فى لذتهم ما نذكره: وهو أن الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب. ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها فى الوصول اليها، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر، وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها كما قال تعالى ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر﴾ الآية. ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى، وهذا هو الأخير، إذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز، وحب النساء والزينة فى سن البلوغ. وحب الرياسة بعد العشرين. وحب العلوم بقرب الأربعين. وهى الغاية العليا. وكما ان الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون ﴿إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون﴾.

---

(١) حديث قال ﷺ حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت... الحديث» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة.

بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل فى الخيال ؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات. وإلى مالا يدخل فى الخيال . كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ومن رأى إنسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضره فى خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما . ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة . وإنما الإفتراق بمزيد الوضوح والكشف . فان صوره المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا . وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء ؛ فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الإنكشاف . فاذن الخيال أول الإدراك والرؤية هو الإستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف. وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه فى العين . بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية .

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم أن المعلومات التى لا تتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : (إحداهما) أولى (والثانية) استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئى . فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية. وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف . وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى . ولابد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية . وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل بمجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وماغلب عليها من الصفات البشرية .فانها لاتنتهى إلى المشاهده واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ﴿ لن ترانى ﴾ وقال تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أى فى الدنيا . والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج[1]. فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا . غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة . فمنها ماتراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل . وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ــ نعوذ بالله من ذلك ــ ومنها ما لم ينته إلى حد الدين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث هو متدنس به . ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها فى حق المؤمنين ــ كما وردت به الأخبار ــ سبعة آلاف سنة[2] ولن ترتحل نفس عن

---

(١) حديث : أنه ﷺ مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح ، هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ، ففى الصحيحين : أنها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبى ذر : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال « نورانى أراه » وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبى ﷺ ، وحديث أبى ذر قال فيه أحمد : مازلت له منكراً . وقال ابن خزيمة : فى القلب من صحة إسناده شىء ، مع أن فى رواية لأحمد فى حديث أبى ذر «رأيته نورا إنى أراه» ورجال إسنادها رجال الصحيح . (٢) حديث «إن أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة » أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة « إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى... الحديث» وفيه «وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة » وإسناده ضعيف .

هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما ، وإن قلت : ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة — وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه احدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ؛ ووقت القيامة مجهول — فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لايرهق وجهه غبرة ولا قترة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة إلى ما تخيله . وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق ، بشرط أن لايفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيلى متصور مخصوص بجهة ومكان ، فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فتراه فى الآخرة كذلك . بل أقول : المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولايكون بين المشاهدة فى الآخرة ، والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية . فاذا لم يكن فى معرفة الله تعالى وإثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لأنها هى بعينها لا تفترق منها إلا فى زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ، ومن لانواه فى أرضه كيف يحصل له نخل ؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع ؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف قال النبى عليه الصلاة والسلام « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة [1] » فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة مايجده أبو بكر ، بل لايجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به ، وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة : ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار . فبينت أنه ليس فى قلبها التفات إلى الجنة بل رب الجنة .

وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى

---

(١) حديث «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة» أخرجه ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الإسناد وفى الميزان للذهبى أن الدارقطنى رواه عن الحاملى عن على بن عبدة وقال الدارقطنى إن على بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة .

الآخره إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ماعاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به ، كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها مايشتهى إلا لقاء الله تعالى فلا لذة فى غيره ، بل ربما يتأذى به . فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان .

فان قلت : فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كان أضعافها ، لان لذه المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها ؟ فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ؟ وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية الى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع .

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول : لذه النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب (أحدها) كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فان اللذة فى النظر إلى الاجمل أكمل لا محالة . (والثانى) كمال قوة الحب والشهوة والعشق ؛ فليس التلذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه . (والثالث) كمال الإدراك ، فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بادراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . (والرابع) اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ؛ فليس التلذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات .

فقدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه ، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ؛ فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها . فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن ، وضعف الشهوة والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها الى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبى عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته . ولكن يكون ذلك

كالبرق الخاطف وقلما يدوم ، بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت وإنما العيش عيش الآخرة ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ﴾ وكل من انتهى إلى هـــذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة فإن المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال ، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم فى الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولاحصاد إلا فى الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله [١] » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع من علائق الدنيا والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زمانا لا محالة ، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة بالغا إلى منتهى مايسر له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة .

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت ، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة . والعلم والمعرفة أساس كل سعادة . فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ، ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ، ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان ، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان .

فان قلت : فهذه الرؤية محلها القلب أو العين فى الآخرة ؟ فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة . ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو جبهته . بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها . فان العين محل وظرف لا نظر اليه ولا حكم له . والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين . هذا فى حكم الجواز . فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع [٢] والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين ليكون لفظ الرؤية والنظر . وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع يجرى على ظاهره . إذ لايجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى . فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه . وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من

---

(١) حديث «أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله» أخرجه إبراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبى ﷺ قال «السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله» ووالد المطلب عبدالله ابن حوطب مختلف فى صحبته ولأحمد من حديث جابر « إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة» والترمذى من حديث أبى بكرة: أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير؟ قال «من طال عمره وحسن عمله» قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

(٢) حديث «رؤية الله فى الآخرة حقيقة» متفق عليه من حديث أبى هريرة : أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ... الحديث » .

غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع ! إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة ، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لاينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين (أحدهما) قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لايتسع للخل مثلا مالم يخرج منه المـاء ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ وكان الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه . وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من المـاء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله » أى لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به . وكل محب فهو مقيد بمـا يحبه . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « أبغض إله عبد فى الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة [1] » معنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب . فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الأهل والمـال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى ان المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله . ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره . ولا يطيب قلب امرأته الا ويضيق به قلب ضرتها . فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب . وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء . فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله . وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار . ثم يتشعب منه الخوف والرجاء . ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما . ثم ينجر ذلك الى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط . حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه . فكل ذلك مقدمات تطهر القلب وهو أحد ركنى المحبة . واليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور شطر الإيمان [2] » كما ذكرناه فى أول كتاب الطهارة .

(السبب الثانى) لقوة المحبة : قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب . وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر فى الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى. ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال ﴿ ضرب الله مثلا كلمة

---

(١) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » تقدم .

(٢) حديث « الطهور شطر الإيمان » أخرجه مسلم من حديث أبى مالك الأشعرى وقد تقدم .

طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ﴾ وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ أى المعرفة ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم وإنما العمل الصالح كله فى تطهير القلب أولا من الدنيا ثم إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة ، وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأول والآخر ، وإنما الأول علم المعاملة وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافى والذكر الدائم والجد البالغ فى الطلب والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته .

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى (الأقوياء) ويكون أول معرفتهم بالله تعالى ، ثم به يعرفون غيره . وإلى (الضعفاء) ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل . وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ وبقوله تعالى ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى . وإلى الثانى الاشارة بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ الآية وبقوله عز وجل ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ وبقوله تعالى ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثر وهو الأوسع على السالكين ؛ واليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ؟ .

فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة فى إيراده فى الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الافهام ؛ وإنما قصرت الافهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية . إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم المكاشفة ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول :

أسهل الطريقين النظر الى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى ، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر فى عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها — أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات — فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هى مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ،فانظر إلى صغر الأرض بالاضافة اليها. ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى

فلكها الذى هى مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه وهى فى السماء الرابعة ، وهى صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرسى كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك . فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالاضافة اليها ! بل ما أصغر الأرض بالاضافة إلى البحار! فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض[١] » ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة الى كل الأرض، ثم انظر الى الآدمى المخلوق من التراب — الذى هو جزء من الأرض والى سائر الحيوانات والى صغره بالإضافة الى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل ومايجرى مجراه ، فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ! اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ، ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ماركب فى سائر الحيوانات ، هذا فى شكله وصفاته ، ثم انظر كيف الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذائه وعرفه أن غذائه دم الإنسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران الى الانسان ! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ! وكيف هداه الى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها ! ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ! وكيف علمه المص والتجرع للدم ! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق وينتهى الى باطنه وينتشر فى سائر أجزائه ويغذيه ! ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعيدة منه فيترك المص ويهرب ! ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه .

وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير — لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار — خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار . وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف إبصارها تراها تتهافت على السراج لأن بصره ضعيف فهى تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السواد فيعود اليه مرة أخرى إلى أن يحترق . ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمى فى الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولايدرى أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها وينقبض بها ويهلك

---

(١) حديث « الأرض فى البحر كالأسطبل فى الأرض » لم أجد له أصلا .

هلاكا مؤبدا ، فليت كان جهل الآدمى كجهل الفراش ؛ فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال والآدمى يبقى فى النار أبد الآباد أو مدة مديدة ، ولذلك كان ينادى رسول الله ﷺ ويقول «إنى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش[1]» فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر الحيوانات ،وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته ، فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى .

ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره ، فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ، ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها الواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها — حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة — لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتا من الشمع «واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ،فلا تبنى بيتا مستديراً ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا ، لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ،وهو أن أوسع الأشكال وأحواها : المستديرة وما يقرب منها ،فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ،ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل فى الاشكال ذوات الزوايا يقرب فى الإحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ،وهذه خاصية هذا الشكل ،فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليهنأ بعيشه ،فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه !

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فان القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والانبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، كل ماعرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى ، فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك ، واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات

---

(١) حديث «إنى ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش» متفق عليه من حديث أبى هريرة «مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» لفظ مسلم واقتصر البخارى على أوله ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدى » .

والأسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ؛ وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ الآية. فان كنت لا تفهم الأمور الا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول : أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى — رحمه الله — الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامى يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحبه له أشد . فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال اليه قلبه . فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه . وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه . فاذا سمع من غرائب شعره ماعظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا . وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدرى ما فى التصنيف فيكون له معرفة مجملة ويكون له بحسبه ميل مجمل ، والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة . لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه . والعامى يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه. حتى يرى فى البعوض — مثلا — من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا . وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله . وازداد به معرفة وله حبا . وبحر هذه المعرفة — أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى — بحر لا ساحل له . فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لا حصر له ، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغيير الإحسان،فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه . فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة . والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الامر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال : وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات ، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها لا نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فان هذه الصفات

لاتحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة — وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع مافى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهده بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته . والموجودات المدركة لاحضر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد إلا شاهد واحد وهو ماأحسسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا مالا يتصور فى الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ؟ إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لهـا ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنا نعلم أنها لم تألف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان (أحدهما) خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لايخفى مثاله (والآخر) ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لالخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره ، فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره .

فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فان الأشياء تستبان بأضدادها وماعم وجوده حتى انه لاضدله عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر . ومثاله : نور الشمس المشرق على الارض ، فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لاغروب لها لكنا نظن أنه لاهيئة فى الأجسام إلا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرهما . فانا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد وفى الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ،فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور . هذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك

والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ؛ يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله . وأفعاله أثر من آثار قدرته فهى تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها . ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر فى شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث وأثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف . وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد لله ، فهذا الذى يقال فيه إنه فى التوحيد وإنه فنى عن نفسه . وإليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن . فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم . فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم اليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال «سبحان الله» وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينيه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها .

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة ، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة . فهذا سر هذا الأمر فليحقق . ولذلك قيل :

فقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق الى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا اليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيكفى فى إثباته ما سبق فى إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق اليه فى غيبته

لامحالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب ، ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنقول مثلا : من غاب عنه معشوقه وبقى فى قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية ، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ، وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه (والثانى) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته ، وإن لم يرها قط ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط .

والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية — وإن كان فى غاية الوضوح — فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهى مكدرات للمعارف ومنغصات ، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعى الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما (الثانى) أن الأمور الإلهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة . والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال مشتاقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها واضحة ولا معرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات يوم : يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضر بى القلق ، قال : فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى ما أقول، فقال :قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك . فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة.

وأما الشوق الثانى فيشبه : أن لا يكون له نهاية لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له . ولا يزال العبد عالما بأنه بقى من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه ، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصول مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد ذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية الى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد

وتسكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل . وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا ، فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام . وقوله تعالى ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور فى غير مااستنار فى الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال، والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ـ قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به ، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى ، فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقائك [1] » وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ـ يعنى فى التوراة ـ فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى وانى الى لقائهم لأشد شوقا . قال : ومكتوب الى جانبها : من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا . وفى أخبار داود عليه السلام : ان الله تعالى قال ياداود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ، ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى ، من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى : فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها ، وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع الى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى .

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى الى بعض الصديقين ان لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عنهم مقتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنون الى غروب الشمس كما يحن الطائر الى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بإنعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى ، أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت عليه يعلم أحد ماأريد أن أعطيه ؟

وفى أخبار دواد عليه السلام : أن الله تعالى أوحى اليه : ياداود الى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق الى ،

---

(١) حديث : أنه كان يقول فى دعائه «اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ..الحديث» أخرجه أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

قال : يارب من المشتاقون إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلى خرقا ينظرون إلى ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلى وأباهى بكم أهل الشوق إلى فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض ، ياداود إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى يزدادون فى كل يوم شوقا ، قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : ياداود ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفسا فهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول ، فإذا أتيتهم فأقرئهم منى السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم الا تسألون حاجة فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم يقرئكم السلام ويقول لكم الا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة ؟ قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا .

وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك .

وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لاحاجة لنا فى شىء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك وأتم بذلك المنة علينا .

وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا عليه بجودك . وقال الآخر : من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترىء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك ؛ لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك .

وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك ، وفرغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترىء العبد على سيده ؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك - فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات .

وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لاحاجة لنا فى شىء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبى عن عدم الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء دونك . فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فإنى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود : يارب بم هذا منك ؟ قال : بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم الى وإن هذا منزل لاينال إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشىء من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر إلى نظر الناظر

بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي ، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها . وان عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري ، فاذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بي ، يستعجلني القوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري ولا أرى غيره ، فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي وأهل سماواتي يزداد خوفا وعبادة . وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس ولأشفين صدره من النظر الي حتى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضا : قل لعبادي المتوجهين الى محبتي ما ضركم اذا احتجبت على خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الى بعيون قلوبكم ، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذا بسطت ديني لكم ، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي . وفي أخبار داود أيضا : إن الله تعالى أوحى اليه تزعم أنك تحبني ، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب . ياداود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألني وأعينك على الشدائد وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وارادته القاء كنفه بين يدي وأنه لاغنى به غني .

فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك فاني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته اليها ، أضف الأشياء الي لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تحد لمعرفتي حدا فليس لها غاية ، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدا ، ثم أعلم بني اسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب ، فلتعظم رغبتهم وارادتهم عندي أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر الي ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التي في رأسك الى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها فاني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف ، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها . ياداود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا ، ومن كتبته عندي جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين . يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محبتي لا تؤيس عبادي من رحمتي ، اقطع شهوتك لي فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقي ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص مناجاتي ، وانما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أني مايصل اليهم أن أحجب عقولهم عني فاني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها . يا داود لا تجعل بيني وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي ، وأولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين ، استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم ، وإياك والتجربة في الافطار فان محبتي للصوم ادمانه . ياداود تحبب الي لمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنظر اليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به وإني أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي .

أوحى الله تعالى إلى داود : ياداود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي . ياداود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين على

ياداود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجل ما يكون عندى إذا رجع إلى ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلابد من معرفة معنى ذلك ، ولنقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وقد روى أنس عن النبى ﷺ أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾[1] » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضى بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ وقال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب[2] » وقال رسول الله ﷺ « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله[3] » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به[4] » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ماشئت فقد غفرت لك . وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر.

وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشىء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر .

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ، بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى إن اسم « الوجود » الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع . وإنما الاستواء فى إطلاق الإسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما ، لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه ، وهذا التباعد فى سائر الأسامى أظهر كالعلم والإرادة

---

(١) حديث أنس « إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود وتقدم فى التوبة . (٢) حديث « إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ... الحديث » أخرجه الحاكم وصحح إسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد حسن دون قوله « ومن أكثر ... إلى آخره » ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة. (٤) حديث « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

والقدرة وغيرها فكل ذلك لايشبه فيه الخالق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامى أولا للخلق فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها مايوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبوسعيد الميهنى رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فقال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه .

على معنى أنه الكل وأن ليس فى الوجود غيره ، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناها إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحب أزلى مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب .

وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه .

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره فى رأيه أو ليهيىء أسباب طعامه وشرابه ، فيقال إن الملك يحبه ، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا ، فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال : قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال : قد توصل وحبب نفسه إلى الملك .

فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول . وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فان الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله فى العبد من صفات البهائم والسباع والشياطين ؛ والتخلق بمكارم الأخلاق التى هى الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال .

ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر ، بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا

فى التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغى أن يفهم ترقى العبد فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطه بحقائق الأمور وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك فى حق الله محال ، فإنه لانهاية لكماله وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود فلا مطمع له فى المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لانهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال .

فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى مافاته ،وإذا أدرك منه شيئا ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله العبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟

فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال ﷺ «إذا أحب الله عبدا ابتلاه وإذا أحبه الحب البالغ اقتناه» قيل : وما اقتناه ؟ قال « لم يترك له أهلا ولا مالا[١] » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره قيل لعيسى عليه السلام : لم لا تشترى حمارا فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر « إذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه[٢] » وقال بعض العلماء : إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشيء من المحبة ، فقال : يابنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال : لا ، قال : فلا تطمع فى المحبة فانه لايعطيها عبدا حتى يبلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه[٣] » وقد قال « إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه[٤] » فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته . فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فانها أيضا علامات حب الله للعبد

القول فى علامات محبة العبد لله تعالى

أعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان

---

(١) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم .

(٢) حديث «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه ... الحديث» ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ولم يخرجه ولده فى مسنده . (٣) حديث «إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه ... الحديث» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ «إذا أراد الله بعبد خيراً» . (٤) حديث «إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف .

وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح . وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار . وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام . فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لاوصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محبا للموت غير فار منه ، فان المحب لايثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه(١) » وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيل صفا ﴾ وقال عزوجل ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء . فان حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه . ويروى عن إسحاق بن سعد بن أبى وقاص قال : حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا تدعوا الله ؟ فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله ابن جحش فقال : يارب انى أقسمت عليك اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم ياخذنى فيجدع أنفى وأذنى ويبقر بطنى ، فاذا لقيتك غدا قلت ياعبد الله من جدع أنفك وأذنك ، فأقول فيك يارب وفى رسولك ، فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط(٢) قال سعيد بن المسيب : أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان : لايكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد أتحب الموت؟ فكأنه توقف فقال : لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى ﴿ فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ فقال الرجل : فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايتمنين أحدكم الموت(٣) » فقال : انما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فان قلت : من لايحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافى كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ، ولكن لايبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة مع حب الله تعالى ضعيفة ، فان الناس متفاوتون فى الحب . ويدل على التفاوت ماروى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا : أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟ فقال : والله لقد أنكحته إياها

---

(١) حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» متفق عليه من حديث أبى هريرة وعائشة. (٢) حديث اسحق بن سعد ابن أبى وقاص قال : حدثنى أبى أن عبدالله بن جحش قال له يوم أحد: ألا ندعوالله ؟ فخلوا فى ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يارب إنى أقسم عليك إذا لقيت العدو غداً فلقنى رجلا شديد حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ويجدع أنفى وأذنى ... الحديث » أخرجه الطبرانى ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية وإسناده جيد . (٣) حديث « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

وإنى لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا : وكيف وهى أختك وهو مولاك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم [1] » فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .

وأما السبب الثانى للكراهة : فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لاتنافى كمال الحب أصلا ، وعلامته الدؤب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على مايحبه فى ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه . وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال ﴿ يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه مايهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى　　فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت : يايوسف انما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما اذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وماأريد به بدلا ، حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين . فقالت : أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا اليه فطاعة لأمر الله تعالى ، فعندها سكنت اليه . فإذن من أحب الله لايعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه　　هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته　　إن المحب لمن يحب مطيع

وفى هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته　　فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسى

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا . وإنما الحبيب من اجتنب المناهى . وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله الى هواه وشهواته .

---

(١) حديث أبى حذيفة بن عتبة : أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك : وفيه . فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم» لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر «أن سالما يحب الله حقا من قلبه» وفى رواية له « إن سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ماعصاه» وفيه عبد الله بن لهيعة .

ولذلك قال تعالى ﴿ والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾ .

فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره ؟ وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه . ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة . ويدل عليه ماروى أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل قليل فيحده فى معصية يرتكبها إلى أن أتى به يوما فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم «لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله (١)» فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة . نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فاذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى . وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أتحب الله تعالى ؟ فاسكت ، فانك إن قلت : لا ، كفرت وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر مايتعلق به ، فعلامة حب الله ، حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فان من يحب إنسانا يحب كلب محلته . فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل مايكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لايحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الأخوة والصحبة ولذلك قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لله تعالى (٢)» وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فانما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة ، قال : فسمعت قائلا يقول فى المنام ، إن كنت تزعم أنك تحبنى فلم جفوت كتابى أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابى قال : فانتبهت وقد أشرب فى قلبى محبة القرآن فعاودت إلى حالى . وقال ابن مسعود : لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل ـ رحمه الله تعالى عليه ـ علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها الا زادا وبلغة إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟

---

(١) حديث : أتى بنعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال : ما أكثر ما يؤتى به ؟ فقال « لاتلعنه فإنه يحب الله ورسوله» أخرجه البخارى وقدتقدم . (٢) حديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ... الحديث» تقدم .

فقال : من الأنس بالله . وفى أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلق ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين رجل استبطأ ثوابى فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ ـ وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ـ أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : ان برخا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا ،قال :يارب وما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحبنى لم يسكن الى شيء .

وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى اليها ويصفر عندها ، فقال: لو حولت مسجدى الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال : ففعل ،فأوحى الله تعالى الى نبى ذلك الزمان قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا . فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة ، كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به .

ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا مالم تكرر على سمعه مرارا ، مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه . فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قال : هشت اليه واستأنست به . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر : المحب لا يسأم من حديث حبيبه . وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتى اذا جنه الليل نام عنى أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبنى . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ، يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين : ان لله عبادا أحبوه واطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما ،وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم . وحق المحب اذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ، ويسأله ويقول : رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه . ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيئا الا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له الا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة ،ثم تنعمت به

عشرين سنة . وقال الجنيد علامة المحب دوام النشاط والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله لو اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل . فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعى في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه . ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به ، فكذا يكون حب الله تعالى ، فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ماهو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ ما كان سبب حالك هذه في المحبة ؟ فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عنى بوجهك كله ؛ فقال له المحبوب : إن كنت تحبنى فأيش تنفق على ، قال : ياسيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، وبه وصف الله أولياءه إذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره ، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالى قل الناس أو كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فان الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد اليه ، فان نام أخذه معه في ثيابه . فاذا انتبه عاد وتمسك به . ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه . فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه ، إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال الله تعالى في الأبرار ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ ثم قال ﴿ يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ فاذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ ثم قال ﴿ يشهده المقربون ﴾ فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون ، وكما أن الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم في الآخرة ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وكما قال تعالى ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب . وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب في حبه وأعماله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ـ وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ إن الله لا يظلم مثقال وإن تك حسنة يضاعفها ـ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور ، مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان ؛ فهناك تنتهى لذته في الآخرة لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ماتشتهيه نفسه وتلذ عينه . ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل ﴿ في مقعد

صدق عند مليك مقتدر ﴾ فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان . والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أقوام آخرون ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب[١] » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ كما قال تعالى ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ .

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد المحبين[٢] إذ سمع قوله تعالى ﴿ ألا بعدا لثمود — ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ، ولا يحن الى القرب من ألف البعد ، ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فانا قدمنا أن درجات القرب لانهاية لها وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربا ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون[٣] » وكذلك قال ﷺ « إنه ليغان على قلبى فى اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة[٤] » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة الى القدم الثانى ، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق والالتفات الى غير المحبوب ، كما روى أن الله تعالى يقول : ان أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتى أن أسلبه لذيذ مناجاتى . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون الى ماظهر من مبادىء اللطف ، وذلك هو المكر الخفى الذى لايقدر على الاحتراز منه الا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت مالا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم بن أدهم قائلا لمقول وهو فى سياحة كان على الجبل .

كل شىء منك مغفو ر سوى الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا ت فهب لنا مافات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت .

ثم خوف السلو عنه فإن المحب يلازمه الشوق والطلب والحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى الا بلطف جديد فإن تسلى عن ذلك سبب وقوفه أو وقوفه أو سبب رجعته . والسلو يدخل عليه من حيث لايشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لايشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا

(١) حديث « أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الألباب » أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول ، وقد تقدم ، والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ولعله أدرج فيه .

(٢) حديث « شيبتنى هود » أخرجه الترمذى وقد تقدم غير مرة . (٣) حديث « من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت : يارسول الله أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد . (٤) حديث « إنه ليغان على قلبى » متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهى أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء .وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان .

ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها . وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت — نعوذ بالله منه — وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ،فإن من أحب شيئا خاف لامحالة فقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ،ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه ، فالمحب لا يخلو عن خوف والخائف لايخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو فى مقام المحبة ويعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب .

فقد روى فى بعض الأخبار : أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله وولِه قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لاينتفع بشىء ولا ينتفع به شىء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال : يارب أنقصه من الذرة بعضها، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة ،وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئا من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا ، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا . فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك ياأحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته ! فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد ... عن الأحرار منهم والعبيد
غريب الوصف ذو علم غريب ... كأن فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت ... عن الأبصار الا للشهيد
يرى الأعياد فى الأوقات تجرى ... له فى كل يوم الف عيد
وللأحباب أفراح بعيد ... ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها الى أسرار أحوال العارفين وان كان ذلك لا يجوز إظهاره . وهى هذه الأبيات :

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم ... فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه ... تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى ... ومصدرهم عنها لما هو أكمل

تروح بعز مفرد من صفاته وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ماتدق صفاته وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به مايصونه وأبذل منه ماأرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم وأمنع ومنه ماأرى المنع يفضل
على أن للرحمن سراً يصونه إلى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شىء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسرارا وحكما ، ولا منتهى لحكمته كما لاغاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا . نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول :

وقالوا : قريب ، قلت : ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لوكان فى حجرى ؟
فمالى منـه غير ذكر بخـاطر يهيج نار الحب والشوق فى صدرى !

والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدى الدمع أسراره ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره فى جفنه كيف يكتم ؟

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . وكأنه أراد : من يكثر التعريض به فى كل شىء ويظهر التصنع بذكره عندكل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه — ممن كان يذكر المحبة — فرآه مبتلى ببلاء فقال : لا يحبه من وجد ألم ضره ! فقال الرجل : لكنى أقول لايحبه من لم يتنعم بضره ، فقال ذو النون : ولكنى أقول : لايحبه من شهر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا . وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب

وقادح فيه ، كما ورد فى الإنجيل : إذا تصدقت فتصدق بحيث لاتعلم شمالك ما صنعت يمينك . فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية ، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال : يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين ! فهذا الذى رأيته من مجانينهم . ومما يكره : التظاهر بالحب ، بسبب أن المحب إن كان عارفا - وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون - لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئاً ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها : فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شىء ، فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره ، فقال : فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم .

فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ، كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى : أراه بول عاشق ! قال الجنيد : فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم ثم قال : قاتله الله ما أبصره ! قلت : ياأستاذ وتبين المحبة فى البول ؟ قال نعم . وقد قال السرى مرة : لو شئت أقول ؛ ماأيبس جلدى على عظمى ولا سل جسمى إلا حبه ! ثم غشى عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .

ومنها : الأنس والرضا - كما سيأتى -

وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق . نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ، ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ، ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه .وعدو الله إبليس - وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل - فيظن أنه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال : يادوست - أى ياحبيب - فقيل له : قد لايكون حبيبا فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا ، فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس . وقد

قال أبو تراب النخشبي ـ في علامات المحبة ـ أبياتا :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ... ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه ... وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة ... والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه ... طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما ... والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما ... لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا ... متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا ... في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه ... جوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا ... نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى ... من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا ... أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما ... كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا ... بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى ... والقلب محزون كقلب الثاكل

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد ؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا . وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف .

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، كما حكي أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كل

ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ماسواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه : يامن آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه ، وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لى مشتاقا وبى مستأنسا ومن سواى مستوحشا . وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة؟ قالت : بتركى مالا يعنينى وأنسى بمن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : ياراهب لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : ياهذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك ، الوحدة رأس العبادة ، فقلت: يا راهب ما أقل ما تجده فى الوحدة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم ، قلت : يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم فصارهما واحداً فى الطاعة . وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ؟ عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك ؟ .

فإن قلت : فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال على كرم الله وجهه فى وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهده .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب . ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا ، وقال : ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور . وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل مايدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا الى قشره يظن أن الجوز خشب كله ، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لامحالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

الأنس بالله لايحويه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة لله عمال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر .

ومثاله : مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل ؛

بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسق لهم فى سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ويأمنون مكرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود ، فى شملة قدعقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عزوجل فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال فى كلامه : ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك؟ وما الذى بدالك! أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفاراً قبل خلق الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟ فقال : فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال: فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى ! فهم موسى السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه: أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات .

وعن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخص ، قال: فأتى بشيخ فقال : ياشيخ ما بال خصك لم يحترق؟ قال : إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم ، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم [(١)] » قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار . فقال له أمير البصرة : انظر لا تحرق بالنار ، فقال: إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار ، قال : فاعزم على النار أن تطفأ ، قال : فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، قال : فظهر حماره فى الوقت ومر أبو حفص رحمه الله .

فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة : لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك . وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم ... والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له ... ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامها ، ففى القرآن تنبيهات على هذا المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا اليها بعين الاعتبار ، فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الأسماء .

فأول القصص : قصة آدم عليه السلام وإبليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأبلس عن رحمته ، وقيل إنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ .

---

(١) حديث الحسن عن أبى موسى «يكون فى أمتى قوم شعثة رءوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرهم » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الإعراض عن عبد والإقبال على عبد ، وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ وقال فى الآخر ﴿ أمامن استغنى فأنت له تصدى ﴾ وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعراض عنهم ﴾ حتى قال ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ﴾.

فكذلك الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ﴿ إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وقوله فى التعليل والاعتذار لما قيل له ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ فقال ﴿ ولهم على ذنب ﴾ وقوله ﴿ إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ﴾ ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن فى بطن الحوت — فى ظلمات ثلاث — ونودى عليه إلى يوم القيامة ﴿ لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ . قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقال تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقد قال ﴿ منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال ﴿ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال ﴿ وسلام عليه ﴾ .

وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء : قد عددت من أول قوله تعالى ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاوأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع — فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل محى من ديوان النبوة ؛ وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك : وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه . فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام . يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين إلى كم يعصينى ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده ، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيبا من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال : إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب على وكيف أستعصم ؟ إن لم تعصمنى لأعودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا انا استقبل التوبة وقد تبت عليك وانا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه .

وفى الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلاك كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك قد أهلكت فى دونه أمة من الأمم . فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ماسبقت به المشيئة الأزلية .

وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله فى عباده الذين خلوا من قبل ، فما فى القرآن شىء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ وتارة يتعرف اليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعباد إرم ذات العماد ـ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهى : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده . واشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال « من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن (١) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحداً فى ثلاثة أمور ، لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ لم يلد ﴾ ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه . ودل عليه قوله ﴿ ولم يولد ﴾ ولا يكون فى درجته وإن لم أصلا له ولا فرعا من هو مثله . ودل عليه قوله ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ويجمع جميع ذلك قوله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وجملته تفصيل قول « لا إله إلا الله » فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار فى القرآن ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه: نوروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين ، وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه من كلام جبار قاهر مليك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة فى طى القصص والأخبار ، فكن حريصا على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ماتستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه . فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول فى معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد فى فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه فى الدين ، فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا : إن أمكن الرضا بكل شىء لأنه فعل الله فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى . ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل (٢) » فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ،

---

(١) حديث «من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن» أخرجه أحمد من حديث أبى بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخارى من حديث أبى سعيد ومسلم من حديث أبى الدرداء نحوه . (٢) حديث دعائه لابن عباس «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» متفق عليه دون قوله «وعلمه التأويل» ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم فى العلم .

ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت على المعاصي .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وقد قال تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومنتهى الإحسان الرضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾ فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية سكان الجنان .

وفى الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك[١] » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته ، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تذكر أفهام الخلق عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمانى لما ظفروا بنعيم النظر ، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب . وقال تعالى ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال بعض المفسرين : يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ؛ إحداها : هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها فذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ والثالثة : يقول الله تعالى : إنى عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أى من النعيم الذى هم فيه . فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد

وأما من الأخبار : فقد روى أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : مؤمنون فقال « ما علامة إيمانكم » فقالوا : نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء ، فقال « مؤمنون ورب الكعبة[٢] » وفى خبر آخر أنه قال « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء[٣] » وفى الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به[٤] » وقال صلى الله عليه وسلم « من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل[٥] » وقال أيضا « إذا أحب الله تعالى عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه » وقال أيضا « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى

---

(١) حديث « إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلونى فيقولون رضاك » أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين وفيه « فيتجلى لهم يقول أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى فيسألونه الرضا ... الحديث » ورواه أبو يعلى بلفظ « ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك ... الحديث » ورجاله رجال الصحيح
(٢) حديث : سأل طائفة من أصحابه « ما أنتم » فقالوا : مؤمنون فقال « ما علامة إيمانكم ... الحديث » تقدم .
(٣) حديث : أنه قال فى حديث آخر « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » تقدم أيضاً . (٤) حديث « طوبى لمن هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به » أخرجه الترمذى من حديث فضالة بن عبيد بلفظ « وقنع » وقال صحيح وقد تقدم.
(٥) حديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » رويناه فى أمالى المحاملى بإسناد ضعيف من حديث على بن أبى طالب ومن طريق المحاملى رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس .

الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا ،فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟فيقولون:مارأينا حسابا، فتقول لهم:هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : مارأينا صراطا ،فتقول لهم :هل رأيتم جهنم؟فيقولون:مارأينا شيئا. فتقول الملائكة :من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ ،فتقول : ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا ، فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله ،فيقولون : وماهما ؟فيقولون : كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم لنا ،فتقول الملائكة :يحق لكم هذا[١]» وقال ﷺ « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا[٢]».

وفى أخبار موسى عليه السلام؛ إن بنى إسرائيل قالوا له : سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا ،فقال موسى عليه السلام: إلهى قدسمعت ماقالوا ،فقال : ياموسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم . ويشهد لهذا ماروى عن نبينا ﷺ أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر مالله عز وجل عنده ،فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه[٣]».

وفى أخبار داود عليه السلام : مالأوليائى والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم ، يا داود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى اليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره ، قال : يارب دلنى عليه ، قال : فإن رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام: أى رب أى خلقك أحب إليك؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى، قال : فأى خلقك أنت عليه ساخط ؟قال : من يستخيرنى فى الأمر فاذا قضيت له سخط قضائى . وقد روى ماهو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال « أنا الله لاإله إلا أنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى[٤]» ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عن نبينا ﷺ أنه قال:قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى[٥] » وفى الخبر المشهور « يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ،وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف[٦]»:

وفى الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ماأراد ، ثم أوحى الله تعالى اليه كم تشكو ، هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات

---

(١) حديث «إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها» رواه ابن حبان فى الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمى من حديث أنس مع اختلاف،وفيه حميد بن على القيسى ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة فى الورود وغيره . (٢) حديث « أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثوب فقركم وإلا فلا » تقدم . (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر مالله عنده ... الحديث » أخرجه الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ « منزلته » و«منزلة الله » . (٤) حديث « قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائى .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله «من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى» وإسناده ضعيف (٥) حديث « قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا .. الحديث » لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة « خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين ... الحديث » وإسناده ضعيف . (٦) حديث « يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه .... الحديث » أخرجه ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة بإسناد ضعيف .

والأرض وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ماقدرته عليك فيكون ماتحب فوق ما أحب ويكون ماتريد فوق ما أريد ، وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون — يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولا يرفع رأسه — فقال بعض ولده : ياأبت ! أما ترى مايصنع هذا بك لو نهيته عن هذا ! فقال : يا بني إني رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني مالا أعلم . وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن ليته كان ، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضي شيء لكان(١) » . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام ؛ ياداود إنك تريد وأريد وإنما يكون ماأريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لايكون إلا ما أريد .

وأما الآثار : فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : مابقي لي سرور إلا في مواقع القدر ، وقيل له : ماتشتهي ؟ فقال : مايقضي الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع . فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني .

وروى في الإسرائيليات ؛ أن عابداً عبد الله دهراً طويلا فأرى في المنام : فلانة الراعية رفيقتك في الجنة ،فسأل عنها الى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر الى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال : أما لك عمل غير مارأيت ؛ فقالت : ماهو والله إلا مارأيت لم أعرف غيره ، فلم يزل يقول تذكري ، حتى قالت : خصيلة واحدة هي في ؛ ان كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء ، وان كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وان كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل ، فوضع العابد يده على رأسه وقال ، أهذه خصيلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد .

وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضو بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عني ، فقالت : أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال : استغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فتى يكون العبد راضيا عن الله

---

(١) حديث أنس : خدمت النبي ﷺ فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ... الحديث . متفق عليه وقد تقدم .

تعالى ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحوارى : قال أبو سليمان الدارانى إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت : وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت : نعم ، قال : فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه : وقال سهل : العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل . وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط[1] » .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

أعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين :

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحه ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه فى حال غضبه أو فى حال خوفه وقد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل بها على الجراحة . بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ماعداه ، لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، هذا إذا أصابه من غير حبيبه ! فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الآلام العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور أن تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال ، فمن ينكشف له شىء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له فى ذلك فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع ! .

أما الوجه الثانى : فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له ــ أعنى بعقله ــ وإن كان كارها بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ، ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين ثوابه بأن الذى له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا ان كان

---

(١) حديث « إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن مسعود إلا أنه قال « بقسطه » وقد تقدم .

يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل فى ذلك فى حب الجمال الأزلى الأبدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت ؟ حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات احوال المحبين وأقوالهم .

فقدقال شقيق البلخى : من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها؟ وقال الجنيد: سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا،قلت : وإن ضرب بالسيف ! قال : نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة - ضربة على ضربة . وقال بعضهم : أحببت كل شىء يحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث : من برجل وقد يضرب ألف سواط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس ، فتبعته فقلت له لم ضربت ؟ فقال : لأنى عاشق ،فقلت له : ولم سكت ؟ قال : لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلى ، فقلت : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ! قال : فزعق زعقة خر ميتا : وقال يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله تعالى - إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر الى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلاله هابت وإذا لاحظت جماله تاهت ! وقال بشر قصدت عبادان فى بدايتى فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال : من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى إربا اربا ما ازددت له إلا حبا ؟ قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القرآن ماهو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مدية وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجتى التى تترحل

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا ، فسألت عنه وعن أمره فقيل لى : إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض؟ فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل يابريا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد

وجده عليه حتى قال بعض القوم : لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجل أشد سرورا أبدامنه ، فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزنى رحمة له ، فلما وقع أمر الله رضينا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم والكلب يحرسهم ، قال : فجاء الثعلب فأخذ الديك . فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم ، قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة . فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى .

فإذن من عرف خفى لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال . ويروى أن عيسى عليه السلام مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : ياهذا أى شىء من البلاء أراه مصروفا عنك ! فقال : ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ما جعل فى قلبى من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة ! وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه . وقطع عروة بن الزبير رجله ــ من ركبته ــ من أكله خرجت بها ثم قال : الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وأيمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت . ثم لم يدع ورده تلك الليلة .

وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت ؟ إن كان الفقر فان فيه الصبر وإن كان الغنى فان فيه البذل . وقال أبو سليمان الدارانى : قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالى منه إلا مشام الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر : نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق على الى الجنة ثم ملأ بى جهنم ــ تحلة لقسمه وبدلا من خليقته ــ لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه . وهذا الكلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ، فان بقى إحساس فيغمره ما يحصل من لذته فى استشعار حصول رضا محبوبه بالقائه إياه فى النار . واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء .

وقال الروذبارى : قلت لأبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى : قول فلان ، وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه ، ما معناه ؟ فقال : ياهذا إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف ، قال : ثم غشى عليه . وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لايقوم ولا يقعد ــ قد نقب له سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ــ فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله ، فقال : لم تبكى ؟ قال : لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة ! قال : لاتبك فان أحبه إلى الله تعالى أحبه إلى ! ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم على حتى أموت ، إن الملائكة تزورنى فآنس بها وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ! فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف يكون راضيا به ؟ قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده ، فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلى

فداؤك ما نطعمك ... ما نسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحرافيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياما ، وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة ـ وقد كان كف بصره ـ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعوا لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال : أنت قارىء أهل مكة ؟ قلت : نعم ، فذكر قصة قال فى آخرها : فقلت له : ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ! فتبسم وقال : يابنى قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى ! وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر ، فقيل له : لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال : اعتراضى عليه فيما قضى أشد على من ذهاب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ـ وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ـ فقيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشىء كان ، ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلى من أقول لشىء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه . وقيل لعبد الواحد ابن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة ، فقصده فقال له : يا حبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به ؟ قال : لا ، قال : أنست به ؟ قال : لا ، قال : فهل رضيت عنه ؟ قال : لا ، قال : فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ، قال : نعم ، قال : لولا أنى أستحيى منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ! ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد فى طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هى مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة ، فقال : من أنتم ؟ فقالوا : محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال : ما بالكم ادعيتم محبتى إن صدقتم فاصبروا على بلائى !

وللشبلى رحمه الله تعالى :

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محباً غير سكران؟

وقال بعض عباد أهل الشام : كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بها شلل ظل يواريها ؛ يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه . وقيل : إنه وقع الحريق فى السوق فقيل للسرى : احترق السوق وما احترق دكانك ! فقال : الحمد لله ، ثم قال : كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ؟ فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله : الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكنا فى حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا فى حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرين قطعا . وإمكانه من وجهين : (أحدهما) الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء . (والثانى) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب فى مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو فى هلاك روحه . كما قيل : * فما لجرح إذا أرضاكم ألم *
وهذا ممكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ؛ فالقياس والتجربة والمشاهدة

دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ! لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

وقد روى عن عمرو بن الحرث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدتي أفتأذنين لي أن أموت ! فقالت : مت راشدا ! قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه ، فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت اليه الصبي وقال له : إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال: قد علم الله أني صادق فيما أودده؛ حتى لو قلت لي مت لمت ؛ فقال : إن كنت صادقا فمت ، قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا. وقال سمنون المحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبيناهو يحرك القدر إذ قالت الجارية : آه ! قال : فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك مافي القدر بيده حتى سقطت أصابعه ! فقالت الجارية : ماهذا ؟ قال : هذا مكان قولك — آه . وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت !

ثم رمى بنفسه إلى الأرض ، فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى . لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال . نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لامظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع .

فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام — على مانقلناه في كتاب الدعوات — تدل عليه . ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا . وقد أثنى الله على بعض عباده بقوله﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا فقال ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴾ وقال تعالى ﴿ ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم ﴾ وفي الخبر المشهور « من شهد منكرا فرضي به فكأنه قد فعله» وفي الحديث «الدال على الشر كفاعله[1]» وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل: وكيف ذلك؟ قال : يبلغه فيرضى

---

(١) حديث « الدال على الشر كفاعله » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا .

به . وفى الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا فى قتله [(١)] » وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقال النبى ﷺ « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها فى الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق [(٢)] » وفى لفظ آخر « ورجل آتاه القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتانى الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل » .

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ وقال تعالى ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ﴾ وفى الخبر « إن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن [(٣)] » وقال عليه السلام « المرء مع من أحب [(٤)] » وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة [(٥)] » وقال عليه السلام « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله [(٦)] » وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا نعيده .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى [(٧)] فإن كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شىء واحد . فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول : الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه ، إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع فى إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته ، فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال :

---

(١) حديث « لو أن رجلا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله » لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ولابن عدى من حديث أبى هريرة « من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ومن غاب عنها وأحبها فكأنما حضرها » وتقدم فى كتاب الأمر بالمعروف . (٢) حديث « لا حسد إلا فى اثنتين ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى العلم . (٣) حديث « إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق ... الحديث » لم أجد له أصلا . (٤) حديث « المرء مع من أحب الله » تقدم . (٥) حديث « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم » أخرجه الطبرانى من حديث أبى قرصافة وابن عدى من حديث جابر « من أحب قوما على أعمالهم حشر زمرتهم » زاد ابن عدى « يوم القيامة » وفى طريقه إسماعيل بن يحيى التيمى ضعيف .
(٦) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » رواه أحمد وتقدم فى آداب الصحبة . (٧) الأخبار الواردة فى الرضا بقضاء الله رواه الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص « من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل ... الحديث » وقال غريب وتقدم حديث « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وحديث « إن الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا » وتقدم فى حديث الاستخارة « واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » وحديث « أسألك الرضا بالقضاء ... الحديث » وغير ذلك .

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه : إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى ، وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى . حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى ، فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقى ومحبى . ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته وعالم بشرط المحبة ان يقول : أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة ـ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك ! وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته اذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه ؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت ، فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك وتعويقا فى مرادك ، وأنا كاره لفوات مرادك ، ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فانى أرضاه من حيث أنك أردت أن يبغضك اذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكنى أبغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث انه وصفه وكل ذلك من حيث انه مرادك فهو مرضى . وانما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث انه مرادك مكروه ، وأما اذ كان مكروها لامن حيث انه فعله ومراده بل من حيث انه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لاتحصى .

فاذن تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية ويجره الحب الى فعل المعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ؛ ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره ، ويشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ـ أعنى تسليط دواعى المعصية عليه ـ يدل على أنه من سبقت مشيئته بابعاده ومقته . فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته ـ وإن اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته ـ فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون مقيتا بغيضا الى جميع المحبين ـ موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده .

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض فى الله والحب فى الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر ـ الذى لارخصة فى إفشائه ـ وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به . فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : انهما جميعا منه ـ من غير افتراق فى الرضا والكراهة ـ فهو أيضا مقصر ، وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه . فالأولى السكوت والتأدب بأدب

الشرع فقد قال ﷺ « القدر سر الله فلا تفشوه[١] » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة : وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه .

وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش، وشرب الماء طالبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل — واستقصيناه فى كتاب التوكل — فهو أيضا لا يناقض بالرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار - أى فى معرض الشكاية — وذلك فى الصيف فأما الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال .

وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى . وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا ، بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ماقاله عمر رضى الله عنه : لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فإنى لا أدرى أيهما خير لى .

بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون[١] يدل على النهى عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ؛ بل العلة فى النهى عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقى فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فهلكون هزالا وضرا، ولذلك شبهه رسول الله ﷺ فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف[٢] ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف - وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل - وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ليس فراراً من القضاء ، بل من القضاء الفرار مما لا بد منه . وكذلك مذمة المواضع التى تدعو إلى المعاصى والأسباب التى تدعو إليها — لأجل التنفير عن المعصية — ليست مذمومة فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد ! قيل : وكيف ؟ قال : هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد، قال : ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ! ولا ينبغى أن تظن أن ذلك

---

(١) حديث «القدر سر الله فلا تفشوه» أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى فى الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

(٢) حديث : النهى عن الخروج من بلد الطاعون . تقدم فى آداب السفر .

(٣) حديث : إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف . تقدم فيه .

من الغيبة ، لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس . وكان يخرج إلى مكة — وقد كان مقامه ببغداد — يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستةعشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه . وقد ذم العراق جماعة : كعمر بن عبد العزيز وكعب الأخبار . وقال ابن عمر رضى الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال : العراق ، قال : فما تصنع به ! بلغنى أن مامن أحد يسكن العراق إلا قيض الله قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال. وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء ؛ على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفى متدرع بعباءة ، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال : بغداد ، فأعرض عنه وقال : يأتينا أحدهم فى زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال فى عش الظلمة ؛ وكان بشر بن الحرث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد فى الحش . وكان يقول : لاتقتدوا بى فى المقام بها ! من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر فى نفسى ! قيل : وأين تختار السكنى . قال : بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد وشريرهم شرير .

فهذا يدل على أن من بلى ببلدة تكثر فيها المعاصى ويقل فيها الخير فلاعذر له فى المقام بها ، بل ينبغى أن يهاجر قال الله تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغى أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغى أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فإذن ليس فى شيء من أسباب نقص الدين ألبته رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هى فى نفسها فلاوجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء فى الأفضل من أهل المقامات الثلاث : رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لاأختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ! ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط ، فقال الثورى : كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أنى مت ، فقال له يوسف : لم ؟ قال : لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكنى لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان : لم ؟ قال : لعلى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقيل لوهيب : إيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لاأختار شيئا ، أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثورى بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة .

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين : إنك محب فقال : لست محبا إنما أنا محبوب والمحب متعوب. وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول : إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلا ، قيل : وكيف وأنت شخص واحد ؟ قال لأنى رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له : بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام . فتبسم وقال ، ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه ! وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال : ماحدثت نفسى يوما قط أنه لم يبق ولى لله تعالى إلا عرفته

إلا ورأيت فى ذلك اليوم وليا لم أعرفه . وقيل لأبى يزيد البسطامى مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى ، فصاح ثم قال : ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك ! قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك فى الله تعالى ، فقال : وهذا أيضا لايجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك ، فقال : نعم ، دعوت نفسى إلى الله فجمحت على فعزمت عليها أن لاأشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد — فى بعض مشاهداته من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر — مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لايطرف ، قال : ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال : اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طى الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك ، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك ، حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآنى فقال : يحيى ! قلت ، نعم يا سيدى ، فقال : مذ متى أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت ، فقلت : ياسيدى حدثنى بشىء فقال : أحدثك بما يصلح لك ، أدخلنى فى الفلك الأسفل فدورنى فى الملكوت السفلى وأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات وأرانى ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفنى بين يديه فقال : سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك ؟ فقلت : ياسيدى ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدى حقا تعبدنى لأجلى صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء . قال يحيى : فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت : ياسيدى لم لا سألته المعرفة به ، وقد قال لك ملك الملوك سلنى ما شئت ، قال : فصاح بى صيحة وقال : اسكت ويلك ، غرت عليه منى حتى لا أحب ان يعرفه سواه .

وحكى أن أبا تراب النخشبى كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ، فقال : عنه مشغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله « لو رأيت أبا يزيد » هاج وجد المريد فقال: ويحك ما أصنع بأبى يزيد قد رأيت الله تعالى فأغنانى عن ابى يزيد ، قال ابو تراب : فهاج طبعى ولم املك نفسى ، فقلت : ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت ابا يزيد مرة واحدة كان انفع لك من ان ترى الله سبعين مرة ، قال فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ماقلت ، فقال : احملنى إليه ، فذكر قصة قال فى آخرها . فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة — وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع — قال . فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى : هذا أبو يزيد فانظر إليه فنظر إليه الفتى فصعق ، فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه فقلت لأبى يزيد : ياسيدى نظره اليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن فى قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله ، لأنه فى مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك .

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا . لو سألت الله تعالى دفعهم . فسكت ثم قال : إن لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات فى ليلة واحدة ، ولكن لايفعلون ، قيل لم . قال لأنهم لايحبون مالا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله أشياء لايستطاع ذكرها ، حتى قال . ولو سألوه أن لايقيم الساعة لم يقمها . وهذه أمور ممكنة فى أنفسها فمن لم يحظ بشىء منها ، فلا ينبغى أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت

كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لاغاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة،فإن سكنت إلى ذلك حجبك به،وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء ، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال ، وقيل لى: انظر إليهن ، قال : فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر اليهن وقلت : أعوذ بك مما سواك ! لا حاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى .

فأمثال هذه المكاشفات لاينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول .

فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى مافى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لايحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال .

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر : بأى شىء بلغت هذه المنزلة ؟ قال : كنت أكاتم الله تعالى حالى . معناه : أسأله أن يكتم على ويخفى أمرى . وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له : ادع الله تعالى لى ،فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت : زدنى ،قال : وسترها عليك . فقيل معناها سترها عنك حتى لاتلتفت أنت اليها .

وعن بعضهم أنه قال : أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء على ، قال : فرأيته فما غلب على همى وهمتى إلا أن قلت له : يا أبا العباس علمنى شيئا اذ قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال : قل اللهم أسبل على كثيف سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك ، قال : ثم غاب فلم أره ولم أشتق اليه بعد ذلك ، فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم ، فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه فى الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله فى ذله وخموله. فهكذا حال أولياء الله تعالى ؛ ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى : أوليائى تحت قبابى لايعرفهم غيرى. وقال ﷺ «رب أشعث أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره[1]».

---

(١) حديث « رب أشعث أغبر ذى طمرين » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته .

فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادىء هذه الروائح ، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله ، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب . ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبنى إسرائيل . أين ينبت الزرع ؟ قالوا فى التراب ، فقال بحق أقول لكم لاتنبت الحكمة إلا فى قلب مثل التراب .

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روى أن ابن الكريبى وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى أدخله فى المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ، فقال : قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح ، فتشتت على قلبى ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت ، وجعلت أمشى قليلا قليلا . فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى .

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب و بين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق مجلس أبى يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه ، فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة ! قال : ولم ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال : فلهذا دواء ؟ قال : نعم ، قال : قل لى حتى أعمله ، قال : لاتقبله ، قال : فاذكره لى حتى أعمل ، قال : اذهب الساعة الى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل : كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لى مثل هذا ! فقال أبو يزيد : قولك «سبحان الله» شرك ، قال : وكيف ؟ قال ، لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ! فقال ، هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره ! فقال ، ابتدىء بهذا قبل شىء . فقال : لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لاتقبل . فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس اليه ، ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فمن لايطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر إمكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا . فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا .

وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله

عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف (١) » وقد قال عليه السلام « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا (٢) » وقال عليه السلام « لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال ، إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له (٣) » وفى حديث آخر « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وخشية الله فى السر والعلانية (٤) » فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان ، وفى الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه ، إنما اتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيئا من خلقى وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له .

ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه « إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطانى مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم (٥) » وفى حديث آخر « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة » فقال أبو بكر : يارسول الله هل فى منها خلق فقال « كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله السخاء (٦) » وقال عليه السلام « رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها ووضع أبو بكر فى كفة وجيء بأمتى فوضعت فى كفة فرجح (٧) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٨) » يعنى نفسه .

---

(١) حديث « لايستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لايعرف أحب إليه من أن يعرف » ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طلحة ، وعلى هذا فهو معضل فعلى بن أبى طلحة إنما سمع من الصحابة والتابعين ولم أجد له أصلا . (٢) حديث « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لايخاف فى الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وفيه سالم المرادى ضعفه ابن معين والنسائى ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد . (٣) حديث « لايكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاثة خصال : إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير بلفظ « ثلاث من أخلاق الإيمان » وإسناده ضعيف (٤) حديث « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى ما أوتى آل داود : العدل فى الرضا والغضب » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « ثلاث منجيات » فذكرهن بنحوه وقد تقدم . (٥) حديث إنه قال للصديق « إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف . (٦) حديث « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله « خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة لا إله إلا الله دخل الجنة » ومن حديث ابن عباس « الإسلام ثلثمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة » وفيه وفى الكبير من رواية المغيرة بن عبدالرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ « الإيمان » وللبزار من حديث عثمان بن عفان « إن لله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة ... الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبى بكر وجوابه وكلها ضعيفة . (٧) حديث « رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف . (٨) حديث « لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم .

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقه بالمحبه ينتفع بها

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره . إيثار المحبوب وقال بعضهم : كراهية البقاء فى الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد : حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون ، قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلى رحمه الله ، صف لنا العارف والمحب؟ فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحب إن سكت هلك . وقال الشبلى رحمه الله :

يا أيها السيد الكريم حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفونى أنت بما مر بى عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت إلفى وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنى ماحييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب ومارويت ؟
فليت خياله نصب لعينى ! فإن قصرت فى نظرى عميت

وقالت رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ، فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا طلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبى وتوليته بحفظى . وقيل : تكلم سمنون يوما فى المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك وآنستنى بذكرك وفرغتنى للتفكر فى عظمتك . وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش . وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إنى لأحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال ، الرضا عن الله تعالى والحب له. وقال أبو زيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة . إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلى : المحب دهش فى لذة وحيرة فى تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شىء راجع منك اليك. وقيل المحبة قرب القلوب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة محو الإرادات واحتراق جمع الصفات والحاجات .وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم المراد منه . وقيل : معاملة المحب على أربع منازل؛ على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم ،وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهى تحسره فى الدنيا وتروحه فى الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول — وهى باكية والدموع على خدها جارية — والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه ، قال :

فقلت لها ؛ فعلى ثقة أنت من عملك: قالت : لا ولكن لحبى إياه وحسن ظنى به أفتراه يعذبنى وأنا أحبه ؟ وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت أوصالهم من محبتى ، ياداود هذه إرادتى فى المدبرين على فكيف إرادتى فى المقبلين على ياداود أحوج مايكون العبد الى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى وأجل مايكون عبدى اذا رجع الى . وقال أبو خالد الصفار : لقى نبى من الأنبياء عابدا فقال له ، انكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه ؛ أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق .

وقال الشبلى رحمه الله: أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود ذكرى للذاكرين وجنتى للمطيعين ، وزيارتى للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين ، وأوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام : يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فعله ومن اشتاق اليه جد فى مسيره . وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول،واشوقاه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله ، بكى يونس عليه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ،وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بينى وبينك بحر من نار لخضته اليك شوقا منى اليك . وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال ، سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال« المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر ردائى والرضا غنيمتى والعجز فخرى والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفيعى والطاعة حبى والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة[1]»وقال ذو النون، سبحان من جعل الأرواح جنود مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة ،وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ :رأيت فى جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول

الشوق والهوى صيرانى كما ترى

ويقال : الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات . فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا ؛ فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس ، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق .

كتاب النية والاخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ، ونشهد أن لا إله

(١) حديث على . سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال « المعرفة رأس مالى والعقل أصل دينى ... الحديث » ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

إلا الله رب العالمين، خالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فما لله إلا الدين الخالص المتين، فإنه أغنى الاغنياء عن شركة المشاركين ، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وليت شعرى كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص .

ونحن نذكر معانى الصدق والإخلاص فى ثلاثة أبواب :

(الباب الأول) فى حقيقة النية ومعناها .
(الباب الثانى) فى الإخلاص وحقائقه .
(الباب الثالث) فى الصدق وحقيقته .

الباب الأول فى حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية ، وبيان حقيقة النية ، وبيان كون النية خيرا من العمل ، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس ، وبيان خروج النية عن الاختيار .

بيـــان فضيلة النية

قال الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ والمراد بتلك الإرادة هى النية. وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى الدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجر اليه[1] » وقال ﷺ « أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته [2]» وقال تعالى ﴿ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ فجعل النية سبب التوفيق . وقال ﷺ «ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم[3]» وانما نظر الى القلوب لأنها مظنة النية. وقال ﷺ « ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة

---

(١) حديث « إنما الأعمال بالنيات ... الحديث » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث « أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود فيه عبد الله ابن لهيعة (٣) حديث «إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ... الحديث» أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وقدتقدم

اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذ فيقولون يا ربنا إنه لم يعمل شيئا من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه[١] » وقال ﷺ « الناس أربعة : رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء [٢] » ألا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه . وكذلك فى حديث أنس بن مالك : لمـــا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال « إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة ! » قالوا : وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا ؟ قال « حبسهم العذر فشركوا بحسن النية[٣] » وفى حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغى شيئا فهو له » فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس [٤] » وكذلك جاء فى الخبر « إن رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار [٥] » لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته . وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم « من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله ما نوى [٦] » وقال أبى : استعنت رجلا يغزو معى فقال : لا حتى تجعل لى جعلا ، فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له [٧] » وروى فى الإسرائيليات : أن رجلا مر بكثبان من رمل فى مجاعة فقال فى نفسه : لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به » وقد ورد فى أخبار كثيرة « من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة [٨] » وفى حديث عبد الله بن عمرو « من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها [٩] » وفى حديث أم سلمة ، ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم البيداء فقلت : يارسول الله يكون فيهم المكره والأجير فقال « يحشرون على نياتهم [١٠] » وقال عمر رضى الله

---

(١) حديث « إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة ... الحديث » أخرجه الدارقطنى من حديث أنس بإسناد حسن . (٢) حديث « الناس أربعة : رجل آتاه الله علما ومالا ... الحـديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبى كبشة الأنمارى بسند جيد بلفظ « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر ... الحديث » وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه « وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث » وقال حسن صحيح . (٣) حديث أنس « إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا... الحديث » أخرجه البخارى مختصرا وأبو داود . (٣) حديث ابن مسعود « من هاجر يبتغى شيئا فهو له » هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : أخرجه الطبرانى بإسناد جيد (٥) حديث « إن رجلا قتل فى سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار » لم أجد له أصلا فى الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحق الفراوى فى السنن من وجه مرسل

(٦) حديث « من غزا وهو لا ينوى إلا عقالا فله ما نوى » أخرجه النسائى من حديث عبادة بن الصامت وقد تقدم غير مرة

(٧) حديث أبى : استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال « ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له » أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين ولأبى داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجير للغزو وسمى له ثلاثة دنانير فقال النبى ﷺ « ما أجد له فى غزوته هذه فى الدنيا والآخرة إلا دنانيره التى سمى » .

(٨) حديث « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » متفق عليه وقد تقدم .

(٩) حديث عبد الله بن عمرو « من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله « وفارقها أرغب مايكون فيها » ودون قوله « وفارقها أزهد مايكون فيها » وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو .

(١٠) حديث أم سلمة : فى الجيش الذى يخسف بهم « يحشرون على نياتهم » أخرجه مسلم وأبو داود وقد تقدم

عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما يقتتل المقتتلون على النيات (١) » وقال عليه السلام « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله (٢) » وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على ما مات عليه (٣) » وفى حديث الأحنف عن أبى بكرة « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « لأنه أراد قتل صاحبه (٤) » وفى حديث أبى هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ، ومن ادان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (٦) » .

وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز : اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائى البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثورى : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل ، ومادمت تنوى الخير فأنت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : من يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فإنى لا أحب أن يأتى على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله ، فقيل له : قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فإذا فترت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وان ذنوبكم أخفى من أن تعلموها ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولاتهم بمعصية وانتبهت الى غير إثم . وقال ابو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض اذا قرأ ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ يبكى ويرددها ويقول : إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب فى التوراة : ما أريد به وجهى فقليله كثير ، وما أريد به غيرى فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد : ان العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر فى عمله ، فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر فى ورعه ، فان تورع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى ، فان صلحت نيته فبالحرى أن يصلح مادون ذلك

---

(١) حديث « إنما يقتتل المقتتلون على النيات » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ «إنما يبعث» ورويناه فى فوائد تمام بلفظ «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولابن ماجه من حديث أبى هريرة « إنما يبعث السلمون على نياتهم » وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه . (٢) حديث « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل للدنيا ... الحديث » أخرجه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففى الصحيحين من حديث أبو موسى « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » . (٣) حديث جابر « يبعث كل عبد على ما مات عليه » رواه مسلم . (٤) حديث الأحنف عن أبى بكرة «إذا التقى مسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار» متفق عليه . (٥) حديث أبى هريرة «من تزوج امرأة على صداق وهو لاينوى أداءه فهو زان» أخرجه أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصرا على قصة : الدين ، دون ذكر الصداق . (٦) حديث« من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك... الحديث »أخرجه أبو الوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث اسحق بن أبى طلحة مرسلا.

فإذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية فى نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق .

بيان حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل (العلم) يقدمه لأنه أصله وشرطه (والعمل) يتبعه لأنه ثمرته وفرعه . وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختيارى فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة . لأنه لا يريد الإنسان مالا يعلمه فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل مالم يرد فلا بد من إرادة . ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى مايراه موافقا للغرض إما فى الحال أو فى المآل ، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ، ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافى عن نفسه ، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهى الحواس الظاهرة والباطنة ـ وليس ذلك من غرضنا ـ ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه ، إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة إليه ، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة ـ وأعنى به نزوعا فى نفسه اليه وتوجها فى قلبه اليه ـ ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا ؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول ، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة ، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى فى نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جزمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل ، فاذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهى الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض اما فى الحال واما فى المآل . فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث . والغرض الباعث وهو المقصد المنوى ، والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل ، الا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون فباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا فى فعل واحد ، واذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا . فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام؛ فلنذكر لكل واحد مثالا واسما :

أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما اذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه الى الهرب ورغبت فيه ، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فقال : نيته الفرار من السبع لا نية له فى القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها «إخلاصا» بالإضافة الى الغرض الباعث ، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته .

وأما الثانى : فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقبل بالإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا فى الحمل لو انفرد . ومثاله فى غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة

فيقضيها لفقره وقرابته ، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر ، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته ، وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة ، وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول . فلنسم هذا « مرافقة البواعث »

والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد ولكن قوي بمجموعهما على إنهاض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه ، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر . وكذلك يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ، ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب في التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب . ولنسم هذا الجنس « مشاركة » .

والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل . ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير باعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ، ولو انفرد القوى لا ستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس . فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه ، فهو شوب تطرق إلى النية . ولنسم هذا الجنس « المعاونة » .

فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا . وسنذكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات ، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل « إنما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع .

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله[1] »

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر . ولعمل السر فضل . وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد ؛ لأنه نوى أن يذكر بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر ، وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف ، لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل ، بل ليس كذلك فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم ، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية ، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجردها خير ، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير ، بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل : أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل

---

(١) حديث «نية المؤمن خير من عمله» أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن سمعان، وكلاهما ضعيف .

فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما ، فهذا معناه .

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فمن قال : الخبز خير من الفاكهة ، فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها فى الآخرة ، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى ، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له . فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذ انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له ، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذ علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها ، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما . وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه ، فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها .

فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله فى الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع ، وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق . بل الذى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزول عنه ، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبرا ودفعا فى وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحى . وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هى التى تراد بها الآخرة ، والشرور كلها هى التى تراد بها الدنيا لا الآخرة . وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذى يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصى والجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون ، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعى والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه ، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود .

ولذلك قال النبي ﷺ «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد[1] » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعى والرعية[2] » وأراد بالراعى القلب . وقال الله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

---

(١) حديث إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير وقد تقدم .

(٢) حديث « اللهم أصلح الراعى والرعية » تقدم ولم أجده .

منكم ﴾ وهى صفة القلب . فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له .

وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس المقصود ، وهذا كما أن المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة ، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع .

فهكذا ينبغى أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح ، فلا تظنن أن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب ، فإن من يجد فى نفسه تواضعا ، فاذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة فى قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوبا — لم ينتشر من أعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة ، وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر الى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا ، فيقال : العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه اذا فعل عن غفلة ، فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا ، فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهى صفة الرياء التى هى من الميل الى الدنيا . فهذا وجه كون النية خيرا من العمل.

وبهذا أيضا يعرف معنى قوله ﷺ « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهى غاية الحسنات ، وانما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا ، فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارا لوجه الله تعالى ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل عائق ف﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ والتقوى ههنا أعنى القلب ، ولذلك قال ﷺ « ان قوما بالمدينة قد شركونا فى جهادنا » ـ كما تقدم ذكره ـ لأن قلوبهم فى صدق ارادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة واعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وانما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا لتأكيد هذه الصفات . وبهذه المعانى تفهم جميع الأحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالإعادة .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور احصاؤه واستقصاؤه ـ فهى ثلاثة أقسام : معاص وطاعات ومباحات .

(القسم الأول) المعاصى ، وهى لا تتغير عن موضعها بالنية ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « انما الأعمال بالنيات » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية ، كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب

غيره ، أو يطعم فقيراً من مال غيره ، أو يبنى مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام ؛ وقصده الخير . فهذا كله جهل ، والنية لاتؤثر فى إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية . بل قصده الخير بالشر ـ على خلاف مقتضى الشرع ـ شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع ، وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طلب العلم فريضة كل مسلم ، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ؟ هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل.

ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماعصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ؟ قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال . لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم ، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم : العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل : الجهل بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم ، والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه ﴿ فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال النبى ﷺ « لا يعذر الجاهل عن الجهل ، ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ، ولا للعالم أن يسكت على علمه[1] » .

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ، وانتهض كل واحد منهم فى بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله ، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة فى الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصى من أقواله وأفعاله وفى مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالم ألف سنة مثلا وألفى سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ، فإن استعمله هو فى الفساد فالمعصية منه لامنى وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير ، وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك فى قلبه ،والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه . وليت شعرى ماجوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله ، فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصى.

وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله ﷺ « إن لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء[2] » فليت شعرى لم حرم

(١) حديث « لايعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ... الحديث» أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لايعذر الجاهل على الجهل وقال «لاينبغى» بدل« لايحل » وقد تقدم فى العلم . (٢) حديث « إن لله ثلثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء » تقدم فى كتاب المحبة والشوق .

هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى فى سلب سلاحه لا أن يمده بغيره ؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى ؛ فمن لايزال مؤثرا لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته ؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وماتعوذوا من الفاجر الجاهل ، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد اليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لايكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لايذكره ، حتى قال : بلغنى أنك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم.

فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم .وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغنياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التى لاتشمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء اليها ، بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع حطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران .

فإذن قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد ، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا، نعم للنية دخل فيها وهو أنه اذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها ـ كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة .

(القسم الثانى) الطاعات : وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها. أما الأصل : فهو أن ينوى بها عبادة الله تعالى لاغير ، فان نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل : فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب، إذ« كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها [1]» كما ورد به الخبر .

ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ درجات المقربين .

(أولها) أن يعتقد أنه بيت الله وأن داخله زائر الله ، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال «من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور أن يكرم زائره[2] » .
(وثانيها) أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ﴿ورابطوا﴾ .
(وثالثها) الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فان الاعتكاف كف وهو فى معنى

---

(١) حديث : تضعيف الحسنة بعشر أمثالها ، تقدم (٢) حديث « من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره » أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدما فى الصلاة .

الصوم - وهو نوع ترهب ،ولذلك قال رسول الله ﷺ «رهبانية أمتي القعود في المساجد[1]» .(ورابعها) عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد (وخامسها) التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر « من غدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى[2]» (وسادسها) أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى مالا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته (وسابعها) أن يستفيد أخا في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله (وثامنها) أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة ، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا في الله ، أو رحمة مستنزلة ، أو علما مستظرفا ، أو كلمة تدل على هدى ، أو تصرفه عن ردىء ، أو يترك الذنوب خشية أو حياء .

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة ، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

(القسم الثالث) المباحات : وما من شيء من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهمله عن سهو وغفلة ، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامه أنه لم فعله وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال ﷺ « حلالها حساب وحرامها عقاب[3]» وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه[4]» وفي خبر آخر « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة » فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية .

فان قلت . فما الذي يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله ؟ فاعلم أن من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التنعم بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به الى قلوب النساء الأجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ، ولأمور أخر لا تحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا أنه يسئل عنه، ومن

---

(١) حديث « رهبانية أمتي القعود في المساجد» لم أجد له أصلا . (٢) حديث« من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى » وهو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء بن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجه » وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « من غدا إلى المسجد او راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح» . (٣) حديث «حلالها حساب وحرامها عذاب» تقدم .(٤) حديث معاذ « إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه » لم أجد له إسنادا .

نوقش الحساب عذب . ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى . وأما النيات الحسنة فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة [١] ، وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائرا لله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه ، وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر ، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله . فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه . وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شىء .

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ، ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى إلى الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه ، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ، ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله ، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيآته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، ولينو ذلك بسكوته عن الجواب . ففى الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ، ثم ينشر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول : يارب هذه أعمال ما عملتها قط ؟ فيقال : هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك [٢] » وفى الخبر « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة . فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من

---

(١) حديث « إن لبس الثواب الحسنة يوم الجمعة سنة » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة وأبى سعيد « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ... الحديث » ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » وفى إسناده اختلاف وفى الصحيحين أن عمر رأى حلة سيراء عند باب المسجد فقال يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة ... الحديث . (٢) حديث « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة ... الحديث » وفيه هذه « أعمال الذين اغتابوك ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم من حديث شيث بن سعد البلوى مختصرا « إن العبد ليلقى كتابه منتشرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لى ولم أعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر » وفيه ابن لهيعة .

سيآتهم ثم صكوا له صكا إلى النار(١) » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال بعض السلف : كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جارلى فتحرجت ثم قلت : تراب وما تراب ! فتربته فهتف بي هاتف : سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه ، فسأله عن ذلك فقال ، إنى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول : بيني وبينك الله ! فيقول : والله ما أعرفك ؟ فيقول : بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي !

فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين ، فإن كنت من أولى العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولا أنك لم تتحرك ، وماذا تقصد ، وما الذى تنال به من الدنيا ، وما الذى يفوتك فى الآخرة ، وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك فى إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولابد له من نية صحيحة ، فلا ينبغى أن يكون الداعى هوى خفى لايطلع عليه ، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات وافطن للأغواء والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار .

فقد روى عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل فى حائط بالطين ، وكان أجيرا لقوم فقدموا له رغيفا — إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده — فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير فى طلب المساعدة فى الطعام ، فقال : إنى أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إلى الرغيف لأتقوى به على عملهم، فلو أكلتم معى لم يكفكم ولم يكفنى وضعفت عن عملهم . فالبصير هكذا ينظر فى البواطن بنور الله ، فان ضعفه عن العمل نقص فى فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص فى فضل ،ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمنى حتى لعق أصابعه ثم قال : لولا أنى أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد ،وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثانى تعريضه أخاه لما يكره لو علمه .

فهكذا ينبغى أن يتفقد العبد نيته فى سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فان لم تحضره النية لا تدخل تحت الاختيار .

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات » فيقول فى نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله : نويت أن أدرس لله أو آكل لله،ويظن ذلك نية وهيهات ! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمعزل من جميع ذلك .وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ماظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما آجلا .

والميل اذا لم يكن لايمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن أشتهى الطعام وأميل اليه ،أو قول الفارغ : نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي ، فذلك محال . بل لاطريق الى اكتساب

---

(١) حديث « إن العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال » وفيه « ويأتى قد ظلم هذا وشتم هذا ... الحديث » تقدم مع اختلاف .

صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما يقدر عليه وقد لا يقدر عليه . وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على اعتقاده فى كل حين ، وإذا اعتقد فانما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن فى كل وقت ، والدواعى والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال . فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا فى الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة ، إذ النية هى إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة ؛ فكيف ينوى الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح[1] اتباعا لرسول الله ﷺ يعظم فضلها لا يمكن أن ينوى بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه ، وهو حديث محض ليس بنية .

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى فى تكثير أمة محمد ﷺ ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره ،فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد ، فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة هذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا ، فان لم يكن كذلك فما يقدره فى نفسه ويردده فى قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان .

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية ، حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصرى وقال: ليس تحضرنى نية . ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى ،فقالت : أجيء بالمرآة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم ، فقيل له فى ذلك فقال: كان لى فى المدرى نية ولم تحضرنى فى المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى . ومات حماد بن سليمان ـ وكان أحد علماء الكوفة ـ فقيل للثورى : ألا تشهد جنازته ،فقال:لو كان لى نية لفعلت.وكان أحدهم اذا سئل عملا من أعمال البر يقول: ان رزقنى الله تعالى نية لفعلت . وكان طاوس لا يحدث الا بنية ، وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدىء ! فقيل له فى ذلك قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ، إذا حضرتنى نية فعلت .

وحكى أن داود بن المحبر لما صنف:كتاب العقل،جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال : مالك ؟ قال : فيه أسانيد ضعاف ،فقال له داود:أنا لم أخرجه على الأسانيد،فانظر فيه بعين الخبراء إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت،قال أحمد :فرده على حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال:جزاك الله خيرا فقد انتفعت به. وقيل لطاوس: ادع لنا ! حتى أجد له نية. وقال بعضهم: أنا فى طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لى بعد . وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه : ألا تعرض عليه العشاء ، قال : ليس من نيتى .

وهذا لأن النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية ، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب ، وعلموا أن النية ليست هى قول القائل بلسانه : نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله تعالى ، فقد تتيسر فى بعض

---

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله ﷺ » تقدم فى آداب النكاح .

الأوقات وقد تتعذر فى بعضها . نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا . ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته . وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب فى الدنيا ، وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويعز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها .

ونيات الناس فى الطاعات أقسام : إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة فى الجنة ، وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه ، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود فى الآخرة وإن كان من جنس المألوفات فى الدنيا ، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة ، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه - كالأجير السوء - ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذ أكثر أهل الجنة البله .

وأما عبادة ذوى الألباب فإنها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فى الجنة فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ! بل أشد ، فان التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهى استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهى عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء بأنها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت اليه ، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ﴿ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم﴾ .

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل فى المنام فقال له : كل الناس يطلبون منى الجنة الا أبا يزيد فانه يطلبنى ، ورأى أبا يزيد ربه فى المنام فقال : يارب كيف الطريق اليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعالى الى . وروى الشبلى بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبنى على الدعاوى بالبرهان الا على قول واحد : قلت يوما أى خسارة أعظم من خسران الجنة ؟ فقال أى خسارة أعظم من خسران لقائى .

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول الى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فانا نقول : من حضرت له نية فى مباح ولم تحضر فى فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة اليه وصارت فى حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات . وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار فى الظلم ، وربما تحضره نية فى الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل . ومثل أن يكون له نية فى الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات فى المستقبل وليس تنبعث نيته فى الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له . بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وهو سكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من

الصلاة قال أبو الدرداء : إنى لأستجم نفسى بشىء من اللهو فيكون ذلك عونا لى على الحق . وقال على كرم الله وجهه : روحوا القلوب فانها إذا أكرهت عميت ، وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم ، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر فى الطب وإنما يبتغى به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق فى لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك إلى الغلبة ، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه . وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدى قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره . فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغى المريد أن يضمر إنكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغى أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن يكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن حسن التوفيق .

الباب الثانى : فى الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخــــلاص

قال الله تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ وقال ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وقال تعالى ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله [١] » وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظن أبى أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم [٢] » وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى [٣] » وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل « اخلص العمل يجزك منه القليل [٤] » وقال عليه السلام « ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه [٥] »

الباب الثانى : فى الإخلاص

(١) حديث «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم : إخلاص العمل لله» أخرجه الترمذى وصححه من حديث النعمان ابن بشير . (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه : أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب النبى ﷺ فقال النبى ﷺ » إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم » رواه النسائى وهو عند البخارى بلفظ «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» . (٣) حديث الحسن مرسلا « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى» رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى مسلسلا يقول كل واحد من رواته : سألت فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على ابن أبى طالب بسند ضعيف . (٤) حديث أنه قال لمعاذ « أخلص العمل يجزك منه القليل» أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع . (٥) حديث « ما من عبد يخلص لله أربعين يوما » أخرجه ابن عدى ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات عن أبى موسى وقد تقدم .

وقال عليه الصلاة والسلام « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ماصنعت فيما علمت فيقول : يارب كنت أقوم آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألافقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فاذا صنعت فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . ورجل قتل فى سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول : يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع الا فقد قيل ذلك » قال أبوهريرة ؛ ثم خبط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى وقال « ياأبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة [(١)] » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴾ الآية .

وفى الإسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى ، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس فى صورة شيخ فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال : أريد أن اقطع هذه الشجرة ، قال : وما أنت وذاك ! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك ! فقال : إن هذا من عبادتى ، قال : فإنى لاأتركك أن تقطعها ، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقنى حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس : يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك ! وماتعبدها أنت وماعليك من غيرك ولله تعالى أنبياء فى أقاليم الأرض ولوشاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ! فقال العابد : لابد لى من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له : هل لك فى أمر فصل بينى وبينك وهو خير لك وأنفع ؟ قال : وما هو ؟ قال : أطلقنى حتى أقول لك ، فأطلقه فقال إبليس : أنت رجل فقير لاشىء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس ! قال : نعم . قال : فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك فى كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التى يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها ! فتفكر العابد فيما قال وقال : صدق الشيخ ! لست بنبى فيلزمنى قطع هذه الشجرة ولا أمرنى الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد .

ثم أصبح اليوم الثالث ومابعده فلم ير شيئاً ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله ابليس فى صورة شيخ فقال له : الى اين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها ، قال : فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال : هيهات ! فأخذه ابليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك ! فنظر العابد فاذا لاطاقة له به ، قال : ياهذا غلبتنى فخل عنى وأخبرنى كيف غلبتك اولا وغلبتنى الآن ؟ فقال : لأنك غضبت اول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرنى الله لك ، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك .

---

(١) حديث « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم ... الحديث » وقد تقدم .

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته . وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه و بين الناس .

وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختياني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . ورؤى بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك فقال : كل شيء عملته لله وجدته ؛ حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات ، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت : موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها ؟ فقيل لي : إنه قد وجه حيث بعثت به فإنه لما قيل لك: قد مات ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجرك فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلي فوجدت ذلك لا علي ولا لي . قال سفيان ـ لما سمع هذا ـ ما أحسن حاله ! إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه .

وقال يحيى بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم . وقيل : كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع النساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أن اطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة ، فمر به بعض إخوانه من الأبطال فساره بشيء فقال أبو عبيد : لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد : ما قال لك ؟ فقال : سألني أن أحج معه ، قلت : لا . قلت : فهلا فعلت ؟ قال : ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأني أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة .

ويروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة ؛ فقلت أشتريها فأنتفع بها في غزوي فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها ، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه : اكتب الغزاة ، فأملى عليه ؛ خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ، ثم نظر إلي وقال : اكتب فلان خرج تاجرا ، فقلت : الله في أمري ! ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو ، فقال : ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجرا ، فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى؟ فقال : اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى .

وقال سري السقطي رحمه الله تعالى : لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو ، وقال بعضهم : في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز . ويقال : العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص . وقال بعضهم : إذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا ؛ أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم ، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه

الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها ، وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط . وقال الجنيد : إن لله عباد عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزى : الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك ، وفعل منك له؛ فترضى مافعل وتخلص فيما تعمل. فإذن أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شىء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ، ويسمى الفعل المصفى المخلص : إخلاصا . قال الله تعالى ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل مايمكن أن يمتزج به والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص فى التوحيد يضاده التشريك فى الإلهية . والشرك — منه خفى ومنه جلى وكذا الإخلاص . والإخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك فى القصود والنيات . وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى المنوى ، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص . ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك — ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا مايتعلق به فى كتاب الرياء من ربع المهلكات — وأقل أموره ماورد فى الخبر من «إن المرائى يدعى يوم القيامة بأربع أسام : يامرائى ياخادع يامشرك ياكافر[1] » .

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبد ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له فى بلده ، أو ليهرب من عدو له فى منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها . أو يصلى بالليل وله غرض فى دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال ، أو ليكون عزيزا بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروسا بعز العلم عن الأطماع . او إن اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقا فى الدنيا . أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه . أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته ؛ أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد ، أو اعتكف فى المسجد ليخف كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد فى طبخ الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه فى السؤال عن نفسه . أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض. أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله. أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار . فمهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى

---

(١) حديث « إن المرائى يدعى يوم القيامة : يامرائى ياخادع . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب السنة والإخلاص وقد تقدم .

ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . وقد قال تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشركة » وبالجملة : كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب - قل أم كثر - إذ تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس .

فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذى لا باعث عليه إلا لطلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون فى رتبة المشاركة أو فى رتبة المعاونة - كما سبق فى النية - وبالجملة ؛ فإما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر - كما سنذكره - وإنما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها - قليلها وكثيرها - حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه . وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ، ويتمنى ان لوكفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى .

فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته ، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ، ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الأعمال مسدود عليه إلا على الندور ، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ؛ فالذى يغلب على نفسه : الدنيا والعلو والرياسة - وبالجملة غير الله - فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلم تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا . فاذن علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الاخلاص .

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى ، فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر . وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ وبقوله تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء ، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه ،

وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولوظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره . ثم الشيطان مع ذلك لايخليه ويقول : إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ، ولايدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده . وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضى الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر . فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ؟ وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور ؛ فإن النفس سهلة القياد فى الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد . وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى فى قوله تعالى « إلا عبادك منهم المخلصين » فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

بيان أقاويل الشيوخ فى الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص . فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص . وما ذكره إشارة إلى تصفيه العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات ، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعه محيطة بالغرض ، وفى معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقيل لسهل : أى شىء أشد على النفس ؟ فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا فى الدارين . وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا . والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات فى الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو فى طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الألباب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان إلا لحظ ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضى ابو بكر الباقلانى بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال : هذا من صفات الإلهية وماذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشهوات الموصوفة فى الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عرضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه ، فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية

الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط . وهذا إشارة الى آفة الرياء فقط ؛ ولذلك قال بعضهم : الإخلاص فى العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه ؛ فإنه إشارةالى مجرد الإخفاء . وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق . وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبى : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب . وهذا إشارة الى مجرد نفى الرياء . وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذى يعمل لله تعالى لايحب أن يحمده عليه أحد . وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص . وقال الجنيد : الإخلاص تصفية العمل من الكدورات ، وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها . وهذا هو البيان الكامل والأقاويل فى هذا كثير ولا فائدة فى تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافى بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ إذ سئل عن الإخلاص فقال «أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أى لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم فى عبادته كما أمرت . وهذ إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلى وبعضها خفى وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها فى الخفاء والجلاء إلا بمثال . واظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا .

فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته : إذا نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك ؛ فتخشع جوارحه ، وتسكن أطرافه ، وتحسن صلاته ، وهذا هو الرياء الظاهر ؛ ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين .

الدرجة الثانية : يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه ويستمر فى صلاته كما كان . فيأتيه فى معرض الخير ويقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك ، فيكون لك ثواب أعمالهم ان أحسنت وعليك الوزر ان أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة ! وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص ، فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ؟ فهذا محض التلبيس ، بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه

---

(١) حديث سئل عن الإخلاص فقال «أن تقول : ربى الله ثم تستقيم كما أمرت» لم أره بهذا اللفظ وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به قال « قل ربى الله ثم استقم » وهو عند مسلم بلفظ : قل لى فى الإسلام قولا ولا وأسأل عنه أحدا بعدك قال « قل آمنت بالله ثم استقم » .

فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس . فمن اقتدى به أثبت عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ماليس متصفا به .

الدرجة الثالثة : وهى أدق مما قبلها ؛ أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الاخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملأ ، ويستحى من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملأ ، ويصلى فى الملأ أيضا كذلك . فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملأ فلا يكون قد فرق بينها ، فالتفاته فى الخلوة والملأ إلى الخلق . بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيى من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ، ويظن ان ذلك يزول بأن تستوى صلاته فى الخلا والملا وهيهات ! بل زوال ذلك بأن لايلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات فى الخلا والملا جميعا ، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملا والخلا جميعا . وهذا من المكايد الخفية للشيطان .

الدرجة الرابعة : وهى أدق وأخفى ؛ أن ينظر إليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم ، فانه قد عرف أنه تفطن لذلك فيقول له الشيطان : تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطوة تلازمه فى الخلوة ولكان لايختص حضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملأ ، ولايكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا ، فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء ، وهذا الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء [1] » كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لايغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب ، فان هذه سنن فى أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لاينبغى أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه ، ومالا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس اليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف ، وقد يكون المحرك الخفى فى سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك فى ميله الى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر ، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص لعمرى الغش الذى يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة . فمنها مايغلب ومنها مايقل لكن يسهل دركه . ومنها مايدق بحيث لايدركه إلا الناقد البصير . وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا .

---

(١) حديث « الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الظلمة والظلماء على الصخرة » تقدم فى العلم وفى ذم الجاه والرياء .

ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بهما كنظر السوادى إلى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف فى نفسه ، وقيراط من الخالص الذى يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبى . فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم . ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا ، والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة فى التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس فى أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذى لم يرد إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب .

وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر فى المشوب ، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) ، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه . والذى ينقدح لنا فيه ـــ والعلم عند الله ـــ أن ينظر إلى قدر قوة الباعث . فان كان الباعث الدينى مساويا للباعث النفسى تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب . نعم العقاب الذى فيه أخف من عقاب العمل الذى تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب . وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر مافضل من قوة الباعث الدينى وهذا لقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ولقوله تعالى ﴿ ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ﴾ فلا ينبغى أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذى يساويه وبقيت زيادة ، وان كان مغلوبا سقط بسببه شىء من عقوبة القصد الفاسد . وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها فى القلوب بتأكيد صفاتها . فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه ، وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان فى القلب فهما متضادتان ،فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة ، واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة .

وأحدهما مهلك والآخر منج ، فان كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما . فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات مايقاوم قدر قوته ، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما ، وان كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر فى الجسد بحكم سنة الله تعالى ، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير فى إنارة القلب أو تسويده وفى تقريبه من الله أو إبعاده ، فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لاثواب له قال : وليس تخلو الأخبار من تعارض رواه أبوداود من حديث أبى هريرة : أن رجلا قال يارسول الله رجل يبتغى الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ «لاأجرله ... الحديث» وللنسائى من حديث أبى أمامة بإسناد حسن : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال «لاشىء له » فأعادها ـ ثلاث مرات ـ يقول « لاشىء له »ثم قال « إن الله لايقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه » وللترمذى وقال غريب وابن حبان من حديث أبى هريرة : الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال «له أجران أجر السر وأجر العلانية » وقد تقدم فى ذم الجاه والرياء .

فلم يكن له ولا عليه ، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها [١] » فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه ، فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة . ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال : إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ، ولكن الصواب أن يقال : مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب . وما عندي : أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم . بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب . نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا : فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة .

فإن قلت : فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب . وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين : أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [٢] وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدنى الرياء شرك [٣] » وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له [٤] » وروي عن عبادة « أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي » وروى أبو موسى : أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله علية وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله [٥] » وقال عمر رضي الله عنه : تقولوا فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له [٦] » ، فنقول : هذه الأحاديث لا تناقض ماذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله « من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا » وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لا لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها ، وأما لفظ الشركة حيث ورد فطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له

---

(١) حديث «اتبع السيئة الحسنة تمحها» تقدم في رياضة النفس وفي التوبة . (٢) حديث طاوس وعدة من التابعين أن رجلا سأل النبي ﷺ عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمد ويؤجر فنزلت ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

(٣) حديث معاذ «أدنى الرياء شرك» أخرجه الطبراني والحاكم وتقدم فيه . (٤) حديث أبي هريرة «يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له» تقدم فيه من حديث لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة « من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه» وفي رواية مالك في الموطأ «فهو له كله» . (٥) حديث أبي موسى «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » تقدم فيه . (٦) حديث ابن مسعود « من هاجر ينتهي شيئاً من الدنيا فهو له » تقدم في الباب الذي قبله .

ولا عليه ، فلا ينبغى أن يرجى عليه ثواب ، ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا فى خطر فإنه لا يدرى أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ، ويجوز أن يقال أيضا : منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص فى الغزو . وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو - وإن لم يكن غنيمة - وقدر على غزوه طائفتين من الكفار إحداهما غنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء - لإعلاء كلمة الله والغنيمة - لا ثواب له على غزوه ألبتة ، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فإن هذا حرج فى الدين ومدخل لليأس على المسلمين ، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور ، فيكون تأثير هذا فى نقصان الثواب ، فأما أن يكون فى إحباطه فلا . نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الحظ النفسى ، وذلك مما يخفى غاية الخفاء . فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ فى الاحتياط ، فلذلك ينبغى أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون فى عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها . وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر ، وهكذا ينبغى أن يكون كل ذى بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعتد بما ظهر من عملى . وقال عبد العزيز بن أبى رواد : جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت فى شىء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسى فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لا لى ولا على . ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف فى أعماله فتكلم أبو سعيد فى الإخلاص يوما - يريد إخلاص الحركات - فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها فى أكثر أعماله فيتركها ، فقال أبو سعيد : لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد فى تحصيل الاخلاص ، فما قلت لك اترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل ؟ وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك .

الباب الثالث : فى الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق

قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾ وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا [(١)] » ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به فى معرض المدح والثناء فقال ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾

الباب الثالث فى الصدق

(١) « إن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

﴿ واذكر فى الكتاب إسمعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ﴾ وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح ، الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر . وقال بشر ابن الحرث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس . وقال أبو عبدالله الرملى رأيت منصورا الدينورى فى المنام فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : غفرلى ورحمنى وأعطانى مالم أؤمل ، فقلت له : أحسن ماتوجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : ما رأيت صادقا ! فقال له : لوكنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد بن على الكتانى قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان ، على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثورى فى قوله تعالى ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته . وصاح رجل فى مجلس الشبلى ورمى نفسه فى دجلة ، فقال الشبلى : إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ـ ولا يتم بعضها إلا ببعض ـ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى فى الأعمال ، وطيب المطعم . وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بنى إسرائيل يجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها : لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد المروزى : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق . احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق . وقيل لذى النون : هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل
فدعاوى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذى نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال « قول الحق والعمل بالصدق [1] » وعن الجنيد فى قوله تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والارادة ، وصدق فى العزم ،

---

(١) حديث ابن عباس : سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ .

وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق تحقيق فى مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة فى الصدق ، ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شىء من الجملة فهو صادق بالاضافة إلى مافيه صدقه . (الصدق الأول) صدق اللسان وذلك لايكون إلا فى الإخبار أوفيما يتضمن الإخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان :

(أحدهما) الاحتراز عن المعاريض ، فقد قيل : فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشىء على خلاف ماهو عليه فى نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحوال وفى تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك ، فمن اضطر إلى شىء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ماهو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه . نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره[1] ، وذلك كى لاينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصد ، وليس هذا من الكذب فى شىء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا [2] » ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجان ، ومن كان فى مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير ، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه . ثم التعريض فيه أولى وطريقه ماحكى عن بعضهم ؛ أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته : خطى بأصبعك دائرة وضعى الأصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس فى الدار . فالكمال الأول فى اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا إلا عند الضرورة (والكمال الثانى) أن يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ﴾ فإن قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب . وكقوله ﴿ إياك نعبد ﴾ وقوله : أنا عبد الله ، فإنه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ، ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله : أنا عبد الله ، لعجز عن تحقيقه فإنه ان كان عبدا لنفسه أو عبد لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقا فى قوله . وكل ماتقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام : ياعبد الدنيا ! وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة [3] » فسمى كل من تقيد قلبه بشىء عبداً له .

وانما العبد الحق — لله عز وجل — من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا ، فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد

(١) حديث : كان إذا أراد سفرا ورى بغيره . متفق عليه من حديث كعب بن مالك . (٢) حديث «ليس بكاذب من أصلح بين الناس ... الحديث» متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وقد تقدم . (٣) حديث «تعس عبد الدينار ، الحديث» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

إلا الله تعالى ، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته فى إرادة الله تعالى . وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضى ، لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض ، بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى . فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تحقق العبودية لله تعالى ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق فى القول .

(الصدق الثانى) فى النية والارادة ؛ ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كما روينا فى فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم [١] ـ فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد فى القصد . وكذلك قول الله تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر . وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد مايقول فكذب فى دلالته بقرينة الحال على مافى قلبه ، فانه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به ، فيرجع أحد معانى الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص . فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا .

(الصدق الثالث) صدق العزم ، فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه . ان رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه ـ او بشطره ، أو إن لقيت عدوا فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم ابال وان قتلت ، وان اعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم اعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال ، لفلان شهوة صادقة . ويقال ، هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى او كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخر نفسه ابدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه ، لأن اقدم فتضرب عنقى احب الى من ان اتامر على قوم فيهم ابو بكر ـ رضى الله عنه ـ فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بانه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف ؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهى به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلى ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه ، بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين ان يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب اليه من حياة أبى بكر الصديق .

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخر بالعزم فى الحال إذ لا مشقة فى الوعد والعزم

---

(١) حديث الثلاثة : حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت ... الحديث ، تقدم .

المؤنة فيه خفيفة ، فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾ فقد روى عن أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليرين ما أصنع ! قال : فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياأبا عمرو إلى أين ؟ فقال ، واها لريح الجنة ! إنى أجد ريحها دون أحد ، فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر . ما عرفت أخى إلا بثيابه ، فنزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾[١] ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ـ وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ فقال عليه السلام ﴿ رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ﴾[٢] وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « الشهداء أربعة ، رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا » ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ـ قال الراوى . فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ـ « ورجل جيد الإيمان إذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم غائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذاك فى الدرجة الرابعة[٣] » وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنتصدقن فبخلوا به فنزلت ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ .

وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا . وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب .

ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لا أجده الآن لأنى لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم . وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لى : ما الصدق ؟ قلت : الوفاء بالعهد ، فقالا لى : صدقت ، وعرجا إلى السماء .

(الصدق الخامس) فى الأعمال ؛ وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا يخالف ماذكرناه من ترك الرياء لأن

---

(١) حديث أنس : أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ... الحديث. فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول (رجال صدقوا) الآية أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (٢) حديث : وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية. أخرجه أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا (٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان... الحديث» أخرجه الترمذى وقال حسن.

المرئي هو الذي يقصد ذلك ، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مرائيا إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خفية ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا دلالة في الظاهر على الباطن .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عند قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريرتي خير من علانيتي واجعل علانيتي صالحة[1] » وقال يزيد بن الحرث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :

إذ السر والإعلان في المؤمن استوى ... فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له ... على سعيه فضل سوى الكد والعنا
فما خالص الدينار في السوق نافق ... ومغشوشة المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدي حقا . وقال معاوية بن قرة : من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار . وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أرا أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة — ويبكي . وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية .

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

(الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها ؛ الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه ، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له : سألناك عن الإيمان فقال : سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية[2]

ولنضرب للخوف مثلا : فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم

---

(١) حديث «اللهم اجعل سريرتي خير من علانيتي ... الحديث» تقدم ولم أجده . (٢) حديث أبي ذر: سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إلى قوله (أولئك الذين صدقوا) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة ولم أجد له إسنادا .

ولكنه غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة ، أما تراه إذ خاف ، سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره ، حتى لاينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحظور . ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شىء من ذلك عند جريان معصية عليه لذلك قال ﷺ «لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها[١]» فالتحقيق فى هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى ، فاذا قوى سمى صادقا فيه ، فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها إلا ولذلك قال النبى ﷺ لجبريل عليه السلام «أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك » فقال : لا تطيق ذلك قال « بل أرنى » فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبى ﷺ فاذا هو به قد سد الأفق — يعنى جوانب السماء — فوقع النبى ﷺ مغشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل إلى صورته الأولى فقال النبى ﷺ « ماظننت أن أحدا من خلق الله هكذا» قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع[٢] يعنى كالعصفور الصغير ، فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم .

وقال جابر قال رسول الله ﷺ « مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملإ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى[٣] » يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير ، وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله ﷺ ، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله . وقال مطرف : مامن الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبى ﷺ « لايبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير[٤] » فالصادق اذن فى جميع هذه المقامات عزيز . ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض ، فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ، ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها ، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها . وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ماظننت ان هذه الخصال تجمع الا فى النبى عليه السلام . فهذا صدق فى هذه الأمور ، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ ؟ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه . والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعانى . نعم قد قال أبو بكر الوراق : الصدق ثلاثة ، صدق التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ وصدق الطاعة لأهل العلم

---

(١) حديث «لم أر مثل النار نام هاربها... الحديث» تقدم . (٢) حديث: قال لجبريل «أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك » فقال : لا تطيق ذلك ... الحديث . تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا : والذى ثبت فى الصحيح أنه رأى جبريل فى صورته مرتين . (٣) حديث «مررت ليلة أسرى بى وجبريل بالملأ الأعلى كالحلس البالى من خشية الله ... الحديث » أخرجه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادى ضعفه الجمهور وقال البيهقى ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن محمد بن عمير عطارد وهذا مرسل (٤) حديث « لايبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير » لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع .

والورع ، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض — وكل هذا يدور على ماذكرناه فى الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام — وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى ﴿ هو اجتباكم ﴾ وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه ، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا ، وإن وجدته جزوعا يشكونى إلى خلقى خذلته ولا أبالى ، فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها .

تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة ، والحمد لله .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب على خوطر عباده إذا اختلجت ، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت ، فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت ، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت ، وبلطف عنايته فترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ماتيسرت، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد : فقد قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه ﴾ فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون فى الحساب

ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لاينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم بذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة . فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله .

وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا ؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لايغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع الناس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير فى خير لايدوم بل شر لايدوم خير من خير لايدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير . ولذلك قيل :

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لايغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لايتناهى نعيمه أبد الآباد ، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل . فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته . فيقول للنفس : مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنسأ فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا ، فاحسبى

أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى يانفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ،فيفتح له منها خزانة فيراهامملوءة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار مالو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع مالو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه[1] » وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغبنا . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين مايدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار . وقد قال بعضهم : أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته .

ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة وهى العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها اليها فانها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها (أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها ؛ وهو ماخلقت له النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار ، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء ، والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو لا سيما اللسان والبطن (أما اللسان) فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه فى الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة فى الكلام وغير ذلك — مما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله — مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر : فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و ﴿ مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ (وأما البطن) فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال

(١) حديث « ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ففتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسناته ... الحديث » . بطوله لم أجد له أصلا .

واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها . هكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها . وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ، ولكن لايخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد : فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ ذكر ذلك تحذيرا أو تنبيها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت : أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه ، وإن كان غيا فانته عنه[1]» وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه ﷺ أنه قال «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله[2]» دان نفسه ، أي حاسبها . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله ﴿أئنا لمدينون﴾ أي لمحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر . وكتب الى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله ؟ قال ، ويل لديان الأرض من ديان السماء ، فعلاه بالدرة وقال الا من حاسب نفسه ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف الا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت . ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

المرابطة الثانية : المراقبة

اذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها

---

(١) حديث عبادة بن الصامت « إذا أردت أمر فتدبر عاقبته ... الحديث » تقدم .

(٢) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ... الحديث » تقدم .

بالعين الكالئة فإنها تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه (١) » وقال عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٢) » وقد قال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وقال الله تعالى ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى ! فسأله عن تفسيره فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبا على فلا أبالى بغيره . وقال أبو عثمان المغربى : أفضل مايلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الحريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين ، أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما . وقال أبو عثمان . قال لى أبو حفص ، إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى فى يده ، فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعا لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع على فى كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا . حق لك أن تكرم .

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف : مالك ، أتستحين من مراقبة جماد ولا أستحى من مراقبة الملك الجبار ! وحكى عن بعض الأحداث أنه رواد جارية عن نفسها فقالت له : ألا تستحى ؟ فقال : ممن أستحى وما يرانا إلا الكواكب ! قالت : فأين مكوكبها ! وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور اليه . وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة . قيل له : ومن يسكنها ؛ قال يقول الله عز وجل وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتى ، وعزتى وجلالى إنى لأهم بعذاب اهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى اصرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة . ويروى أن الله تعالى قال لملائكته . أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن على الترمذى : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ فقال معناه ، ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذو النون : بما ينال العبد الجنة ؟ فقال : بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب

---

(١) حديث سأل جبريل عن الإحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه» متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم . (٢) حديث «اعبد الله كأنك تراه . . . الحديث » تقدم .

له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ماخلوت الدهر يوما فلاتقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على : عظنى ، فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لايراك فلقد كفرت . وقال سفيان الثورى : عليك بالمراقبة ممن لاتخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجى : إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال : إنى مملوك . فقال : قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال : فأين الله ؟ قال : فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصرف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال : إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب . وأما الحالة : فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه . وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة : فهو بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا — أعنى أنها خلت عن الشك — ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ! فرب علم لاشك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت على القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

(الدرجة الأولى) مراقبة المقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا ، وهذه مراقبة لا تطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب . وأما الجوارح فإنها تعطل عن التلفت إلى المباحات فضلا عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعة كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى ، فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هما واحد فكفاه الله سائر الهموم . ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لايبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له من أنه لاصمم به ، وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى . ولاتستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لايحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم . بل قد يشتغل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص

الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لعبد الواحد ابن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة ! فما كان إلا سريعا حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال من موضع كذا ـــ وكان طريقه على السوق ـــ فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال ما رأيت أحدا .

ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام : أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيدا منهم ، فتقدمت اليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله تعالى أشهى ! فقلت أنت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى ! فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه . فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فانهما لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شىء فقال له : من أين أخذت هـذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنور كانت لنا ، فكانت إذا أردت الصيد رابطت على رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبدالله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى ـــ المعروف بالزاهد ـــ إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبـة ، فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ؟ فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شىء ، فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب ، فقلت : نشدتكما بالله ألا رددتما على السلام ! فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير ، يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا ؟ قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى ، فلما كان وقت العصر قلت : عظنى ! فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة ، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئا ولا شربا ، فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعظانى لعلى أنتفع بعظهما ، فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك ، ويعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله ، والسلام ؛ قم عنا ! فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

(الدرجة الثانية) مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة لتلتفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فى الدنيا يرون الله الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة .

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ، فانك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك ، لا عن اجلال وتعظيم بل عن حيـاء ، فان

مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ؛ لا حياء منه . فهكذا تختلف مراقبة العباد فى مراقبة الله تعالى .

ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ، ونظر فى العمل (أما قبل العمل) فلينظر أن ماظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف فى بداية الأمر إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه ، فإن فى الخبر : إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث : لمن ؟ [(١)] ومعنى « لم » أى لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت اليه بشهوتك وهواك ؟ فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له : كيف فعلت هذا ، فان لله فى كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال : كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن ! فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو بالإخلاص فيقال له : لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاء بقولك « لا إله إلا الله » فيكون أجرك على الله ! أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه ! أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ! أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك ! وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ ويحك أما سمعتنى أقول ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ « إن الرجل ليسئل من كحل عينيه وعن فت الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه [(٢)] » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر . وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عند همك إذا هممت [(٣)] » وقال محمد بن على : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل . فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقة بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمه وفكرته وسكوته وحركته ، فلا يسلم فى هذه المراقبة . بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات ! بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم

---

(١) حديث ينشر للعبد كل فى حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم ؟ والثانى كيف ؟ والثالث لمن ؟ » لم أقف له على أصل . (٢) حديث : قال لمعاذ « إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه ... الحديث » الذى فى تقدم قبله (٣) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن : اتق الله عن همك إذا هممت ، أخرجه أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم .

أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه . فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران . فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة ،فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فنمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فان الخطوة الأولى فى الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ،والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فان جميع ماوراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى ، فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضىء بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى . فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا فلتسكن همة المريد اولا فى أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا او ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها .

وقد قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات[1]» جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا[2] » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ، ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ماقصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت[3] » ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم .

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال « فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم[4] ﴾ وقوله عليه السلام « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث[5] » وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله عنه : اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى . وقال عيسى عليه السلام « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه

---

(١) حديث « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ... الحديث» أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور. (٢) حديث «من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود إليه أبدا» تقدم ولم أجده (٣) حديث «أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت» لم أجده (٤) حديث « فإذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ... الحديث » تقدم. (٥) حديث « إياكم والظن ... الحديث » تقدم .

وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه(١) » وقد كان من دعاء النبي ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم(٢) » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق ، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده ﴿ وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ وأراد به العلم وقال تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إن علينا للهدى ﴾ وقال ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ وقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونعم طارد الهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفى الصدق السلامة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرا التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على مالم يصل إليك ، واستدل على مالم يكن بما كان فانما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرون به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ماخلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت .

وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله « ومن التوفيق التوقف عند الحيرة » فاذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى . وقد قال ﷺ « ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه : لايخاف فى الله لومة لائم ، ولا يرائى بشىء من عمله ، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة للآخرة آثر الآخرة على الدنيا(٣) » وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه(٤) » .

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل ، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل مايمكنه ، وهذا ملازم له فى جميع أحواله فانه لا يخلو فى جميع أحواله عن عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب . فان كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ « خير المجالس ما استقبل به القبلة(٥) » ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه ، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ! فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان ينام . فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة — مع سائر الآداب التى ذكرناها فى موضعها — فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة.

فاذن لايخلو العبد إما أن يكون فى طاعة ، أو فى معصية ،أو فى مباح .
فمراقبته فى الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .

---

(١) حديث « قال عيسى الأمور ثلاثة ... الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .
(٢) حديث « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم » لم أجده . (٣) حديث « ثلاثة من كن فيه استكمل إيمانه لايخاف فى الله لومة لائم ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (٤) حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » يقدم . (٥) حديث « خير المجالس ما استقبل به القبلة » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم .

وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر .

وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد فى جملة أحوال عن بلية لابد له من الصبر عليها ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته . ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ، فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة . فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية . وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها ؟ وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه . فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى ، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ماروا‌ه أبو ذر رضى الله تعالى عنه من قوله عليه السلام « لا يكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة فى غير محرم [1] » وما روى عنه أيضا فى معناه « وعلى العاقل أن تكون له أربعة ساعات ساعة يناجى فيها ربه ساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب [2] » فان فى هذه الساعة عونا له على بقية الساعات . ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذى يتناوله مثلا فيه من العجائب مالو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح . والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون اليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة فيه ـ كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر ـ وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سببا لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع . وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله فى النظر منه إلى

---

(١) حديث أبى ذر «لايكون المؤمن ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد...الحديث» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه ﷺ قال إنه فى صحف موسى وقد تقدم . (٢) حديث « وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ... الحديث » وهى بقية حديث أبى ذر الذى قبله .

الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً

وقسم رابع ينظرون اليه بعين الرغبة والحرص . فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حصرهم منجملته، ويذمون منه مالا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبخ والطباخ ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر [1] » فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

المرابطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه إشارة إلى المحاسبة على مامضى الأعمال ، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وفى الخبر : أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يارسول الله أوصنى فقال « أمستوصٍ أنت ؟ » فقال : نعم ، قال « إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فانته عنه » وفى الخبر: وينبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « انى لأستغفر الله تعالى وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة [2] » وقال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وعن عمر رضى الله عنه ؛ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم؛ وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلى من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت : فأعادت عليه ماقال فقال : لا أحد أعز على من عمر ، فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبر وأبدلها بكلمة غيرها ؟ وحديث أبى طلحة ، حين شغله الطائر فى صلاته — فتدبر ذلك — فجعل حائطه صدقة لله تعالى ، ندما ورجاء للعوض مما فاته [3] .

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له :يا أبا يوسف قد كان بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال : أردت ان اجرب نفسى هل تنكره ؟ وقال الحسن ، المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا انفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم اخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال ، إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول ، والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ولكن هيهات حيل بينى وبينك ! وهذا حساب قبل العمل ، ثم قال : ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذاأردت بهذا، والله لا اعذر بهذا والله لا اعود لهذا ابدا إن شاء الله! وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فسمعته يقول — وبينى وبينه جدار — وهو فى الحائط،عمر

---

(١) حديث «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة » تقدم غير مرة .

(٣) حديث أبى طلحة : حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة . تقدم غير مرة .

ابن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك . وقال الحسن فى قوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » قال : لايلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدمالا يعاقب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ، ألست صاحبة كذا ! ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح . وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى يانفس أى شىء تريدين ؟ فقالت : أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا ! قلت فى الأمنية فاعملى . وقد قال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فمازال يقول حتى أبكانى . وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل ، الدعاء ، وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه : ياحنيف ماحملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ماصنعت يوم كذا .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ـ كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل ، فكيف لايحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل . فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفى منها مايتدارك به ما فرط ــ كما يصنع التاجر بشريكه ـ وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لايغبن فى شىء منها فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ماسيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها : فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها

بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعةساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ـ كما نقل عن توبة ابن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه ، فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فاذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: ياويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ، فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ؛ ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت ، فسمعوا قائلا يقول : يالك ركضة إلى الفردوس الأعلى ! فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك « أحصاه الله ونسوه » .

المرابطة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فانه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي الطريق الآخرة فقد روى عن منصور بن إبراهيم : أن رجلا من العباد كلمهم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست . وروى أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد ان يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ! رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعودمعي في صومعتي لايكون والله ذلك ابدا ! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك وأنزل في بعض كتبه ذكره . ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن اغتسل وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثتني نفسي بالتأخير حتى اصبح واسخن الماء أو ادخل الحمام ولا اعني على نفسي فقلت : واعجباه انا اعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا اجد في المسارعة واجد الوقوف والتأخر ! آليت ان لا اغتسل إلا في مرقعتي هذه ، وآليت ان لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا في بعض مغازيهافتكشفت جارية فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للحاظة إلى مايضرك . ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لايشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ويحكى ان حسان بن ابي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ! ثم اقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ! لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا . إنه نائم ، فقال : انوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفا فأتبعناه رسولا وقلنا له : الا نوقظه لك ! فجاء الرسول وقال : هو أشغل من ان يفهم عني شيئا ، ادركته وهو يدخل المقابر وهو يعاقب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ افكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء ؟ وما يدريك أن هـــذا ليس وقت

نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله عهدا لا أنقضه أبداً ! لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل أو لعقل زائل ، سوأة لك أما تستحين ! كم توبخين وعن غيك لا تنتهين . قال : وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى ، فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ، فقام سنة لم ينم فيها ، عقوبة للذى صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوقى ! ونار جهنم أشد حرا ! أجيفة بالليل بطالة بالنهار . فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتنى نفسى ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ألم يكن لك بدا من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يافلان ادع لى ! يافلان ادع لى ! فقال النبى ﷺ «عمهم» فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم سدده» فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم[1] . وقال حذيفة ابن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها . فقال: ماعلى وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها . ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات — وهو فى بيته على التراب — فقال ياداود سجنت قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه : أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشر تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك ! فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس : كنا فى غزوة لنا فحضر العدو ، فصيح فى الناس فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى ، أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك ! فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه ، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل ، فوالله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا ، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم . وعن مجمع : أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ماحملك على أن صنعت يوم كذا وكذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ، ويحك ! إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائى ، وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ، فقال ، لو أكلته بملح ! فقال إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحا مادام فى الدنيا .

فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل

(١) حديث طلحة : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء وكان يقول لنفسه : ونار جهنم أشد حرا ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس من رواية ليث بن أبى سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ، ولا أدرى من طلحة هذا .

نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له و نفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد فارقت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو تصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها فأقول : سبيلك فى ذلك أن تسمعها ماورد فى الأخبار من فضل المجتهدين[1] ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتنى فترة من العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم ويبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فما أعظم ملكهم وما اشتد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة ؛ ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل مايشتهيه أبد الآباد ؛ نعوذ بالله من ذلك .

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم ، فقد قال رسول الله ﷺ « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى[2] » قال الحسن أجهدتهم العبادة ؛ قال الله تعالى ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ؛ وقال رسول الله ﷺ « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله[3] » ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته ، مابال عبادى مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفتهم شيئا فخافوه وشوقتهم شيء فاشتاقوا إليه ؛ فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن ادركت أقواما وصحبت

---

(١) الأخبار الواردة فى حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » وله وللنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته » وللترمذى من حديث بلال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . . . الحديث » وقال غريب ولا يصح وقد تقدم فى الأوراد مع غيره من الأخبار فى ذلك . (٢) حديث رحم الله أقواما تحسبهم مرضى وماهم بمرضى » لم أجد له أصلا فى حديث مرفوع ولكن رواه أحمد فى الزهد موقوفا على على فى كلام له قال فيه : ينظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض (٣) حديث « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة « عن » وهو مدلس وللترمذى من حديث أبى بكرة « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وقال حسن صحيح

طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤنه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله يغفرها لهم ، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة . ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، واذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يافتى ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض ، فقال : سألتك بالله الا صدقتنى ؟ فيقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر الى عرش ربى والناس يساقون الى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب وعقابه . وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوم فقال : ان فى سقف بيتك جذعا مكسورا فقال : يا ابن أخى ان لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت الى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا الى أحمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ! فقيل له فى ذلك فقال . ان الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد الى عظمة الله تعالى ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة .

وقالت امرأة مسروق ، ماكان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ! وقالت ، والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له . وقال أبو الدرداء ، لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا ، الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ! فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا ! فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانه شيئا إلا جئت به وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم الف ركعة ، حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسا الف ركعة ، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ! وكان ثابت البنانى قد حببت اليه الصلاة فكان يقول . اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى . وقال الجنيد ، ما رأيت أعبد من السرى ! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا إلا فى علة الموت . وقال الحرث بن سعد . مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ، فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون ، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ! فبكى القوم عن آخرهم .

وعن أبى محمد المغازلى قال: جاور أبو محمد الحريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمد رجليه ، فعبر عليه أبو بكر الكتانى فسلم عليه وقال له . يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا ! فقال ، علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى ، فأطرق الكتانى ومشى مفكرا . وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه

يبكى — حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه — فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت : ولم بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما فقلت له ، على ماذا بكيت الدموع؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لى الدمع ؟ قال ، فرايته بعد موته فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى ، فقلت له فماذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربى عز وجل وقال لى : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت : يارب على تخلفى عن واجب حقك ، فقال : والدم على ماذا فقلت : على دموعى ان لاتصح لى ، فقال : لى يافتح ما اردت بهذا كله ، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة . وقيل إن قوما أرادوا سفر فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفردعن‌الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا : يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ، فأومأ برأسه ان يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث ، فعجب القـــوم من كلامه فقالوا : ياراهب علام الخلق غدا عند مليكهم ، فقال : على نياتهم ، فقالوا : أوصنا ، فقال : تزودوا على قد سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ، ثم أرشدهم إلى الطريق وادخل رأسه فى صومعته .

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من‌رهبان الصين‌فناديته: ياراهب، فلم يجبنى فناديته يجبنى الثانية فناديته الثالثة فأشرف على وقال: ياهذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله فى سمائه وعظمه فى كبريائه‌وصبرعلى بلائه ورضى بقضائه وحمد على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار ؛ فذلك هو الراهب،وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم ! فقلت : يا راهب فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ، فقال : ياأخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على مايقربه من ربه .

وقيل لداود الطائى لو سرحت لحيتك فقـال : إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع فيحيى الليل كله فى ركعة ، وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود فيحيى الليل كله فى سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لايتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك ! قال : الرفق أطلب ! دعينى أتعب قليلا وأتنعم طويلا . وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا ، وكان سفيان الثورى يقول ، عند الصباح يحمدالقوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان‌لاينام طول الليل . وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول بنفسه ؛ قومى يامأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول ذهب نصف عملى . وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ، فيقول : يابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع مايلق الربيع من البكاء‌والسهر نادته: يابنى لعلك قتلت قتيلا ، قال : نعم ياأماه . قالت : فمن هو حتى نطلب من أهله فيعفوا عنك، فوالله لو يعلمون ماأنت فيه لرحموك وعفوا عنك ، فيقول : يا أماه هى نفسى .

وعن عمر — ابن أخت بشر بن الحرث — قال . سمعت خالى بشر بن الحرث يقول لأمى ، ياأختى جوفى وخواصرى تضرب ، فقالت له أمى : يأخى أتأذن لى حتى اصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ، فقال لها : ويحك ! أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى إيش

أقول له . فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم . قال عمر : ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي : ياأخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك ، فسمعته يقول لها : وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها علي . قال عمر : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أويسا فوجدته جالسا حتى صلى الفجر ، ثم جلس فجلست فقلت : لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع ، فقلت : حسبي هذا منه ، ثم رجعت .

ونظر رجل إلى أويس فقال : ياأبا عبدالله مالي أراك كأنك مريض ؟ فقال : ومالأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك في صدري فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم .

وقال ثابت البناني : أدركت رجالا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم ركعة . وعن أبي بكر المطوعي قال كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين مرة - شك الراوي ، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جادت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يابني أصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا ، فيقول ياأمه أنا اعلم بما صنعت بنفسي ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول مارأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار فما ينام حتى يصبح فإذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبدالقيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار .

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين - يعني من كان حوله - وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لا مني فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه زحاما

حتى يعلموا أنهم قدخلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ماوجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلاينام ، وأنه مات وهوساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى . وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها أسلم عليها ، فغدوت يوما إليها فإذا هى تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ وتبكى وتدعو وتردد الآية ، فقمت حتى مللت وهى كما هى ؛ فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت : أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو . وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبدالرحمن ابن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاة من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين . وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها . فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره.

وكان عامر بن القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى ، وتميتنى ولا تعلمنى ، وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ، ثم قلت لى : استمسك ، إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى ، إلهى فى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرح .و قال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة ، قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لاتنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح .

وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال : كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب ــ وكان له أهل وبنات ــ وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ، أفلا تقومون فترحلون ، فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضىء ، فاذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته ، عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ومالا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذلون لمن أرادهم تواضعا .

وهذه طريقة لايبلغ إليها بالتكليف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذا هبطت إلى واد هناك ، فاذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فاذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ﴿يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا﴾ إلى قوله « ويحذركم الله نفسه » قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذا صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت : واأسفاه هذا لشقائى . ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذبك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال : لك خشعت قلوب الخائفين وإليك

فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا ومالى . عليك يا دنيا بأبناء جنسك وألاف نعيمك ! إلى محبيك فاذهبى ! وإياهم فاخدعى ! ثم قال : أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة ،فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون ؟ فناديته ياعبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك ،فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه . أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها. ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون﴾ ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشيا عليه ، فقلت : قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول : من أنا ، ما خطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك . وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالذى ترجوه لنفسك وتثق به ألا كلمتنى . فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد أبليس . ويجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ؟ فإليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى ، وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ويتفضل على برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته .

وقال بعض الصالحين : بينما أسير فى مسير لى إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها ، فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ اللهم بارك فى الموت ، فقلت : وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يامن لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك،ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ، ثم مضى وتركنى . وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته : أغثنى يا عمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا :

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فردا ... ويظهر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهون
فيدرك ما أراد وما تمنى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقيل له : قد أجهدت نفسك ، فقال . كم عمر الدنيا ، فقيل سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ،فقيل:خمسون ألف سنة ،فقال :كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ، يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت

سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لاغاية لها ، فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها. فهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء « فان لم تكن إبل فمعزى » وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر فى الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط فى سلك الحمق وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء .

فان حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لايطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها : يانفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها .

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات ، فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأعزى ، وعزتك لهذا دأبى ودأبك ماأبقيتنى وعزتك لو انتهرتنى عن بابك مابرحت لما وقع فى نفسى من جود كرمك .

ويروى عن عجزة أنها كانت تحيى الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين وأن تلحقنى بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لى : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها . فقال : أنت وذاك ، قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ماتريدين . قال : فبكت ثم قالت : والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى دما حتى لاتبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء وأنى لى بالبكاء ، فلم تزل تردد « وأنى لى بالبكاء » حتى غشى عليها .

وقال محمد بن معاذ حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة فاذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت . ما شأن أهل الجنة قيام . فقال لى قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت . ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة ، قالت : فقلت أختى والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت ، ياأختى اما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك. قالت : فتبسمت إلى وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين ألزمى الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت .

وقال عبد الله بن الحسن . كانت لى جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها ، فقمت اطلبها فاذا هى ساجدة وهى تقول: بحبك لى إلا ماغفرت لى ذنوبى ، فقلت لها لا تقولى بحبك لى ولكن قولى بحبى لك ، فقالت . يا مولاى بحبه لى اخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى ايقظ عينى وكثير من خلقه نيام . وقال ابو هاشم القرشى ، قدمت علينا امرأة من اهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض

ديارنا ، قال : فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لى : أشرف على هذه المرأة ، ماذا تصنع ، قال : فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول . خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل ، وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شىء قدير .

وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول ، « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة من صوف وبيدها ركوة ، فقالت لى ؟ من أنت ؟ غير فزعة منى ، فقلت : رجل غريب ؟ فقالت : ياهذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال ؛ فبكيت لقولها فقالت لى : ما الذى أبكاك ! فقلت : وقد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه ، قالت فان كنت صادقا فلم بكيت ، قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكى ، قالت ؛ لا ، قلت : ولم ذاك ، قالت : لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجبا من قولها . وقال أحمد بن على . استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنها وهى تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها أمة الله ادعى لنا ، فقالت : جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ، ثم قالت لنا : مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق فى بطنه ، فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ؛ وياليتها إذا غضت لم تعد .

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت : لا تبرحى حتى أنصرف إليك ، قال . فانصرفت فلم أجدها فى الموضع ، فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت ، يامولاى لا تعجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكرا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع ، فعجبت لقولها وقلت لها . أنت حرة . فقالت ساء ماصنعت كنت اخدمك فيكون لى اجران ، واما الآن فقد ذهب عنى احدهما . وقال ابن العلاء السعدى ، كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى الصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء . فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها فى كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف اصبحت قالت أصبحنا اضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر التى ندعى فنجيب فقلنا لها ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، إن يكن عند لعينى الله تعالى خير فما يضرهما ماذهب منهما فى الدنيا وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء ، اطول من هذا ، ثم اعرضت قال : فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه.

وكانت معاذة العدوية إذ جاء النهار تقول ، هـــذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول ، هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح . وقال أبو سليمان الدرانى : بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محرية لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر فلمـــا كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ، قالت جزاؤه أن تصوم له غدا . وكانت شعوانة تقول فى دعائها ، إلهى ما اشوقنى إلى لقائك واعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن اولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، الهى قد جرت على نفسى فى النظر لها ويبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى

ولقدرجوت من تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه ، إلهى كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى ، إلهى إن كانت ذنوبى قدأخافتنى فإن محبتى لك قد أجارتنى فتول من أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله ، إلهى لو أردت إهانتى لما هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بما له هديتنى وأدم لى ما به سترتنى ، إلهى ما أظنك ترددنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى ، إلهى لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة - وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت - وكانت تصلى قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرنا لها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر ، قال : فشهقت ثم قالت : علمى بنفسى قرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئاً مذكورا ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لأنفسهم أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب « حلية الأولياء » فهو مشتمل على شرح احوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فان حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت : إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما فيه وعليه ، فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم والمصيبة إذا عمت طابت - فإياك أن تدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال : وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك : ان المصيبة إذا عمت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ؟ ومن أين بطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت ان لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

المرابطة السادسة : فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة الموعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة من تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى ، وقال تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وانها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة

والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وانت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين او غد . فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا ، اما تعلمين ان كل ما هو آت قريب وان البعيد ما ليس بآت ، أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وانه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأنفاس يمكن ان يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجاة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب . أما تتدبرين قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ويحك يانفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أنك تطيقين عذابه ، هيهات هيهات ! جربي نفسك ، إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل اليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يانفس ماأعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال في أمر الآخرة ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يانس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات ! اتحسبين أنك تتركين سدى ! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى اليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ! فان كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك ! اما تتفكرين أنه مماذا خلقك ، من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله . ثم إذا شاء أنشرك ؟

فان لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك ، ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ؟ والعجب انه لو اخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ! أفكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة

الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوما وأقل منه ، ماهذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك ، فإن كنت يانفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك انك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ، إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ، أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى ، ثم هبي أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك ؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ؟ أفتنتظرين يوما يأتيك لا عسر فيه عن مخالفة الشهوات ؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس ، وهذا محال وجوده ، أما تتأملين منذ كم تعدين نفسك وتقولين : غدا غدا ، فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته .

أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوما كان له حكم الأمس لا بل الذى تعجزين عنه اليوم فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه فى الشباب لا يقدر عليه قط فى المشيب . بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك ، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟

ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات وقلة صبرى على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ، إن كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهواتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات . وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب فترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربة طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ، أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم .

وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته . وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحمق جلى . أما الكفر الخفى : فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحمق الجلى : فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك — مع انك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها

من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل — وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » .

ويحك يانفس لاينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولاتضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى الآخرة على قدر بقائك فيها ، يانفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ؟ فتجمعين القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب ، ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا ؟ .

كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة ؟ أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات . كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات ، وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه ، كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه إذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين .

ويحك يانفس انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ و ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ و ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يانفس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لامحالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمق ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا مجاز وكل مافيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه واعمل ماشئت فانك مجزى به وعش ماشئت فإنك ميت[1] » . ويحك يانفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لايدرى ؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون ما لايسكنون ويؤملون مالايدركون . يبنى كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الأرض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا .

أما تستحيين يانفس من مساعدة هؤلاء الحمق على حماقتهم ، واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه

---

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث» تقدم فى العلم وغيره .

الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل المنكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء، يانفس ماأعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجبا لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة. ولعلك يانفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، او ما تتفكرين ان الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبى ان كل من على وجه الأرض يمن عبدك ويجد لك، وسيأتى زمان لايبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما اتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فـ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فكيف تبيعين يانفس مايبقى ابد الآباد بما لايبقى اكثر من خمسين سنة إن بقى؟.

هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى اذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك ان يسلم لك امر محلتك بل امر دارك فضلا عن محلتك؟ فان كنت يا نفس لاتتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها وتوقيا من سرعة فنائها. أم مالك لاتزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء.فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال من جملة الحمق الجاهلين أياما قلائل فياحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين! فبادرى ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلى عنك عند الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يانفس مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها،فلو بكيت بقية عمرك على ماضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك. أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لايبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم. أما تعلمين يانفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك مافرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين ايامك فى الغفلة والبطالة. ويحك يانفس اما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم افتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق.

ويحك أهو أهون الناظرين عليك اتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وانت له ناسية. أما تعلمين يانفس ان المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وانت غير طيبة فى نفسك.

ويحك يانفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك. ويحك يانفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات مالو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد ان عبده مائتى الف سنة، واخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يانفس ما أغدرك ويحك يانفس ما أوقحك ويحك يا نفس ماأجهلك وما أجرأك على المعاصى. ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يانفس انشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير

مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ؟ ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟.

هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ! ما أنت إلا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو وسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك . وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين عن الدنيا وهى معرضة عنك . فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك .

فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تجيبين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار مقامة وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود .

إعملى قبل أن لا تعملى أخرجى من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكونى ممن يعجز عن ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى

واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خاف ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر .

فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد بالنار رضى وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية ، فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فان لم تزل فبمقلة المخالطة والكلام ، فان لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام ، فان لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وإنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له ، فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ـ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعه رحمة منك على نفسك ، فان سمحت ـ فمستقى الدمع من بحر الرحمة ـ فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبى على النياحة والبكاء واستعينى بأرحم الراحمين واشتكى إلى أكرم الأكرمين وأدمنى الاستغاثة ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديت قد

طال وقد انقطعت منك الحبل وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلى إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم والمسئول جواد والمستغاث به بر رءوف واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا المتمادى الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين ، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال : يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا آدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله : إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى ! واعبيداه إن كانت النار لك مقبلا ومأوى ! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول : يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى على فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي ؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فإلى متى أتوب وإلى متى أعود . أما آن لي أن أستحيي من ربي ! .

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام تم كتاب المحاسبة والمراقبة . يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين فى بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا ، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجيلى فى ذل العبودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا ، وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى ، وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا ، وتأملى فى بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا وضرا ، وعسرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وإيمانا وكفرا ، وعرفانا ونكرا ، فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا ، وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادى إشراقه وانتقصت على أعقابها اضطرارا وقهرا ، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته فخرا . صلاة تبقى لنا فى عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة [1] » وكثر الحث فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم ، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ، ولم يعلموا أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذى يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه ؟ فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعا ؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر . ثم حقيقة التفكر وثمرته . ثم مجارى الفكر ومسارحه . إن شاء الله تعالى .

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبير فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى

كتاب التفكر

(١) حديث « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » أخرجه ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ « ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ « خير من قيام ليلة » .

خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مالكم لاتتكلمون ؟ » فقالوا : نتفكر فى خلق الله عزوجل قال « فكذلك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ، لاتتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها ، مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عزوجل لم يعصوا الله طرفة عين » قالوا : يارسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال « مايدرون خلق الشيطان أم لا » قالوا : من ولد آدم ؟ قال « لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت : ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر غبا تزدد حبا » قال ابن عمير : فأخبرنا بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا . أتانى فى ليلتى حتى مس جلدى ثم قال « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح ، فقال يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » فقيل للأوزاعى ماغاية التفكر فيهن قال : يقرؤهن ويعقلهن . وعن محمد بن واسع : أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر - بعد موت أبى ذر - فسألها عن عبادة أبى ذر فقالت : كان نهاره أجمع فى ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك : وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة . فقال : الفكر مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل

إذا المرء كانت له فكرة فنى كل شىء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم ، ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم ، من كان منطقه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فإنه مثلى . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو ، وفى قوله تعالى ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾ قال : أمنع قلوبهم التفكر فى أمرى . وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة » فقالوا : يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال « النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه » (٤) وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فى الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاه فيقول : يالقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو

---

(١) حديث ابن عباس : إن قوما تفكروا فى الله عز وجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لاتقدروا قدره » أخرجه أبو نعيم فى الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث : خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال « مالكم لاتتكلمون » فقالوا : نتفكر فى خلق الله ... الحديث » رويناه فى جزء من حديث عبد الله بن سلام . (٣) حديث عطاء : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة ... الحديث » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث فى نزل ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ وقال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » تقدم فى الصبر والشكر وفى أنه صحيح ابن حبان من رواية عند عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء . (٤) حديث أبى سعيد الخدرى « أعطو أعينكم حظها من العبادة ... الحديث » أخرجه بن أبى الدنيا ومن طريقة أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة بإسناد ضعيف .

جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه : ماطالت فكرة امرىء قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن على ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت . قال . الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس فى عظمة الله ماعصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينما أبو شريح يمشى إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكى فقيل له : ما يبكيك ، قال : تفكرت فى ذهاب عمرى اقتراب أجلى . وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر . وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب . وقال حاتم : من العبرة يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعوا إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه . ويروى أن الله تعالى قال فى بعض كتبه ؛ إنى لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لى جعلت صمته تفكر وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة وقال إسحاق بن خلف كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة قمراء ، فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر الى السماء ويبكى حتى وقع فى دار جار له قال : فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف وظن أنه لص ، فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذى طرحك من السطح ، قال . ماشعرت بذلك . وقال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال : يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه وقال الشافعى رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر . وقال أيضا : صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور ، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة ففكر قبل أن تعزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم ، وقال أيضا : الفضائل أربع (احداها) الحكمة وقوامها الفكرة . (والثانية) العفة وقوامها فى الشهوة . (والثالثة) القوة وقوامها فى الغضب (والرابعة) العدل وقوامه فى اعتدال قوى النفس . فهذه أقاويل للعلماء فى الفكرة وماشرع أحد منهم فى ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

بيان حقيقة الفكرة وثمرته

أعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منها معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال والى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة اولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان :

(أحدهما) ان يسمع من غيره . ان الآخرة اولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعملة إلى إيثار الآخرة اعتمادا مجرد قوله : وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة .

(والطريق الثانى) ان يعرف إن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة ابقى . فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين .

فإحضار المعرفتين السابقتين فى القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا

وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكر : فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة . وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر : فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحدا ؛ كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد لكن باعتبارات مختلفة . فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه ، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد ،

فكذلك الاعتبار : ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم : التذكر ، لا اسم : الاعتبار . وأما النظر والتفكر ، فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة ، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا ، فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكر . وفائدة التذكار تكرار المعارف في القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب . وفائدة التفكر : تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر .

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت في القلب على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى ، فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما ينسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق . هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي الى طريق التفكر ، وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح ، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها .

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين - وذلك عزيز جدا - وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر . ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ، ولا يقدر بالتعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد . فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين : وهو أن الأبقى أولى بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ، فرجع حاصل حقيقة التفكر الى إحضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة .

وأما ثمرة الفكر : فهي العلوم والأحوال والأعمال ، ولكن ثمرته الخاصة : العلم ، لا غير . نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح . فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر . فالفكر إذن المبدأ والمفتاح للخيرات كلها ، وهـــذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر ، لأن الفكر ذكر وزيادة . وذكر القلب خير من عمل الجوارح ، بل شرف العمل لما فيه من الذكر فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، فقيل هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة . فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار ، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا

فى قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا . وهذا ماعنيناه بالحال ؛ إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته ورغبته . ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة . فههنا خمس درجات : (أولاها) التذكر وهو إحضار المعرفتين فى القلب . (وثانيها) التفكر وهو طلب المعرفة المقصود منهما . (والثالثة) حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . (والرابعة) تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . (والخامسة) خدمة الجوارح للقلب بسبب ما يتجدد له من الحال

فكما يضرب الحجر على الحديد فتخرج منه نار يستضىء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه . ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره . فإذن ثمرة الفكر : العلوم والأحوال ، والعلوم لا نهاية لها ، والأحوال التى تتصور أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التى هى مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جمليا فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، وتلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة . فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

بيان مجارى الفكر

اعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين ، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى ، فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ،وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين. وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى ،أو فيما هو مكروه ، ولاحاجة إلى الفكر فى غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى : إما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته وجميع مافى السموات والأرض وما بينهما .

وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الأقسام بمثال : وهو أن حال السائرين إلى الله والمشتاقين إلى لقائه يضاهى حال العشاق ،فلنتخذ العاشق المستهتر مثالنا ، فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لايعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه .

فإن تفكر فى معشوقه ، فإما أن يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته .

وإن تفكر فى نفسه ، فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها .

فإن تفكر فى شيء خارج هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق ، وهو نقصان فيه ، لأن العشق التام الكامل، ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لايترك فيه متسعا لغيره . فحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب ، وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة .

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر ، كالطاعات والمعاصى . وإلى باطن ، كالصفات المنجيات والمهلكات التى محلها القلب — وذكرنا تفصيلها فى ربع المهلكات والمنجيات .

والمعاصى : تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون فى المسكن الحرام . ويجب فى كل واحد من المكاره التفكر فى ثلاثة أمور (الأول) التفكر فى أنه هل هو مكروه عند الله أم لا ، فرب شيء لايظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر (والثانى) التفكر فى أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه ؟ (والثالث) أن هذا المكروه هل هو متصف به فى الحال فيتركه أو هو متعرض له فى الاستقبال فيحترز عنه؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه ؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر فى هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما فى جميعها أو فى أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن انحصر هذا القسم فى أربعة أنواع : الطاعات والمعاصى والصفات المهلكات والصفات المنجيات . فلنذكر فى كل نوع مثالا ليقيس به المزيد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه .

(النوع الأول : المعاصى) ينبغى أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة هل هو فى الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم ؟ أو هو متعرض لها فى نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها ؟

فينظر فى اللسان ويقول إنه متعرض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لايعنى ، إلى غير ذلك من المكاره . فيقرر أولا فى نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر فى شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر فى أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه . ويعلم أنه لايتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لايجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا فى فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له : فهكذا يكون الفكر فى حيلة الاحتراز .

ويتفكر فى سمعه أنه يصغى به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة ،وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو ، وأنه ينبغى أن يحترز عنه بالاعتزال او بالنهى عن المنكر .

فهما كان ذلك فيتفكر فى بطنه ، أنه إنما تعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال

فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التى هى سلاح الشيطان عدو الله ، وإما يأكل الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكبه وما مكسبه ، ويتفكر فى طريق الحلال ومداخله . ثم يتفكر فى طريق الحيلة فى الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام [1] كما ورد الخبر به

فهكذا يتفكرون فى أعضائه ففى هذا القدر كفاية من الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها .

وأما النوع الثانى : وهو الطاعات فينظر أولا فى الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر بقصانها بكثرة النوافل ! ثم يرجع إلى عضو عضو ، فيتفكر فى الأفعال التى تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلا :

إن العين خلقت للنظر فى ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل فى طاعة الله تعالى وتنظر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله ! وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله !

وكذلك يقول فى سمعه : إنى قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر ، فمالى أعطاله وقد أنعم الله على به وأودعنيه لأشكره ، فمالى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه او تعطيله،

وكذلك يتفكر فى اللسان ويقول : إنى قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلا قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإخال السرورعلى قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة،وكل كلمة طيبة فإذا صدقة .

وكذلك يتفكر فى ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلانى فانى مستغن عنه ، ومهما احتجت اليه رزقنى الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منى إلى ذلك المال .

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأموال ، بل عن دوابه وعلمانه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر فيما يرغبه فى البدار الى تلك الطاعات ، ويتفكر فى اخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله. وقس على هذا سائر الطاعات.

(وأما النوع الثالث : فهى الصفات المهلكة التى محلها القلب) فيعرفها مما ذكرناه فى ربع المهلكات : وهى استيلا والشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك،ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فان ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر فى كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس ابدا تعد بالخير من نفسها وتخلف ، فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغى ان تجرب بحمل حزمة حطب فى السوق ،كما كان الأولون يجربون به انفسهم . وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها فى كظم الغيظ وكذلك فى سائر الصفات ، هذا تفكر فى انه هل هو موصوف بالصفة المكروهة ام لا ، ولذلك علامات ذكرناها

---

(١) حديث «إن الله ليقبل صلاة عبد فى ثمن ثوبه درهم حرام» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

فى ربع المهلكات ، فاذا دلت العلامة على وجودها فكر فى الأسباب التى تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة .

كما لو رأى فى نفسه عجبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما أعمل ببدنى وجارحتى وبقدرتى وإرادتى ، وكل ذلك ليس منى ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على ، فهو الذى خلقنى وخلق جارحتى وخلق قدرتى وإرادتى ، وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفسى ولا أقوم لنفسى بنفسى ؟

فاذا أحس فى نفسه بالكبر قرر على نفسه مافيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت ، وكم من كافر فى الحال يموت مقربا إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر ، وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة ؟ .

فاذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر فى علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين .
وإذا وجد فى نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر فى أن هذه صفة البهائم ، ولوكان فى شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما اتصف به البهائم ، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد . وكذلك يقرر على نفسه فى الغضب ، ثم يتفكر فى طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه فى هذه الكتب . فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلابد له من تحصيل مافى هذه الكتب

(وأما النوع الرابع : وهو المنجيات) فهو التوبة ، والندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، والخوف ، والرجاء ، والزهد فى الدنيا ، والإخلاص . والصدق فى الطاعات ، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له . وكل ذلك ذكرناه فى هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته . فليتفكر العبد كل يوم فى قلبه ما الذى يعوزه من هذه الصفات التى هى المقربة إلى الله تعالى ؟ فاذا افتقر إلى شىء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم ، وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار . فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم : فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها فى قلبه . ثم لينظر فى الوعيد والتشديد الذى ورد فى الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى ، حتى ينبعث له حال الندم ، وإذا أرادأن يستثير من قلبه حال الشكر : فلينظر فى إحسان الله اليه وأياديه عليه وفى إرساله جميل ستره عليه — على ماشرحنا بعضه فى كتاب الشكر فليطالع ذلك ، وإذا أراد حال المحبة والشوق : فليفكر فى جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر فى عجائب حكمته وبدائع صنعه — كما سنشير الى طرف منه فى القسم الثانى من الفكر — وإذا أراد حال الخوف : فلينظر أولا فى ذنوبه الظاهرة والباطنة ، ثم لينظر فى الموت وسكراته ، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ، ثم فى هول النداء عند نفخة الصور ، ثم فى هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثم فى المناقشة فى الحساب والمضايقة فى النقير والقطمير، ثم فى الصراط ودقته وحدته، ثم فى خطر الأمر عند أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة فى قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها ، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا ، الى جميع ماورد فى القرآن من شرحها . وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء : فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وظلها الدائم .

فهكذا طريق الفكر الذى تطلب به العلوم التى تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا فى كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر ، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر ، فانه جامع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال ، وفيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة ، فينبغى أن يقرأ العبد ويردد الآية التى هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة ، فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم ، فليتوقف فى التأمل فيها ولو ليلة واحدة ، فان تحت كل كلمة منها أسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتى جوامع الكلم[1] وكل كلمة من كلماته بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به [2] » فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهى كافية للمتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية .

فهذا هو طريق الفكر فى علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هى محبوبة عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدىء ينبغى أن يكون مستغرق الوقت فى هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو لغاية المطلب ، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر فى جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه ، أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر فى أحوال نفسه وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة العشاق .

فأما ما ذكرناه فهو تفكر فى عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا ضيع جميع عمره فى إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ؟ ولذلك كان الخواص يدور فى البوادى فلقيه الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور فى البوادى أصلح حالى فى التوكل ، فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك فأين الفناء فى التوحيد ؟ فالفناء فى الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجرى مجرى الخروج عن العدة فى النكاح . وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرى مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها ، فإن استغرقت جميع عمرها ، فى تبرئة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا عن لقاء المحبوب .

فهكذا ينبغى أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة ، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا فى الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة ، فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون . وإذا عرفت مجال الفكر فى علوم المعاملة التى بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحا ومساء ، فلا تغفل على نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مريد فينبغى أن يكون له جريدة يثبت فيها

---

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم ، تقدم .

(٢) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تقدم غير مرة .

جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر فى عشرة – فإنه إن سلم منها سلم من غيرها – وهى : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء والزهد فى الدنيا ، والإخلاص فى الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له .

فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها فى جريدته ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على أقل الرذائل عن نفسه ، فيقبل على القسمة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالإتصاف بالمنجيات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقى ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر .

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغى أن يثبتوا فى جرائدهم المعاصى الظاهره ، كأكل الشبهة ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس ، والإفراط فى معاداة وموالاة الأولياء ، والمداهنة مع الخلق فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فان أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصى فى جوارحه ، وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لايمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغى أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا فى معاص هم بمعزل عنها . مثاله : العالم الورع ، فإنه لايخلو فى غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ ، ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون ، فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع فى القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع ، وذلك من المهلكات . وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره ، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره ، فان وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الإعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء والله لايحب المتكلفين ، والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه فى القلب إعلاء لدين الله ، فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع ، وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو فى موالاة غيره وإن كان ذلك للغير مستحقا للموالاة ، وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء ، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه فى دينه . وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة فى سر القلب التى قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له فى سلامة العوام .

فمن أحس فى نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل .

فقد كان المسجد يحوى فى زمن الصحابة رضى الله عنهم جميعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغى أن يتق شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عنى ، فانه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ، ولو مت لا تنهدم أركان الإسلام فان الدين مستغن عنى ، وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح قلبى . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل ، فان الناس لو حبسوا فى السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله يوم القيامة . بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم[1] » و « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[2] » فلا ينبغى أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى فى قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل[3] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر إفسادا فيها من حب الجاه والمال فى دين المرء المسلم[4] » ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه فى قلوبهم .

فليكن فكر العالم فى التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفى استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقى . فأما أمثالنا فينبغى أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا : إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ! فان من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه : وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصى ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون فى الفرائض منها ، فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا فى الحرص على الدنيا والتكالب عليها ، ويقال : لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا . فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا . فما أعظم الفتنة التى تعرضنا لها لو تفكرنا : فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا .

فهذه مجارى أفكار العلماء والصالحين فى علم المعاملة ، فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر فى جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات ، وإن ظهر شىء منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا ، وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالعاشق الذى خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له فى كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه . وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهى مؤذيات ومشوشات ، وفى القبر يزيد ألم لدغها على

---

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم » تقدم . (٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا فى العلم . (٣) حديث « حب المال والجاه ينبت النفاق فى القلب ... الحديث » تقدم .

(٣) حديث « ماذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم ... الحديث » تقدم .

لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف فى التنبيه على مجارى فكر العبد فى صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى .

(القسم الثانى) الفكر فى جلال الله وعظمته وكبريائه . وفيه مقامان : المقام الأعلى الفكر فى ذاته وصفاته ومعانى أسمائه ، وهذا مما منع منه من حيث قيل تفكروا فى خلق الله تعالى ولا تفكروا فى ذات الله ، وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر إليه — إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يختفى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر فى بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان فى النظر إلى الشمس فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطيق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل ، فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجارى الفكر فى ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله ، بل القدر اليسير الذى صرح به بعض العلماء وهو : أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا منفصل عنه ؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم : إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم . فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح فى عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندى لا وصف الإله ! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة فى هذه الأعضاء . وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه ، فكل ما لا يساويه فى صفاته فلا يفهم العظمة فيه . نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك فى حق الله — تعالى وتقدس — حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقى أنقص منى ؟ أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ؟ أو يكون لى آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقى ومصورى ، وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل ، وأن الإنسان لجهول ظلوم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادى بصفاتى فينكرونى ولكن أخبرهم عنى بما يفهمون .

ولما كان النظر فى ذات الله تعالى وصفاته خطر من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجارى الفكر فيه ، لكنا نعدل إلى المقام الثانى وهو النظر فى أفعاله ومجارى قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره فى خلقه فإنه تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته ، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس . ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب . لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر فى نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود . ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته — تعالى وتقدس — إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام

نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال . فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله تعالى » .

بيان كيفيه التفكر فى خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره . ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه .

فنقول : الموجودات المخلوقة منقسمة إلى (مالا يعرف أصلها) فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التى لا نعلمها كما قال الله تعالى ﴿ ويخلق مالا تعلمون ــ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ وقال ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ وإلى (ما يعرف أصلها وجملتها ، ولا يعرف تفصيلها) فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى مالا ندركه بالبصر. أما الذى لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض .

فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهى المدركات بحس البصر : وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ،والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها .

فهذه هى الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيآته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر ، فلا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه ، وهى الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ وكما قال تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات .

(فمن آياته) الإنسان المخلوق من النطفة ــ وأقرب شىء إليك نفسك ــ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك . وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وذكر أنك مخلوق من نطفه قذرة فقال ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾

وقال تعالى ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾ وقال سبحانه ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم ﴾ وقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج ﴾ ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما ،فقال عز وجل ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ .

فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه ، فانظر الآن إلى النطفة — وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعه ليضربها الهواء فسدت وأنتنت — كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ؟

ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق : الأعضاء الظاهرة ؛ فدور الرأس وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ؛ فركب العين من سبع طبقات ، لكل طبقة صنف مخصوص وهيئة مخصوصه لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف مافى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهى أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفه رقيقه ، ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق .

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد فى حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفى العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة منه وفى الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ،وقد ركبها من خمس وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس — كما تراه — فمنها ستة تخص القحف، وأربعة عشر للحى الأعلى ، واثنان للحى الأسفل ، والبقية هى الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهى الأنياب والأضراس والثنايا : ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات

وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، ووكب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخدين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك . ومجموع عدد العظام فى بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التى حشى بها خلل المفاصل . كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها . فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها فى مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، خصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحد لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلعه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج فى جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهى العضلات تخلق فى بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ــ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ــ وهى مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف موضعها وقدر حاجتها . فأربع وعشرون عضلة منها هى لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ــ وشرحه يطول ــ فللفكر مجال فى آحاد هــذه الأجزاء ، ثم فى جملة البدن فكل ذلك إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب المعانى والصفات التى لاتدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة مايقضى به العجب ، وكل ذلك صنع الله فى قطرة ماء قذرة ، فترى من هذا صنعه فى قطرة ماء فما صنعه فى ملكوت السموات وكواكبها وماحكمته فى أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظنن أن درة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وماصارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك ! بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش فى تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم فى قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط والقدرة وبالعلم وبالإرادة . وشىء من ذلك ليس من

فعل النقاش ولاخلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدمة فخلقها خالقها فى الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة . وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ، ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالأجفان لسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها . ثم أظهر فى مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة فى حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما فى القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم . وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت . وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت فى مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلايتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت فى الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص : فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها . والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها . والكلية تخدمها بجذب المائية عنها . والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه فى طريق الإحليل : والعرق تخدم الكبد فى إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن . ثم خلق اليدين وطولهما إلى لتمد إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة فى جانب والإبهام فى جانب لتدور الإبهام على الجميع . ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الأصابع سوى ماوضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له . ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لاتنقطع : وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى

لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ؛ فالظفر الذى هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ؛ ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ، ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد اليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته ! فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ماأعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبى لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج اليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدى ؟ ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ، ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا ، فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟ .

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر الأسنان إلى تمام الحولين لأنه فى الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ! ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ؛ إما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر فى النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ، ثم ينظر إلى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته ؟ فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام ، وتشتهى فتجامع ، وتغضب فتقاتل . والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس ، إذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير ،

إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

وإذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الأرض التى هى مقرك ، ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا لتمشوا فى مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد . ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال عز وجل ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ وقال عزوجل ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ﴾ وقال عزوجل ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للاموات قال الله تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ﴾ .

فانظر إلى الأرض وهى ميتة فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات . ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب . وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجرى على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا ، وجعل به كل شىء حى ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح ، يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ؟ فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . ثم انظر إلى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه ، لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر . فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة ؟ فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليها وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف ! فلم تنبت من الأرض ورقه ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص ؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر فى الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب فى الشجر . ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام فى وصف ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آياته) الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض : ففى الأرض قطع متجاورات مختلفة ، فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل ؟

وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأوانى والالات والنقود والحلى منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضى سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر ، فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك . وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ .

(ومن آياته) أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى. وانقسام ما يمشى : إلى ما يمشى على رجلين ، وإلى ما يمشى على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد فى بعض الحشرات . ثم انقسامها فى المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجو وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب مالا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ! بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت - وهى من صغار الحيوانات - فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى إلفها لزوجها وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك . فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدىء ويلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الاخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا ، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب ، ويقعد فى زاويه مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفى الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله .

وما من حيوان صغير وكبير إلا فيه من العجائب مالا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادى له ولا معلم . أفيشك ذو بصيرة فى أنه مسكين ضعيف عاجز . بل الفيل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف . أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاعله الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات .

وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة . نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى

ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة الركوب وبعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيـدة لأكثر النـاظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان من الأمور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العـارفين بتوحيده ، فـما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه . بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته .

(ومن آياته) البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التى هى قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادى والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبى ﷺ « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض (١) » فانسب اصطبلا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله .

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجـواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعـاف سعة الأرض ، ولعظم البحـر كان فيـه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفى البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر . وقد ذكرت أوصافها فى مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفة تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عـرف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها . ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله فى البحر فى مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطرة الماء : وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف ، متصل الاجزاء كأنه شىء واحد ، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل ، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منهـا لبـذل جميع خـزائن الارض وملك الدنيا فى تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا فى إخراجها ! فالعجب من الآدمى كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله فى شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل فى عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذى لب : أما ترانى وترى صورتى وتركيبى

---

(١) حديث « الأرض فى البحر كالاصطبل فى الأرض » تقدم ولم أجده .

وصفاتى ومنافعى واختلاف حالاتى وكثرة فوائدى ؟ أتظن إنى كونت نفسى أوخلقنى أحد من جنسى ؟ أو ماتستحى أن تنظر فى كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمى عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهى بالقلم الإلهى الذى لاندرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط. ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعة .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون . توهمنى فى ظلمة الأحشاء مغموسة فى دم الحيض فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى ، فينقش النقاش حدقتى وأجفانى وجبهتى وخدى وشفتى ، فترى التقويس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأب ولا للأم ولا للنطفة ولا للرحم ! فما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة من غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لاتتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش قدر لانظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع — فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين — فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذوات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لاراد لحكمه ولا معقب لقضائه .

(ومن آياته) الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض : يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة فى جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر ، فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نشرا بين يدى رحمته كما قال سبحانه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء ، وإن شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط فى الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوى ليغمسه فى الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه .

فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله عز وجل السفن على وجه الماء ، وكذلك كل مجوف فيه هواء لايغوص فى الماء لأن الهواء ينقبض على الغوص فى الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة فى الهواء اللطيف ، كالذى يقع فى بئر فيتعلق بذيل رجل قوى يمتنع عن الهوى فى البئر . فالسفينة بمقرها تتشبث بأذيال الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والغوص فى الماء ! فسبحان من علق المركب الثقيل فى الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ؛ فهى عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك فى قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض

مابينهما لاعبين ﴾ وهذا هوالذى بينهما . وأشار إلى تفصيله فى مواضع شتى حيث قال عزوجل ﴿ والسحاب المسخر ما بين السماء والأرض ﴾ وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك فى هذه المعرفة ، فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه إذلا مطمع فى استقصائه .

فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له فى جو السماء إلى أن يأذن فى إرسال الماء وتقطيع القطرات . وكل قطرة بالقدر الذى أراده الله تعالى وعلى الشكل الذى شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ماينزل منها فى بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهى لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التى فى ناحية الجبل الفلانى تصل إليها عند عطشها فى الوقت الفلانى ، هذا مع مافى انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التى لا تحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته .

فيقول الجاهل المغرور إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : ما معنى الطبع وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب فى أسافل الشجر إلى أعالى الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق فى داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا بحيث لايرى ولايشاهد حتى ينتشر فى جميع أطراف الأوراق فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويجرى إليها فى تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة . ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود فى طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورقة ـ فيصل الماء فى أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها ؟ وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فان كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فان كان ذلك بجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملكوت فلم يحال عليه من أول الأمر ، فنهاية الجاهل بداية العاقل .

(ومن آياته) ملكوت السموات والأرض ومافيها من الكواكب : وهو الأمر كله ، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة فى بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم فى كتابه ، فما من صورة إلا وتشمل على تفخيمها فى مواضع ، وكم من قسم فى القرآن فيها كقوله تعالى ﴿ والسماء ذات البروج ـ والسماء والطارق ـ والسماء

ذات الحبك - والسماء وما بناها ﴾ وكقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ وقوله تعالى ﴿ والنجم إذا هوى - فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون - وما أقسم الله بها - فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق وأضافها إليه فقال الله تعالى ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ وأثنى على المفكرين فيه فقال ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته (1) » أى تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ فأى نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء وهى متغيرات على القرب ، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ وقال سبحانه ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ وقال ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾ فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت . ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك فى هذا النظر : فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ لا بل كل ما يدركك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء الله ، وهو ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ .

فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال : رأى قلبى ربى . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى . وأدنى شىء إليك نفسك ، ثم الأرض التى هى مقرك ، ثم الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسى ، ثم العرش ، ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسى والسموات والأرض وما بينهما . فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهى معرفة ظاهر نفسك ، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول : قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الدوام - من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها ، بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب - وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى . ثم انظر كيفية أشكالها : فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وما من صورة فى الأرض إلا ولها مثال فى السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ، ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب

---

(1) حديث « ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » أى قوله تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) تقدم .

يسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا ، وانظر إلى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لامطمع فى إحصاء عشر عشرين جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ، ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده ، وقس على ذلك ماذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا فى كبر جسم ولا فى كثرة معانيه : وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، وفى الأخبار ما يدل على عظمها [1] ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الأرض ثمانى مرات ، وأكبرها ينتهى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض . وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ؛ إذ للبعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الى بعدها فقال ﴿رفع سمكها فسواها﴾ .

وفى الأخبار : أن ما بين كل سماء الى الأخرى مسيرة خمسمائة عام [2] فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض اضعافا فانظر الى كثرة الكواكب . ثم انظر الى السماء التى الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها . ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لا تشك أنها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك فى هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة ، وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه . وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس ؟» فقال : لا . . . نعم ، فقال «كيف تقول لا . . . نعم» فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام [3] فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها . فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم

---

(١) الحديث الدال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر : رأى رسول الله ﷺ الشمس حين غربت فقال «فى نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض» وللطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة «وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أتت على شىء لأحرقته» . (٢) حديث «بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام» أخرجه الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة وقال غريب ، قال ويروى عن أيوب ويونس ابن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ، ورواه أبو الشيخ فى العظمة من رواية أبى نصرة عن أبى ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبى نصرة سماع من أبى ذر . (٣) حديث : أنه قال لجبريل «هل زالت الشمس» فقال : لا ... نعم ، فقال كيف تقول لا ... ؟ فقال من قلت : لا ، إلى إن قلت : نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام» لم أجد له أصلا .

كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ! وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه ! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التى هى أخس أجزاء هذا البيت !

ومع هذا فلا تنظر إليه ؛ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك ؟ ليس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك . وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ماتأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات . وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك ، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك فى مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ،وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك . وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجوارى والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها ، فأما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه ، بل لاقدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره .

وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه ،فأنت أيضا غافل عن بيت الله سبحانه وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ماتعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك .

نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه . ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله علينا بمعرفته ، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ماعرفه جملة العلماء والأولياء ، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ماعرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وجملة ماعرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا ﷺ . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ماعرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو الى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب . فسبحان من عرف عباده ماعرف ثم خاطب جميعهم فقال ﴿ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ .

فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله ، ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله عز وجل كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم .وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته وكل بيت من أبيات شعره يزيده محلا من قلبك يستدعى التعظيم له فى نفسك . فهكذا تأمل فى خلق الله عز وجل وتصنيفه وتأليفه ، وكل مافى الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لايتناهى أبدا ، وإنما لكل عبد

منهما بقدر مارزق . فلنقتصر على ماذكرناه ولنضف إلى هذا مافصلناه فى كتاب الشكر ، فإنا نظرنا فى ذلك الكتاب فى فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا . وفى هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعى ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة فى السماء والأرض إلا والله سبحانه يضل بها من يشاء ويهدى بها من يشاء . فمن نظر فى هذه الأمور من حيث إنها فعل الله وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله وعظمته واهتدى به ،ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها فى بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقى وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه ،يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده ، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله وكرمه .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحيـاء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم فى الحافرة فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان الى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة الى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ﴾ فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، أن لايكون له فكر الا فى الموت ولا ذكر الا له ، ولا استعداد الا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ،ولا تطلع الا اليه ، ولا تعريج الا عليه ، ولا اهتمام الا به، ولا حول الا حوله ، ولا انتظار وتربص الا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور ، فان كل ماهو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت (١) » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له والنظر فى المنبهات عليه . ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار مالا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقى من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ ونحن نذكر مايتعلق بالموت فى شطرين :

الشطر الأول

فى مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب

(الباب الأول) فى فضل ذكر الموت والترغيب فيه . (الباب الثانى) فى ذكر طول الأمل وقصره . (الباب الثالث) فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت . (البـاب الرابع) فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده (الباب الخامس) فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . (البـاب السادس) فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر والحكم زيارة القبور . (الباب السابع) فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نفخة الصور . (الباب) فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام .

البـاب الأول : في ذكر الموت والترغيب فى الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ثم الناس إما منهمك ، وإما تائب مبتدىء ، أو عارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢) » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد لقائه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، اللهم إن كنت تعلم

كتاب ذكر الموت وما بعده

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » تقدم غير مرة .

الباب الأول : فى ذكر الموت والترغيب فيه

(٢) حديث « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

«نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل (١) » وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى : والله لا بد لك من عيش ما بقيت ، فقمت إلى مسحاتى . وقال الحسن : قال رسول الله ﷺ « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟» قالوا : نعم يارسول الله قال « قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء (٢) » وكان ﷺ يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (٣) » .

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ؟ ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطرق . وقال الثورى بلغنى أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش : وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى ، مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى ، فراق الأحبة ــ محمد وحزبه ــ وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بى أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام فقلت : أى الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكل وقصر الأمل وقال الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب ، وقيل للحسن : يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائى : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتنى قد أتيت عظيما ، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار ؟ وحكى أنه جاء شقيق البلخى إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى ـ وفى طرف كسائه شىء مصرور ـ فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفعها إلى أخ لى وقال : أحب أن تفطر عليها فقال ياشقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبدا ، قال : فأغلق فى وجهى الباب ودخل . وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فانه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا ، وإنما تقر عين من

---

(١) حديث «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل» أخرجه ابن أبى الدنيا من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٢) حديث الحسن « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟» قالوا نعم يارسول الله قال « قصروا من الأمل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلا .

(٣) حديث كان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبى ﷺ وفى إسناده ضعف وجهالة ولا أدرى من حوشب .

ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا[١]» وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال « كيف ذكر صاحبكم للموت ؟» قالوا: ماكنا نكاد نسمعه يذكر الموت ! قال « فإن صاحبكم ليس هنالك[٢]» وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أتيت النبى ﷺ — عاشر عشرة — فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة[٣]» .

وأما الآثار ؛ فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا .وقال الربيع بن خثيم : ماغائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت ، وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا وسلونى إلى ربى سلا .

وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : ياأخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه : وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازه . وقال ابراهيم التيمى : شيئان قطعا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول — فى وسط مسجد البصرة — قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ماتراهم إلا والهين . وقال أشعث : كنا ندخل على الحسين فإنما هو النار وامر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضى عنها : ان امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ، ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : مارأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ؛ فقال : لست أول خليفة تموت ؟ قال زدنى ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكى عمر لذلك . وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبرا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك . وقال أبو سليمان الدارانى : قلت لأم هرون ، أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت: لم؟ قالت : لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف احب لقاءه وقد عصيته .

بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شىء

(١) حديث : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال «اذكروا الموت...الحديث» « أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٢) حديث : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من حديث أنس وابن المبارك فى الزهد قال أخبرنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه . (٣) حديث ابن عمر : أتيت النبى ﷺ — عاشر عشرة — فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس ... الحديث » أخرجه ابن ماجه مختصرا وابن أبى الدنيا بكماله بإسناد جيد .

الا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر الا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم . وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم .وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجلا رجلا وفصل فى قلبه حاله، وكيفية موته وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ،ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه الى القوة والشباب ، وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع . وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله . وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه . وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه . وكيف كان يدبر لنفسه مايحتاج اليه — الى عشر سنين — فى وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة أو بالنار ،فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا الى الله عز وجل تضعونه فى صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور ، والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشىء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله ولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا مانصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاء شديداً حتى ارتفع صوته .

الباب الثانى

فى طول الأمل وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر « اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك ياعبد الله لاتدرى مااسمك غدا[١] »وروى على كرم الله وجهه أنه ﷺ قال « ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فانه الحب للدنيا »ثم قال ألا ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض ،واذا أحب عبدا أعطاه

الباب الثانى فى طول الأمل

(١) حديث : قال لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء .. الحديث» أخرجه ابن حبان ورواه البخارى من قول ابن عمر فى آخر حديث « كن فى الدنيا كأنك غريب » .

من أبناء الدنيا ، ألا أن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل (١) وقالت أم المنذر : اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال « أيها الناس أما تستحون من الله » قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ قال تجمعون مالا تأكلون وتأملون مالا تدركون وتبنون مالاتسكنون (٢) » وقال أبو سعيد الخدرى : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله ﷺ يقول « ألاتعجبون من أسامة المشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل والذى نفسى بيده ماطرفت عيناى إلا ظننت أن شفرى لايلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت» ثم قال « يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ﴿إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾ (٣) » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يارسول الله إن الماء منك قريب فيقول «ما يدرينى لعلى لا أبلغه (٤)» وروى أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال «هل تدرون ماهذا» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال «هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل (٥) » وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع فى الهرم (٦)» قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع اليه فأيها أمر به أخذه فان أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل . وقال عبدالله خط لنا رسول ﷺ خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أتدرون ماهذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، قال « هذا الإنسان - للخط الذى فى الوسط - وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض - للخطوط التى حوله - تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل - يعنى الخط الخارج (٧) » وقال رسول الله ﷺ « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتـــان الحرص والأمل (٨) » وفى رواية « وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث على « إن أشدما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل ... الحديث » بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل ورواه ايضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف . (٢) حديث أم المنذر « أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « تجمعون ما لا تأكلون . . . الحديث » أخرجه بن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٣) حديث أبى سعيد : اشترى أسامة ابن زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار — إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا تعجبون من أسامة . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس : كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول الماء منك قريب فيقول « ما يدرينى لعلى لا أبلغه » أخرجه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف .

(٥) حديث : أنه أخذ ثلاثة أعواد بين يديه ... الحديث . أخرجه أحمد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزى فى الأمثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى وإسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضاً من رواية أبى المتوكل مرسلا . (٦) حديث : مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن . (٧) حديث ابن مسعود : خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا وخط وسطه خطا ... الحديث » رواه البخارى . (٨) حديث أنس : يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص والأمل » وفى رواية « ويشب معه اثنان : الحرص على العمر » ورواه مسلم بلفظ الثانى وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل باللفظ الاول بإسناد صحيح .

أن الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فإذن التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء اليه أحبها إلى مولاه . فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل، فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر هاذم اللذات [١] » ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا [٢] » وقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال « نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة [٣] » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم « تحفة المؤمن الموت [٤] » وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة فى حقه . وقال صلى الله عليه وسلم « الموت كفارة لكل مسلم [٥] » وأراد بهذا : المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراسانى : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات » قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال « الموت [٦] » وقال أنس رضى الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا [٧] » وقال صلى الله عليه وسلم « كفى بالموت مفرقا [٨] » وقال عليه السلام « كفى بالموت واعظا [٩] » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال « اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلمون

---

(١) حديث « أكثروا من ذكر هاذم اللذات » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم . (٢) حديث « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم . (٣) حديث : قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال « نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة » تقدم . (٤) حديث « تحفة المؤمن الموت » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلا بسند حسن .

(٥) حديث « الموت كفارة لكل مسلم » أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب والخطيب فى التاريخ من حديث انس قال ابن العربى فى سراج المريدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزى وقد جمعت طرقه فى جزء .

(٦) حديث عطاء الخراسانى : مر النبى ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال « شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا مرسلا ورويناه فى أمالى الخلال من حديث أنس ولا يصح . (٧) حديث أنس « أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد فى الموت بإسناد ضعيف جدا . (٨) حديث « كفى بالموت مفرقا » أخرجه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف » ورواه ابن أبى الدنيا فى البر والصلة من رواية أبى عبد الرحمن الحبلى مرسلا . (٩) حديث « كفى بالموت واعظا » أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد .

وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لايداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة ، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أماتعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما .

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام — قبل أن يخطىء — أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبى يقول : أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبا لصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون ، أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت ، وقال أبو زكريا التيمى : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة ، فبكى سليمان بكاء شديدا .

وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ؛ سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنى أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فإن يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم ، فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ فى هذا ما هدم اللذات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام .

وخطب عمر بن عبد العزيز ؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا يجمعكم فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ،

قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب ، وايم الله إنى لأقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى . ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات . وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شىء عن شىء . وقال الثورى : رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول : أنا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ، ولو أتانى ما أمرته بشىء ولا نهيته عن شىء ، ولا لى على أحد شىء ولا لأحد عندى شىء . وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار . وقال أبو محمد بن على الزاهد : خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن ، فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاء يختصمون ، وروى أن معروفا الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل . وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه : وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر إنها تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى خطبته : أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا ، ثم النجا النجا !

بيان السبب فى طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه . والإنسان مشغول بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه . فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر . ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج

يؤخر يوما بعد يوم ويقضى به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون : واحزناه من سوف . والمسوف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها :

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « أحبب من أحببت فإنك مفارقه[1] » .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيد ، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبدا يظن إنه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فإنه لم يقع ، وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول والآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره . ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدرى فتسويفه جهل محض .

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

(وأما حب الدنيا) فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد وهذا الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين علاجه ؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فان حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير . فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من المشرق الى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا الا قدر يسير مكدر منغص . فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها من مع الايمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر الى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما ، وأما من كان مغرورا بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبينا . فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لامحالة ؟ وكيف تتفتت عظامها ؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى ؟ فما على بدنه شىء الا وهو طعمة الدود وما له من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى

---

(١) حديث « أحبب من أحببت فإنك مفارقه . . . الحديث » تقدم غير مرة .

وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هى التى تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس فى ذلك يتفاوتون ؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبدا وقال الله تعالى ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه وهو الذى يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم[1] » ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجودا فى عام قابل ، ولكن هذا يستعد فى الصيف للشتاء وفى الشتاء للصيف ، فإذا جمع مايكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ، ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر فى الصيف ثياب الشتاء ولا فى الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره وأما للغد فلا . وقال عيسى عليه السلام : لاتهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « ياعبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » ومنهم من لايقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول « لعلى لا أبلغه » ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان الذى يصلى صلاة مودع وفيه ورد مانقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال : ماخطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى[2] وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل : ماهذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتينى .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله ، فـ ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة ـ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ثم يظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لايحتاج إليها فى سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح ، ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فمثل هـذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه .

---

(١) حديث « الشيخ شاب فى حب الدنيا وإن التفت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ماهم » لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال » .

(٢) حديث سؤاله لمعاذ حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لاأتبعها أخرى » أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وهو ضعيف .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد أشهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى أشهر أو سنه ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غد فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ماوراء المدة ، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لاينقص منها اليوم الذي مضى ، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فإنه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله ﷺ « ماينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر[1] » وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك[1] » وقال ﷺ « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ[3] » أي أنه لايغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما ، وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا أن سلعة الله الجنة[4] » وقال رسول الله ﷺ « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه[5] » وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع « أتتكم المنية راتبة لازمه إما بشقاوة وإما بسعادة[6] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد[7] » وقال ابن عمر : خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال « ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل مامضى منه[8] » وقال ﷺ مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع[9] وقال جابر : كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحتكم ومسيتكم « بعثت أنا والساعة كهاتين — وقرن بين أصبعيه —[10] » وقال ابن مسعود رضي الله عنه تلا رسول الله ﷺ ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال « إن النور إذا دخل الصدر انفسح »

---

(١) حديث « ماينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ « هل ينتظرون إلا غناء ... الحديث » وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم .

(٣) حديث ابن عباس « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلا . (٣) حديث «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» أخرجه البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم . (٤) حديث «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث «جاءت الراجفة تتبعها الرادفة الحديث» أخرجه الترمذي وحسنة من حديث أبي بن كعب . (٦) حديث «كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسلا (٧) حديث أبي هريرة « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد » أخرجه بن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

(٨) حديث ابن عمر : خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف فقال «مابقي من الدنيا إلا مثل مابقي من يومنا هذا في مثل مامضى منه» أخرجه ابن أبي للدنيا فيه بإسناد فيه حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه

(٩) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره ... الحديث» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح . (١٠) حديث جابر : كان إذ خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه ... الحديث . أخرجه مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له .

فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال « نعم التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله[1] » وقال السدى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا . وقال حذيفة : مامن صباح ولا مساء إلا ومنادى ينادى : أيها الناس الرحيل الرحيل . وتصديق ذلك قوله تعالى ﴿ إنها لإحدى الكبر نذير للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ فى الموت . وقال سحيم — مولى بنى تميم — جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلى فأوجز فى صلاته ثم أقبل على فقال أرحنى بحاجتك فإنى أبادر ، قلت وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحمك الله ، قال : فقمت عنه وقام إلى صلاته .

ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى ! إنما أبادر خروج نفسى : قال عمر رضى الله عنه : التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة . وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ؛ ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولايرانى . وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة فإنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل ، ورحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ؛ ثم قرأ هذه الآية ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ يعنى الأنفاس آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك . واجتهد أبو موسى الأشعرى قبل موته اجتهادا شديدا ، فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟ فقال : إن الخيل اذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ماعندها والذى بقى من أجلى أقل من ذلك ! قال : فلم يزل على ذلك حتى مات . وكان يقول لامرأته : شدى رحلك فليس على جهنم معبرة .

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله اتقوا الله مااستطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائبا يحدو به الجديدان الليل والنهار لجرى بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل مايكون عنها ، وإنه مابين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لاتبطره نعمة ولاتقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ قال بالشهوات واللذات ﴿ وتربصتم ﴾ قال بالتوبة ﴿ وارتبتم ﴾ قال شككتم ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ قال الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ قال الشيطان وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هى أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ماحضرتكم : وقال ابن مسعود مامنكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة . وقال أبو عبيده الباجى : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فان من رأى محمدا ﷺ فقد رآه غاديا

---

(١) حديث ابن مسعود : تلا رسول الله ﷺ (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) فقال « إن النور إذا دخل القلب انفسح ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالأرض واجتهد فى العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[1] . وقال عاصم الأحول : قال لى فضيل الرقاشى — وأنا سائله — ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لاشىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم .

البـاب الثالث

فى سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها . لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لاسيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك وقال لقمان لابنه : يابنى أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفاجئك . والعجب أن الإنسان لوكان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فانما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه . فأما القياس الذى يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فاذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلايصيب الروح إلا بعض الألم ، فان كان فى الآلام مايباشر نفس الروح ولايلاقى غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده !

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة . فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم ، فلاتسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل

---

(١) حديث أبى عبيدة الباجى : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى قصر الامل وابن حبان فى الثقات وأبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه .

موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة .

أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه . وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لايقدر على ذلك ، فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره ،وقد تغير لونه ، وأربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ،وقد جذب منه كل عرق على حياله،فالألم منتشر فى داخله وخارجه،حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه، وتتقلص الشفتان،ويتقاص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه! ولو كان المجذوب عرقا واحـــدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لامن عرق واحد بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة ،وقال رسول الله ﷺ « تقبل توبة العبد مالم يغرغر[١] » وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ قال : إذا عاين الرسل فعنـد ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت[٢] » والناس إنما لايستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله عز وجل أن يهون على هذه السكرة - يعنى الموت - فقـد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت . وروى أن نفرا من بنى إسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال : ياقوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لاأغبط أحد أن يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ وروى أنه عليه السلام كان يقول « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعنى على الموت وهونه على[٣] » وعن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف[٤] » وسئل ﷺ عن الموت وشدته فقال « ان أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف[٥] » ودخل ﷺ على مريض ثم قال « انى أعلم مايلقى مامنه عرق الا ويألم للموت على حدته[٦] » وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول :

---

(١) حديث « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث كان يقول « اللهم هون على محمد سكرات الموت » تقدم . (٣) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث صمعة بن غيلان وهو معضل سقط منه الصحابى والتابعى . (٤) حديث الحسن : أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا ورجاله ثقات . (٥) حديث : سئل عن الموت وشدته فقال « إن أهون الموت بمنزلة حسكة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلا (٦) حديث : دخل على مريض فقال « إنى لأعلم مايلقى منه من عرق إلا ويألم للموت على حدته » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه فى المرض والكفارات من رواية عمير مرسلا مع اختلاف ورجاله ثقات .

إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش . وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت مالم يبعث من قبره . وقال شداد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلى فى القدور ، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة ، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هون عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم : أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض قيل : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسى تخرج من ثقب إبرة . وقال ﷺ « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر [١] » وروى عن مكحول عن النبى ﷺ أنه قال « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشىء إلا مات [٢] » ويروى « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت [٣] » وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال عز وجل له : كيف وجدت الموت ياخليلى قال : كسفود جعل فى صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك . وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : ياموسى كيف وجدت الموت ، قال : وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير . وروى عنه أنه قال وجدت نفسى كشاة حية تسلخ بيد القصاب . وروى عن النبى ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت [٤] « وفاطمة رضى الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه ! وهو يقول « لا كرب على أبيك بعد اليوم [٥] » وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل أخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ وأبقى ما أبقى . وقال النبى ﷺ « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ما أخذ تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة [٦] .

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى ؟ فإن دواهى الموت ثلاث :

(الأولى)شدة النزع كما ذكرناه .

---

(١) حديث « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر » أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال « وأخذة أسف » ولأبى داود من حديث خالد السلمى « موت الفجأة أخذة أسف » (٢) حديث مكحول « لو أن شعر من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا .... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية أبى ميسرة رفعه وفيه « أن ألم شعرة » وزاد « وإن فى يوم القيامة لتسعين هولا أدناه هو يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف » وأبو ميسرة هو عمر بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإسناد (٣) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت » لم أجد له أصلا ولعل المصنف لم يورده حديثا فإنه قال : ويروى .(٤) حديث : كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يدخل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت» متفق عليه من حديث عائشة . (٥) حديث إن فاطمة قالت واكرباه لكربك ياأبت .... الحديث . أخرجه البخارى من حديث أنس بلفظ : واكرب أبتاه ، وفى رواية لابن خزيمة . واكرباه . (٦) حديث « ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ... الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك .

(الداهية الثانية) مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته . فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لاتطيق ذلك ، قال ، بلى ، قال : فأعرض عنى فأعرض عنه . ثم التفت فإذاهو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ، فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عندالموت إلا صورة وجهك لكان حسبه . وروى أبوهريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الابواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذاهى برجل فى الدار فقالت : من أدخل هذاالرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أناالذى لاأهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه (١) وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال : تكلمى بإذن الله فقالت : ياروح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى ، إذبدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسى إليه ، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ! وياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ! فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ! فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها . فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه ، فاذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فاذا برجل فى جوف البيت فقال : من أدخلك دارى ؟ فقال : أدخلنيها ربها ! فقال : أنا ربها ! فقال : أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عنى ، فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه . فقال: ياملك الموت ، لولم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه .

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يترامى له ملكان الكاتبان عمله ، فان كان مطيعا قالا له : جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجرا قالاله : لاجزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلاجزاك الله عنا خيرا . فذلك شخوص بصر الميت إليها ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

(الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ، فانهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم مالم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين : إما أبشر ياعدو الله بالنار ، أو أبشر ياولى الله بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الألباب ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار (٢)» وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أبى هريرة « إن داود كان رجلا غيورا ... الحديث » أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبى الدنيا فى كتاب الموت بلفظه (٢) حديث « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسم عن على موقوفا «لاتخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار » وفى رواية « حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم =

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالوا : كلنا نكره الموت قال « ليس ذاك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه[١] » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود — وهو لما به من آخر الليل : قم فانظر أى ساعة هى؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد طلعت الحمراء فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبى هريرة ، فقال مروان : اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة : اللهم اشدد ! ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار . وروى فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال : ياملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ،حسبى من عمله، قد بلوته فوجدته حيث أحب، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر اليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال : فيقول له جنوده : مالك ياسيدنا فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فكان معصوما[٢] » وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا فى لقاء الله، ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه . وقيل لجابر بن زيد — عند الموت : ماتشتهى؟ قال: نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن ! قيل له: الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال : ياإخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو الى الجنة. وقال محمد بن واسع — عند الموت : يا إخواناه عليكم السلام ! إلى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب . فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت . وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع . ولكننا لا نطول بذكره وإعادته .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ! ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

(أما الصورة) فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهى من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وأربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به[٣] »

(وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة) فهى علامة الخير . قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه

= من أهل النار» وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت مايشهد لذلك «إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضره بشر بعذاب الله وعقوبته ..الحديث» (١) من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ... الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت . (٢) حديث « إن الله إذا رضى على عبده قال : ياملك الموت إذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ... الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث تميم الدارى بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح فى أول الحديث برفعه وفى آخره مادل على أنه مرفوع وللنسائى من حديث أبى هريرة بإسناد صحيح «إذا حضر الميت أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : أخرجى راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان ... الحديث » . (٣) حديث « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه وزرفت عيناه ... الحديث أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر فى نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح

وسلم « لقنوا موتاكم : لا إله الا الله[١] وفى رواية حذيفة « فإنها تهدم ماقبلها من الخطايا [٢] » وقال عثمان : قال رسول الله ﷺ « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة [٣] » وقال عبيدالله «وهو يشهد» وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه «لا إله إلا الله » فإنه مامن عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال : عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون مالا ترون ولقنوهم : لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول «حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئا ، ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول : لا إله إلا الله ، فغفر له بكلمة الإخلاص [٤] »

وينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى الى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شىء غير الله ، فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه . وإن كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا إليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر فى خطر المشيئة ، فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

(وأما حسن الظن) فهو مستحب فى هذا الوقت — وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء — وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله . دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتنى ذنوب لى وأشرفت على هلكة ولكنى أرجو رحمة ربى ، فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال : الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » ودخل النبى ﷺ على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبى ﷺ « ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو وآمنه من الذى يخاف [٦] » وقال ثابت البنانى : كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له : يا بنى إن لك يوما فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له : يا بنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما ، فقال : يا أمه إن لى ربا كثير المعروف وإنى لأرجو أن لا يعدمنى اليوم بعض معروفه ، قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهق فاحتضر ، فقالت له أمه . يا بنى توصى بشىء ؟ قال : نعم ، خاتمى لا تسلبينه فان فيه ذكر تعالى فلعل الله يرحمنى ، فلما دفن رؤى فى المنام فقال : أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وأن الله قد غفر لى . ومرض أعرابى فقيل له إنك تموت ، فقال : أين يذهب بى ؟ قالوا : إن الله ، قال : فما كراهتى أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبى لما حضرته الوفاة : يا معتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه .

---

(١) حديث « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله» تقدم . (٢) حديث حذيفة : فإنها تهدم ماقبلها ، تقدم . (٣) حديث : من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ، تقدم . (٤) حديث أبى هريرة : حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى فيه فلم يجد فيه شيئا ... الحديث . أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين وللطبرانى والبيهقى فى الشعب وإسناده جيد إلا أن فى رواية البيهقى رجلا لم يسم وسمى فى رواية الطبرانى إسحق بن يحيى بن طلحة وهو ضعيف (٥) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنك بالله ؟ وفيه « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب جميعا (٦) حديث : دخل على شاب وهو يموت فقال « كيف تجدك ؟ » فقال أرجوا الله وأخاف ذنوبى ... الحديث » تقدم .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان عين فى وجهه وعين فى قفاه ـ فقال : ياملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعى هاتين ، وقال : قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء ،قال: وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالى لاأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ، قال : ماأنا بذلك بأعلم منك ! إنما هى صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ماأعجبه ـ بعد مرات ـ وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه،حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفخ فى منخره نفخة فملأه كبرا . ثم سار وسارت معه الخيول وهو لاينظر إلى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال: أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما ! قال : إن لى إليك حاجة قال : اصبر حتى أنزل قال: لا الآن ، فقهره على لجام دابته فقال اذكرها !قال هو سر ، فأدنى له رأسه فساره وقال : أنا ملك الموت ! فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال :دعنى حتى أرجع إلى أهلى وأقضى حاجتى وأودعهم ، قال : لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا ! فقبض روحه فخر كأنه خشبة .

ثم مضى فلقى عبدا مؤمنا فى تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال : إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك فقال : هات فساره وقال : أنا ملك الموت ! فقال : أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان فى الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك ! فقال : ملك الموت اقض حاجتك التى خرجت لها ، فقال : مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال : فاختر على أى حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال : تقدر على ذلك ؟ قال : نعم إنى أمرت بذلك ، قال : فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ثم اقبض روحى وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد .

وقال أبوبكر بن عبدالله المزنى : جمع رجل من بنى إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أرونى أصناف أموالى ؟ فأتى بشىء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى اليه تحسرا عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكى فقال له : مايبكيك ؟ فوالذى خولك ماأنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك ! قال: فالمهلة حتى أفرقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ، فقبض روحه .

وروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ، ثم أجمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يانفس أنعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل اليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين ، فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه ، فوثب اليه الغلمان وقالوا ماشأنك ، فقال : ادعوا إلى مولاكم فقالوا : وإلى مثلك يخرج مولانا قال : نعم فأخبروه بذلك فقال: هلا فعلتم به وفعلتم ، فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ،فوثب اليه الحرس فقال: أخبروه أنى ملك الموت ،فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع ، فقال : قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به أحدا، فدخل عليه وقال: اصنع فى مالك ماأنت صانع،فإنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه : لعنك الله من مال ؛ أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن أتخلى لربى ،

فأنطق الله المال فقال : لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقى عن بابهم ، وكنت تنكح المتنعمات بي ، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل الخير نفعتك ؟ خلقت يا بن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم ، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط .

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة : لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه؟ قال : أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا متعهد له بها . فقالت الملائكة : الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لما يشاء ! قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال : اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال : فإن العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدرى .

وقال الحسن : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول : والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا ، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم ، وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار اليه فزعا مغضبا فقال له : من أنت ومن أدخلك على داري؟ فقال : أما الذي أدخلني الدار فربها ، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطنين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد ؟ قال : فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه اليه مستجديا متذللا له فقال له : أنت إذن ملك الموت ! قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهدا ؟ قال هيهات ! انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل ! قال : فإلى أين تذهب بي، قال : إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته ، قال : فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا ، قال فإلى لظى نزاعة للشوى ، ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله ، فمن بين صارخ وباك . قال يزيد الرقاشي: لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر . وعن الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر اليه ، فلما خرج قال الرجل : من هذا ، قال: هذا ملك الموت ، قال : لقد رأيته ينظر إلى كأنه يريدني ، قال : فماذا تريد . قال أريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند ! ففعلت الريح ذلك ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا . رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال : نعم كنت أتعجب منه لأني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك.

الباب الرابع

في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ـ حيا وميتا وفعلا وقولا ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين

وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليـل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ،فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته . لابل أرسل اليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان ،وخيرات حسان ، الى مقعد صـدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا . وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا. وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا . هيهات بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ماوجده فى اللوح مسطورا .

فهذا كان حاله وهو عبد الله ذو المقام ، والحوض المورود ، وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقـة فما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات . وقرناء المعاصى والسيآت ! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعلنا نظن أننا مخلدون او نتوهم انا مع سوء افعالنا عند الله مكرمون ، هيهات . هيهات . بل نتيقن انا جميعا على النار واردون ، ثم لاينجو منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنهـا متوهمون ،لابل ظلمنا انفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ،فما نحن والله من المتقين،وقد قال الله رب العالمين ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فلينظر كل عبد إلى نفسه إنه إلى الظالمين اقرب ام الى المتقين .

فانظر الى نفسك بعد ان تنظر الى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ماوفقوا له من الخائفين . ثم انظر الى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين ، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ! وكيف اشتد امره عند الانقلاب الى جنة المأوى ، قال ابن مسعود رضى الله عنه: دخلنا على رسول الله ﷺ فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق . فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال « مرحبا بكم حياكم الله ، آواكم الله ، نصركم الله، وأوصيكم بتقوى الله . وأوصى بكم الله . إنى لـكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الأجل . والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فأقروا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله[1] » .

وروى أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته « من لأمتى بعدى » فأوحى الله تعالى الى جبريل : أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته . وبشره بأنه أسرع الناس خروجا من الأرض اذا بعثوا . وسيدهم اذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال « الآن قرت عينى[2] » وقالت عائشة رضى الله عنها : امرنا

الباب الرابع فى وفاة النبى ﷺ

(١) حديث ابن مسعود : دخلنا على رسول الله ﷺ فى بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق ... الحديث . رواه البزار وقال : هذا الـكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة ، قال وعبد الرحمن الأصبهانى لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عمن أخبره عن مرة ، قال : ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت : وقد روى من غير ماوجه . رواه ابن سعد فى الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود . ورويناه فى مشيخة القاضى أبى بكر الأنصارى من رواية الحسن العرنى عن ابن مسعود ولـكنهما منقطعان وضعيفان ، والحسن العرنى إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط . (٢) حديث : أنه ﷺ قال لجبريل عند موته «من لأمتى بعدى» فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ... الحديث . أخرجه الطبرانى من حديث جابر وابن عباس فى حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى » قال : أبشر ياحبيب الله فإن الله عزوجل يقول قد حرمت الجنة على الأنبياء والأمم « حتى تدخلها أنت وأمتك قال « الآن طابت نفسى » وإسناده ضعيف .

رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبع آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة . فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال « أما بعد : يامعشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على التي هي عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتي التي أويت اليها فأكرموا كريمهم - يعني محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئهم » ثم قال « إن عبدا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه ، فقال النبي ﷺ « على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر [(١)] » قالت عائشة رضي الله عنها : فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت ، فدخل على أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت انه يعجبه ذلك ، فقلت له : آخذه لك ، فأومأ برأسه ان : نعم ، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت: الينه لك ، فأومأ براسه ان نعم ، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول « لا اله الا الله ان للموت لسكرات » ثم نصب يده يقول « الرفيق الأعلى .. الرفيق الأعلى » فقلت : اذن والله لا يختارنا [(٢)] وروى سعيد بن عبد الله عن ابيه قال : لما رأت الأنصار ان النبي ﷺ يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم واشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه علي رضي الله عنه فأعلمه بمثله ، فمد يده وقال « ها » فتناولوه ، فقال: « ما تقولون؟ » قالوا : نقول نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى النبي ﷺ ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس امامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الراس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس اليه فحمد الله واثنى عليه وقال « أيها الناس انه بلغني أنكم تخافون علي الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم انع اليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؛ هل خلد نبي قبلي فيمن بعث فأخلد فيكم ؛ ألا اني لاحق بربي وانكم لاحقون به واني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصي المهاجرين فيما بينهم فان الله عز وجل قال ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر الا الذين آمنوا ﴾ — الى آخرها — وان الأمور تجري باذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ وأوصيكم بالأنصار خيرا فانهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستاثروا عليهم ألا واني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، ألا وإن موعدكم الحوض ، حوضي أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن ، يصب فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه اشد بياضا من اللبن وألين من الزبد واحلى من الشهد ، من شرب منه لم تظمأ أبدا ، حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك ، من حرمه في الموقف غدا حرم الخير كله ، الا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغي » فقال العباس : « يانبي الله أوص بقريش ؛ إنما أوصي بهذا الأمر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس ان الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فاذا بر الناس برهم ائمتهم وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى ﴿ وكذلك نولي

---

(١) حديث عائشة : أمرنا أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ... الحديث » أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن أسحق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة . (٢) حديث عائشة: قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع بين ريقي وريقه عند الموت ... الحديث متفق عليه .

بعض الظالمين بعضا بما كانو يكسبون ﴾[1] » وروى ابن مسعود رضى الله عنه : أن النبي ﷺ قال لأبى بكر رضى الله عنه « سل يا أبا بكر » فقال يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قد دنا الأجل وتدلى » فقال : لهنك يانبي الله ما عند الله ؟ فليت شعرى عن منقلبنا ، فقال « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا » فقال: يانبي الله من يلى غسلك قال « رجالى من أهل بيتى الأدنى فالأدنى » قال نفيم نكفنك ، فقال « فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر » فقال : كيف الصلاة عليك منا ، وبكينا وبكى ثم قال « مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، إذا غسلتونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أول من يصلى على الله عز وجل ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته﴾ ثم يأذن للملائكة فى الصلاة على ، فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتى الأدنى فالأدنى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان » قال : فمن يدخلك القبر ؟ قال « زمر من أهل بيتى الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لاترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عنى إلى من بعدى[2] » وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال فى أول شهر ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت : قم ياعمر فصل بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال « وأين ابو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » قالها ثلاث مرات « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك غلبه البكاء ! فقال « انكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل الناس » قال : فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول . لعبد الله بن زمعة ـ بعدذلك ـ ويحك ماذا صنعت بى ! والله لولا أنى ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك مافعلت . فيقول عبد الله انى لم ار احداً أولى بذلك منك ! قالت عائشة رضى الله عنها: وما قلت ذاك ولا صرفته عن ابى بكر الا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من المخاطرة المهلكة الا من سلم الله ، وخشيت ايضا ان لايكون الناس يحبون رجلا صلى فى مقام النبي ﷺ وهو حى ابدا ،الأأن يشاءالله ، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر امر الله والقضاء قضاؤه . وعصمه الله من كل ماتخوفت عليه من أمر الدنيا والدين[3] وقالت عائشة رضى الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة فى

---

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لمارأت الأنصار رسول الله ﷺ يزداد ثقلا أطاقوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم فذكر . الحديث . فى خروجه متوكئا معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأوزر تابعى . روى عن ابن مسعود قال أبوحاتم فيه وفى أبيه سعيد ليس بالقوى .

(٢) حديث ابن مسعود : أن النبي ﷺ قال لأبى بكر « سل يا أبا بكر » فقال يارسول الله دنا الأجل ؟ فقال : « قد دنا الأجل ... الحديث فى سؤالهم له : من يلى غسلك وفيم نكفنك ؟ وكيفية الصلاة عليه ، رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدى بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم . (٣) حديث عبد الله بن زمعة : جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ « مروا أبا بكر ليصل بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم =

أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ،وأخلو رسول الله ﷺ بالنساء ، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله ﷺ « اخرجن عنى ! هذا الملك يستأذن على » فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلا ، ثم إنه دعانى فأعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة «ادخلن» فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام . فقال رسول الله ﷺ «أجل ياعائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فان لم تأذن لى أرجع وإن أذنت لى دخلت ، وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك . فقلت : اكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل » فقالت عائشة رضى الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ورأى ،فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة مانحير إليه شيئا وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ،قالت : وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن اراد ان يزيدك كرامة وشرفا وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك فقال « اجدنى وجعا » فقال : ابشر فان الله تعالى اراد ان يبلغك ما اعد لك فقال « ياجبريل إن ملك الموت استأذن على » وأخبره الخبر فقال جبريل : يامحمد إن ربك إليك مشتاق الم يعلمك الذى يريد بك . لا والله ما استأذن ملك الموت على احد قط ولا يستأذن عليه ابدا ، إلا ان ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق، قال « فلا تبرح إذن حتى يجىء » واذن للنساء فقال « يافاطمة ادنى » فأكبت عليه فناجاها فرفعت راسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال « ادنى منى راسك » فناجاها فرفعا رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجبا، فسألتها بعد ذلك فقالت ,اخبرنى وقال « إنى ميت اليوم» فبكيت ثم قال« انى دعوت الله أن يلحقكم بى فى اول اهلى وان يجعلك معى » فضحكت ،وادنت ابنيها منه فشمهما قالت . وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك : ماتأمرنا يامحمد ؟ قال «الحقنى بربى الآن» فقال بلى من يومك هذا اما ان ربك اليك مشتاق ولم يتردد عن احد تردده عنك ولم ينهى عن الدخول على احد الا باذن غيرك ولكن ساعتك امامك وخرج ثم جاء جبريل وقال السلام عليك يارسول الله هذا آخر ما انزل فيه الى الأرض ابدا « طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، وما لى فيها حاجة الا حضورك . ثم لزوم موقفى لا والذى بعث محمدا بالحق مافى البيت احد يستطيع أن يحير اليه فى ذلك كلمة ولا يبعث الى احد من رجاله . لعظم مايسمع من حديثه ووجدنا واشفاقنا ، قالت : فقمت الى النبى ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديى وأمسكت بصدره . وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط . فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شىء أطيب منه فكنت أقول له ـ بأبى أنت وأمى ونفسى واهلى ماتلق جبهتك من الرشح فقال « ياعائشة ان نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار» فعند ذلك ارتعنا وبعثنا الى اهلنا . فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده اخى . بعثه الى أبى . فمات رسول الله ﷺ قبل ان يجىء احد وانما صدهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل وجعل اذا غمى عليه قال « بل الرفيق الأعلى » كأن الخيرة تعاد فاذا أطاق الكلام قال « الصلاة الصلاة انكم لا تزالون متماسكين ماصليتم جميعا» الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو

= أبو بكر ...الحديث » أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله « فقالت عائشة إلا أبا بكر رجل رقيق .. إلى آخره » ولم يقل فى أول ربيع الأول ، وقال « مرمن يصلى بالناس » وقال « يأبى الله ذلك والمؤمنون »مرتين وفى رواية له فقال « لا لا لا ... ليصل للناس ابن أبى قحافة » يقول ذلك مغضبا ، وأما مافى آخره من قول عائشة ففى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ! فقال إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

يقول « الصلاة الصلاة [(١)] » قالت عائشة رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين [(٢)] قالت فاطمة رضى الله عنها : مالقيت من يوم الاثنين ، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم - يوم أصيب على كرم الله وجه بالكوفة - مثلها : ما لقيت من يوم الاثنين ؛ مات فيه رسول الله ﷺ ، وفيه قتل على ، وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الاثنين . وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس - حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه - فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقى آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله ﷺ لم يمت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت ، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم [(٣)] فى رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله ﷺ فإنه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفى هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يبرح البيت . وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا - يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال أبى بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد وإن كان الناس لم يرعووا إلا بقول أبى بكر حتى جاء العباس فقال : والله الذى لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربك تختصمون ﴾ :

وبلغ أبا بكر الخبر وهو فى بنى الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه

---

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبصرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالتنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اخرجن عنى ، هذا الملك يستأذن على ... الحديث » بطوله فى مجىء ملك الموت ثم ذهابه ثم الموت ثم مجىء جبريل ثم مجىء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر « وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبى وصفيى محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه . وفيه دخل ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال « ياملك الموت أين خلفت حبيبى جبريل » قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك ، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له ، وفيه ادن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به ... الحديث . وفيه : فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبى صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك ، إلى أن قال : فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهو منكر وفيه عبد المنعم بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطنى ، ورواه الطبرانى أيضا من حديث الحسين بن على : أن جبريل جاءه أولا فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله « امض لما أمرت به » وهو منكر أيضا فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس فى مجىء ملك الموت أولا واستئذانه قوله : إن ربك يقرئك السلام فقال « أين جبريل » فقال هو قريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل ... الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث

(٢) حديث عائشة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصافه منها ويوم الاثنين . رواه عبد البر

(٣) حديث عائشة : لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس — حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه — فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون . وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته ، وعلى فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال : إن رسول الله ﷺ لم يمت ... الحديث إلى قوله (عند ربكم تختصمون) لم أجد له أصلا وهو منكر .

ثم أكب عليه فقبله ثم قال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت قال عز وجل ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... الآية ﴾ (١) » فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية : أن أبا بكر رضى الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ — وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال — فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء ، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون ، فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا (٢) . وعن ابن عمر : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى ، كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ الآية إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة ، فالله فارجوا وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء ، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا . ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٣) واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضى الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس

---

(١) حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ... الحديث . إلى آخر قوله : وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله على الله عليه وسلم وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي وأمي أنت ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها . ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس... الحديث وفيه : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخاري فيها .

(٢) حديث: إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل — فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ... الحديث ، إلى قوله: « واحفظه فينا » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف : جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه...الحديث إلى آخره (٣) حديث ابن عمر في سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم: إن في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا . ثم سمعوا آخر بعده : إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغيبة فأطيعوا وبأمره فالله فاعملوا . فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع . لم أجد فيه ذكر « اليسع » وأما ذكر « الخضر » في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب . قلت : بل قد رواه الحاكم في المستدرك في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال : لما قبض رسول الله على الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بعضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل على أصحابه فقال : إن في الله عزاء من كل =

خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن محمد عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ماصليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة ، اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة فى الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لم يمت ، وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، فان الله عز وجل قد اختار لنبيه ﷺ ماعنده على ماعندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم وعالجلوا الشيطان بالخير تعجزوه فيلحق بكم ويفتنكم

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال ياعمر أنت الذى بلغنى أنك تقول مامات نبي الله ﷺ ! أما أن نبي الله ﷺ قال يوم كذا : كذا وكذا ويوم كذا : كذ وكذا وقال تعالى فى كتابه ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لايموت ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله ﷺ . ثم جلس الى أبي بكر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : الله ماندرى كيف نغسل رسول الله ﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله فى ثيابه ! قالت: فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل- لايدرى من هو- غسلوا رسول الله ﷺ فى ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ فى قميصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن . وقال على كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لاتخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه . فأقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون . فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك

= مصيبة وعوضا من كل غائب وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم فى البلا فانظرو فإن المصاب من لم يجبره الثواب . ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : على الرجل ، فنظروا يمينا وشمالا فلم يروا أحدا ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاء يعزينا . ورواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث على بن أبي طالب : لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن فى الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل غائب ، فبالله فثقوا وإياه فأرجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال على : تدرون من هـذا ؟ هو الخضر . وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على ابن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الأم وليس فيه ذكر « الخضر » .

سبدا ولا لبدا إلا دفن معه . قال أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة[1] ففى وفاته عبرة تامة وللمسلمين به أسوة حسنة .

وفاة أبو بكر الصديق رضى الله عنه

لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه تعالى جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك مايغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قولى ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ انظروا ثوبى هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فان الحى إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة الأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله ﷺ . ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوا لك طبيبا ينظر إليك ! قال قد نظر إلى طبيبى وقال : إنى فعال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : ياأبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك ، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك .

ولما ثقل أبو بكر رضى الله عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه ، فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل الى عمر رضى الله عنه فجاء فقال : إنى موصيك بوصية ، اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فيقول القائل : انا دون هؤلاء ولا ابلغ هؤلاء ، فان الله ذكر اهل النار بأسوإ اعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فان حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب حب إليك من الموت ولا بد لك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب ابغض اليك من الموت ولا بد لك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر ابو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابه فقالوا : ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الأفق المبين ، قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه لله رياض الله وانهار واشجار ، يغشاه كل يوم مائة

---

(١١) حديث أبي جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة . أما وضع الفرشة والقطيفة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها ، وأما كونه ما بنى فى حياته فتقدم أيضا .

رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان « اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك اليهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم و فريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير ، اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيد وغويا ورشيد ،فلاتشقنى بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت ، فاجعلنى تستعمله بطاعك. اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ،فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى اليك. اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتى فى تقواك. اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلنى من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للايمان وزينه فى قلبى . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها اليك ، فأحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى اليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

وقال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فاذا رأى خللا قال : استووا ، حتى إذا لم فيهم ير خللا تقدم فكبر. قال : وربما قرأ سورة يوسف أو النحل — أو نحو ذلك — فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلنى — أو اكلنى — الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ،وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، فمات منهم تسعة — وفى رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا ، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمر رضى الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الأمر ؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس انظر من قتلنى ، قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر رضى الله عنه قاتله الله لقد كنت امرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم ، قد كنت انت وابوك تحبان ان يكثر العلوج بالمدينة ؛ وكان العباس اكثرهم رقيقا فقال ابن عباس : إن شئت فعلت اى إن شئت قتلناهم ، قال ، بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال : وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، قال . فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم اتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا انه ميت . قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال ، ابشر يا امير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ؛ قد كان لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة، فقال . وددت ان ذلك كان كفافا لا على ولا لى . فلما ادبر الرجل إذا ازاره يمس الأرض ، فقال : ردوا على الغلام ، فقال يا ابن اخى ارفع ثوبك فإنه انقى لثوبك واتقى لربك. ثم قال ، يا عبد انظر ما على من الدين ! فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه ، فقال . ان وفى به مال آل عمر فأده من اموالهم ، والا فسل فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم ، وأدعنى هذا المال وانطلق الى أم المؤمنين عائشة فقل

عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أمير ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى. فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء. فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ، قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال : الحمد لله ما كان شيء أهم إلى من ذلك ؛ فإذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر ، فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل : فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين واستخلف، فقال : ماأرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فان أصابت الإمارة سعدا فذاك وإلا فليستعن به أيكم أمر ، فانى لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيرا الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيرا فانهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم من رضا منهم ، وأوصيه بالأعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الإسلام وأن يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم . قال : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت : أدخلوه ، فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبى ﷺ قال « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر [1] » وعن ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال : ماخلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله ان كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبى ﷺ يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر [2] » فانى كنت - لأرجو أو لأظن - ان يجعلك الله معهما .

وفاة عثمان رضى الله عنه

الحديث فى قتله مشهور . وقد قال عبد الله بن سلام : اتيت اخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال ، مرحبا يا أخى ! رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة - وهى خوخة فى البيت - فقال : « ياعثمان حصروك ؟ » قلت : نعم ، قال « عطشوك »قلت : نعم ، فأدلى الى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت -حتى

---

(١) حديث « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر» أخرجه أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة من حديث أبى بن كعب بسند ضعيف جداً وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات .

(٢) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبى طالب كنت كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ... الحديث » متفق عليه .

إنى لأجد برده بين ثدى وبين كتفى ـ وقال لى « إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا ، فاخترت أن أفطر عنده ! فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان حين جرح : ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا : سمعناه يقول ، اللهم اجمع أمة محمد ﷺ ـ ثلاثا ـ قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة . وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال : ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على ! قال فجىء بهما كأنما هما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه قال : أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ما يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة ، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين ، بخيرله منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا : نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ « من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ؟» فاشتريتها من صلب ما فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال « اسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان» ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال: الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد (١) .

وروى عن شيخ من ضبة : أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ اللهم إنى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى .

وفاة على كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلى : لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه ، أتاه ابن النباح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول :

أشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت لاقيكا
ولاتجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول : مالى ولصلاة الغداة ! قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة ، وقتل أبى صلاة الغداة . وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فزت ورب الكعبة . وعن محمد بن على : أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال : يا أخى لأى شىء تجزع ؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أختاك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ! قال : يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ! وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر

(١) حديث ثمامة ابن حزن القشيرى : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان ... الحديث أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائى

معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء . ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرما .

الباب الخامس : فى كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى ، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تذكر ربك يامعاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان ! وبكى حتى علا بكاؤه وقال يارب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الذلة وعد بحلمك على من لا يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش . أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأو فى جلده غضونا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا ؛ أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار . ويروى ان آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إنى من زرع قد استحصد وإنى وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان من قبلى خيرا منى ! ويا يزيد إذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ، ثم اعمد الى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ، ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإنى لم أل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئا ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾ الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار . فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر ـ بينى وبينه باب وهو فى قبة له ـ فسمعته يقول ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له : أنظر أنائم هو فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : احذركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بد لكم منه . وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ! قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال : فتعالج يا امير المؤمنين فإنى اخاف ان تذهب نفسك قال : ربى خير مذهوب اليه ، والله لو علمت ان شفائى عند شحمة اذنى

مارفعت يدى إلى أذنى فتناولته. اللهم خر لعمر فى لقائك ! فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ياأمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى أن لاتقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها ؛ فكيف بكثير مما ضيعنا ؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات . ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى ! فأجلسوه فقال :أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت — ثلاث مرات — ولكن لاإله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له فى ذلك فقال : إنى لأرى خضرة ، ماهم بإنس ولاجن ، ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول ﴿ ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ﴾ .

وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول : يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت .

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل لا بأس عليك ياأمير المؤمنين ! فقال : ليس إلا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة — وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا .

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لى . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل نعم ، قال عسى .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين

ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إنى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار و لا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر . ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك .

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ؟ قال: ماأبكى جزعا على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب[1] فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فاذا قيمته بضعة عشر درهما.

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته : واحزناه فقال : بل واطرباه ! غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

ولما حضر ابراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له مايبكيك؟ قال : أنتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو بالنار .

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك ؟ فقال . والله ما أبكى لذنب أعلم أنى أتيته ، ولكن أخاف أنى أتيت شيئا حسبته هينا وهو عند الله عظيم .

---

(١) حديث : لما حضرت سلمان الوفاة بكى ، وفيه عهد إلينا رسول الله ﷺ : « أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب » أخرجه أحمد والحاكم وصححه ، وقد تقدم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له مايبكيك ؟ فقال: ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكي على مايفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء !

ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه واقلة زاده

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له : مايبكيك قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيرا غريبا ، قال: اسكت فاني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء ، ثم قال له لقني ولا تعد على مالم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال له : نجوت ، فقال : ما آمنك بعد . وبكى بعضهم عند الموت فقيل له مايبكيك ؟ قال : آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله . وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزعه — وكان يوم الجمعة ويوم النيروز— وهو يقرأ القرآن فختم ، فقلت له : في هذه الحالة ياأبا القاسم ، فقال : ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال: رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر ... وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كئوس للمنايا عليهم ... فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي الشكر
همومهمو جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لذي النون — عند موته : ماتشتهي ؟ قال أن أعرفه قبل موتي بلحظة . وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله فقال : إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقيرا وقال : السلام عليكم ؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان ان يموت فيه ، قال : فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومد رجليه ومات : وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا فقال لها : موتي ، فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت : قد مت ووقعت ميتة .

ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبي علي الروذباري ـ قالت : لما قرب أجل أبي علي الروذباري ـ وكان رأسه في حجري ـ فتح عينيه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول ياأبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم يردها ثم أنشأ يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواكا ... بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ ... وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله ، فقال . مانسيته فأذكره . وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري ـ خادم الشبلي ـ ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال علي درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألوف فما على قلبي شغل أعظم منه ، ثم

قال : وضئني للصلاة ، ففعلت فنسيت تخليل لحيته - وقد أمسك على لسانه - فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات . فبكى جعفر وقال : ماتقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ! وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر - وكان يشق عليه - كأنك تحب الحياة ! فقال : القدوم على الله شديد . وقيل لصالح بن مسمار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال : إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره ! ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم ، فقال لهم : ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ؛ ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له : أوصنا فقال ، احفظوا مراد الحق فيكم. واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ! فقالت ، عليك أبكي ! فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك ؛ فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة . وقال الجنيد ، دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك ؟ فانشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروحه فقال : كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق : ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب إن يك شيء فيه لي فرج فامنن علي به ما دام بي رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له . قل لا إله إلا الله . فأنشا يقول .

ان بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج
لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه. ثم أجاب بعد ساعة وقال : اعذرني فاني كنت في وردي . ثم ولى وجهه الى القبلة وكبر ومات . وقيل للكتاني لما حضرته الوفاة : ما كان عملك ؟ فقال : لولم يقرب أجلي ما أخبرتكم به . وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه . وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت : اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان - فذكر محاسنه - فأفاق فقال : من المتكلم ؟ فقلت : أنا ، فقال . ان ملك الموت عليه السلام يقول لي : أني بكل سخي رفيق ، ثم طفيء ، ولما حضرت يوسف بن اسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال: يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟ فقال : يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي ، فقال حذيفة ، واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم انه صدق الله في شي من عمله : وعن المغازلي قال : دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة - وهو عليل - وهو يقول : بمكنتك ان تعمل ما تريد فارفق بي ، ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له : فعل الله تعالى وصنع - من باب الدعاء - فضحك ثم قال : منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي . وقيل لرويم عند الموت : قل لا اله الا الله ، فقال : لا احسن غيره . ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له قل لا اله الا الله ، فقال : أليس ثم أمر ؟ ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له : كيف أصبحت

يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملي ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتــه بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجــود وتعفو منــة وتكرما
ولولاك لم يغوى بإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولمـا حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال : يا بنى باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى ، لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فأنى لى أوان الجواب .

فهذه أقاويلهم ، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

البـاب السادس : فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكأن قد ، ولعله فى غد أو بعد غد . ويروى عن أبى هريرة : أنه كان إذا رأى جنازة قال : امضوا فانا على الأثر وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فانا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير : ما شهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشىء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر اليه . ولمـا مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول : والله لا تقر عينى حتى أعلم إلى ماذا صرت اليه ، ولا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى ؟ لحزن الجميع . وقال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من الموت . والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم ـ إلا ما شاء الله ـ فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا . فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت . نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال : لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال : شيبتنى والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول :

تروعنا الجنـائز مقبـلات ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز : التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع ـــ كما ذكرنا آدابه وسنته فى فن الفقه ـــ ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لاتدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحدا من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته . فحضرها هو وصلى عليها ، فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله ياأبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذوخطايا ، فمن مناغير مذنب وغير ذى خطايا ؟ ويحكى أن رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال : قيل لى فى المنام انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له ، فزاد تعجب الناس ! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر ! فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق (والثانى) أنه كان أبدا لايخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم (والثالث) أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ؟ يعنى نفسه . فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر مايبقى على مايفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور[1] » وقيل لعلى كرم الله وجهه : ماشأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة . وقال رسول الله ﷺ « مارأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه[2] » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكيت وبكوا فقال « مايبكيكم ؟ » قلنا بكينا لبكائك ! قال « هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على ، فأدركنى مايدرك الولد من الرقة[3] » وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل عن ذلك وقيل

---

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القبور والبلى ... الحديث » تقدم

(٢) حديث « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه » تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

(٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم ... الحديث » وفيه « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ... الحديث » وتقدم فى آدب الصحبة أيضاً ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب ، وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هانىء ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم صالح .

له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ! وتبكى إذا وقفت على قبر . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد[1] » وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له : هذا شيء لم تكن تصنعه ، فقال : ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ؛ هذا ما أعددت لك فما أعددت لى . وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع فى قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ! ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ، ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يافلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثواب ، قال : ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشى يقول : أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى إخوانك اغتبطت . ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور . وقال حاتم الأصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وكان بكر العابد يقول : يا أماه ليتك كنت بى عقيما إن لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا . وقال يحيى بن معاذ : يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها وكان الحسن ابن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك إنما الدواهى فى بواطنك . وكان عطاء السلمى إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور متم فواموتاه ، وعاينتم أعمالكم فواعملاه ، ثم يقول: غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور ، فلا يزال عطاء ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار ، وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ثم يقول ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ يرددها ، ثم يرد على نفسه : ياربيع قد رجعتك فاعمل . وقال أحمد بن حرب : تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم ، فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بينى وبينك شيء . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال : ياميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحدا انعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البنانى : دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : ياثابت لايغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت الى جنازة زوجها الحسن ابن الحسن فغطت وجهها وقالت :

---

(١) حديث عثمان : كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته . وفيه : إن القبر أول منازل الآخرة . أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجة والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة . فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يئسوا فانقلبوا . وقال أبو موسى التميمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة ـ وفيهم الحسن ـ فقال له الحسن : يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنى أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرم منكم فى قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواحد لا يستبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة يفضى إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب فى حفرة يأوى إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه فى شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابناه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه. فقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بينها ، أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر؟!

قال : فرجعت وأنا باك.

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تناجيك اجداث وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أبا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربى جنبات قبرى كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيـالله أسرع ما نسـونى

ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يامن يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت ياغافلا فى النقص منغمسا وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به عن الجواب لسانا ما به خرس
وقد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحبة حين صفت قبورهم كأفراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعى رأت عيناى بينهم مكانى

ووجد على قبر طبيب مكتوبا :

قد قلت لمـا قال لى قائل صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه وحـذقه فى المـاء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أمكنه فى حياة العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت . والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب . وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت

قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها ، فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار . فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لى فى الله — فيما يرى النائم — فقلت يافلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها — يعنى الحمد لله رب العالمين — أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوننى فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله — فى تقدمه عليه فى الموت — منزلة ما لوكانا فى سفر فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فانه لايعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب ، وليس بينهما إلا تقدم وتأخر . وهكذا الموت فان معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه ، لاسيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب مايعزى به كل مصاب ، قال رسول الله ﷺ « لأن أقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله(١) » وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب .

وقال زيد بن اسلم : توفى ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ قال ملء الأرض ذهبا؛ قيل له : فان لك من الأجر فى الآخرة مثل ذلك ، وقال رسول الله ﷺ « لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ : أو اثنان؟ قال « أو اثنان (٢) » وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة . ووقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إنى اصبحت أرجوك له واخافك عليه فحقق رجائى وآمن خوفى . ووقف ابو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد غفرت له ماوجب لى عليه فاغفر له ماوجب لك عليه فانك اجود وأكرم . ووقف اعرابى على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ماقصر فيه من طاعتك .

ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر — بعد ماوضعه فى لحده — قال : ياذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعرى ماذا قلت وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم ان هذا ذر متعتنى به مامتعتنى ووفيته اجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت الزمته طاعتك وطاعتى ، اللهم وما وعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك فهب لى عذابه ولا تعذبه ، فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه : ماعلينا بعدك من خصاصة ياذر وما بنا الى انسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركنا ولو اقمنا ما نفعناك. ونظر رجل الى امرأة بالبصرة فقال : مارأيت مثل هذه النضارة وما ذاك الا من قلة الحزن ، فقالت : ياعبد الله انى لفى حزن مايشركنى فيه أحد ، قال فكيف ، قالت ان زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى وكان لى صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر ، أتريد ان أريك كيف ذبح أبى الشاة ؟ قال نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به الا متشحطا فى دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ الى جبل فرهقه ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر ، قالت : فأفردنى الدهر كما ترى . وأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع ، فما من مصيبة الا ويتصور ماهو أعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر .

(١) حديث « لأن اقدم سقطا أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله » لم أجد فيه ذكر « مائة فارس » وروى ابن ماجه من حديث أبى هريرة « لسقط أقدمه بين يدى أحب إلى من فارس أخلفه خلفى » .

(٢) حديث « لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم ... الحديث » تقدم فى النكاح .

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار ، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن فى ذلك بعد(١) .

روى عن على رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا(٢) » وزار رسول الله ﷺ قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ(٣) . وفى هذا اليوم قال « أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار(٤) » كما أوردنا من قبل . وقال ابن أبى مليكة : أقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر : فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت : أليس رسول الله ﷺ نهى عنها ؟ قالت : نعم ، ثم أمر بها(٥) . ولا ينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرون الهجر على رءوس المقابر فلا يفى خير من زيارتهن بشرها ، ولا يخلون الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة فى ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر .

وقال أبو ذر : قال النبى ﷺ « زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله(٦) » وقال ابن أبى مليكة : قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة(٧) وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبى ﷺ كانت تزور قبر حمزة فى الأيام فتصلى وتبكى عنده . وقال النبى ﷺ « من زار قبر والديه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا(٨) » وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين(٩) » وقال ﷺ « من زار قبرى فقد

---

(١) حديث : نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه فى ذلك . أخرجه مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

(٢) حديث على « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجراً » رواه أحمد وأبو يعلى فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى « غير أن لا تقولوا هجراً » وفيه على بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخارى لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان فى الثقات .

(٣) حديث : زار رسول الله ﷺ قبر أمه فى ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له فى الاستغفار لها . (٤) حديث « وقال فى هذا اليوم أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار » تقدم فى الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له فى الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبى هريرة « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى » .

(٥) حديث ابن أبى مليكة : أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن قلت : أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها . أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور بإسناد جيد . (٦) حديث أبى ذر « زر القبور تذكر الآخرة واغسل الموتى ، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور والحاكم بإسناد جيد . (٧) حديث ابن أبى مليكة « زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا مرسلا وإسناده حسن .

(٨) حديث « من زار قبر أبويه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب برا » أخرجه الطبرانى فى الصغير والأوسط من حديث أبى هريرة وابن أبى الدنيا فى القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبرانى يحيى بن العلاء البجلى متروك . (٩) حديث ابن سيران « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ، أخرجه ابن أبى الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن أبى العيزار عن محمد جحادة عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف .

وجبت له شفاعتي (١) » وقال ﷺ « من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة (٢) » وقال كعب الأحبار : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى . قال نافع : كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول:السلام على النبي ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٣) وقال سليمان بن سحيم : رأيت رسول الله ﷺ في النوم ، فقلت : يارسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم . وقال أبو هريرة : إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه السلام وعرفه وسلم عليه رد عليه السلام . وقال رجل من آل عاصم الجحدري : رأيت عاصما في منامي بعد موته بسنتين فقالت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، فقلت : أين أنت ؟ فقال : أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم ، قلت : أجسامكم أم أرواحكم . قال هيهات ! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال : قلت ، فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ، قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة وطلوع الشمس قلت: وكيف ذاك دون الأيام كلها .قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له ، لو أخرت إلى يوم الاثنين. قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده .

وقال الضحاك : من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة . وقال بشر بن منصور : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل : فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت : ما أنتم وما حاجتكم . قالوا نحن أهل المقابر قلت : ما جاء بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت: وما هي ، قالوا : الدعوات التي كنت تدعو لنا بها ،قلت فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك .

وقال بشار بن غالب النجراني : رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي : يابشار هداياك أتتنا على أطباق مخمرة بمناديل الحرير قلت:وكيف ذاك؟ قالت:وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالغريق المغوث ينتظر دعوة تلحقه

---

(١) حديث « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي » تقدم في أسرار الحج . (٢) حديث « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة فيه » . (٣) حديث عائشة « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبيلي .

من أبيه أو أخيه أو صديق له فاذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار[(١)] » وقال بعضهم : مات أخ لى فرأيته فى المنام فقلت : ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك ، قال : أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به .

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدى شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع فقال : ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول : يافلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثانية فانه يستوى قاعدا ، ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول : ارشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة ان لا إله إلا الله وان محمد رسول الله وأنك رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا وبالقرآن إماما ، فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا وقد لقن حجته ، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما ، فقال رجل يارسول الله . فان لم يعرف اسم أمه ، قال « فلينسبه إلى حواء[(٢)] » .

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور ، روى عن على بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد ابن قدامة الجوهرى معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد : ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد : ياأبا عبدالله ما تقول مبشر بن اسماعيل الحلبى . قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا . قال نعم ، قال : اخبرنى مبشر بن اسماعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجاج عن عن ابيه انه اوصى إذا دفن ان يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك . فقال له احمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ . وقال محمد بن احمد المروزى : سمعت احمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله احد . واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل إليهم . وقال ابو قلابة : اقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم تنبهت فاذا بصاحب القبر يشتكينى يقول لقد آذيتنى منذ الليلة ، ثم قال انكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا اقرئهم السلام فانه قد يدخل علينا من دعائهم نور امثال الجبال .

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه . فلا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به . وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور فى قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال ، كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر فقالت : إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإنى لآتى القبور فكأنى

---

(١) حديث « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له ... الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عبد الواحد قال الذهبى حديث عن هشام بن عمار بحديث باطل . (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدى قال : شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع فقال : ياسعيد إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال «إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة ... الحديث » فى تلقين الميت فى قبره أخرجه الطبرانى هكذا بإسناد ضعيف .

انظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه لمتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة ، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للأبدان ، بل ينبغى أن يحضر من صورة الميت ماذكره عمر بن عبد العزيز ؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسألتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه [1] » وقال ﷺ « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا [2] » وقال ﷺ « لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ماهم فيه [3] » وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شرا فقال عليه السلام « وجبت » ومروا بأخرى فاثنوا عليها خيراً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وجبت » فسأله عمر عن ذلك فقال « إن هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، وأنتم شهداء الله فى الأرض [4] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى وتجاوزت عن علمى فى عبدى [5] » .

الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة أخطأوا فيها .

فظن بعضهم : أن الموت هو العدم ، وأنه لاحشر ولانشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات . وهذا رأى الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وظن قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر .

وقال آخرون : إن الروح باقية لاتنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا .

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد

---

(١) حديث « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد .

(٢) حديث « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ماقدموا » أخرجه البخارى من حديث عائشة أيضاً .

(٣) حديث « لاتذكروا موتاكم إلا بخير ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصراً على ما ذكر منه هنا بلفظ « هلكاكم » وذكر بالزيادة صاحب مسند الفردس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى. (٤) حديث أنس : مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال « وجبت » الحديث متفق عليه . (٥) حديث أبى هريرة « إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك ... الحديث » أخرجه أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن النبى ﷺ يرويه عن ربه عز وجل « ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الادنين بخير إلا قال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ماعلموا وغفرت له ما أعلم.»

انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لايتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وماهو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد ان تؤخر إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على عبد من عباده . وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العاملة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها . وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها ، وأعنى بالروح : المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم وآلات الغموم ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات . ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولابطل منها قبولها للآلام واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لايموت ـ أى لاينعدم ـ ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية .

نعم تغير حاله من جهتين :

(إحداهما) أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وسائر أملاكه . ولافرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق . والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

(والثانى) أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا له فى النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ماينكشف له مايضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن ، وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان بوده

واستغنى عنه . وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ، ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتمادا على أن الملك يتساهل فى أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم . فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولوا البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها . ولا أن يزيد على أن يقول « الروح من أمر ربى[1] » فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت .

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة (أما الآيات) فما ورد فى الشهداء إذ قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ﴾ ولما قتل فى صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال يافلان يافلان يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا » فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال ﷺ « والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب[2] » فهذا نص فى روح الشقى وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء . ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة . وقال ﷺ « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة[3] » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروى أنس عن النبى ﷺ أنه قال « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته[4] » وقال ﷺ « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة[5] » وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال .

وعن أبى قيس قال : كنا مع علقمة فى جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته . وقال على كرم الله وجهه :

---

(١) حديث : إنه يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فى الروح . متفق عليه من حديث ابن مسعود فى سؤال اليهود عن الروح ونزول قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) وقد تقدم . (٢) حديث : نداءه من قتل من صناديد قريش يوم بدر « يافلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا ... » أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب .

(٣) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وتقدم فى الرجاء والخوف . (٤) حديث أنس « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بإسناد ضعيف وقد تقدم . (٥) حديث « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر .

حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار ؟ وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة [١] » وقال مسروق : ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له ماتحب لمن تحب ؟ قال الموت ، قلت فان لم يمت ؟ قال ، يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لايحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لابد من فراقه غاية الشقاء . فكل ماسوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لامحالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ،وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان في الموت خلاصة من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ! لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين الى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته ، فإن نظر الى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لايلتفت قلبه الى المبيع ، وان نظر الى الآخرة فقد اشتراها وتشوق اليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه اذا رآه وما أقل التفاته الى ما باعه اذا فارقه ، وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لايدركه الموت عليه فيتغير . والقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، اذ معنى النعيم أن ينال الإنسان مايريده قال الله تعالى ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم . وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير . وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين . وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى ، فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ لجابر « ألا ابشرك ياجابر » وكان قد استشهد أبوه يوم احد فقال : بلى بشرك الله بالخير فقال « إن الله عزوجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمن علي ياعبدي ماشئت أعطيكه فقال : يارب ماعبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لاترجع [٢] » وقال كعب ، يوجد رجل في الجنة يبكي فقال له : لم تبكي وأنت في الجنة ؟ قال ، أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة ؟ فكنت أشتهي ان ارد فأقتل فيه قتلات .

واعلم ان المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ،

---

(١) حديث أبي هريرة « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فتاني القبر » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا « فتان » . (٢) حديث عائشة « ألا أبشرك ياجابر ... الحديث » وفيه « إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر « ألا أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ قال : يارسول الله ... الحديث » وفيه فقال « ياعبدي تمن علي أعطك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لايرجعون » .

ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم له باب إلى بستان واسع الأكناف لايبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلا فقال لرجل مات « أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه [(١)] » فعرفك بهذا أن نسبة سعة الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم . وقال ﷺ « إن مثل المؤمن من الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه [(٢)] » وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله ﷺ « إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه [(٣)] » أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه . وقال أبو عمر صاحب السفيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلا فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة . وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وإنهم ليغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم . وقال مالك بن أنس : بلغنى أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت . وقال النعمان ابن بشير : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم [(٤)] » وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور [(٥)] » ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إنى أعوذ بك من أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن رواحة - وكان قد مات وهو خاله - وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هى؟ قال : فى حواصل طير بيض فى ظل العرش ، وأرواح الكافرين فى الأرض السابعة . وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره [(٦)] » وقال صالح المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم . كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أو خبيث ؟ وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان؟ فيقول . ألم يأتكم.

---

(١) حديث : قال لرجل مات « أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه » أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات

(٢) حديث « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفى عن سليم بن عامر الجنائزى مرسلا هكذا

(٣) حديث : قيل لرسول الله ﷺ إن فلانا قد مات فقال « مستريح أو مستراح منه » متفق عليه من حديث أبى قتادة بلفظ : مر عليه بجنازة فقال ذلك وهو عند ابن أبى الدنيا فى الموت باللفظ الذى أورده المصنف

(٤) حديث النعمان بن بشير : « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور فى جوها فالله الله فى إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم » أخرجه ابن أبى الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى عن النعمان من قوله « الله الله » ورواه بكماله الأزدى فى الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل بكماله فى ترجمة أبى إسماعيل السكونى رواية عن مالك ابن أدى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول، قال الأزدى لا يصح إسناده وذكر ابن حبان فى الثقات مالك بن أدى

(٥) حديث أبى هريرة « تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أقاربكم من أهل القبور » أخرجه ابن أبى الدنيا والمحاملى بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنسانا عن أنس « أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات . . . الحديث »

(٦) أبى سعيد الخدرى « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره » رواه أحمد من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن .

أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ سلك به غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال . اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد . إن الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره . وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ انه قال « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها اهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح ، فانه كان فى كرب شديد فيسألونه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال : مات قبله وقال . مات قبلى قالوا ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ذهب به الى أمه الهاوية (١) » .

بيان كلام القبر للميت

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال ، التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الاحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بى ! الم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ماغرك بى إذ كنت تمر بى فذاذاً ؟ فإن كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إنى اذاً أتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى (٢) » والفذاذ هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى .

وقال عبيد بن عمير الليثى : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها . أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فإن كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا . وقال محمد بن صبيح : بلغنا ان الرجل اذا وضع فى قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى . أيها المتخلف فى الدنيا بعد اخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى متقدمنا إياك فكرة ، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وانت فى المهلة فهلا استدركت ما فات اخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض . أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الأرض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به اجله الى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته الى المنزل الذى لابد له منه ؟ وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أن الميت اذا وضع فى قبره احتوشته اعماله ثم انطقها الله فقالت . ايها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب : اذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته اعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، قال : فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : اليكم عنه فقد انصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئا طبت حيا وطبت ميتا ، قال : وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له فى قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة

---

(١) حديث أبى أيوب « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى فى مسند الشاميين بإسناد ضعيف ، ورواه ابن المبارك فى الزهد موقوفا على أبى أيوب بإسناد جيد ، ورفعه ابن صاعد فى زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائى وابن حبان نحوه من حديث أبى هريرة بإسناد جيد .

(٢) حديث « يقول القبر للميت حين يوضع فيه . ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ألم تعلم أنى بيت الفتنة . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم فى الكنى من حديث أبى الحجاج الثمالى بإسناد ضعيف

فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعه فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيقي ونتني وهولى ودودى فماذا أعددت لى[1] » .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثا ثم قال « إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره ، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا ويحب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإنى وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال ياهذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد ﷺ قال « فينتهرانه انتهاراً شديداوهى آخر فتنة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح والله ماعلمت أن كنت لسريعا إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا » قال « ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى » قال « وأما الكافر فانه إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض ملك فى السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا ويكره أن يدخل بروحه منه ، فاذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إنى وعدته ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فيقول : لاأدرى فيقال : لادريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول : أنا عملك الخبيث ، والله إن كنت لسريعا فى معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ، ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين » قال « ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار[2] » وقال محمد بن على مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال

---

(١) حديث عبدالله بن عبيد بن عمير : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال بلغنى ولم يرفعه (٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصارى فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكسا رأسه ثم قال « اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر . . . الحديث » بطوله =

فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية ومرضيا عنك إلى روح الله وكرامته فاذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها الى عليين . وإن الكافر اذا احتضر أتته الملائكة بمسح فية جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوط عليك الى هوان الله وعذابه فاذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيشاً ويطوى عليه المسح ويذهب بها الى سجين[1] » وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ قال أى شيء تريد فى أى شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشقق الأنهار ؟ قال: لا ، لعلي أعمل صالحا فيما تركت ، قال فيقول الجبار ﴿ كلا انها كلمة هو قائلها ﴾ أى ليقولنها عند الموت وقال أبو هريرة :قال ﷺ « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ، هل تدرون فيماذا أنزلت ﴿ فان له معيشة ضنكا ﴾ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين؟تسعه وتسعون حية لكل حية سبعةرءوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون[2]» ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص،فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات ، فان لها أصولا معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها الى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها هى تنقلب عقارب وحيات، فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذى إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا أن مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغى أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان والتصديق والتسليم .

فان قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ، فاعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا .

(أحدها) وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحى أهم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا هى من جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى .

= أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائى وابن ماجه مختصرا .

(١) حديث أبي هريرة «إن المؤمن اذا حضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان . . . الحديث» أخرجه ابن أبى الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف . (٢) حديث أبي هريرة «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا . . . الحديث » ورواه ابن حبان .

(المقام الثانى) أن تتذكر أمر النائم وأنه قد يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح فى نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب فى ألم اللدغ فلافرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(المقام الثالث) أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يلحقك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم بل عذابك فى الأثر الذى يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لايمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يفضى اليه فى العادة ، فإنه لو خلق فى الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشر صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون بالإضافة التعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ،والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات .وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب مايتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال. بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لايرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط فكنت لاأتأذى بفراقه ؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة :

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لايفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم يضاف إلى هذا العذاب تحسره على مافاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ،فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله عز وجل ، وذلك هو العذاب الذى يعذب به إذ لايتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب . فاذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وحبه للفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستعد لهذه اللدغات ، فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ،ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه ، وييأس من رجوع جميع ذلك اليه .فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لأنا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود اليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة

بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلي وحصل اليأس . فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به ، فان كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون ، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله ﷺ « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين[1] » وما من شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فان شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل ، فان استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة ، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك .

وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا اليها . فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قد مات فى المنام فقال له : يابنى عظنى ، قال، لاتخالف الله تعالى فيما يريد ، قال يابنى زدنى ،قال ياأبت لا تطيق قال: قل، قال لاتجعل بينك وبين الله قميصا . فما لبس قميصا ثلاثين سنة .

فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده . ومنهم من انكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان . وان من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور ، بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدق به تقليدا فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذى أوصيك به أن لاتكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيفما كان ، فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين او بسيف او بموسى ؟ وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع ان العبد لايخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له ، فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول فى عذاب القبر

قال أبو هريرة : قال النبى ﷺ « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول فى النبى ، فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ، ثم يفسح له قبره سبعون ذراعا فى سبعين ذراعا وينور له فى قبره ثم يقال له نم فيقول دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لايوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وان كان منافقا قال لا أدرى

(١) حديث « صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين » لم أجد له أصلا .

كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك [١] » وعن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « ياعمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك ياعمر ؟ » فقال عمر : ويكون معى مثل عقلى الآن ؟ قال « نعم » قال « إذن أكفيكهما [٢] » وهذا نص صريح فى أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شىء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شىء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذى لا ينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن المنكدر : بلغنى أن الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة » لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه . وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن . وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يبسطنى للصداقة والدعاء لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إنى لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تحاجش عنه أعماله الصالحة كما يحاجش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك . وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط المؤمن فى هذا ضغطة ترد منه حمائله [٣] » قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ [٤] » وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يارسول الله رأينا منك شأنا فم ذلك ؟ قال « ذكرت ضغطة ابنتى وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين [٥] » .

---

(١) حديث أبى هريرة « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير . . . الحديث » أخرجه الترمذى وحسنه وابن حبان مع اختلاف . (٢) حديث عطاء بن يسار : قال : رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب « ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر . . . الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات قال البيهقى فى الاعتقاد : رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلا قلت : ووصله ابن بطة فى الإبانة من حديث ابن عباس ، ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به الفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر ؛ فقال عمر : أترد الينا عقولنا ؟ فقال « نعم كهيئتكم اليوم » فقال عمر : بفيه الحجر . (٣) حديث حذيفة : كنت مع رسول الله ﷺ فى جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه . . . الحديث رواه أحمد بسند ضعيف . (٤) حديث عائشة « ان للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ » رواه أحمد بإسناد جيد .

(٥) حديث أنس : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة . . . الحديث » وفيه « لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع عنه .

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

أعلم أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلا، فإنا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذات مات وكيف ختم له ؟ وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محلها القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ! فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه ، وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين فى قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئا من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر فى حق سعد ابن معاذ وفى حق زينب ابنته [١] وكذلك حال أبى جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضا مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة [٢] » وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً [٣] وهو إشارة إلى طهارة البطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها . ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى نزل قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق [٤] ﴾ وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

ولكن القدر الذى يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين ، كما ورد فى القرآن . فجميع

---

(١) حديث : رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته وكذلك حال أبى جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث فى الباب الذى قبله . (٢) حديث « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» تقدم. (٣) حديث : أمر بالطهارة عند النوم . متفق عليه من حديث البراء « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ... الحديث » . (٤) حديث : انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ فى النوم . أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره من رواية مجاهد مرسلا .

ماجرى فى العالم وماسيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لايشاهد بهذه العين . ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأن الكتاب من كاغد أو رق ، بل ينبغى أن تفهم قطعا أن لوح الله لايشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لايشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لاتشبه ذات الخلق وصفاتهم ، بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه . ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفا . وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ماقدره الله تعالى وقضاه ، واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لايدوم وهو الغالب . وما دام متيقظا فهو مشغول بما توردہ الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا توردہ على القلب ، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع فى قلبه شىء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه ، فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى .

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير . ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم . وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعا للناس من الأكل والشرب . ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لاتنحصر عجائبه ! وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل فماذا يرى فى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والخازى والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ﴿ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ويقال ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وإليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ﴾ فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات مالم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من

شقاوة لازمه أم سعادة دائمة ؟ لكان ذلك كافيا فى استغراق جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا ! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا ! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد النبيين « أحبب من أحببت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به[1] ؟ » فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة[2] ولم يخلف دينارا ولا درهما[3] ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا قال نعم « لوكنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن[4] » فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب ! وقد قال لأمته ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه ما دعا إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة ، فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته . وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ﴾ فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يارجل ـ وكلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصبح إلى حين تمسى لا تسعى إلا فى الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾ .

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ، ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به إذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى[5] » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فرأيته لا ينظر إلى فقلت يارسول الله ماشأنى ! فالتفت إلى وقال « ألست المقبل وأنت صائم ؟ » قال : والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضى الله عنه : كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول . هذا أوان فراغى إن كان عرشى لهدلولا أنى لقيته رءوفا رحيما . وقال الحسن بن على . قال لى على رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لى الليلة فى منامى فقلت : يارسول الله مالقيت من أمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم ابدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى ! فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت . يارسول الله استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت . يارسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر

---

(١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فإنك مفارقه ... الحديث » تقدم .
(٢) حديث : لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة . تقدم أيضا . (٣) حديث : لم يخلف دينارا ولا درهما . تقدم أيضا .
(٤) حديث « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن » تقدم أيضا .
(٥) حديث « من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتخيل بى » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئا قط فقلت : لا ، فأقبل على فقال « غفر الله لك[1] » وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مؤاخيا لأبى لهب مصاحبا له، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني إياه فى المنام قال : فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار فى العذاب لا يخفف عنى ولا يروح إلا ليلة الاثنين فى كل الأيام والليالى ؛ قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد فى تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لى فرحا به ، فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجا فصحبنى رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ، خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبى ، فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل ، فبينا أنا نائم إذ أتانى آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ؛ قال : فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلنى من ذلك رعب ، فبينا أنا فى ذلك الغم إذ غلبتنى عينى فنمت فإذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنحو ، فمسح وجهه بيده ثم أتانى فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك ؛ فقلت له من أنت بأبى أنت وامى ؟ فقال : أنا محمد ، قال : فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى فإذا هو ابيض ، فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده - فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا انظر ، فما كان بأسرع من ان خرج على رضى الله عنه وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة ، وما كان باسرع من ان خرج معاوية على أثره وهو يقول . غفرلى ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال ، قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره اصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ، ألا تعلم ما صنعت أمتى بعدى ! قتلوا ابنى الحسين وهذا دمه ودم اصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد اربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه .

وروى الصديق رضى الله عنه فقيل له . إنك كنت تقول أبدا فى لسانك ، هذا أوردنى الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال . قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة .

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت ممتمما الدورقى فى المنام فقلت : ياسيدى ما فعل الله بك ؟ فقال . دير بى فى الجنان فقيل لى : يا ممتمم هل استحسنت فيها شيئا ، قلت . لا ياسيدى ، فقال . لو استحسنت منها شيئا لوكلتك اليه ولم أوصلك إلى .
وروى يوسف بن الحسين فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال . غفر لى ، قيل . بماذا ؟ قال . ما خلطت جدا بهزل . وعن منصور بن إسمعيل قال : رأيت عبد الله البزار فى النوم فقلت . ما فعل الله بك ؟ قال ، أوقفنى بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فانى استحييت أن أقر به ، فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت .

---

(1) حديث ابن عيينه عن محمد بن المنكدر عن جابر : ماسئل النبى ﷺ شيئا قط فقال لا . رواه مسلم وقد تقدم .

ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره . وقال أبو جعفر الصيدلانى : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما : بيده طشت ، وبيد الآخر : إبريق ، فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما الآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ؟ فقلت : يارسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت « المرء مع من أحب » ؟ قال : بلى ، قلت : يارسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء ، فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فانه منهم . وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس فوقف على ملك فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفى بميزان وفى ، فولى الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤى مجمع فى النوم فقيل له ، كيف رأيت الأمر ، فقال : رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة .

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة ، فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد امرا فعصمت منه فاشخص رجلا يقتلنى ، وقال محمد بن واسع . الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره . وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له : رحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا ، قال ، أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما ، فقلت : فى أى الدرجات أنت ، فقال (مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام ، اى الأعمال أفضل عندكم ، فقال : الرضا وقصر الأمل .

وقال يزيد بن مذعور ، رأيت الأوزاعى فى المنام فقلت ، ياأباعمرو دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى ، قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخا كبير ، فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه . وقال ابن عيينة . رأيت أخى فى المنام فقلت: يا أخى مافعل الله بك؟ فقال : كل ذنب استغفرت منه لم غفر لى ومالم استغفر منه لم يغفر لى . وقال على الطلحى : رأيت فى المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا فقلت :من أنت ، فقالت: حوراء ، زوجينى نفسك ، قالت : اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى ، قلت : وما مهرك ، قالت : حبس نفسك عن آفاتها .

وقال إبراهيم بن اسحق الحربى: رأيت زبيدة فى المنام فقلت: مافعل الله بك، قالت غفر لى، قلت: بما أنفقت فى طريق مكة ؟ قالت : اما النفقات التى انفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لى بنيتى . ولما مات سفيان الثورى رؤى فى المنام فقيل له : مافعل بك؟ قال : وضعت أول قدمى على الصراط والثانى فى الجنة وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها وكان يتلألا وجهها نورا ـ فقلت لها : بماذا ضوء وجهك ، فمن ثم ضوء وجهى قالت . تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها ، قلت : نعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، كما ترى . وقال الكتانى : رأيت الجنيد فى المنام فقلت له : مافعل الله بك ، قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل .

ورؤيت زبيدة فى المنام فقيل لها : ما فعل الله بك ، قالت : غفر لى بهذه الكلمات الأربع : لاإله إلا الله افنى بها عمرى ، لا إله إلاالله أدخل بها قبرى ، لا إله إلاالله أخلو بها وحدى ، لاإله إلا الله التى بها ربى . ورؤى بشر فى المنام فقيل له : مافعل الله بك ؟ قال رحمنى ربى عز وجل وقال يابشر أما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف . ورؤى أبو سليمان فى النوم فقيل له : مافعل الله بك ، قال رحمنى وما كان شيء أضر على من إشارات القوم إلى . وقال أبو بكر الكتانى :رأيت فى النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له : من انت ، قال : التقوى ، قلت : فأين تسكن ، قال : كل قلب حزين ، ثم التفت فاذا امراة سوداء فقلت : من انت . قالت : انا السهم ، قلت ، فأين

تسكنين ؟ قالت : كل قلب فرح مرح ! قال : فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة . وقال أبو سعيد الخراز: رأيت فى المنام كأن إبليس وثب على ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بى هاتف : إن هذا لايخاف من هذه ، وإنما يخاف من نور يكون فى القلب . وقال المسوحى : رأيت إبليس فى النوم يمشى عريانا فقلت : ألا تستحى من الناس ! فقال : بالله هؤلاء ناس ! لوكانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى . وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية . وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كأن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال : شر هذا أكثر من خيره . وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ فقلت له : أوصنى ، قال : أقلل من معرفة الناس . وروى أبو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت الى ربى كفاحا فقال لى هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته وزرنى فانى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : ناقشنى حتى أيست ، فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته . ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وجعلنى حجة على المحبين . ورؤى الثورى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمنى ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال . هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين .

ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال * حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا * ورؤى مالك بن أنس فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة : سبحان الحى الذى لا يموت . ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض . ورؤى الجاحظ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عريانا فقال : ألا تستحى من الناس ؟ فقال : وهؤلاء ناس ! الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى ! قال الجنيد : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأونى قالوا : لا يغرنك حديث الخبيث . ورؤى النصراباذى بمكة - بعد وفاته - فى النوم فقيل له : ما فعل الله بك؟ قال : عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت : لا ياذا الجلال ، فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى ، ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت : يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الاعمال شيئاً فيحال بينى وبينك ، فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك . وقيل : رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى الميت بعضهم فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وقال : قل لأيوب ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الانفاق ﴾ وقال بعضهم : رأيت فى الليلة التى مات فيها

داود الطائى نورا ، وملائكة نزولا وملائكة صعودا ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه . وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال : دع التشييخ ، قلت : تلك الأحوال التى شاهدتها ، فقال : لم تغن عنا ! فقلت : مافعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز . وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمدا الطوسى المعلم ـ فى النوم ـ فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد ـ وحياة الحب ـ حلتم وما حلنا

قال : فانتبهت فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة . وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فا صنع الله بك ؟ قال : غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال بخ بخ ذاك ﴿ من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت : ياأبا عبدالله ماصنع الله بك؟ قال : أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب .

ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادى ـ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ـ واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القارى الدقيق رأيت فى منامى رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فأتيته فقلت : أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت : مسترشد فأرشدنى أرشدك الله ، فأقبل على وقال : اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى . وقال أبو بكر بن أبى مريم : رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت : مافعلت ياورقاء ؟ قال : البكاء من خشية الله .

وقال يزيد بن نعامة : هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها أبوها فى المنام فقال لها : يابنية أخبرينى عن الآخرة ؟ قالت : يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعلمون ولا تعملون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها . وقال بعض أصحاب عتبة الغلام: رأيت عتبة فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك ! قال : فلما أصبحت جئت إلى بيتى فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت (ياهادى المضلين وياراحم المذنبين ويامقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين) وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت : يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال : بالورع ، قلت : فما بال على بن عاصم ؟ قال : ذاك لايكاد يرى إلا كما يرى الكوكب . ورأى رجل من التابعين النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : يارسول الله عظنى ، قال : نعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ومن كان فى نقصان فالموت خير له . وقال الشافعى رحمة الله عليه : دهمنى فى هذه الأيام أمر أمضنى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل . فلما كان البارحة اتانى آت فى منامى فقال لى : يامحمد بن إدريس قل اللهم إنى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً ولا موتاً ولاحياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقيتنى اللهم فوفقنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية ؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه ، فعليكم بهذه الدعوات لاتغفلوا عنها . فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقربة إلى

الله زلفى ، فلنذكر بعدها مابين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أو فى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

الشطر الثانى

من كتاب ذكر الموت فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو فى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار .

وفيه بيان نفخة الصور . وصفة أرض المحشر وأهله . وصفة طول يوم القيامة . وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها . وصفة المساءلة عن الذنوب . وصفة الميزان ، وصفة الخصماء ورد المظالم ، وصفة الصراط . وصفة الشفاعة وصفة الحوض . وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها . وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى ، وباب فى سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

صفة نفخة الصور

فقد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت فى سكرات الموت و وخطره فى خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء ، فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد لها ، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ماتكتنفه من المصاعب والأهوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذى أخبر ـ صدقت ، ثم مد يديه لتناوله ، كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان ، وقد قال النبى ﷺ « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، وكذبنى وما ينبغى أن يكذبنى ، أما شتمه إياى فيقول إن لى ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى[1] » وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور .

ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له : إن صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ففى خلق الآدمى ـ مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه ـ أعاجيب تزيد على الأعاجيب فى بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد

---

(١) حديث « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى وكذبنى ما ينبغى له أن يكذبنى . . . الحديث» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .

ذلك فى صنعته وقدرته ؟ فإن كان فى إيمانك ضعف فقو الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وقال تعالى ﴿فإذا نقر فى الناقور فذلك يوم عسـير على الكافرين غير يسير﴾ وقال تعالى ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلا أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ فلو لم يكن بين يدى الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض- يعنى يموتون بها - إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله ﷺ « كيف وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ[1] » .

قال مقاتل : الصور هو القرن ؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى ، فاذا نفخ صعق من فى السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ،وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ،ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر ملك الموت فيموت . ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى ﴿ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون﴾ على أرجلهم ينظرون الى البعث وقال رسول الله ﷺ « حين بعث إلى بعث الى صاحب الصور فأهوى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة[2] » فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ،وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم . بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين .

فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذرة ، وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم

---

(١) حديث « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة... الحديث» أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ « إن صاحبى القرن بأيديهما أو فى أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران » وفى رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه . (٢) حديث « حين بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيـه وقدم رجلا وأخر أخرى الحديث» لم أجده هكذا بل قد ورد : أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة « إن الله تبارك وتعالى لمـا فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قال البخارى ولم يصح وفى رواية لأبى الشيـخ « ماطرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان » وإسنـادها جيد.

النشور من غير خطيئة تدنست بها ، ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك .

صفة أرض الحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها . بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هى النفخة الأولى والرادفة هى النفخة الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد (١) » .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع . والنقى : هو النقى عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر .

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل تساويها إلا فى الرسم قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ . قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدد الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يامسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها . فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رءوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن . واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة — زوج النبى صلى الله عليه وسلم رواية الحديث — قلت يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال « شغل الناس عن ذلك ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (٢) » فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ، فقال

---

(١) حديث « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد » متفق عليه من حديث سهل ابن سعد وفصل البخارى قوله « ليس فيها معلم لأحد » فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه .

(٢) حديث « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة راوية الحديث : واسوأتاه ... الحديث » أخرجه الثعلبى والبغوى وهو فى الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة « واسوأتاه » ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة « واسوأتاه » .

رجل : يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال « الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم [١] » فى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل ، والمشى بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها ! فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عاريا مكشوفا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا منتظرا لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

صفة العرق

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل رب العالمين . ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاخنزاء عند العرض على جبار السماء ، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ « يوم يقوم الناس لرب العالمين — حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه [٢] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم [٣] » كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح . وفى حديث آخر « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب [٤] » وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه — وأشار بيده فألجمها فاه — ومنهم من يغطيه العرق — وضرب بيده على رأسه هكذا [٥] » فتأمل يامسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فإنك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق ؟

---

(١) حديث أبى هريرة « يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة وعلى وجوههم ... الحديث » رواه الترمذى وحسنه وفى الصحيحين من حديث أنس : أن رجلا قال : يانبى الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال « أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » . (٢) حديث ابن عمر « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » متفق عليه . (٣) حديث أبى هريرة « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ... الحديث » أخرجاه فى الصحيحين كما ذكره المصنف . (٤) حديث « قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب » أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سلمان الجرجانى ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يتعمد الكذب لكن لعله تشبه عليه . (٥) حديث عقبة بن عامر « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه ... الحديث » رواه أحمد وفيه ابن لهيعة .

وأعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله — من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر — فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب. ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته .

صفه طول يوم القيامه

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم ، يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم . قال كعب وقتادة ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم (١) » وقال الحسن : ما ظنك بقوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قدآن حرها واشتد لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال : دعونى ! نفسى نفسى ! شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ فتأمل فى طول هذا اليوم وشده الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة ، قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا(٢) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره ، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا .

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد

---

(١) حديث ابن عمر : تلا هذه الآية (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » قلت : إنما هو عبد الله بن عمر ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكره ابن أبى حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون

(٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » أخرجه أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحرث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة بإسناد جيد « يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب » ورواه البيهقى فى الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ « إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة » .

سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ،فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجان ، يوم يمنع فيه العاصى من الكلام، ولا يسئل فيه عن الأجرام بل يؤخذ بالنواصى والأقدام ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهدما قدمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيدالمرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يارسول الله قال « شيبتنى هود وأخواتها[1] » وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت ،فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه .

وقد وصف الله تعالى بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى والألقاب بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفى كل نعت من نعوتها معنى ، فاحرص على معرفة معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أساميها . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم

---

(١) حديث « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

لا يغنى مولى عن مولى شيئا ويوم لاتملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لايجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لامرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لاينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار : يوم تردفيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار . يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأغلى الحميم ، وزفرت النار ويئس الكفار ، وسعرت النيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه . فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يدار كنا الله بواسع رحمته .

صفة المسألة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير . فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عزوجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام [1] » فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلا هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده ، وعند نزولهم لايبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين . فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة القزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ماهو فينا ولكنه آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق قوله تعالى قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ وقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول

---

(١) حديث « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام » لم أره بهذا اللفظ .

ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقال لهم : ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم فى ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى ، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ، فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير . ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين ، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار . ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه مايراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : ائتنى بالنار ، فيجيء لها جبريل ويقول : ياجهنم أجيبى خالقك ومليكك ، فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغظيها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين ﴿ يوم ترى كل أمة جاثية ﴾ وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ، ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع ، وانتضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبتم ، فاذا رأوا ماقد أقيم السياسة على الانبياء اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج مع زوجته ، وبقى كل واحد منتظرا لأمره . ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه ، قال أبو هريرة : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب » قالوا : لا ، قال « فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب » قالوا : لا ، قال « فوالذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم ، فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول العبد : بلى ، فيقول أظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى (١) » فتوهم نفسك يامسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك . ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ، ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ، ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبه وفيماذا أنفقته ، ألم أكرمك بالعلم فماذا عملك فيما علمك . فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك ، فان أنكرت شهدت عليك جوارحك . قال أنس رضى الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أبى هريرة : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ...الحديث» متفق عليه دون قوله «فيلقى العبد ...الخ» فانفرد بها مسلم .

فضحك ثم قال « أتدرون مم أضحك »قلنا الله ورسوله أعلم ، قال« من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم » قال « يقول بلى » قال « فيقول فانى لاأجيز على نفسى إلا شاهداً منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً » قال « فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى » قال « فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل(١) » فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ فقال : قال رسول الله « يدنوا أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم(٢) وقد قال رسول الله ﷺ « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة(٣) » فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة ، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم ، فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم ، فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه ياابن آدم ادن منى ، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيك كتابك ، الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلاأحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ! وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ، فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ! فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ماتقول ؟ ثم تفكر فى عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً إذ يقول : ياعبدى ! أمااستحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادى ، استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ، ألم أنعم عليك ، فماذا غرك بى أظننت أنى لاأراك وأنك لاتلقانى . قال رسول الله ﷺ « مامنكم أحد إلا ويسأله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان(٤) » وقال رسول الله ﷺ ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار «فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة(٥)» وقال ابن مسعود : مامنكم أحد إلا سيخلو الله به كما يخلوا أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول ياابن آدم ماغرك بى ياابن آدم ماعملت فيما علمت ياابن آدم ماذا أجبت المرسلين ياابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى مالايحل

---

(١) حديث أنس « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ،قال« من مخاطبة العبد ربه ... الحديث » رواه مسلم.

(٢) حديث : سأل ابن عمر رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ... الحديث »رواه مسلم .

(٣) حديث « من ستر على مؤمن عورته يوم القيامة» تقدم .

(٤) حديث« مامنكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عدى عن أبى حاتم بلفظ « إلا سيكلمه » الحديث .

(٥) حديث «ليقفن أحدكم بين يدى الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان ... الحديث» أخرجه البخارى من حديث عدى بن حاتم .

لك ألم أكن رقيبا على أذنيك ! وهكذا حتى عد سائر أعضائه ، وقال مجاهد : لاتزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماعمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه ؟ فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وان أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون ـ وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه ـ وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على مافرطت فيه من طاعة الله وعلى مابعت آخرتك من دنيا دنيئة لم لم تبق معك !

صفـــة الميزان

ثم لاتغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق (فرقة) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار ،فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها (وقسم آخر) سيئة لهم فينادى مناد ليقم الحامدون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها (ويبقى قسم ثالث) وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيآتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب ، فتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن : أن رسول الله ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول ﷺ فانتبه فقال « مايبكيك ياعائشة » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال «والذى نفسى بيده بيده فى ثلاث مواطن فان أحدا لايذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل , وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أم بشماله ، وعند الصراط[1] » وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك ، فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وإن خف نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليه ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار وقال رسول الله ﷺ فى يوم القيامة « إنه ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له : قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار ، فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ماأوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله ﷺ ماعند أصحابه قال « اعملوا وابشروا فوالذى نفس محمد بيده إن معكم خليقتين ماكانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس » قالوا وما هما يارسول الله ؟ قال « يأجوج ومأجوج » قال : فسرى عن القوم فقال « اعملوا وابشروا فوالذى نفس

---

(١) حديث الحسن : أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ... الحديث ؛ وفيه : فقال « مايبكيك يا عائشة قالت : ذكر الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة . . .الحديث» أخرجه أبو داود الحسن : أنها ذكرت النار فبكت فقال «مايبكيك» دون كون رأسه ﷺ فى حجرها وأنه نعس وإسناده جيد .

محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقة فى ذراع الدابة[١] » .

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾ واعلم أنه لاينجوا من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك مافرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب ، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ؛ فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض ناصيته ، وهذا يتعلق بلببه ، هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وراعيتنى . فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ـ حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ـ إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ﴾ فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ماأنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس ﴾ الآية .

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لاتقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تدرون من المفلس؟ » قلنا المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولا دينار ولا متاع ، قال « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة . ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار[٢] » فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فان سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وانت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ؛ لعلمت أنه لاينقضى عنك يوم إلا ويجرى

---

(١) حديث « يقول الله يا آدم قم فابعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون... الحديث » متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ورواه البخارى من حديث أبى هريرة نحوه وقد تقدم .

(٢) حديث أبى هريرة « هل تدرون من المفلس ! » قالوا : المفلس يارسول الله من لادرهم له ولا متاع ... الحديث . تقدم .

على لسانك من غيبة المسلمين مايستوفى جميع حسناتك ! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات ؟ وكيف ترجوا الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للخصماء من القرناء . فقد روى أبو ذر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال « ياأبا ذر أتدرى فيم ينتطحان » قلت : لا ، قال « ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة[1] » .

وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شىء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر ياليتنى كنت ترابا . فكيف أنت يامسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتى ، فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك ، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ماقارفتها قط ! فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة

قال ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات ، فاتقو الظلم مااستطعتم فان العبد ليجىء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجينه فمايزال عبد يجىء فيقول رب إن فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لايبقى له من حسناته شىء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم ليحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ماأرادوا[2] » وكذلك الذنوب . ولما نزل قوله تعالى ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير يارسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال « نعم ليكررون عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه[3] » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد . فأعظم بشدة يوم لايسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم ، قال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غبرا بهما » قال : قلنا : مابهما ؟ قال « ليس معهم شىء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لاينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه ، حتى اللطمة » قلنا : وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما . فقال « بالحسنات والسيئات[4] » فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد بأخذ أموالهم

---

(١) حديث « ياأباذر أتدرى فيم ينتطحان » قلت : لا ، قال « ولكن ربك يدرى وسيقضى بينهما » أخرجه أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبى ذر .

(٢) حديث ابن مسعود « إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بمادون ذلك المحقرات وهى الموبقات ... الحديث » وفى آخره « وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة ... الحديث » رواه أحمد والبيهقى فى الشعب مقتصرا على آخره « إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلا ... الحديث . وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر « إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم » ، (٣) حديث : لما نزل قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير : يارسول الله أيكرر علينا ماكان بيننا ... لحديث . أخرجه أحمد واللفظ له والترمذى من حديث الزبير وقال حسن صحيح . (٤) حديث أنس « يحشر العباد عراة غبرا بهما » قلنا : ما بهما ؟ قال « ليس معهم شىء ... الحديث » قلت : ليس من حديث أنس وانما هو عبد الله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن وقال « غرلا » مكان « غبرا » .

والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن مابين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة اليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد ، كما روى عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: مايضحكك يارسول الله بأبى أنت وأمى؟ قال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى، فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته قال : يارب لم يبق من حسناتى شىء فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شىء قال : يارب يتحمل عنى أوزارى » قال : وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال « إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم » قال « فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال : لمن أعطانى الثمن ، قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه ، قال : وما هو ؟ قال عفوك عن أخيك، قال : يارب إنى قد عفوت عنه . قال الله تعالى :خذ بيد أخيك فأدخله الجنة» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين[1] » وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتفكر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفى عنك وأيقنت بسعادة الأبد، كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ! أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له اليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال : عليك لعنتى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تغضب الملائكة لغضب الله عز وجل فيقولون : وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ،وعند ذلك تتناول اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك : لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا . وتنادى الملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان

---

(١) حديث أنس : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر : ما أضحكك يارسول الله بأبى أنت وامى ؟ قال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العالمين... الحديث بطوله اخرجه ابن ابى الدنيا فى حسن الظن بالله والحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لايسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله اوطلبا للسكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم ؟ فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قوله تعالى ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ وفى قووله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمت وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشى على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فاحسست بحدته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر اليهم كيف ينتكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم وتعلو أرجلهم ، فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه ؛ فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد اليه وأنت مثقل الظهر باوزارك ، تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول « يارب سلم سلم » والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت اليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لوزل لك قدمت ولم ينفعك ندمك ، فناديت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فياليتنى قدمت لحياتى ؛ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، ياليتنى كنت ترابا ، ياليتنى كنت نسيا منسيا ، ياليت أمى لم تلدنى ، وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادى المنادى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ، فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولا وفزعا ورعبا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال « فانها مثل شوك السعدان غير انه لايعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو[1] » وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله

---

(١) حديث « ينصب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أول من يجيز » متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث طويل .

صلى الله عليه وسلم « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن فى الشفاعة[1] » وذكر إلى آخر الحديث: وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال « ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على ابهام قدمه فيضيء مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام » ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم « ومنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتصيب جوانبه النار» قال « فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل[2] » وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وأن جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتى وإنى لأقول يارب سلم يارب سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير ».

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره فى الدنيا ،فإن الله لايجمع بين خوفين على،فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة. ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فاذا من الخوف فى شيء ! بل من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه : فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته ، وأبعد من رقة النساء خوف الحمق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم. فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن ، فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه ! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول « لا إله إلا الله» صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى وله معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو

---

(١) حديث أبى سعيد « يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف ...الحديث» متفق عليه مع اختلاف ألفاظ (٢) حديث ابن مسعود « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » قال :وذكر الحديث إلى ذكر سجون المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدى والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا .

(٣) حديث أنس « الصراط كحد السيف ــ أوكحد الشعرة ...الحديث» أخرجه البيهقى فى الشعب وقال هذا إسناد ضعيف قال وروى عن زياد النميرى عن أنس مرفوعا « الصرط كحد الشعرة ــ أوكحد السيف» قال وهى رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه . فإن عجزت ذلك كله فكن محبا لرسول الله ﷺ حريصا على تعظيم سننه ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن من شفاعته أو شفاعتهم فتنجوا بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه ، فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة ، وذلك بأن لاتحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبأ ولايته فى عباده فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ولا تستصغر معصية أصلا فان الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ، ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه . ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه .

وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة ، قال الله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ روى عمرو ابن العاص : أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فانهم عبادك ﴾ ثم رفع يديه وقال «أمتى أمتى » ثم بكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد فسله مايبكيك ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال ياجبريل اذهب إلى محمد فقل له إن سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك[(١)] وقال ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى عامة[(٢)] » وقال ﷺ «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر» وقال ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الأرض وأنا أول شافع وأول مشفع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه[(٣)] » وقال ﷺ « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة[(٤)] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى ، فأقول : يارب أمتى فيقول الله عز وجل : يامحمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول : يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم

---

(١) حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﷺ (رب إنهن أظللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وقول عيسى ﷺ (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ثم رفع يديه ، ثم قال « أمتى أمتى » ثم بكى ... الحديث . وفيه : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سترضيك ولا نسوءك فى أمتك ، قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ . (٢) حديث « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ...الحديث» وفيه « وأعطيت الشفاعة» متفق عليه حديث جابر «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى كعب قال الترمذى حسن صحيح . (٣) حديث «أنا سيد ولد آدم ولا فخر . . الحديث» أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى . (٤) حديث «لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبى هريرة .

إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يامحمد ما تركت النار لغضب ربك فى أمتك من بقية [(١)]» وقال ﷺ «إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر [(٢)]» وقال أبو هريرة . أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد المرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلك ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض . عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا، فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولم يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله . فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون . أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول لهم : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون : ياموسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس أشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه . فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام . فيأتون عيسى فيقولون : ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد أشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام : إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد ﷺ . فيأتونى فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال . يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى يارب ، فيقال : يامحمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب » ثم قال «والذى نفسى بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى [(٣)]» وفى حديث آخر : هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله فى الكواكب هذا ربى، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا، وقوله

---

(١) حديث ابن عباس « ينصب للانبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا . . . الحديث» أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفى إسناده محمد بن ثابت والبنانى ضعيف (٢) حديث «إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث بريدة بسند حسن .

(٣) حديث أبى هريرة : أن النبى ﷺ أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس ... الحديث بطوله فى الشفاعة ، قال وفى حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم .

إنى سقيم . فهذه شفاعة رسول الله ﷺ ، ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاحتى قال رسول الله ﷺ « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر [١] » وقال ﷺ يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله [٢] » وقال أنس : قال رسول الله ﷺ « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يافلان هل تعرفنى ؟ فيقول : لا والله ما ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذى مررت بى فى الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفع لى بها عند ربك ! فيسأل الله تعالى ذكره ويقول : إنى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال : هل تعرفنى ، فقلت : لا من أنت ، فقال : أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى فيه ، فيشفعه الله فيه فيخرج من النار [٣] » وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر [٤] » وقال رسول الله ﷺ « إنى أقوم بين يدى ربى عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى [٥] » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ، وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم ﷺ وقال « قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر [٦] » .

صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن

---

(١) حديث « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر » رويناه فى جزء أبى عمرو بن السماك من حديث أبى أمامة إلا أنه قال « مثل أحد الحيين ربيعة ومضر » وفيه : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبى الجدعان « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من تميم » قالوا : سواك قال « سواى » قال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

(٢) حديث « يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد « إن من أمتى من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة . . . الحديث » وقال حسن وللبزار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة » . (٣) حديث أنس « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يافلان هل تعرفنى؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذى مررت بى فى الدنيا يوما فاستسقيتنى شربة فسقيتك . . . الحديث » فى شفاعته فيه وإخراجه من النار . أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف . (٤) حديث أنس « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا . . . الحديث » أخرجه الترمذى . وقال حسن غريب . (٥) حديث « فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش . . . الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن غريب صحيح . (٦) حديث ابن عباس : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا : إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا . . . الحديث . رواه الترمذى وقال غريب .

نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا . قال أنس: أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له : يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آية أنزلت على آنفا » وقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم — إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ثم قال « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال « إنه نهر وعدنيه ربى تعالى فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء (١) » وقال أنس : قال رسول الله ﷺ « بينما أنا أسير فى الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت : ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر (٢) » وقال كان رسول الله ﷺ يقول « ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء — أو مثل ما بين المدينة وعمان — (٣) » وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله ﷺ « هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ، شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان (٤) » وقال ثوبان — مولى رسول الله ﷺ - قال رسول الله ﷺ « إن حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين » فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال « هم الشعث رءوسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد (٥) » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى أبواب السدد إلا أن يرحمنى الله . لا جرم لا أدهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ . وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال « والذى نفس محمد لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية ، من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وأيله ، ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل (٦) » وعن سمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لكل نبى حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثر واردة (٧) » فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغترا وهو يظن أنه راج ، فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن

---

(١) حديث أنس : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله لم ضحكت ؟ فقال « آية نزلت على آنفا » وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أعطيناك الكوثر) رواه مسلم . (٢) حديث أنس « بينما أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس : لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء ... الحديث . وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبى ﷺ .

(٣) حديث أنس « مابين لابتى حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء أو مثل مابين المدينة وعمان » رواه مسلم .

(٤) حديث ابن عمر : لما نزل قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قال رسول الله ﷺ « هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ... الحديث » أخرجه الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الدارمى فى مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف .

(٥) حديث ثوبان « إن حوضى مابين عدن إلى عمان البلقاء ... الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه .

(٦) حديث أبى ذر : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال « والذى نفسى بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ... الحديث » رواه مسلم . (٧) حديث سمرة « إن لكل نبى حوضا وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال غريب قال روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبى ﷺ مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

وليس من الراجين فى شىء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمق . نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

القول فى صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال : دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرءاء من سوء المنقلب . وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ فأسكنوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير ، شرابهم الحميم ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم . أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها : يامالك قد حق علينا الوعيد يامالك قد أثقلنا الحديد يامالك قد نضجت منا الجلود يامالك أخرجنا منها فانا لا نعود . فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهون فاخسئوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى مانهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون وعلى مافرطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطربون بين غواشيها ، تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون ! فكيف بك لو نظرت اليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم ، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم . فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر اعضائهم . هذا بعض جملة احوالهم . وانظر الآن فى تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا فى أودية جهنم وشعابها فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم

« إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله[(١)] » وقال على كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ « تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادى الحزن » قيل يارسول الله وما وادى ـ أو جب ـ الحزن قال « واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين[(٢)] » فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن فى عمق الهاوية فإنه لاحد لعمقها كما لاحد لعمق شهوات الدنيا ، فكما لاينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ « أتدرون ماهذا؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال « هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاما إلى أن انتهى إلى قعرها[(٣)] » .

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لايظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب عن كل فى النار كيفما كان ، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ماهو فيه . قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه[(٤)] » فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فإن نار الدنيا لاتناسب نار جهنم . ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات ! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه . وعن هذا عبر فى بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا[(٥)] » بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة[(٦)] » وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها فى نفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فأشد ماتجدونه فى الصيف من حرها وأشد ماتجدونه فى الشتاء من زمهريرها[(٧)] » وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس فى الدنيا من الكفار فيقال

---

(١) حديث « إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لاينتهى الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله » لم أجده هكذا بجملته وسيأتى بعده ماورد فى ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على: تعوذوا بالله من جب الحزن ـ أو وادى الحزن ... الحديث ؛ رواه ابن عدى بلفظ « وادى الحزن » وقال باطل وأبو نعيم والأصبهانى بسند ضعيف ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ « جب الحزن » وضعفه ابن عدى تقدم فى ذم الجاه والرياء. (٣) حديث أبى هريرة : كنا مع رسول ﷺ فسمعنا وجبة ... الحديث » وفيه « هذا حجر أرسل فى جهنم ... الحديث » رواه مسلم . (٤) حديث « ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار ... الحديث » متفق عليه من حديث النعمان بن بشير . (٥) حديث « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا » ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس « وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف « وما وصلت إليكم » حتى أحسبه قال « نضحت بالماء فتضىء عليكم » (٦) حديث « أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ... الحديث » تقدم . (٧) حديث « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا ، فأذن لها بنفسين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة.

اغمسوه فى النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس ضرا فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة اغمسة ثم يقال له : هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول لا وقال أبو هريرة : لو كان فى المسجد مائة ألف او يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا . وقد قال بعض العلماء فى قوله ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم إلا ألقته عند أعقابهم .

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق . قال ابو سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ « لو ان دلوا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض[1] » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾ وقال تعالى ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ﴾ وقال تعالى ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ « لو ان قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم[2] » فكيف من يكون طعامه ذلك؟ وقال أنس : قال رسول الله ﷺ « ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عقابه ومن جهنم ، فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى انتم فيها طيبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم[3] » وقال ابو الدرداء : قال رسول الله ﷺ « يلقى على اهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع مافى بطونهم فيقولون ادعو خزنة جهنم ، قال فيدعون خزنة جهنم ﴿ ان ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ قال « فيقولون ادعو مالكا فيدعون فيقولون يامالك ليقض علينا ربك . قال « فيجيبهم إنكم ماكثون[4] » قال الأعمش : انبئت ان بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا احد خير من ربكم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون ﴾ قال : فيجيبهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال :

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى « لو أن دلوا من غساق ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض » أخرجه الترمذى وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف . (٢) حديث ابن عباس «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم ... الحديث» أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٣) حديث أنس «ارغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم... الحديث» لم أجد له إسناد (٤) حديث أبى الدرداء «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام ... الحديث » أخرجه الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء ، قال الدارمى : والناس لا يعرفون هذا الحديث ، وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أبى الدرداء قوله .

فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل . وقال أبو أمامة قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ ويسقى من من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ قال « يقرب اليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه . فإذا شربه قطع أمعائه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم (١) .

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة ! قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه ـ يعنى أشداقه ـ فيقول أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ... الآية ﴾(٢) وقال الرسول ﷺ « إن فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له(٣) » ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى » قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « ضرس الكافر فى النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث(٤) » وقال رسول الله ﷺ «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه(٥) »وقال عليه السلام «إن الكافر ليجر لسانه فى سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس(٦)» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم . قال الحسن فى قوله تعالى ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا .

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور ، فان ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (٧) » وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك (٨) » قال محمد بن

---

(١) حديث أبى أمامه فى قوله تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه) قال يقرب إليه... الحديث أخرجه الترمذى وقال غريب. (٢) حديث أبى هريرة «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع ... الحديث» أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث « ان النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة ... الحديث » أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارس بن جزء .
(٤) حديث أبى هريرة « ضرس الكافر فى النار مثل أحد ... الحديث» رواه مسلم . (٥) حديث «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه» أخرجة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حسن صحيح غريب .
(٦) حديث « ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس» أخرجه الترمذى من رواية أبى المخارق عن ابن عمر وقال غريب وأبو المخارق لايعرف . (٧) حديث «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام... الحديث» أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . (٨) حديث أنس «يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف .

كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ فيقول الله تعالى مجيباً لهم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴾ فيقولون ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ثم يقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس رضى الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت(١) » وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتنى كنت ذلك الرجل ، ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا فى زاوية وهو يبكى فقيل له : لم تبكى ؟ فقال : أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى .

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة ، وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له ، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ؟ فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شىء من نعيم الدنيا ولذاتهم ، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها ، فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذ خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم (٢) » وقال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود : إلهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على نارك ؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟ .

فانظر يا مسكين فى هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾

---

(٢) حديث « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح » أخرجه البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد وقد تقدم . (٣) حديث « يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا روائحها ... الحديث » رويناه فى الأربعين لأبى هدبة عن أنس وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك .

ولعمرى الإشارة به يوم القيامة ، بل فى أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء . فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك !

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ﴾ فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى . فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم ، فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا فى أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه . فياعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويتهنأ بعيش دونها ؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها

ماالتصرم والتنغص من ضرورته ! كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل مايشتهون ، وهم كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله مالا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون . قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « ينادى مناديا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[1] ».

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان ، واقرأ من قوله تعالى ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ إلى آخر سورة الرحمن ، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها ، وتأمل أولا عدد الجنان قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ قال « جنتان من فضـــة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما , وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن[2] » ثم انظر إلى أبواب الجنة فانها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى.

قال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان اهل الجهاد دعى من باب الجهاد » فقال ابو بكر رضى الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من ايها دعى فهل يدعى احد منها كلها ؟ قال « نعم ، وارجوان تكون منهم[3] » وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه انه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ثم قال ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما امروا به فشربوا منها فأذهبت مافى بطونهم من أذى أو بأس ،ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير اشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان اهل الدنيا بالحبيب يقدم من غيبة ، يقولون له ابشر اعد الله لك من الكرامة كذا ، قال: فينطلق غلام من اولئك الولدان إلى بعض ازواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان — باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا — فتقول : انت رأيته ؟ فيقول انا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فاذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فاذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح احمر واخضر واصفر من كل لون ،ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فاذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم ان يذهب بصره ، ثم يطأطىء رأسه فاذا ازواجه ﴿ وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة﴾ ثم اتكأ فقال ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى

---

(١) حديث أبى هريرة « ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا.. الحديث » أخرجه أبى هريرة وأبى سعيد . (٢)حديث « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما...الحديث» متفق عليه من حديث أبى موسى (٣) حديث أبى هريرة « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة ...الحديث» متفق عليه .

لولا أن هدانا الله ﴾ ثم ينادى مناد: تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله ﷺ « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك [(١)] » .

ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها ، فقد قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى افق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا : يارسول الله تلك منازل لأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين [(٢)] » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما [(٣)] » وقال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ « ألا أحدثكم بغرف الجنة » قال : قلت بلى يارسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأمنا قال « إن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال : قلت يارسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال » لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وادم الصيام وصلى بالليل والناس نيام » قال : قلنا يارسول ومن يطيق ذلك ؟ قال « امتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقى أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد افشى السلام ومن اطعم اهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد اطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى عشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام [(٤)] » يعنى اليهود والنصارى والمجوس ، وسئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ ومساكن طيبة فى جنات عدن ﴾ قال « قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت احمر ، فى كل دار سبعون بيتا من زمرد ، أخضر فى كل بيت سرير ، على كل سرير سبعون فراشا من كل فرش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة . على كل مائدة سبعون لونا من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن فى كل غداة ـ يعنى من القوة ـ ما يأتى على ذلك اجمع [(٥)] » .

---

(١) حديث « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٢) حديث أبى سعيد « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكوكب ... الحديث » متفق عليه وقد تقدم . (٣) حديث « إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد (٤) حديث جابر « ألا أحدثكم بغرف الجنة » قلت . يارسول الله بأبينا أنت وأمنا قال « إن فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر ... الحديث » أخرجه أبونعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث : سئل عن قوله تعالى (ومساكن طيبة فى جنات عدن) قال « قصور من لؤلؤ .. الحديث أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة والنصيحة والآجرى فى كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين فى هذه الآية ولا يصح والحسن ابن خليفة لم يعرفه ابن أبى حاتم ، والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة على قول الجمهور .

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك[١] ، وسئل ﷺ عن تراية الجنة فقال « درمكة بيضاء مسك خالص[٢] » وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « من سره » أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخر فليتركها فى الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا[٣] ، وأنهار الجنة تنفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك[٤] » ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت عليه أهل الدنيا جميعها لكان مايحليه الله عز وجل به أفضل من حلية الدنيا جميعها[٥] » وقال أبوهريرة : قال رسول الله ﷺ «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[٦] ، وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ أقبل أعرابى فقال : يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى أن فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ « ماهى ؟ » قال : السدر فإن لها شوكا ، فقال « قد قال الله تعالى ﴿ فى سدر مخضود ﴾ يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمره ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعون لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر[٧] » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للغلام : انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: ياجرير تواضع لله فإن من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت : لا أدرى ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضا ، ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال : ياجرير لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده ، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟ قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة وإنما تفصيله فى الأخبار ؛ فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال « من يدخل الجنة ينعم لا ييأس لا تبلى

---

(١) حديث أبى هريرة « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك أخرجه الترمذى بلفظ «وملاطها المسك» وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه بإسناد صحيح . (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال «درمكة بيضاء مسك خالص» أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبى هريرة «من سره أن يسقيه الله الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا» أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن وللنسائى بإسناد صحيح «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة» (٤) حديث أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك » أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة (٥) حديث لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله به فى الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعا» أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة بإسناد حسن (٦) حديث إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) حديث أبى أمامة : أقبل أعربى فقال يارسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية قال «ماهى» قال السدر ... الحديث . أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلا من غير ذكر لأبى أمامة .

ثيابه ولا يفنى شبابه ، فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١) » وقال رجل : يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلق أم تنسج تنسج ؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله ﷺ « مم تضحكون ؟ من جاهل سأل عالما » ثم قال رسول الله ﷺ « بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين (٢) » وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « إن أول زمرة تلج الجنة صورة القمر ليلة البدر لايبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لااختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيه » وفى رواية « على كل زوجة سبعون حلة (٣) » وقال ﷺ فى قوله تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب (٤) » وقال ﷺ « الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لايراهم الآخرون (٥) » رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس : الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال أبو سعيد الخدرى: قال رسول الله ﷺ فى قوله ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ قال : « مابين الفراشين كما بين السماء والأرض (٦) ».

صفة طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة ، وقد قال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة ـ يعنى على الصراط ـ؟ فقال « فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد الحوت » قال : فما غداؤهم على أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسبيلا » فقال : صدقت ٧) وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟وقال لأصحابه : إن أقر لى بها خصمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم

---

(١) حديث أبى هريرة« من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس لاتبلى ثيابه .. الحديث» رواه مسلم دون قوله «فى الجنة مالا عين رأت ... الخ » فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة « قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت .. الحديث» (٢) حديث : قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقا أم تنسج نسجا ... الحديث؛ أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو . (٣) حديث أبى هريرة « أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث : فى قوله تعالى (يحلون فيها من أساور من ذهب) قال « إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضىء مابين المشرق والمغرب »أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية ، قال لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد . (٥)حديث الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستين ميلا...الحديث عزاه المصنف للبخارى وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى . (٦) حديث أبى سعيد فى قوله تعالى (وفرش مرفوعة) قال« مابين الفراشين كما بين السماء والأرض » أخرجه الترمذى بلفظ«ارتفاعهما لكما بين السماء والأرض وقال غريب لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد . (٧) حديث ثوبان : جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال : فمن أول الناس إجازة ؟ يعنى على الصراط فقال « فقراء المهاجرين» قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد النون ... الحديث » رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره .

والمشرب والجماع » فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله ﷺ «حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر[١] » وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا[٢] » وقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي . قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله ؟ قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر[٣] وقال عبد الله ابن عمر في قوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بصحاف ﴾ قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشرب به المقربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : في قوله تعالى ﴿ ختامه مسك ﴾ قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

صفة الحور العين والولدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها[٤] » يعني الخمار ؛ وقال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال « تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها وراء ذلك[٥] » وقال أنس : قال أنس : قال رسول الله ﷺ « لما أسري بي دخلت في الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن: السلام عليك يارسول الله ، فقلت: ياجبريل ما هذا النداء؟ قال: هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا » وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى حور مقصورات في الخيام[٦]

---

(١) حديث زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود فقال : ياأبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... الحديث . وفيه حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك » أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح (٢) حديث ابن مسعود «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا» أخرجه البزار بإسناد فيه ضعيف (٣) حديث حذيفة « إن في الجنة طيرا أمثال البخاتي ... الحديث »غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح « إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى في شجر الجنة » قال أبو بكر : يارسول الله إن هذه الطير ناعمة قال أكلنا أنعم منها» قالها ثلاثا «وإني أرجو أن تكون ممن يأكل منها »وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال « فيه طير أعناقها كأعناق الجزر»قال عمر : إن هذه لناعمة ... الحديث ، وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن (٤) حديث غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ... الحديث» أخرجه البخاري من حديث أنس (٥) حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) قال «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ... الحديث» أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد باسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلا دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة ... الحديث» ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين حديث أبي هريرة « لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقها من وراء اللحم (٦) حديث أنس « لما أسري بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر ... الحديث » وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه «فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط» لم أجده هكذا بتمامه وللترمذي =

وقال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ قال : من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد، وقال الأوزاعى ﴿ فى شغل فاكهون ﴾ قال شغلهم افتضاض الأبكار وقال رجل : يارسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال « يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم [1] » وقال عبد الله بن عمر: إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله ﷺ « إن الرجل من أهل ليتزوج خمسمائة احوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا [2] » وقال النبى ﷺ «إن فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكن له [3]. وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « إن الحور فى الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام [4] وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى ﴿ فى روضة يحبرون ﴾ قال السماع فى الجنة وقال أبو أمامة الباهلى: قال رسول الله ﷺ « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه [5] » .

بيان أوصاف جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار

روى أسامة بن زيد أن النبى ﷺ قال لأصحابه «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لاخطر لهاهى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسنة جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام أبدا ونضرة فى دار عالية بهية سليمة » قالوا نحن المشمرون لها يارسول الله قال « قولوا إن شاء الله تعالى» ثم ذكر الجهاد وحض عليه [6] وجاء رجل إلى النبى ﷺ وقال : هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى ؟ قال « إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت » وقال له رجل : إن الإبل تعجبنى فهل فى الجنة من إبل ؟

= من حديث على « إن فى الجنة لمجتمعا من للحور العين يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له » وقال غريب ولأبى الشيخ فى كتاب العظمة حديث ابن أبى أوفى بسند ضعيف « فيجتمعن فى كل سبعة أيام فيقلن بأصوات ...الحديث» (١) حديث : قال رجل يارسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ فقال« يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم » أخرجه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس» يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع » فقيل أو يطيق ذلك قال« يعطى قوة مائة» . (٢) حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا» أخرجه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين وفى كتاب العظمة من حديث ابن أبى أوفى إلا أنه قال «مائة حوراء» ولم يذكر فيه عناقه لهن ، وإسناده ضعيف ، وتقدم قبله بحديث (٣) حديث « إن فى الجنة سوقا مافيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ... الحديث» أخرجه الترمذى فرقة فى موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين . (٤) حديث أنس « إن الحور فى الجنة يتغنين فيقلن : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام » أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر قال البخارى يتكلمون فيه وقال ابن عدى أرجوا أنه لا بأس به . (٥) حديث أبى أمامة « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه» أخرجه الطبرانى بإسناد حسن . (٦) حديث أسامة بن زيد: ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لاخطر لها ... الحديث » أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

فقال ياعبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها مااشتهت نفسك ولذت عيناك(١) » وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي، يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة(٢) » وقال رسول ﷺ « إذا استقر اهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول يا أخي تذكر يوم كذا وكذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا(٣) » وقال رسول الله ﷺ « أن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة اذرع(٤) وقال رسول الله ﷺ « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون الف خادم واثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإن عليهم التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « نظرت إلى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كخف البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ، وإذا فيها جارية فقلت ياجارية لمن أنت ، فقالت لزيد ابن حارثة ، وإذا في الجنة مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر قلب بشر(٦) وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده ثم قال تكلمي فقالت ﴿ قد افلح المؤمنون ﴾ فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا .

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لاتسفه الأحلام ولاتصدع منها الرءوس ، وان فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء . كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار ، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد ، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المراة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى

---

(١) حديث جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له هل في الجنة خيل فانها تعجبني ... الحديث : أخرجه الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المسعودي مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسلا قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى المديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على بن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة . (٢) حديث أبي سعيد « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحده » أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب ، قال . وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد ، انتهى ، ولأحمد من حديث لأبي رزين « يلد ويلم مثل لذاتكم في الدنيا ويتلذذن بكم غير أن لاتوالد » (٣) حديث « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا » أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال : لانعلمه يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس اه . والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلا دون ذكر أنس . (٤) حديث أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله « بيض جعاد » ودون قوله « على خلق آدم » إلى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا « أهل الجنة جرد مرد كحل » وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا » (٥) حديث « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد منقطعا من أوله إلى قوله « وإن عليهم التيجان » ومن هنا بإسناده أيضا وقال لانعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٦) حديث « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ... الحديث » رواه رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هرون العبدي عن أبي سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قدطهرالله الأخلاق من السوء والأجسادمن الموت ، لايمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح ، مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما إنه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد لهفى فى بصره وملكه مسيرة مائة عام فى قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له فى بصره حتى ينظر أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها ، فى كل صحفة لون ليس الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله ، وإن فى الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار فى كل دار سبعون ألف بيت ليس فيهما صدع ولا ثقب . وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشى . وقال سعيد ابن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة ، سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة. وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها أو يسارها سبعون ألف وصيفة وهى تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟ وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت السنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة . وقال أيضا : فى طلب الدنيا ذل النفوس ، وفى طلب الآخرة عز النفوس . فياعجبا لمن يختار المذلة فى طلب ما يفنى ويترك العز فى طلب ما يبقى !

صفة الرؤيا والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله تعالى ، وهى اللذة الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة ـ وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة . قال جرير بن عبدالله البجلى كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ [1] وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صهيب قال : قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا: ماهذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ » قال « فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه عز وجل فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر اليه[2] » وقد روى حديث الرؤيا لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء : وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق واضحا فلا ينبغى أن تكون همة العبد من الجنة بشىء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى .

---

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال « انكم ترون ربكم ... الحديث» هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف .

(٢) حديث صهيب فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) رواه مسلم كما ذكره المصنف

نختم الكتاب بباب فى سعة رحمه الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل (١) وليس لنا من اعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال عز وجل ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وقال ﴿ تعالى ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾ .

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره من ما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعويض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به،ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه . فقد قال رسول الله ﷺ « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (٢) » ويروى أنه « إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة (٣) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا (٤) » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٥) » وقال ﷺ « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى (٦) » وقال

---

(١) حديث : كان النبى ﷺ يحب التفاؤل . متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث « ويعجبنى الفأل الصالح والكلمة الحسنة » ولهما من حديث أبى هريرة « وخيرها الفأل » قالوا : وما الفأل ؟ قال « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » (٢) حديث « إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان (٣) حديث « إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه إن رحمتى سبقت غضبى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى » لفظ البخارى وقال مسلم « كتب فى كتابه على نفسه إن رحمتى سبقت غضبى » (٤) حديث « يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا أخرجه مسلم من حديث أبى موسى « إذا كان يوم القيامة دفع يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك فى النار » ولأبى داود « أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة ... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبى أمامة أيضا « يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرجون له سجدا فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه على بن زيد بن جدعان . (٥) حديث « يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف » أخرجه الطبرانى من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٦) حديث « ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم ... الحديث » أخرجه أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقام[1] » وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ماأغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فاذا رأى ذلك الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا » ثم قرأ رسول الله ﷺ (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين[2]) وقال رسول الله ﷺ «لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها[3]» وقال جابر بن عبدالله من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته يسيرا ثم يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : ياموسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما ، فيقول الذى عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذى تلكأ حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لاتردنى إليها بعد ماأخرجتنى منها ،فيأمر بهما إلى الجنة وقال رسول الله ﷺ « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى[4]» ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) فقال الأعرابى : فوالله ماأنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقه . وقال الصنابحى : دخلت على عبادة بن صامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال : مهلا... لم تبكى ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلى حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى ،سمعت رسول الله ﷺ يقول «من شهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم عليه النار[5]» وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ، ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لايارب . فيقول أفلك عذر فيقول لايارب ، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك

---

(١) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى أو خافنى فى مقام » أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب . (٢) حديث إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين . قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار ... الحديث» فى إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) أخرجه النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح . (٣) حديث « الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبى إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فألصقته ببطنها فأرضعته (٤) حديث ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة ياأمة محمد أما ماكان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى » رويناه فى سباعيات أبى الأسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة .(٥) حديث الصنابحى عن عبادة بن الصامت «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله على النار » أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر .

اليوم ، فيخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله » فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات . فيقول إنك لاتظلم » قال «فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة » قال « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء(١) »وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط « إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا مما أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به» فكان أبو سعد يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوه إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) قال فيقول شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا فيلقيهم فى نهر فى الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى حميل السيل الا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر مايكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلا الظل ابيض » قالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال «فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم اهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين ادخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رايتم فهو لكم فيقولون ربنا اعطيتنا مالم تعطه احدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندى ماهو أفضل من هذا فيقولون ياربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال «عرضت على الامم يمر النبى ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الافق ، فقيل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا ، فقيل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «هم الذين لايكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة فقال: ادع اللهم أن يجعلنى منهم يارسول الله فقال «أنت منهم» ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « سبقك بها عكاشه(٣)» وعن عمر الأنصارى قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يارسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال « لم يحدث إلا الخير إن ربى عز وجل وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لا حساب عليهم وإنى سألت ربى فى هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجدا واجدا كريما فأعطانى مع كل واحد من

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس يوم القيامة فينتشر له تسعة وتسعون سجلا » فذكر حديث البطاقة ابن ماجة والترمذى وقال حسن غريب (٢) حديث «إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ... الحديث» فى إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة « فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه فى الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبى سعيد .

(٣) حديث ابن عباس عرضت على الأمم يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد... الحديث » إلى قوله «سبقك بها عكاشة » رواه البخارى .

السبعين ألفا سبعين ألفا » قال « يارب وتبلغ أمتى هذا ؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب (١) » وقال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ « عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، فقلت ياجبريل وإن زنى ؟ قال: نعم وإن زنى، قلت وإن سرق وإن زنى ،قال وإن سرق وإن زنى قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق ؛ وإن زنى وإن شرب الخمر (٢) » وقال أبو الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت: وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وإن رغم أنف أبى الدرداء (٣) » وقال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجلا من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار (٤) » وروى مسلم فى الصحيح عن أبى بردة :أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبى ﷺ قال « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذى لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ خلف له(٥) وروى أنه وقف صبى فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد ـ فى يوم صائف شديد الحر ـ فبصرت به امرأة فى خباء القوم فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت : ابنى ابنى فبكى الناس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ » قالوا : نعم قال ﷺ « فان الله تبارك أرحم بكم جميعا من هذه بابنها (٦) » فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وأما أوردنا فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه سعة وجوده ورحمته .

---

(١) حديث عمرو بن حزم الأنصارى : تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثا لايخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه « إن ربى وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا لاحساب عليهم » وفيه « أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا » أخرجه البيهقى فى البعث والنشور ولأحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر « فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر فقال عمر :فهلا استزدته ؟ فقال « قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر : فهلا استزدته ؟ قال « استزدته فأعطانى هكذا » وفرج عبد الله بن أبى بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحثى عليه وفيه موسى بن عبيدة الربذى ضعيف (٢) حديث أبى ذر « عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك بأنه من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ... الحديث » متفق عليه بلفظ « أتانى جبريل فبشرنى » وفى رواية لهما « أتانى آت من ربى » . (٣) حديث ابى الدرداء : قرأ رسول الله ﷺ (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت « وان زنى وان سرق ... الحديث » رواه أحمد بإسناد صحيح . (٤) حديث « اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار » رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه وقد تقدم. (٥) حديث أبى بردة : أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا » رواه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك. (٦) حديث: وقف صبى فى بعض المغازى لو ينادى عليه فيمن يزيد ، فى يوم صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة ... الحديث . وفيه « ارحم بكم جميعا من هذه بابنها » متفق عليه مختصرا مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى فإذا امرأة من السبى تسعى اذ وجدت صبيا فى السبى : أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا رسول الله ﷺ « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ » قلنا : لا والله وهى تقدر على أن لاتطرحه ، فقال رسول الله ﷺ « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » لفظ مسلم وقال البخارى : فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسعى اذا وجدت صبيا ... الحديث .

والحمد لله تعالى عودا على بدء والصلاة والتسلم على سيدنا محمد فى كل حركة وهدء .

يقول مؤلفه عبد الرحيم بن الحسين العراقى : انى أكملت مسودة هذا التأليف فى سنة ٧٦١ ، وأكملت تبييض هذا المختصر منها فى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى .

فهرس الجزء الرابع

من إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى

صحيفة

صحيفة

تم الفهرس وبتمامه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

